

الجامعة اللبنانية

مجلة
كلية الآداب والعلوم
(بنغازي)

المجلد الأول

١٩٥٨ - ١٣٧٧

الطبعة الأولى - بنغازي

الفهرس

الرقم الموضوع

١ - ب مقدمة المجلة

- ١ — ليبيا (الاسم ومدلولاته التاريخية) للدكتور محمد عبد الهادي شعيره
- ١٧ — الامدى وكتابه الموازنه للدكتور طه الحاجرى
- ٦٧ — اللغة والمجتمع (راى ومنهج) للدكتور محمود السمران
- ١٨٩ — سيرة السنوسى الكبير
- نقد المصادر وضرورة انشاء مجموعة
- لحفظ تراث الأستاذ الامام السنوسى للدكتور محمد عبد الهادي شعيره
- ٢١٩ — فترة حاسمة من تاريخ المغرب
- موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين فى افريقيا ونقلتهم الى مصر
- ٢٥٩ — النظرية العنصرية (نقد وتحليل) للدكتور احمد الحشاب
- ٢٩٥ — مشكلة الامطار فى ليبيا للدكتور عبد العزيز طريح شرف

باب عرض الكتب ونقدها

- ٣٢٣ — كتاب الاحاطة فى اخبار غرناطة للدكتور طه الحاجرى
- ٣٣٣ — الاستبصار فى عجائب الامصار للدكتور محمد عبد الهادي شعيره
- ٣٣٦ — ذكرى الامام السنوسى الكبير للدكتور محمد عبد الهادي شعيره

مواسم المحاضرات العامة بالجامعة الليبية

(٥٥ - ٥٦) ، (٥٦ - ٥٧) ، (٥٧ - ٥٨)

ليبيا

الاسم ومدلولاته التاريخية

للدكتور محمد عبد الهادي شعيرة

للتسميات الجغرافية معان وملايسات تجعل لها قيمة تاريخية ، ولهذا حرص المؤرخون على الانتفاع بدراسة الأسماء . وهم يسمون استنباط الأخبار من الأسماء بـ **فقه الأسماء** أو **الأونوماستيك** (Onomastique) والأسماء قد يعترها الاندثار كما اندثر في مصر وليبيا كثير من الأسماء اليونانية القديمة التي كانت شائعة أيام اليونان . وقد تنمو مدلولات الأسماء وقد تتضاءل . ومن الأسماء ما ينقلب ويحل محله ضده ، ومنها ما يعبر عن فكرة جغرافية وهكذا .

ونبغي في هذا البحث معرفة ما طرأ على لفظ ليبيا من ناحية فقه الأسماء ، كما نريد أيضا أن نتدرج في مختلف العصور مع مدلولات الاسم التاريخية .

مدلولات بعض الأسماء : فمن الأسماء ما يكون محليا محدودا ثم ينمو ويمتد اطلاقه حتى تسمى به قارة كبيرة مثل اسم إفريقية . ومنها ما يكون اسم قارة ثم يتضاءل حتى يصبح اسما لشعب محدود واقليم معين مثل اسم ليبيا ، وسنرى بالتفصيل كيف تم هذا التطور .

وقد تعدد الأسماء المطلقة على بلد معين ، فتختار كل لغة من لغات الحضارة اسما دون غيره ، فنحن العرب نقول برقة ويقول الفرنج في لغاتهم سيرينايا ، نسبة الى قورينة . وكنا نقول طرابلس الغرب منذ أيام العثمانيين وكان يترجم عنا الفرنج فيقولون طريبوليتانيا وكانت الأبحاث العلمية تذكر اسم ليبيا ، ثم عدل الفرنج منذ الاحتلال الإيطالي الى استعمال اسم ليبيا ثم فضلنا نحن استعمال نفس الاسم . وقد تنقل لغة عن لغة مثال ذلك اسم المغرب فانه أثقل من لغتنا الى اللغات الأوربية .

ومن التسميات ما يعبر عن فكرة معينة ، لتدل على جنس أو لتدل على فكرة عن الجنس . فقد كان الفرنسيون في القرن السابع عشر يطلقون اسم **Barbarie** على بلاد المغرب ، ثم صار المؤلفون الفرنسيون المحدثون يطلقون اسم **Berhérie** على ما أخضعوه من بلاد الشمال الأفريقي دون ما لم يخضعوه . والفرنج انما ورثوا هذه (1) مثل اندريه جوليان ، وجورج مارسيه ، وغيرهما كثير

التسمية عن الرومان وكان الرومان أول من أذاعوها، وكذلك ورثها العرب وحاولوا أن يفسروها بالنسب فقالوا: بر بن قيس أبو البربر. أما البربر فيسمون أنفسهم باسم الأمازيغ (مؤنثة : تمازغت ، وجمعه أمازيغ) والمعنى الرجال الأحرار النبلاء . وقد يجب أن نذيع هذا الاسم إذا سرنا على مبدأ تسمية الناس بأحب أسمائهم إليهم . وهكذا حدث للبربر ما يحدث للأشخاص في القرى والمدن الصغيرة والأسر فيشتهر الرجل باسم غير اسمه الأصلي للتعبير الجماعي عن فكرة معينة . وقد تختار الدول أسماء فتذيع أو تسقط مثال ذلك اطلاق الانجليز على قواتهم في ليبيا : اسم « القوات البريطانية في شمال افريقية » ، ولعل لهم غرضا في العدول عن اسم ليبيا .

ومن الأسماء ما يسقط ليحل محله تقيضه تبعاً للظروف الحضارية . فنحن اليوم تتبع الغرب الأوربي والأمريكي في تسمية بلادنا باسم الشرق ونسبنا بالشرقيين ، لأن بلادنا صارت تقع الآن في شرقي الحضارة (قبل أن يعظم شأن روسيا) ؛ وكذلك كانت برقة ومصر والشام في العصر الروماني والبيزنطي تسمى باسم المشرق (Anatoly) . أما فيما بين ذلك في العصر الذي كانت حضارة الاسلام فيه الحضارة المركزية وكانت بغداد فيه مدينة العالم المتحضر فقد كانت التسميات تطلق بالنسبة لهما ، فكل ما يقع شرقي الرافدين كان يسمى مشرقا ، وما يقع غربيه يسمى مغربا . فكانت البلاد الاسلامية من الفرات الى المحيط الأطلسي تسمى بالمغرب وكان تسمى أيضا بحسب قول جغرافي في القرن الرابع الهجري بالأقاليم العربية .

ومن قبيل التسميات الخاصة ما يراد به التعبير عن فكرة ، مثال ذلك أن أستاذا كبيرا تلمذنا عليه خصص مجلدا للتاريخ الاسلامي وجعل عنوانه Les Barbares بمعنى الأعاجم أو البرابرة على أساس أن الرومان كانوا يسمون غير الرومان بهذا الاسم . ومن الأسماء ما يعبر عن سمة جغرافية بارزة ، كاطلاق اسم بلاد الأطلس على « افريقية الشمالية الفرنسية التي تتشامخ في أرجائها جبال الأطلس . ومثال آخر هو تسمية نفس هذا المغرب باسم افريقية الصغرى Afrique Mineure باعتبارها ركنا مستقلا أو قارة داخل قارة أكبر . وقد ورد مثيل لهذه التسمية عند ابن خلدون (ح ٦ ص ١٠١) « جزيرة المغرب » فتشابهت التسميات أو تقاربت مع تباعد العصور . اسم ليبيا وكيف استقبل حديثا واسم ليبيا معروف منذ أقدم الأزمنة ، وشعب البربر (١) أنظر : محمد عبد الهادي شعيرة : تقسيمات اقليمية في العصر العباسي الاول، مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق (الاسكندرية) ١٩٤٤ ، وأنظر أيضا المقدسي (ق ٤ هـ) ص ٨٧

أو شعب الأمازيغ هو الجنس الليبي النازل من حدود مصر الى المحيط . واسم ليبيا مشهور في الأبحاث التاريخية في كل العصور قديمها وحديثها ، سواء عندما كان يطلق على كل قارة افريقية أو عندما صار يطلق منذ أيام الرومان على منطقة معينة . وقد عرف المسلمون الاسم فيما كتبوا وكان له عندهم مدلولات معينة .

غير أن الاحتلال الإيطالي الذي ابتليت به البلاد منذ بضعة عقود من السنين اقترن باسم ليبيا . وكان طبعيا أن يحرص الوطنيون المجاهدون في داخل البلاد وفي مهاجرهم على أن يلتزموا التسمية القديمة ، فكانوا يقولون طرابلس وبرقة ، ولعلمهم وجدوا في هذه التسمية الثنائية تأكيدا لتضامن شطرى البلاد ، وفعلا استغل جيش التحرير الوطنى هذه التسمية الثنائية وتمسك بها الى أن جرى اسم ليبيا على الألسنة وأصبح عرفا دوليا ، واعترفت الدول باستقلال ليبيا ، وانكشفت الغمة فاتخذت الدولة الليبية في عهدها الجديد اسم المملكة الليبية المتحدة . ووصف الشعب أو المملكة بأنه ليبي وصف صحيح سليم .

ومع ذلك فإن ذبوع هذه التسمية مع الاحتلال واقترانها به كان أمرا كريها جارحا لحساسية المجاهدين . وظل بعض علماء ليبيا ينفرون من الاسم الجديد القديم . وقد عبر الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي عن هذا النفور في كتابه « تاريخ الفتح العربي في ليبيا » نشر دار المعارف ، القاهرة . فقال انه اسم دخيل « قصد به القضاء على الأسماء العربية التي كان تطلق على المقاطعات الثلاث » أى طرابلس وفزان وبرقة . وفضل الزاوي الاحتفاظ باسم طرابلس (وان لم يلتزم ما دعا اليه في عنوان كتابه) ، وهو الاسم الذي لا يزال مسجلا في كل ما وضع منذ جيل من الخرائط والقواميس والمؤلفات والوثائق ، وهو اسم يناسب العرف الاسلامي القديم بتسمية البلاد أحيانا بأسماء عواصمها .

وفريق آخر من العلماء استقبلوا الاسم بالترحيب ، وراوه أسهل من الاسم الثنائي المشطر وأفضل من تسمية البلاد بولاية دون ولاية ، فإن التشطير كان في تاريخ البلاد نكبة مزمنة . ويمثل هذا الفريق زميلنا الأستاذ مصطفى عبد الله بعيو عميد كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية غير أنه يرى ضرورة تعريب الاسم ورسمه في صورته العربية الأصلية بالواو لا بالياء .

ومسألة الواو أو الياء والجدل حولهما مسألة من مسائل فقه اللغة ، وهى مسألة لا يمكن أن تؤثر على التسمية الحديثة بالياء مهما يكن رأى علماء فقه اللغة مع الواو

(١) يعتمد الاستاذ بعيو في ترجيح الواو على ١ - المعجم الجغرافي للمجمع اللغوي بالقاهرة ، ٢ - قاموس الجغرافية القديمة بالعربي والفرنساوى للمرحوم شيخ العروبة أحمد زكى باشا (المطبعة الأميرية) القاهرة ١٨٩٩ ، ٣ - النصوص التاريخية والجغرافية

أو عليها . فإن التسميات ظواهر اجتماعية قلما تتأثر برأى فرد واحد أو أفراد خواص . والواو والياء بعد هذا ليسا إلا واواً ممدودة أو كسرة ممدودة ، والكسرة والفتح يرد في تسمية مصر ، ويقول أهل تونس قرطاج ويقول غيرهم قرطاجنة ، ويقول أهل ليبيا الفرنسيين كما كان يقول الجبرتي ويقول غيرهم وبعضهم الفرنسيين . وكنا نقول لندره وصرنا نقول لندن . وكل هذه الأمثلة تدل على أن النطق متوقف على حالة الناقلين للاسم أو الناطقين له . فلا بأس إذا كان الأمر كذلك أن تحتفظ الأجيال بالواو وأن نعدل نحن في عصرنا هذا إلى الياء . فهذا العدول ناشئ عن أننا أصبحنا أقدر على نطق الأسماء كما ينطقها الأجانب ، وأصبحنا من جهة أخرى أكثر استجابة لترقيق الأصوات .

والجدل حول الواو والياء هو جدل حول الرسم ، انضاف إلى الجدل حول الاسم .

وهذا كله عبارة عن محاولة جماعية لتحديد الموقف من التسمية ، وهي محاولة تنم عن شيء من القلق . ولكنها محاولة أظهرت في حقيقة الأمر طابع هذه الأمة الليبية . فالصبغة العربية في التسمية هي النقطة التي يتلقى عندها العالمان الليبيان . فأما أحدهما فيريد التزام النطق الوارد فعلاً لدى كتاب المسلمين ، وأما الآخر فيريد الاحتجاج على ما يسميه « القضاء على الأسماء العربية » . ونحن نلمس كذلك في موقف العالمين الليبيين روح المحافظة على القديم كما ترسمه التقاليد الإسلامية ، كما نلمس كراهة الدخيل التي رسبت من بلاء الاحتلال ، ونلمس كذلك اتفاقاً من العصبية الإقليمية وحرصاً على الوحدة المنشودة بين أشطار البلاد . وهكذا ترى أن النظر في اسم ليبيا كشف لنا عن المشاعر القومية العميقة .

القلق الذي يحدثه الاسم : وللأسماء تأثير في النفس يحدث تلازماً وتداخلاً بين الاسم والمسمى . ومن المسميات ما يجب أن تكون لها قداسة تقتضي الثبات وتتنزه عن التحوير . واسم الوطن جزء من كيان الشعب يجب أن يكون ثابتاً . وكل مساس القديمة مثل المقدسي وابن خرداذبه، وياقوت، وابن خلدون، والمقريزي، وابن رسته ، والبيروني وكثير جداً غيرهم .

وإذا كان لنا أن ندلي برأى في الموضوع فإننا مع اعترافنا بأن الفصل فيه انما يكون لعلماء فقه اللغة لا لأمثالنا المؤرخين نقول ان الواو أصح . وقد ورد الاسم في النقوش بما يقابل الياء والواو مجتمعين في صوت واحد (والنقوش في الشحات) (بوتا وأويسيلون I'Y) فالياء المجتمع مع الواو لا بد أن تعال ولا بد أن تخرج عن كونها ياء صريحة ، ولكن الاسم في رسمه اليوناني يرد أيضاً في القواميس وفي أشيع اللهجات بالياء الصريحة . فكيف يكون النطق ؟ والجواب أننا نجعل النطق اليوناني القديم ولا نستطيع إلى الآن أن نصل إلى ضبطه ضبطاً تاماً . ولنا أن نلتزم النطق الوارد لدى الأكثرية من كتاب المسلمين : بالواو .

بمبدأ الثبات يورث حتما شيئاً من القلق . وهنا السر في أن بعث اسم ليبيا حفز الجماعة إلى التعبير عن موقفها على أقلام مفكريها . ومع ذلك فإن القلق لم يكن كبيراً فإن عامة الناس قبلوا الاسم وعرفوه وتسموا به بكل سهولة ويسر ، كأنما عاد اليهم غائب آلياً .

موقف المؤرخين من التسميات :

والمؤرخون يسجلون هذه التسميات ويحرصون على أن يحددوا مدلولاتها في كل عصر . وقد رأيت من التسميات ما يتحول إلى تقيضه مع الزمن . ومن التسميات ما ينشأ عن وضع حضاري كنسبة البحر الأبيض بالبحر الشمالي عند هيرودت، وكتحديد بحر الروم أنه من انطاكية إلى القسطنطينة إلى صقلية فهو تحديد يرجع حتما إلى عصر معين (ص ١٤٥ ابن الفقيه الهمداني كتاب البلدان ، ليدن ١٣٠٢/١٨٨٥) .

والتاريخ في حالتنا هذه ينفع في إزالة الشبهات ، وتبديد القلق ، واستعادة الذكريات ، فهو ذاكرة الأمم . والمؤرخون حين يبعثون الماضي أشبه بالاطباء حين يعيدون الذاكرة لمن فقدوها . وقد يكون في بعث الأسماء الأصلية قوة وتمكين وفخر ، وعندئذ يكون بعث الاسم القديم أمراً يستدعي الترحيب .

وتاريخ اسم ليبيا يزيل الشبهات ويبدد القلق . فانه اسم أقدم من الحضارتين اليونانية والرومانية ، كان اسم قبيلة ليبية ثم أطلق على كل القبائل الليبية وصار علماً على جنس وعلى القارة التي هي منزل هذا الجنس ، ثم ظهر اسم آخر ، هو اسم قبيلة أفري وما بنفس الطريقة تماماً وزاحم الاسم القديم ، فاعتصم الاسم القديم بهذه البلاد وأطلق عليها دون غيرها وصار علماً لها ، ثم اعتصم الاسم في أواخر العصر البيزنطي وفي العصر الإسلامي بذاكرة التاريخ والجغرافيا حتى عاد آخر الأمر عودة الغائب إلى أهله .

فلا بأس إذن من أن تعتصم البلاد بالاسم القديم وما فيه من جمع وشمول عند احساس الخطر على وحدتها أو على كيانها ، ولا بأس من أن تجد البلاد فيه تعبيراً عن وعيها بكيانها .

مدلولات الاسم التاريخية :

والأخبار عن ليبيا في عصر ما قبل التاريخ ليس فيها أسماء بطبيعة الحال لأن

(١) ويقول الأستاذ لوت عن القومية التشيكية انها ظلت حية في صدور الفلاحين وبعض الأتريين والمؤرخون وأصحاب فقه اللغة والنحويين . وهم جماعات مجردة من العدوان إلى أقصى حد ولكنهم في الحقيقة ذوو شأن عظيم لانهم يحبون الماضي . . . الخ LOT : Les Invasions Barbares, Paris 1937

البشرية لم تكن في تلك الأزمنة اخترعت الكتابة لتسجيل النطق والأخبار ، وكان التعبير قاصراً على الرسم وعلى ما خلفوا من أدوات . ثم تأتينا أخبار ليبيا في العصر التاريخي من النقوش والبرديات الفرعونية ، ثم تأتينا الأخبار عن اليونانيين منذ نزول الدورين بالبلاد في القرن السابع ق م ، ثم تعدد مصادر الأخبار فنجدها عند اليونان وعند الرومان وعند العرب .

وتبدأ أخبار الليبيين مع أول الفراعنة (مينا - نامر) ففي متحف القاهرة الفرعوني درع يصور اخضاع مينا لمملكة هاريون الصغيرة (Harpoon) الواقعة غربى الدلتا من الشمال .

وكذلك تقول النقوش انه أخضع التحنو الليبيين النازلين غربى مملكة هاريون . ومنذ هذا الوقت ظلت الصلات تقوى وتضعف ولكنها لم تنقطع ، وظل الليبيون يتسربون نحو النيل في حركة طبيعية مستمرة حتى عظمت جاليتهم وحتى تهيأ الجو لقيام أسرة فرعونية من أصل ليبي .

ثم طرأت على البلاد هجرة الدورين ، وانشأ هؤلاء المدن اليونانية الأولى وظلت الصبغة الهلينية تقوى حتى أن هيرودوت حين زار برقة في القرن الخامس ق م لاحظ ان الصبغة الهلينية كانت تسود البلاد . ثم كانت فتوح الاسكندر حادثاً هز العالم القديم وأواخر القرن الرابع ق م وكان من أثره على مصر أن قام فيها البطالمة (خلفاء الاسكندر) . وكان من الطبيعي أن يشتد الاتصال بين مصر وبرقة ، وان تكون الجاليات اليونانية في البلدين واسطة هذا الاتصال ، وبلغ الاتصال حد المشاركة في حضارة واحدة ، فكان فلاسفة قورينة وعلماءها زملاء علماء الاسكندرية واستمرت الصبغة اليونانية في البلدين بعد زوال الوثنية وقيام المسيحية فكان مرقس الحواري من أصل ليبي وكانت الاسكندرية مهد كرازته بحسب تعبير المسيحيين . ثم ظهر الاسلام فصهر عددا من الامم في أمة واحدة .

أما من حيث السكان فان الفراعنة عرفوا من الليبيين ثلاث قبائل وهى : Lebu Mashwesh Thehenu = Tehnu الليبو والتحنو والمشوش . أما الدورون فانهم وجدوا في برقة أربعة قبائل رئيسية : قبيلة أسبستاي في دواخل قورينة ، وقبيلة Bacales بكاليس عند توكره ، وقبيلة Auschisae أوشيساي عند هسبريدس (= برنيق = بنغازي) ، وقبيلة النسامون غربى برنيق Nasamones وعندما زار هيرودوت قورينة (٤٣ ق م) وجد فيها ثلاث قبائل مهمة هي : Nasamones, Giligmae, Adry machidae . وأما في العصر البيزنطى وفي أول العصر الاسلامى فقد كانت توجد ببرقة وطرابلس قبلتان غالبتان هما لواته وهواره . ثم كانت هجرة سليم وهلال

1) A. DE COSSON : Mareatis, London, 1935

وغيرهم واليههم ترجع أكثر الأنساب اليوم هم والأمازيغيون .
ليبيا قارة عند هيرودوت

كان هيرودوت والجغرافيون القدماء يقسمون العالم الى ثلاث قارات : ليبيا وآسيا وأوروبا . وتناقلت الأجيال هذا التقسيم حتى وصل الى البيروني العالم المسلم في القرن الخامس الهجرى (١١ م) فسجله وان كان قد تقدم وحل محله تقسيم آخر . ونفضل ان نقف عند تحديدهما ، ولنبدأ بالآخر : قال البيروني : « كان اليونانيون يقسمون المعمورة (والمعمورة والمسكونة ترجمة حرفية للاصطلاح اليونانى (ايوكومينيه) بأقسام ثلاثة ... (أولها) ما مال عن مصر وعن بحر الروم نحو الجنوب فاسمه لوبية ، ويحدها بحر أوقيانوس المحيط الأخضر من جهة المغرب ، وبحر مصر (البحر الأبيض) من جهة الشمال ، وبحر الحبش من جهة الجنوب (وهنا نلمس الجهل بالحدود الجنوبية) وخليج القلزم من جانب المشرق . وهذا كله يسمى لوبية (٢) والقسم الآخر ... آسيا ... (٣) والقسم الآخر ... أوروبا ... »

وقد تبع البيروني هيرودوت تقريبا ناقلا عن اليونان . ونقل تحديد هيرودوت . قال : الحد الشمالى لقارة ليبيا يبدأ من حدود مصر (كما كانت أيامه عند ضفة النيل) الى رأس سولجوس (الآن رأس سبارتل على المحيط جنوب غربى طنجة (ك ٢٢، ف ٣٢) والحد الشرقى هو النيل وهو حد واضح في الصعيد ثم يندغم في الدلتا . ولهذا اصطلاحوا على أن يكون حد القارة الليبية في وسط الدلتا عند الفرع الأفزر ماء ، وهو الفرع السبىتى (وهو غير موجود الآن) . وكان للنيل ثلاثة فروع طبيعية وفرعان صناعيان . وقد انتقد هيرودوت هذا التحديد لأنه يجعل مصر في قارتين على حد قوله « فجانب من مصر جزء من ليبيا ، والجانب الآخر جزء آسيا (ك ٢، ف ١٨) . وفضل هيرودوت أن يجعل مصر كلها من آسيا بكامل حدودها الغربية عند منطقة مربوط . وقد عزز تحديده لمصر بذكر نزاع على الجنسية بين أهل مدينة ماريا (مربوط) وبين مصر . وكان الحكم فيه يستند على أن المصريين هم الذين يسكنون وادى النيل مما يلي الفنتين وشربون من ماء النيل ، وعلى أن النيل « ... يغمر ما يسمى بالبلاد الليبية وبلاد العرب الى مسيرة يومين من كلا الجانبين ويزيد عن ذلك أحيانا ويقطع أخرى أما في الصعيد فان ضفة النيل الى «الجبال اللبية» التى هي حافة الهضبة الصحراوية تدخل في مصر (ك ٢، ف ٨، ١٩) . وقد جهل هيرودوت الحد الجنوبي للقارة لأنه يقول : يظهر ان قارة ليبيا نفسها محاطة بالبحر الا من جهة اتصالها بآسيا (ك ٤، ف ٤٣) فتصور وجود بحر في جنوبى الصحراء الكبرى .

ونقف في هذين التحديدين عند بعض التسميات : فالبحر الأبيض يسمى عند

هيرودوت اليوناني بالبحر الشمالى ، وعند البيروني ببحر مصر ، وهنا مثل على تغير التسميات المؤسسة على الجهات الأصلية بحسب انتقال مركز الحضارة .

أما من حيث السكان فقد ذكر هيرودوت انهم من مصر الى المحيط قبائل مختلفة يجمعهم جنس واحد (ك ٢، ف ٣٢) .

ونحن اذا تأملنا هذا التقسيم وجدناه مستندا الى مجال الجنس الليبي مضافا اليه جنس قليل الأهمية ينزل في الجنوب هو جنس الحبش أى السودان . فللتسمية ما يبررها اذن .

ظهور اسم افريقية في العهد الرومانى ، وانكماش اسم ليبيا

بدأ اسم افريقية في الظهور عند الكتاب اللاتين منذ فجر القرن الثانى ق م . وكان اسما محدودا يطلق على قبيلة في تونس الحالية تسمى أفرى . ثم ذاع الاسم في أواخر أيام البونيين في قرطاجنة ، ثم جعله الرومان علما على ما استولوا عليه حول قرطاجنة حين أبادوا السيادة البونية في تونس الحالية . وسموا ما استولوا عليه اقليم افريقية Provincia Africa . وكانت افريقية الرومانية محدودة المعالم ، وكان الاقليم الواقع الى الغرب يسمى نوميديا ، والاقليم الواقع في أقصى الغرب يسمى موريطانيا . أما ما يقع في شرقي تونس أو افريقية الرومانية فقد احتفظ باسم ليبيا . ثم كان الرومان هم الذين مدوا اسم افريقية حتى أطلق على كل القارة الليبية القديمة . ولعل أساس امتداد الاسم الجديد هو وحده المصير السياسى اذ صار حكم ما امتد اليه السلطان الرومانى حكم افريقية فصارت طرابلس من افريقية حين كان اقليم طرابلس وحده منضافا الى افريقية الرومانية . فلما استولى الرومان على برقة أجروها مجرى طرابلس ، ثم تلا ذلك استيلاء الرومان على مصر . فكان استيلاؤهم على ما يقع شرقي تونس أمرا تدريجيا ، فتهيا الجو لامتداد اسم افريقية .

وبذلك حل لفظ افريقية محل لفظ ليبيا ، وصرنا اذا جهلنا الجغرافية التاريخية نجعل أيضا أن اسم ليبيا كان يطلق على قارة . وضاق عندئذ مدلول اسم ليبيا حتى صار منذ انشاء ولاية افريقية الرومانية يمكن ان يطلق على ما يقابل المملكة الليبية الحاضرة .

ولا بد من أن تقرر هذه الوقائع بالتواريخ . أما السيادة الرومانية في افريقية وانشاء ولاية افريقية فكان عام ١٤٦ ق م ؛ وتلا ذلك مباشرة ضم طرابلس . أما برقة فانها آلت الى الرومان بعد ذلك بنصف قرن تقريبا (٩٦ ق م) . بوصية بطليموس أبيون الابن الغير الشرعى لبطليموس السابع من بطلمية مصر . وهذان التاريخان حاسمان في تاريخ اسم افريقية وقد ضاق تبعا لذلك مدلول اسم ليبيا .

اقليم ليبيا ، أقسامه وحدوده في العصور المختلفة

ومن الطبيعى أن يكون تقسيم البلاد الموحدة الجنس الشاسعة مثل بلاد القارة الليبية تقسيما تمليه الطبيعة الجغرافية أو الظروف السياسية .

واقليم ليبيا مؤلف من شطرين أو قل من وحدتين جغرافيتين بينهما تشابه ، فكلاهما محاط من كل جهة تقريبا بالصحراوات الفاصلة . وحدودهما البرية كذلك حدود رسمتها الطبيعة . والصحراوات تجعل من برقة وطرابلس واحتين ضخمتين اذا جاز لنا التجاوز شيئا عن المعنى الحرفى . ويصدق على شطرى ليبيا ما يصدق على الواحات من حيث انها بلاد لا يقدر عليها الا أهلها ومن حيث أنها بيئة محافظة بحيث يمكننا القول انه لولا البحر والطريق الساحلى لكانت ليبيا واحتين حقيقتين ضخمتين .

وهذا التقسيم الجغرافى مبنى على التناظر الذى يجذب النظر وينشئ بينهما تكاملا .

التقسيم السياسى : ولكن قد توجد ظروف سياسية أقوى من التجاذب ، وعندئذ يكون التشطير . والواقع ان شطرى البلاد لم يتميز أحدهما عن الآخر الا بالظروف السياسية ، بل نلاحظ أيضا أن الظروف التى اقتضت التشطير كانت ظروفًا طارئة من الخارج ، ونخرج من حسابنا التشطير الذى تقتضيه الضرورة الادارية . ونحن اذا تتبعنا تاريخ البلاد وجدنا أن الشطرين في أقدم الأزمنة كانا متجانسين موحدين الى الحد الذى تسمح به طبيعة السكان القبلية . ثم كان أول تشطير عندما استولى الفرس على برقة وضموها الى مصر وجعلوها «الستراية الفارسية السادسة» . فسارت برقة في ناحية وسارت طرابلس في ناحية أخرى . وكان التشطير الثانى الذى اكتسب بطوله وعمقه بعض الأهمية : حين نزل الدوريون في برقة في القرن السابع ق م وحين نزل البونيون في قرطاجنة وساحل طرابلس فكان شطر بونيا ساميا مشاركا في حضارة آفلة وكان شطر بونيا مشاركا في حضارة صاعدة قتيبة . وقد شاعت الحوادث السياسية أن تدعم الصفة اليونانية في برقة حين وقعت فتوح الاسكندر ، واتخذت الصيغة الهلنستية بهذه الفتوح شكل عالم متصل الحلقات يدور كله حول الحوض الشرقى للبحر الأبيض . غير أن هذا التشطير الذى طال انتهى عندما قويت رومة وجعلت البحر الأبيض بحيرة رومانية ، وظلت آثار التشطير مع ذلك قائمة في العصر الرومانى فكان قسم يونانيا في صبغته وكان القسم الآخر رومانيا محتفظا ببعض

1) M. CARY : The Geographical Background of Greek & Roman History, Oxford, 1949, p. 220.

آثارها خلفه البونيون . ولكن هذا التشطير كان يخفى وراءه اجتماعا منيا في الحقيقة على وحدة الجنس . وأما منذ قيام الرومان الى الآن أى منذ ١٤٦/٩٦ق م — الى الآن فقد انعدم التشطير الا للحاجات الادارية أو الدفاعية .

والحقيقة التاريخية التي تستتج من هذا العرض ان ليبيا ببرقتها وطرابلسها تتأثر في الوحدة والتشطير بأحوال جيرانها من ناحيتي الشرق والغرب ومن ناحية البحر . **علة التشطير :** وللتشطير علة دفاعية حتمية ، فانه يتم كلما تنازعت قوتان خارجيتان ، هذه ملاحظة والأخرى : أن كل قوة تقوم في اقليم تونس تحتاج لوقوعها أمام إيطاليا وعداوتها لرومة الى ان تجعل اقليم تونس قلبا وقاعدة كبرى للدفاع ، والى أن تتخذ فوق ذلك لهذا القلب جناحين عن يمين من ناحية طرابلس وعن يسار نحو الجزائر الحالية . هكذا كان الوضع أيام البونيين في حروبهم مع الرومان ، ولهذا السبب أيضا جعل المسلمون القيروان قاعدة كبرى .

حدود اقليم طرابلس من الغرب : وحدود طرابلس من الغرب كانت في أقدم العصور الى قيام البونيين في قرطاجنة هي الحدود الطبيعية أى قابس وشط الجريد (= بحيرة ليبيا) والحدود الطبيعية حدود تلتزمها القبائل في العادة ولا تستطيع التغلب عليها الا في أثناء الهجرات الكثيفة . ثم اتصلت طرابلس وقرطاجنة في أثناء العصر البوني فلم تتغير الحدود لأن النفوذ البوني انما تركز في مدن الساحل دون الدواخل . ثم يرث الرومان نفس الوضع كما كان أيام البونيين وتحس البلاد بصخب هذا السلطان الجديد وصولته وتنشأ على حدودها نظم تغرية دفاعية ، تؤدي دراستها الى تعيين الحد الغربي بالدقة . فقد جعل الرومان دفاعهم يتركز على قابس وبحيرة شط الجريد خاصة فأقاموا سلسلة من الحصون تبدأ من قابس وتمر جنوبى شط الجريد ثم بحافة الهضبة الصحراوية التي تنقوس وتبعد في تقويسها عن البحر لتعود اليه مرة أخرى عند مصراثة تقريبا . واتخذوا مع هذه الحصون ضياعا . وعند قابس وشط الجريد كانت توجد الحدود الطبيعية التي تشير اليها التسميات . فان تسمية بحيرة شط الجريد الحالية باسم بحيرة ليبيا تسمية تقابل اطلاق اسم ليبيا على الجبال الغربية الموازية للنيل واسم لويبة على الكورة المجاورة لمربوط . وهنا أيضا الحدود الجغرافية ، ففي هذا الموضع منخفض فاصل مشغول ببحيرات . ففي مقابل قابس توجد أولا بحيرة شط الجريد ثم بحيرة أخرى على امتدادها هي البحيرة التي يصب فيها نهر الزاب المسمى الزافوس Savus عند اللاتين . والواقع أن قابس هي مفتاح تونس من الغرب . ومع ذلك فان هذه الحدود كانت حدودا داخلية في أيام

1) M. CARY, op. cit. p. 707 ; R.C. CAGNAT : La frontière militaire de la Tripolitaine (Mémoire de l'Académie des Inscriptions . . . T. XXXIX, Paris 1912.

البونيين والرومان والروم والمسلمين . ولم تكن تبعا لذلك حدودا مرسومة ضد عدو قريب أو بعيد . ولم تكن حتى في صفاتها الداخلية فعالة الا في فترة محدودة أيام الرومان في القرن الرابع الميلادي .

أما الحدود الليبية الحالية فتقع شرقي مدينة جربة .

الحدود بين برقة وطرابلس : وكذلك الحدود بين برقة وطرابلس حدود طبيعية ، فانه تقع بين العقيلة وسرت منطقة تزحف فيها الصحراء حتى تصل الى البحر . أما من الناحية السياسية فان الحدود اختلفت باختلاف الحدود وسنعرض لها عند الكلام على برقة .

كور برقة

وحدود برقة من الشرق من ناحية مصر حدود تأرجحت تأرجحا كبيرا بتغير الزمان ولنصرف النظر عن النيل والفرع السبتي في الدلتا ، فانه حد هندسي بين قارتين (آسيا وليبيا) ولا يقابل شيئا . فاذا انتقلنا الى غربي الدلتا لقينا غربي الفرع الكانوبي (الذي كان يصب في البحر عند « أبو قير » اقليما يعرف باسم مربوط أو كورة مربوط أو ياجار كيه مربوط ومنيليت . ولنتبر هذه الكورة من مصر كما كانت منذ أوائل العصر الفرعوني . واذا تكون أول كورة من كور برقة على أوسع تقدير كوره لويبة ثم مراقيه ثم اقليم برقة ، فلنحاول التعريف بهذه التقسيمات على الترتيب .

كورة مربوط وحدها الغربي : لا يهنا الحديث عن كورة مربوط نفسها ، فانه كانت دائما خارجة عن ليبيا ، داخلية في مصر ، حتى عندما كانت تستقل بتدبير أمورها بنفسها وانما يهنا الحد الغربي منها المجاور لكورة لويبة .

حد مدينة مربوط : يقول هيرودوت أن حد مصر يبدأ شرقا من بحيرة سربونس (بردويل الآن ومنذ أيام الحروب الصليبية) الى مدينة ماريا (= مربوط) القديمة الواقعة جنوبى البحيرة الى مدينة پلينثين Plinthine الواقعة شمال البحيرة فكلتاها حد ، وتقعان غربي العامرية الحالية ، وعندهما يتقوس الساحل ليكون ما يسمى خليج پلينثين أو خليج العرب^٢ .

(١) ماريا الآن خرائب لا شكل لها ، وهي على مسافة يسيرة من قرية الهوارية الحالية نسبة الى قبيلة هواة التي ادركها الفتح العربي . وقد حدد موضعها محمود الفلكي باشا ، وكانت تعتبر مفتاح مصر أمام أي غزو يرى من هذه الناحية . وقد حلت الحمام اليوم محلها ، انظر

(٢) العامرية كانت تسمى باسم الفيظ وباسم القرية Quarrah وباسم برنجي مربوط ، حقق موضعها محمود الفلكي باشا ؛ ويذكر دى كوسون انه في ١٩١٦ لجأ اليها كثير من المجاهدين السنوسيين (نفس الكتاب المذكور آنفا ص ١٤٥/١٦)

حد باشو عام ١٨٢٤ (أبيس) وقد روى الرحالة باشو Pacho^١ عندما زار المنطقة عام ١٨٢٤ أن حد مصر يومئذ Buon Adjoubah, Apis فإذا رجعنا مع دى كوسون أنهما مكانان قريبان من ابو صير Taposiris^٢ كان محتما أن نقول أن الحد عام ١٨٢٤ هو نفس الحد الذى ذكره هيرودوت فى القرن الخامس (ق.م). ونذكر تقاديا للابهام أن باشو ذكر هذا الحد على أنه الحد الفعلى ثم أضاف أن وراءه منطقة فاصلة ممتدة الى السلوم ، وأن حد السلوم فاصل بين أولاد على شرقا وبين الحرابى النازلين غرب السلوم .

حد العلمين : أما دى كوسون الذى خصص كتابا لكورة مريوط، فإنه يجعل الحد الغربى غربى العلمين بقليل عند خط طول ٢٩ . وهذا التحديد ينقلنا ويقصينا عن حدود هيرودوت نحو الغرب بحوالى ٧٠ كم .^٣

حد الحمام فى العصر الاسلامى : ونحن اذا رجعنا الى كتب الجغرافيين والمؤرخين وجدنا ذات الحمام حدا مهما فقد ورد عند المقدسى الجغرافى (ص ٢٢٤) أن عمارة ذات الحمام من امارات ظهور الفاطمى على مصر . ومثل هذا التنبؤ اما ان يكون بعد ظهور الفاطميين فى افريقية أو بعد دخولهم مصر . ونحو ذلك ما قال ابن الفقيه فى خواص البلاد (ص ٤/٣) : صورة الدنيا على خمسة أجزاء كراس الطير والجناحين والصدر والذنب ، والذنب من ذات الحمام الى المغرب . فإذا رجعنا الى أصحاب المسالك عرفنا أن ذات الحمام هى الحمام بحسب ما ورد عند ابن خرداذبه (٨٤ ، ٣٦٦) والادريسي (ص ١٣٦) (الاسكندرية ثم بومينه ٢st Menas, Boumnah, Abomna) (وقد يرد بدلها تونيه ولعلها محرف Toenia) ثم ذات الحمام ومجموع المسافة ٣٨ ميلا . فإذا رجعنا الى المؤرخين وجدناهم يذكرون ذات الحمام فى حوادث مختلفة فى القرون الهجرية الأولى ، ونستنتج من الحوادث ان ذات الحمام لها أهمية حربية كحدود فعلية . وقد ورد فى ابن الاثير أن بين ذات الحمام وبرقة (هكذا والمقصود كل أقاليم برقة) مفازه قدر مرحلتين لا يوجد فيها الماء الا بصعوبة وشدة فى آبار عميقة . ويتفق هذا مع قول قدامة الجغرافى أنه : من ذات الحمام يحمل الماء فى البرية ويقترب الطريق من بحر الروم . ويوافق هذا قول دى كوسون فى وصف هذه النواحي الآن ، فهو يقول انه توجد فعلا منطقة فاصلة هنا بحيث أن العرب النازلين غربى العلمين يسمون أرضهم « المقتوعة » فإذا خرجوا منها الى الحمام والعمارية كانت ناحية « خشم العيش » هى أول العمران . وللحمام الآن أهمية تجارية ففيها

(٢) دى كوسون، المذكور بالانجليزية ص ٢٠٢

(٢) نفس المرجع، ص ٢٥

(٣) نفس المرجع ١٣٦/١٣٥ وقد وصف البكرى فى القرن الحادى عشر الميلادى كنيسة بومينا وصفا مسهباً .

تعتقد اسبوعيا سوق كل سبت ، ولها أيضا أهمية فى المواصلات : فعندها كان ينحرف طريق الحج القديم نحو وادى النطرون والقاهرة . ويذكر الجغرافى قدامه بن جعفر (ص ٢٢٠) أنه عندها يلتقى طريق برقة وطريق الاسكندرية .

ثبات حد مريوط : وينتج من استعراض هذه التحديدات أن حد مريوط يتراوح بين «ابوصير» Taposiris والحمام والعلمين . وهذا المتراحى فى التحديد غير مهم فنحن نعلم ان المدن الكبيرة مثل مارياتى دالت ومثل الحمام فى العصر الاسلامى لا تكون بذاتها حدا ، وانما تدخل فيها أيضا أرباضها ومن يتصل بها خاصة من البدو . والواقع ان المدن لا تكون حدا هندسيا الا اذا وقعت عند نهر أو جبل حاجز أو على ساحل .

حد مريوط حد داخلى : كانت مريوط فى القديم حدا دوليا بين قارتين ، واقتضى ذلك أن يسمى ما وراء مريوط غربا باسم «لوية» كما سميت الجبال الغربية المحاذية للنيل . ثم نمت رقعة مصر منذ القديم بحكم الاتصال بالليبيين وخاصة عندما قامت فى مصر أسرة فرعونية ملكية من أصل لىبى فزحفت الحدود الرسمية نحو الغرب فدخلت فى مصر فى أكثر الاوقات لويه ومراقيه وبرقه ، ودخلت فيها طرابلس أحياء فى بعض التقسيمات الادارية ، وصار حد كوره مريوط الغربى حدا داخليا ، ومع ذلك ظلت منطقة مريوط فى كل الأحوال منطقة ثابتة بثبات الجغرافيا .

ومن امثلة الضم الادارى أن تراجان ضم مراقبة الى مصر ، وان چستيان ضم كوره لويه وكوره مريوط وجعلهما قسما واحدا منفصلا عن اقليم مصر الأول Aegyptus I كما ورد فى المرسوم الثالث عشر Just. Edict XIII

كوره لويه

وتقع لوية فى غربى مريوط ، وحدها الشرقى فى نواحي العلمين الحالية حيث يضع دى كوسون مدينة Leucaspis (وخرابتها على نحو ٥ كم من العلمين) وعاصمة الكورة هى مرسى مطروح الحالية وهذا الاسم حل محل الاسماء القديمة : مرسى البركة ، والبرطون مغرب Paraetionium ، وقد سماها استرابون Ammonia

أما الحد الغربى فهو السلوم Catabathmus

ويوجد فى المصادر العربية بعض التردد فى تصور مواقع لوية ومراقبة^١ ، وهو تردد يدل على أنهم ذكروا الاسماء استنادا الى مرويوات قديمة كانت قد دالت .

(١) مثال ذلك ما روى ياقوت الحموى فى معجم البلدان « اذا قصد القاصد من الاسكندرية الى افريقية فأول بلد يلقاه مراقبه ثم لويه . وهذه الرواية مفردة من جهة ومرجوة من جهة أخرى بما كان معروفا قبل الاسلام وبعده وخاصة رواية القلقشندى عن القضاء (ح ٦، ص ٢٨٧) التى تقول وفى آخر ارض مراقبة تلقى ارض انطابلس .

فمعرفتهم للكورتين معرفة غامضة مع انهم حققوا وضع مريوط ورووا في فضائلها مثلاً ما يأتي : « لم تطل أعمار الناس في بلد من البلدان طولها بمريوط من كورة الاسكندرية وبوادي فرغانه » في وسط آسيا . ويظهر أنه كان من نتيجة سقوط هاتين التسميتين أن امتد اسم برقة في مكانها ، كما نرى عند ابن الاثير في قوله ان بين ذات الحمام وبرقة منزلتين (أخبار سنة ٣٩٧ في ثورة ابي ركوره) .

كورة مراقية

واسم مراقية مأخوذ من اسم شعب المرمريق Marmaridae وكانت عاصمتها تسمى Marmarice أيضاً ولا يعرف موضعها اليوم ويقال انها كانت نحو الداخل، وكانت أهم من درنة وطبرق Darnis, Antipyrgus ويضيف دى كوسون أربع مدن أخرى في كتابه عن مريوط .

وبعض المؤرخين يدخل درنة في برقة ، ويخرجها من مراقية ويجعل الحد بين الاقليين واقعا بين خرسونيز Chersonesus^٢ ودرنة .

ولدينا نص بردي محفوظ بالفاتيكان (رقم ٥٣ Sludi e testi) ورد فيه اسم مراقية على أنه نوم من نومات مصر (وقد امتد التقسيم الى نومات بمعنى الكور الى العصر الروماني) ويعلق المؤرخون على هذا الخبر بأن هذا الحادث يمكن أن يكون وقع بسبب الثورة اليهودية في أواخر حكم تراجان^٣ .

اقليم برقة بالمعنى الضيق : ذكرنا أن اسم برقة امتد شرقا حتى قارب الحمام ونضيف هنا انه امتد غربا حتى وصل الى غربي العقيلة الحالية أيام البطالمة . وقد جرى المؤرخون المسلمون فعلا على اعتبار برقة اسما عاما يدخل في حكمه كل ما تعلق ببرقة من الجهات شرقا وغربا . أما المعنى الضيق فثابت للآن في الجغرافيا بتميز منطقة البطنان في برقة الحالية ، والبطنان تقابل مراقية ، والمعنى الضيق ظهر أيضا في أيام الدورين قبل البطالمة فإن الدورين انقسموا بعد العصر الملكي حول مدينتين أو حكومتين قورينه Cyrene وحكومة برقة Barca ثم زال هذا التقسيم أيام البطالمة، ثم آلت البلاد الى الرومان (٩٦ ق م) بوصية من بطليموس أبيون . وبقي اسم أنطابلس، ففي القرن الثالث الميلادي جعل الامبراطور الروماني (دقلديانوس : برقة اقليما مستقلا وسماه Libya Pontopoliso أو Libya Pontopolis) ليبيا الأنطاقلية، أو أنطابلس الليبية) وظل هذا الاسم مستعملا الى أوائل العهد الاسلامي ثم اندثر وحل محله اسم برقة عند من يكتبون بالعربية ، وان كان اسم سيريانيكا هو الذي

1) Cataeunium, Batrachus, Paluvius, Axilis

(٢) ولهذه المدينة سمية عند الاسكندرية تعرف باسم خرسونيز الصغرى ، ويوجد في موضعها اليوم سیدی العجمی والدخيلة .

3) Cambridge Ancient History vol. XI Ch. XVI

لا يزال يستعمل عند الفرنج الى الآن .

وقد بادت اسماء العصر القديم اليوناني والروماني الا طليثة ودريانه فان احدهما تذكر بالبطالمة والأخرى باسم الامبراطور هديان . أما اسم ارسينوى Arsinoë الذي كان يطلق على توكره Toera فقد باد، وكذلك اسم Apollonia الذي كان يطلق على سوسه Sozusa ، وبقيت ذكريات للقديم اليوناني عند البدو فأهل أوجله يذكرون برنيق Berenice^١ وأهل الشحات يذكرون قرنه على انها اسم موضع لا شيء فيه قريب من آثار قورينه .

وحد برقة بالمعنى الضيق يشمل درنه أو لا يشملها شرقا ويمتد غربا الى بنغازي (= برنيق = هسبريدس Hesperides, Eusperides) قبل عصر البطالمة ثم في عهد البطالمة الى اوتوملاكس Automalax أو ايفرناس Euphrontas أو مذبج فيلاني^٢ التحديدات الاسلامية لبرقة

نقل الكتاب المسلمون الينا أسماء التقسيمات الكبيرة (لوية ، مراقية ، برقة) ولكنهم لم يهتموا بالتفاصيل . وانصب اهتمامهم خاصة على ذكرى حد برقة من الغرب ، ويرجع هذا الاهتمام الى ان برقة كانت في الأغلب منضافة الى مصر ، فكان حد الأعمال أو التقسيمات الادارية هو الذي يجتذب الاهتمام ، ولندكر بعض التحديدات :-

١ - روى القلقشندي (ح ٦، ص ٣٨٧) أن مراقية هي آخر الديار المصرية من جهة الغرب ، ويؤيده قول ياقوت : ان لوية ومراقية من كور الاسكندرية، ويؤيده ايضا قول المراكشي ان : « بر برقة المقابل لكريت هو أول المغرب » (ص ٢١) ومعناه بحسب ما نرى ان برقة خارجة عن اختصاص مصر .

٢ - ويشبه التحديد السابق تحديد رواه الادريسي حيث قال : مدينة برقة أول منبر ينزله القادم من بلاد مصر الى القيروان (ص ١٣١) فانه دلنا على وجود ثلاثة منابر . في مصر ، وفي برقة ، وفي القيروان . وبرقة في هذا التحديد خارج مصر .

٣ - ونجد في روايات ابن الاثير (أخبار عام ٣٠٠هـ) تحديدا آخر يجعل برقة من عمل مصر ، ويجعل نهايتها الغربية عند مدينة انطابلس ، وقد ردد هذا التحديد القلقشندي (ح ٣، ص ٣١١) فقال على فراسخ منها عند العقبة الكبرى . ويستطيع من يعرف البلاد أن يؤكد ان المقصود هو عقبة توكره أو الباكور . وقد ردد المراكشي هذا التحديد فقال « أول حد بلاد المغرب مدينة انطابلس المدعوة برقة، . . . ومنها كان ابتداء فتح المغرب » ص ٣٤٧ . وقد روى ابن اياس ص ٧، وابن خرداذبه ص

(١) يذكر الادريسي ص ١٣٢، ١٣٥ : اقليم برنيق ووطاء برنيق ويقول انه الارض التي بين مدينتي برقة واجدادية

2) A.H.M. JONES : The Greek City from Alex. to Justin Oxford, 1940, p. 362.

٨٣، والادريسي ١٣١ وابن الفقيه ص ٥٧٢ أن حد مصر من مدينة برقة الى عقبة
أيله ٤٠ يوما .

وقد اعتمدت شخصيا هذا التحديد فيما يخص فتح العرب لمصر ، فاعتبرت
فتح برقة الأول على يد العرب تنمة طبيعية لفتح مصر بحسب العرف الاداري
البيزنطي الذي كان قد دام عدة قرون عندما جاء الاسلام .

وقد ذكر ابن خلدون أن مثل هذا التحديد كان عرفا جاريا في عصره فقال ص
١٠١ : والعرف الجارى لهذا العهد . . . لا يدخل في المغرب اقليم مصر ولا برقة وانما
يختص المغرب بطرابلس وما وراءها ، ويذكر السلاوي ص ٣ مثل ذلك .

٤ - ولدينا أيضا تحديد فعلى مستمد من روايات المؤرخين للحوادث
التاريخية . فان تتبع أخبار الخوارج في القرن الثاني للهجرة في افريقية يدل على ان
سرت كانت آخر حامية طرابلسية ، ومعنى هذا ان ما وراءها شرقا يتبع برقة أو على
الأقل أن سرت مفتاح طرابلس . ونجد كذلك في خبر خروج العباس بن احمد بن
طولون على أبيه أن آخر حصن لأبن الاغلب كان لبدة حيث كان يوجد عامل لابن
الاغلب . وتدلنا أخبار الفتوحات على أن قصور حسان كانت من حيز برقة .

لفظ المغرب :

ويرد لفظ المغرب دائما في العبارات التي تتعرض لتحديد عمل مصر أي
اختصاصها الاداري أو عند تحديد برقة من جهة الغرب . ونلاحظ عندما نريد
استخلاص حدود المغرب من النصوص أننا أمام قاعدة هي : ان ما عدا مصر هو
المغرب كما كان ما عدا مصر هو قارة ليبيا . وعلى هذا اختلفت حدود المغرب من
جهة مصر باختلاف عمل مصر الاداري بحسب التقاليد الادارية . فيكون حد المغرب
مرة عند ذات الحمام، ومرة غربى مرقية، ومرة عند غربى برقة . ولا يبعد قط ابتداء
المغرب عن ذلك .

والخلاصة ان اسم ليبيا ورد عند العرب كاسم قارة ولم يطلق قط على
برقة وطرابلس طول العصور الاسلامية السابقة ولا على بحيرة شط الجريد وانما
اطلق على كورة وجبال وصحراء، ولكن الاسم قديم أصيل لا يعرف أوله، ثم اطلق
على برقة وطرابلس فعلا منذ قيام اقليم افريقية وابتداء السيادة الرومانية (حول
١٤٦ ق م) ثم حل لفظ المغرب عند كتاب اللغة العربية محل اسم ليبيا تماما . ومع ذلك
فان قدم الاسم وأصلته وسرعة قبوله اليوم يجعلنا نرجو أن يكون الاسم القديم
المبعوث بشيرا بنهضة ثابتة الدعائم وان يكون الاسم موضع الترحيب .

محمد عبد الهادي شعيرة

بنغازي

استاذ التاريخ الاسلامي بالجامعة الليبية
وجامعة عين شمس

الأمدي وكتابه الموازنة

للدكتور طه الحاجري

- ١ -

قلت في مقدمة الجزء الأول من كتابي «في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية» ان «النقد
الأدبي أكثر وجوه النشاط العقلي تأثرا بسائرهما، وتعبيرا عن اتجاهاتها، وجريا مع
تياراتها المتباينة، حتى لنستطيع القول - في غير مبالغة ولا تجاوز لحدود التقدير
العلمي - اننا نملك - اذا أتيت لنا مجموعة هذا النقد مكتملة منتظمة منسقة -
أن نتعرف فيها أصداء جميع ما أتيح للعقل الاسلامي والجماعة الاسلامية، من تغيير
وتطور، ومن تبدل وتحول، واضحة جلية» .

وهذا قول عام يصدق - فيما نرى - على النقد الأدبي عامة، لا يختص به
عصر دون عصر، ولا بيئة دون بيئة، ولا أمة دون أخرى، اذ كانت الأسباب المفضية
الى هذه النتيجة أسبابا عامة، على النحو الذي بيناه هنالك . فليس يتوجه على هذه
القضية العامة أن يكون لمصر من العصور بعض الخصائص التي يبدو أنها تبعد به
عن الاندراج تحتها والوقوع في حكمها، كالذي يمكن أن يقال عن القرن الرابع الذي
نؤرخ هنا لبعض وجوه النقد الأدبي فيه، اذ ندرس الأمدي في كتابه الموازنة ،
من انه عصر التخصص، وانه بذلك يختلف عن العصور السابقة التي كانت وجوه
النشاط العقلي فيها أكثر تجاوبا، وأظهر تداخلا، وأوثق اتصالا، مما كان أعوز على
تحقيق تلك الظاهرة، أما هو فان الحياة العلمية أخذت فيه طابعا جديدا، اذ برزت فيه
تلك الظاهرة التي كانت تتكون من قبل شيئا فشيئا، وهي ظاهرة التخصص العلمي،

(١) انظر ما قاله ، مما هو بسبيل من هذا Fernand Baldensperger بالتباس الى تاريخ
النقد الادبي في فرنسا في كتابه :

La critique et l'histoire litteraires en France ... etc. p. 13

٨٣، والادريسي ١٣١ وابن الفقيه ص ٥٧٢ أن حد مصر من مدينة برقة الى عقبة
أيله ٤٠ يوما .

وقد اعتدت شخصا هذا التحديد فيما يخص فتح العرب لمصر ، فاعتبرت
فتح برقة الأول على يد العرب تنمة طبيعية لفتح مصر بحسب العرف الاداري
البيزنطي الذي كان قد دام عدة قرون عندما جاء الاسلام .

وقد ذكر ابن خلدون أن مثل هذا التحديد كان عرفا جاريا في عصره فقال ص
١٠١ : والعرف الجارى لهذا العهد . . . لا يدخل في المغرب اقليم مصر ولا برقة وانما
يختص المغرب بطرابلس وما وراءها ، ويذكر السلاوي ص ٣ مثل ذلك .

٤ - ولدينا أيضا تحديد فعلى مستند من روايات المؤرخين للحوادث
التاريخية . فان تتبع أخبار الخوارج في القرن الثاني للهجرة في افريقية يدل على ان
سرت كانت آخر حامية طرابلسية ، ومعنى هذا ان ما وراءها شرقا يتبع برقة أو على
الأقل أن سرت مفتاح طرابلس . ونجد كذلك في خبر خروج العباس بن احمد بن
طولون على أبيه أن آخر حصن لأبن الاغلب كان لبدة حيث كان يوجد عامل لابن
الاغلب . وتدلنا أخبار الفتوحات على أن قصور حسان كانت من حيز برقة .

لفظ المغرب :

ويرد لفظ المغرب دائما في العبارات التي تتعرض لتحديد عمل مصر أى
اختصاصها الاداري أو عند تحديد برقة من جهة الغرب . ونلاحظ عندما نريد
استخلاص حدود المغرب من النصوص أننا أمام قاعدة هي : ان ما عدا مصر هو
المغرب كما كان ما عدا مصر هو قارة ليبيا . وعلى هذا اختلفت حدود المغرب من
جهة مصر باختلاف عمل مصر الاداري بحسب التقاليد الادارية . فيكون حد المغرب
مرة عند ذات الحمام، ومرة غربى مرقية، ومرة عند غربى برقة . ولا يبعد قط ابتداء
المغرب عن ذلك .

والخلاصة ان اسم ليبيا ورد عند العرب كاسم قارة ولم يطلق قط على
برقة وطرابلس طول العصور الاسلامية السابقة ولا على بحيرة شط الجريد وانما
اطلق على كورة وجبال وصحراء، ولكن الاسم قديم أصيل لا يعرف أوله، ثم اطلق
على برقة وطرابلس فعلا منذ قيام اقليم افريقية وابتداء السيادة الرومانية (حول
١٤٦ ق م) ثم حل لفظ المغرب عند كتاب اللغة العربية محل اسم ليبيا تماما . ومع ذلك
فان قدم الاسم وأصالته وسرعة قبوله اليوم يجعلنا نرجو أن يكون الاسم القديم
المبعوث بشيرا بنهضة ثابتة الدعائم وان يكون الاسم موضع الترحيب .

محمد عبد الهادي شعيرة

بنغازي

استاذ التاريخ الاسلامي بالجامعة الليبية
وجامعة عين شمس

الأمدي وكتابه الموازنة

للدكتور طه الحاجري

- ١ -

قلت في مقدمة الجزء الأول من كتابي «في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية» ان «النقد
الأدبي أكثر وجوه النشاط العقلي تأثرا بسائرهما، وتعبيرا عن اتجاهاتها، وجريا مع
تياراتها المتباينة، حتى لنستطيع القول - في غير مبالغة ولا تجاوز لحدود التقدير
العلمي - اننا نملك - اذا أتيت لنا مجموعة هذا النقد مكتملة منتظمة منسقة -
أن نتعرف فيها أصداء جميع ما أتيح للعقل الاسلامي والجماعة الاسلامية، من تغيير
وتطور، ومن تبدل وتحول، واضحة جلية» .

وهذا قول عام يصدق - فيما نرى - على النقد الأدبي عامة، لا يختص به
عصر دون عصر، ولا بيئة دون بيئة، ولا أمة دون أخرى، اذ كانت الأسباب المفضية
الى هذه النتيجة أسبابا عامة، على النحو الذي يناه هناك . فليس يتوجه على هذه
القضية العامة أن يكون لعصر من العصور بعض الخصائص التي يبدو أنها تبعد به
عن الاندراج تحتها والوقوع في حكمها، كالذي يمكن أن يقال عن القرن الرابع الذي
نؤرخ هنا لبعض وجوه النقد الأدبي فيه، اذ ندرس الأمدي في كتابه الموازنة ،
من انه عصر التخصص، وانه بذلك يختلف عن العصور السابقة التي كانت وجوه
النشاط العقلي فيها أكثر تجاوبا، وأظهر تداخلا، وأوثق اتصالا، مما كان أعون على
تحقيق تلك الظاهرة، أما هو فان الحياة العلمية أخذت فيه طابعا جديدا، اذ برزت فيه
تلك الظاهرة التي كانت تتكون من قبل شيئا فشيئا، وهي ظاهرة التخصص العلمي،

(١) انظر ما قاله ، مما هو بسبيل من هذا Fernand Baldensperger بالقياس الى تاريخ
النقد الأدبي في فرنسا في كتابه :

La critique et l'histoire litteraires en France ... etc. p. 13

- ١٧ -

- ١٦ -

فقد جعلت العلوم ووجوه النشاط العقلي عامة تميز بصورة واضحة، وجعلت الصلات بينها تضاعف وتتراخي .

وهذه الصفة من صفات الحياة العلمية في القرن الرابع حقيقة مسلمة لا جدال فيها، ولكنها مع ذلك لا تذهب الى حد ابطال تلك القضية العامة بحق الأصول التي قامت عليها، اذ كانت اصولا ثابتة ترجع الى حقيقة النقد الأدبي في ذاته . وبذلك ظل النقد الأدبي في هذا القرن محتفظا بتلك الظاهرة التي لازمتها في مراحلها الأولى ، واستطاع أن يبقى على صلاته بالاتجاهات العلمية المختلفة ، وأن يظل موضعاً للانطباعات الصادرة عن هذه الاتجاهات يردد أصداءها ويحمل سماتها ، اذ كان أما يصدر في ذلك عن تلك الأصول الثابتة والعلاقات الذاتية التي تربط بينه وبين وجوه النشاط العقلي، على النحو الذي بيناه . وسواء في ذلك أن تميز هذه الوجوه وتزاييل، أم تتقارب وتتداخل .

والى جانب ظاهرة التخصص العلمي هذه التي تجلت في القرن الرابع، ولم تحل — كما ذهبنا — بين النقد الأدبي وبين طواعيته للانطباعات المختلفة، كانت هنالك ظاهرة أخرى تشاركها في الدلالة على نضج الحياة العقلية، واكتمال أسلوب الدرس العلمي، وكان لها أثرها الواضح في المنهج العام للنقد الأدبي في هذا القرن، وهي ظاهرة «التجريد»، اذ جازت لنا هذه التسمية، ونعني بها انتقال النشاط العلمي من دائرة الجزئيات المتفرقة المنتشرة، الى دائرة الكليات المجتمعة المؤتلفة؛ أو من النظرة الجزئية المحدودة، الى النظرة العامة الشاملة، تتعمق الأصول العامة والمبادئ الكلية، وتتحرى في ذلك العلاقات التي تراها أصل العلاقات، وبذلك تضع العلم في نسق واحد منتظم، يضم اطرافه ويجمع متفرقه .

ولم يشذ النقد الأدبي في القرن الرابع، في جلته، عن هذه الظاهرة العامة، فوضعت فيه الصورة العلمية، اذ لم يعد أحكاماً جزئية متفرقة، أو ملاحظات شخصية مفردة، وإنما أصبح دراسات عريقة متصلة مجتمعة، يتجه كل منها الى غرض بعينه . ويصطنع كل منها منهجاً مرسوماً بين الحدود وينطبع كل منها بطابع واحد معين ، بحيث تكون كل دراسة من هذه الدراسات وحدة منسقة مؤتلفة الاجزاء، لها موضوعها وغرضها وأسلوبها .

وبذلك، وبما أتيح للحياة الأدبية عامة في هذا القرن من عوامل جديدة ليس هذا موضع درسها ، يعتبر القرن الرابع من التواريخ الحاسمة في تاريخ النقد الأدبي ، كما يعتبر من أحفل مراحل الحياة الأدبية بمظاهر النشاط النقدي، والاتجاهات المختلفة فيه .

واذ لم يكن من شأننا في هذا البحث أن تتبع هذه الاتجاهات ونستقصيها وتتعرف خصائصها وسماتها ، فانه يكفي من ذلك، تمهيداً لما نحن بصددده، أن نعرف فيها أمثالا ثلاثة كبرى، لكل نمط منها منهجه وطابعه وغايته ، كما يعبر كل منها عن نزعة عقلية خاصة ، ويتجاوب بأصداء بيئة علمية معينة .

أما النمط الأول فهو النقد الأدبي بمعناه الخاص : يهدف الى غرض أدبي خالص ، ويتقوم بموضوعات أدبية ، ويصدر عن دوافع أدبية ، كما يصطنع أسلوباً أدبياً، يثير الذوق الفني ، ويعتمد على الحس البياني .

والثاني نقد أدبي في موضوعه ، ولكنه يختلف عن سابقه في أسلوبه ومنهجه ، اذ يتجه أول ما يتجه من ذلك الى اصطناع الأسلوب العلمي في الترتيب والتبويب ، والتصنيف والتعريف ، والتقدير والتحرير ، والى استنباط القوانين ووضع القواعد، وتقريرها بالأمثلة والشواهد ، كما يصدر — أكثر ما يصدر — عن تلك النزعة العلمية أو التعليمية التي ترمى الى جمع الأشباه والنظائر ، وبيان الصلات التي تصلها والعلاقات التي تربط بينها ، وتحرى ما قد يكون من فروق واختلافات تفرق بين الواحد منها والآخر .

وأما النمط الثالث فهو نقد أدبي أيضاً في أسلوبه ومنهجه وجملة موضوعاته ، ولكنه يصدر عن نزعة غير تلك النزعة، ويتجه الى غاية غير تلك الغاية، اذ كان يصدر عن النزعة الدينية المرتبطة منذ أول أمرها بالنزعة الأدبية ، ويتجه الى اثبات الحجج الخالدة للإسلام ، وهي اعجاز القرآن ، مظهر ذلك الارتباط . أما فيما بعد ذلك فله أسلوبه الأدبي فيما يعالج من مسائل تلك القضية ، الى جانب ما يعرض له في أثناء هذه الدراسة من قضايا التعبير الأدبي .

هذه هي الأنماط الثلاثة الكبرى للنقد الأدبي في القرن الرابع، وفيها نستطيع أن نتبين اتجاهات النقد الرئيسية ومدى نشاطه في هذا القرن .

وسنحاول في هذا البحث أن نتعرف واحدا من هذه الأنماط ، في وجه من وجوهه ، بدراسة أثر من الآثار الباقية التي تمثله وتوضح من معمله ، وهو كتاب الموازنة بين الطائيين ، للأمدى .

— ٢ —

وكتاب الموازنة هذا يمثل النمط الأول من هذه الأنماط الثلاثة، وهو أحد كتابين كبيرين مما وصل إلينا من الآثار النقدية في القرن الرابع ، كلاهما كان أثرا من آثار الخصومات الأدبية التي ثارت في هذا القرن والذي قبله ، وعمرت البيئات الأدبية أمواجها وتياراتها، وزدهت فيها الآذواق والأهواء والنوازع مذاهب مختلفة، وكانت مصدرا خصيبا لنشاط قوى غامر اتخذت المظاهر ، فكان من مظاهره كتاب الموازنة هذا وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، لعبد العزيز الجرجاني .

فأما كتاب الموازنة فمثاره تلك الخصومة الأدبية التي ثارت حول أبي تمام منذ أوائل القرن الثالث، وظلت متقدة محتدمة الأوار بعد أن انقضى عهد الشاعر بزمان ، كأنها لا تخضع لفعل الأيام ؛ بل لقد كان كل حدث أدبي جديد يعدها بالوقود، فهي بذلك دائمة الاشتعال . ذلك أن أبا تمام لم يعد في هذه الخصومة شخصا بعينه ، وإنما تحول رمزا لمذهب من مذاهب التجديد في الشعر ، اشتق كيانه من بعض العناصر الأصلية المتجددة في الحياة الأدبية، ثم اتفق أن اعتبر معاصره وابن قبيلته، البحترى، رمزا للناحية المقابلة للمذهب الذي سلكه أبو تمام ، إذ كان رمزا للمحافظة الفنية ، والتزام عمود الشعر ، على حد تعبيرهم . وبذلك نرى أن الخصومة هنا ليست بين أبي تمام والبحترى ، وإنما هي في حقيقة الأمر خصومة بين مذهبين ، ما يزالان يقتسمان الميادين الأدبية ويتنازعانها في كل زمان ومكان ، ومن ذلك ظلت هذه الخصومة متصلة متجددة، حتى لقد نجد بعض كتب المعاصرين تردد أصداءها، كما قد نجد بين تقادنا ومؤرخي الأدب عندنا اليوم من يتمصب لأبي تمام ، ومن يتمصب

— ٢٠ —

للبحترى عليه ، على تفاوت في درجة التعصب تبعاً للطبيعة والمزاج .

فالخصومة إذن بين أبي تمام والبحترى ليست الا مظهرا من مظاهر الخصومة الأدبية الكبرى بين القديم والجديد، فهي خصومة أصيلة، ومن ذلك بقيت واستمرت بعد عهد الرجلين ، وبعد انتهاء ما يصحب عادة أمثال هذه الخصومات من أحقاد وضغائن ومشايعات شخصية تؤرثها وتزيد في حدتها ، ومع ذلك بقيت لهجة الخصومة أحيانا حادة عنيفة، كأن تلك الأحقاد الشخصية ما تزال تؤرثها وتؤججها، كما نجد صورة من ذلك في كلام الأمدى من انصار البحترى ، وفي كلام الصولي من شيعه أبي تمام .

وقد كان هناك قبل أبي تمام شعراء تظهر في شعرهم مظاهر التجديد ، كبشار وأبي نواس ومسلم بن الوليد ، كما اطردت سبيل التجديد بعده ، الا ان التجديد عند أبي تمام اتخذ شكلا واضحا بارزا مطردا في جميع شعره، أو أنه بعبارة أخرى ، صاحب مذهب فني في الشعر اصطنعه وعرف مقوماته وحدوده ، وقد اعتبر نفسه مرتبطا به مسؤولا عنه ، فهو يتحراه في عبارته الفنية ، ويأخذ به نفسه أشد الأخذ، لا يساهلها فيه ولا يتسرع لها . أما من قبله فلم يكن أمر التجديد عندهم مقصودا لنفسه ، أو هو — على الأقل — لم يكن موضع الاهتمام والتحرى منهم ، بل هو أشبه أن يكون انفعالا طبيعيا بهذه الحياة التي يحيونها بحواسهم ووجدانهم . وقد أخذت مظاهر هذا الانفعال تبدو في اشعارهم في صورة تعبير طريف أو تصوير بارع جديد أو معنى غير مألوف ، كأنما هي أصداء هذه الحياة لا أكثر ، دون قصد منهم إليها أو تعمد لها .

وبذلك اعتبر أبو تمام رأس هذا المذهب وصاحبه ، وبذلك كان محور الخصومة التي بدأت منذ أيامه ، بينه وبين بعض معاصريه من الشعراء ، كدعبل الخزاعي ، ومن العلماء اللغويين كابن الأعرابي ومحمد بن زياد ، وقد مضت الخصومة بعد ذلك إلى الطبقة التي تلي هذه الطبقة ، وأخذت تخلص إلى حد ما من شوائب الاعتبار الشخصية ، لتكون خصومة أدبية خالصة . كما بدأت تثير منذ ذلك الوقت حركة قوية من الكتابة والتأليف حولها ، من هؤلاء وأولئك ، كالذي كتبه

— ٢١ —

ابن المعتز، ومحمد بن داود الجراح، وأحمد بن أبي طاهر، وأبو الضياء بشر بن تميم، وأبو العباس ابن عمار القطريلي، مما كان - ولا ريب - كبير الأثر العظيم الخطر في تطور النقد الأدبي.

واستمرت هذه الخصومة الأدبية، نشيطة دائبة، إلى أن اتيج لها في القرن الرابع أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، وبه بلغت حركة النقد الأدبي حول هذه الخصومة ذروتها، إذ كان قد اجتمعت له مقومات الناقد الأدبي البصير، من العلم والفن، ومن المعرفة والذوق، ومن الخلق القوى المتزن. فأسهم فيها بكتابته هذا الذي سماه الموازنة بين الطائيين، وأراد به أن يقف موقفا وسطا بين المتخاصمين، وأن يكون رجلا موضوعيا في الحكومة بينهما، لا يغلبه الهوى على أمره كما غلب أسلافه.

على أن مما يقدم لنا أجل العون على فهم الكتاب وتقديره حق قدره، وأجدر أن يقيمنا من ذلك على الطريق السوي القاصد، أن نتعرف إلى كاتبه، فنتبين ملاسبات حياته، والوان ثقافته، والاتجاه العقلي الغالب عليه، كما نحاول أن نتعرف الملاسبات التي لا يست وضع هذا الكتاب، مما قد يكون صاحب أثر في توجيهه أو تلوينه، فاذا نحن وقفنا في تحقيق هذين الغرضين، كان لنا أن نقدم على الكتاب درساً له والتماساً لحقائقه في طمأنينة وثلج ضمير.

— ٣ —

بعد الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى، من أهل البصرة، وإن انتسب إلى آمد باعتبارها الموطن الأصلي لأسرته، ففي البصرة ولد، وبها نشأ نشأته الأولى، وفيها أمضى معظم حياته، وبذل أكبر نشاطه، إلى أن وافاه الموت بها.

وتقع حياة الآمدي في فترات ثلاث: أولاهما وأخراها بالبصرة، والوسطى في بغداد، وإن كانت مصادرنا لا تضع لهذه الفترات حدوداً تتبين منها متى بدأت كل واحدة ومتى انتهت، وإنما الحد الوحيد الذي تذكره هذه المصادر هو الحد

— ٢٢ —

الأخير للفترة الأخيرة التي انتهت بوفاة سنة ٣٧١، فذلك هو التاريخ الوحيد الذي يذكره أصحاب التراجم.

واذن فلا نعلم متى ولد الآمدي، فقد أحاطت الجهالة بذلك التاريخ، كما هو الشأن في تاريخ مولد كثير من اعلام الحياة الأدبية في تلك العصور. ولكننا نعلم أن بين شيوخه الذين رحل إلى بغداد لتلقي العلم عنهم أبا موسى الحامض، سليمان ابن محمد بن أحمد، المتوفى سنة خمس وثلاثمائة (١). واذن فقد كان الآمدي ولا شك من مواليد القرن الثالث. بل لعلنا نستطيع أن نفترض في غير كبير حرج أنه أدرك من ذلك القرن زمناً غير قصير، قد يبلغ العشرين من الأعوام، كما يدلنا ذلك على أن نهاية هذه الفترة البصرية الأولى، وقد انتهت برحيله إلى بغداد، كانت قبل سنة ٣٠٥.

وواضح أنه في مثل هذه الفترة الأولى تتكون الملامح الأولى للشخصية وتظهر خطوطها الرئيسية، وإلى المؤثرات التي يتعرض لها الشخص في مثل هذه المرحلة من حياته يرجع كثير مما يطبعه ويوجهه في سائر حياته. فبنا الآن أن نتعرف المؤثرات الأولى التي عملت إذ ذاك في تكوين شخصية الآمدي الأدبية، وتوجيهها الوجهة التي انتهت بكتابته «الموازنة». وليس لنا في ذلك إلا أن نكتفي بتعرف صورة الحياة الأدبية في البصرة لذلك الوقت، فلا حيلة لنا في غير هذا، إذ كانت هذه الفترة من حياة صاحبنا تغمض يجلها الصمت المطلق، فما يعرض لها أحد بكلمة.

ولم تكن البصرة في ذلك العهد كشأنها من قبل، حين كانت مركز النشاط الأدبي والعلمي، بل كانت قد فقدت هذه المكانة، وقد جعلت تفقدتها شيئاً فشيئاً منذ أول القرن الثالث، حين أخذت وجوه النشاط تتجه إلى بغداد وتتجمع فيها، ثم أخذت تمتد بعد ذلك إلى الأقاليم الشرقية، فلم يكده ينتهي هذا القرن، حتى لم يبق بالبصرة إلا أثار من هذا النشاط معظمها أدبي، وبهذه الآثار استطاعت

(١) انظر تاريخ بغداد ٩: ٦١ ط القاهرة، ١٩٣١، معجم الادباء ١١: ٢٥٥ ط دار المأمون. انباء الرواة على انباء النحاة ٢: ٢١، ط دار الكتب المصرية، ١٩٥٢.

ان تحتفظ بشيء من تلك المكانة القديمة لذلك مصر ، كما كان من هذه البقية
الباقية لها ما بقى للناس فيها من تذوقهم للأدب وتقديرهم له واقبالهم عليه ، التماسا
للمتعة . ومن ذلك اتجه الشعر فيها الى الاتصال بجمهور الناس والتعبير عنهم
والتماس اسباب حياته عندهم ، ومن أجل ذلك كان أدنى الى البساطة ، وأقرب الى
السهولة ، مع احتفاظه مع ذلك بالديباجة العربية السليمة .

ولعل من أوضح الدلائل على هذه الظاهرة في الحياة الأدبية بالبصرة لذلك
العهد أن كان أحد أئديتها الأدبية اذ ذاك دكانا من دكاكين الحبازين ، هو دكان نصر بن
أحمد الحزأرزي ، في المربد ، وكان نصر هذا - كما يقول الثعالبي في حديثه عنه
« أميا لا يكتب ولا يتهجى » وكانت حرفته خبز خبز الارز في دكانه بمربد
البصرة ، فكان يخبز ويشد أشعاره المقصورة على الغزل ، والناس يزدهون
عليه ، ويستطرفون باستماع شعره ، ويتعجبون من حاله وامره ، واحداث البصرة
يتنافسون في ميله اليهم وذكره لهم ، ويحفظون كلامه ، لقرب مأخذه وسهولته .
وكان ابن لنكك - على ارتفاع مقداره - ينتاب دكانه ويسمع شعره « ١ » .
وكما كان ابن لنكك من رواد هذا النادي ، كذلك كان منهم ابو عبد الله المنفجع
البصري ، وابو عبد الله الاكفاني الشاعر « ٢ » .

والواقع ان هذه الندوة الشعبية تؤدي لنا صورة صادقة عن الحياة الادبية في
البصرة لذلك الوقت . فهي حياة شعبية أكثر منها ارسقراطية ، ورواد هذه
الندوة هم من بين شباب يشدون الادب ويتذوقونه ويستمتعون به ويمعجبون بهذه
الالوان الطريفة القريبة منه ، وجماعة من الشعراء الشيوخ يغلب على شعرهم
ذلك الطابع : السهولة واليسر وقرب المأخذ والصدق الفني . كذلك كان ابن
لنكك ، ابو الحسن محمد بن محمد بن جعفر « فرد البصرة وصدر أدباؤها وبدر
ظرفائها في زمانه ، والمرجوع اليه في لطائف الأدب وطرائفه طول أيامه » ، « وأكثر
شعره ملح وطرف ، خفيفة الأرواح ، تأخذ من القلوب بجماعها ، وتقع من

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٣٣٧ ط الصاوي ، ١٩٣٤ - (٢) انظر تاريخ بغداد ١٣ : ٢٩٩ ،
معجم الادباء ١٩ : ٢١٩

النفوس أحسن مواقعها ، وجلها في شكوى الزمان وأهله ، وهجاء أهل عصره » . وكذلك
كان المنفجع البصري ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله الكاتب ، فقد كان شعره - كما يقول
الثعالبي - « كثير الحلاوة ، يكاد يقطر منه ماء الظرف » . ولكنه كان الى هذه
الصفة الادبية عالما واسع العلم والرواية ، وقد ذكر له ياقوت طائفة من الكتب في
الشعر « ٣ » ، كما وصفه الثعالبي في الفصل الذي كتبه عنه بانه « صاحب ابن دريد ،
والقائم مقامه بالبصرة في التأليف والاملاء » .

وهكذا نرى أن ذلك الطابع الفني القريب من الروح الشعبية كان الطابع الغالب
اذ ذاك على الحياة الأدبية بالبصرة ، حتى على الرواة وعلماء اللغة ، كما رأينا في أبي
عبدالله المنفجع هذا ، وكما نراه في شيخه ابي بكر ابن دريد وان كان ابن دريد يعد من الجيل
السابق على هذا الجيل الذي نتحدث عنه ، ولو انه عاش الى هذا الوقت ، وادركه
الأمدي وتلمذ عليه زمانا في بغداد ، وربما تلمذ عليه في البصرة قبل رحيله عنها ،
في بعض الاوقات التي كان ابن دريد يقصدها فيها ، ويعقد مجالسه بها . وكان ابن
دريد الى جانب علمه وروايته الواسعة شاعرا جزل الشعر ، فقد جمع بين العلم والفن .
وهو وان لم يكن يذهب في شعره مذهب المنفجع وابن لنكك ، الا انه كان جاريا على
سنن الأوائل .

ورواية آخر يعرض جانبا آخر لصورة الحياة الأدبية في البصرة لذلك العهد ،
وكان - فيما يبدو - كبير الأثر فيها ، وهو أبو رياش اليمامي . ويصفه الثعالبي
بانه « باقعة في حفظ ايام العرب وأنسابها وأشعارها ، غاية بل آية في هذ دواوينها
وسرد أخبارها ، مع فصاحة وبيان ، وعراب واثقان » « ٤ » . وكان أبو رياش هذا
شديد الوفاء لصناعته هذه ، وكان من وفائه لها انه لم يكن يقدر غير الشعر القديم
الذي تتعلق به روايته ، كما لم يكن يعترف بهؤلاء الشعراء المحدثين الذين افسدوا
الشعر عنده ومسخوه ، كما نرى هذا فيما أورده الثعالبي من قول ابن لنكك في
هجائه :

(١) يتيمة ٢ : ٣٢٠ - ٣٢١ - (٢) يتيمة ٢ : ٣٢٤
(٣) معجم الادباء ١٧ : ١٩٤ - (٤) يتيمة ٢ : ٣٢٤

يقول : ابن هاني افسد الشعر ضلة وشعر ابي تمامكم هو اضيع
 ابا الريش، يا صفعان، صفحك واجب ولكن مضى من كان في الله يصفح
 فيها هو ذا يجعل ابا نواس و ابا تمام في منزلة واحدة في تنديده بهما و طعنه عليهما،
 وانما جمع بينهما عنده انهما من الشعراء المحدثين . وقد عرض القاضي الجرجاني
 في سياق كلامه عن عصبية بعض الرواة والعلماء للمنتقدين من الشعراء ، لرجل
 اسمه - كما جاء في النسخة التي بين ايدينا - رياش القيسي، وكأنا هو أبو رياش
 اليمامي هذا ، فيما يغلب على الظن . قال : « وحدثنى جماعة من أصحاب رياش
 القيسي ، ولا نعرف في زماننا راوية تقدمه . وكان معروفا بالتحامل على هؤلاء ،
 والغض من أبي تمام والبحترى خاصة، حتى ان نسخ هذين الديوانين قلت بالبصرة
 في وقته ^١ واذن فهو لا يجمع بين ابي نواس و ابي تمام فصعب، ولكنه يجمع بين
 أبي تمام والبحترى ، قطبي الخصومة، فالخصومة عنده فيهما خصومة لا معنى لها ،
 اذ المحدثون جميعا ملأ واحدة . وقد كان - كما يؤخذ من كلام الجرجاني - شديد
 التأثير في الحياة الادبية في البصرة في ذلك العهد ، حتى بلغ من هذا التأثير ومن
 توجيهه للذوق الفني فيها ان اعرض الناس عن شعر ابي تمام والبحترى جميعا ،
 فقلت نسخ هذين الديوانين في البصرة اذ ذاك .

وبعد ، فهذه صورة من الحياة الادبية التي اخذ الآمدي يتنسها في البصرة
 أول عهده : نزعة ادبية فنية خالصة أو كالحالصة ، يمثلها الشعراء الذين لا يكادون
 يغيرون الشعر يتذوقونه ، ويمثلها العلماء الرواة للشعر ، وكان منهم من يتشيع
 للقديم حتى لا يكاد يمتزف بشيء من هذه المذاهب الفنية المحدثثة في قول الشعر ،
 كأبي رياش اليمامي هذا ، ومنهم من كانت تبعد به عن هذا التعصب وتحميه منه
 نزعة الفنية، كأبي عبد الله المفجع .

وتلك هي صورة الفن كما وقرت في نفس صاحبنا : السهولة والبساطة ،
 وجزالة اللفظ ، وقرب المعنى، وصدق الوصف، ومهما اختلفت النوازع التي
 رأيناها في تقدير الفن فانها لا تختلف في هذه الصفات . كما انه ليس فيها على كل

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص ٥ ط دار احياء الكتب العربية ، ١٩٤٥

حال ذلك الايفال والتعق، ولا ذلك الكد والتكلف. ولا ذلك الاتكاء على النفس
 في الاستخراج والتوليد ، وما قد يؤدي اليه من غموض وتعقيد . ولسنا نريد أن
 يذهب بنا القول الى ادعاء أن هذه هي الصورة الوحيدة للفن الشعري في البصرة اذ
 ذلك، ولكننا نقول ان هذا الطابع هو الغالب عليه فيها، وانه فوق ذلك هو الأجدر
 أن يلائم نفس الآمدي ، لم تلق - فيما يبدو - من صروف الحياة ما يعقدها،
 وان يناسب عقلا كعقله لم تأخذه الدراسات الكلامية أو الفلسفية بالتعقيد والايفال .

— ٤ —

وتنتهي الفترة الأولى من حياة الآمدي في البصرة، لتبدأ فترة حياته الثانية، في
 بغداد .

ولا ندري على وجه التحقيق فيم كان رحيل الآمدي عن البصرة وخروجه الى
 بغداد . أخرجه اليها حاجة من حاجات حياته المادية ، أم هي حياته العقلية التي
 اقتضته تلك الرحلة ؟ مهما يكن من أمر فقد كان مقامه في بغداد موسوما بطلب
 العلم، فقد كان طلب العلم غاية هذه الرحلة أو احدى غاياتها . فلم تكن هذه الحياة
 الأدبية الخالصة التي رأيناها في البصرة كافية اذ ذاك في تكوين الرجل واعداه لما
 يطمح اليه، بل كان لابد من طلب العلوم النظرية، وعلم النحو خاصة على شيوخه
 الذين بلغوا به اذ ذاك مبلغا كبيرا، وأشاعوا فيه بعض الالوان الفلسفية . وكانت
 بغداد هي المدينة التي تضم رءوسهم وأصحاب المنزلة العليا فيهم، فكان على المتأدب
 أن يشد اليها رحاله، ليلقى هؤلاء الشيوخ .

وكذلك رحل ابو القاسم الى بغداد، وابتدأ فيها عهدا جديدا بداه بقاء الشيوخ
 والجلوس اليهم والاستماع منهم والقراءة عليهم ، كما كان يصنع الناس في البصرة
 منذ أقل من قرن، حين كانت موئل العلم ومثابة العلماء ، يرحل الناس اليها من
 مشارق الأرض ومغاربها ليطلبوا العلم فيها ، أما الآن فقد غلبتها بغداد على العلم
 والعلماء، منذ أخذ علماء البصرة يرحلون اليها، ليكونوا في كنف خلفائها وامرائها،
 فمازال ذلك حتى لم يبق للبصرة الا هذه البقايا الأدبية التي أشرنا اليها، والاشياء

من مجالس العلم لا خطر له ولا يكاد يعاب به . وإذا كان صاحبنا قد وجد في تلك الحياة الأدبية غذاء لحسه البياني وتجاوبا مع نزوعه الفني ، فانه ما كان ليجد فيها ما يعده للحياة العاملة التي يطمح اليها .

وقد كان على الآمدي أن يعد نفسه لاحدى خطتين في الحياة ، ان يكون عالما يقصده الطلاب ويتحلقون حوله ويأخذون عنه ، كما هو شأن ذلك العدد الكبير من رجال البصرة ، وكما هو شأن ابن بلده الذي يعيش الآن في بغداد: أبو بكر ابن دريد ، وقد أصبح مطمح الانظار ، وملقى عصا التسيار ، اذ بلغ بالعلم المبلغ الذي جعل الناس يتسامعون به في انحاء البلاد ، ثم هاهي ذى الدولة قد أجزت عليه خمسين دينارا كل شهر ، وما أجدره أن يهيء نفسه ليكون خلفا له .

والخطة الأخرى أن يكون كاتباً كهؤلاء الكتاب الذين يملأون دواوين الدولة ، ويتمتعون بالجاه الظاهر ، وتجري عليهم الارزاق الوفيرة ، وقد يصل بعضهم الى منصب الوزارة . ومعرفة النحو شرط أولى وضرورى لصناعة الكتابة ، لا مسامحة فيه . فايا كانت الخطة التي ينتهى اليها أمره ، فهو الآن في سبيل الاعداد لها بتلقى النحو عن نحاة بغداد .

وقد تلقى الآمدي النحو على طائفة من شيوخ النحاة ، منهم ابو موسى الخامض ، سليمان بن محمد بن أحمد (المتوفى سنة ٣٠٥) ، والزجاج ابراهيم بن السرى بن سهل (المتوفى سنة ٣١١) ، والأخفش الأصغر على بن سليمان (المتوفى سنة ٣١٥) ، وابن السراج ، محمد بن السرى بن سهل (المتوفى سنة ٣١٦) ، ونفطويه ، ابراهيم بن محمد الأزدي (المتوفى سنة ٣٢٣) . وقد ذكر ياقوت انه رأى سماع الآمدي على كتاب القوافى لابى العباس المبرد ، وقد سمعه على نفطويه سنة ثلاث عشر وثلثمائة ١ .

ولا نريد أن نقف عند هؤلاء الشيوخ ، فلنكتف بهذا السرد لأسمائهم ؛ ولكننا لا نكاد نذكر ابا موسى الخامض فيهم ، حتى نذكر ما كان بينه وبين ابى بكر الصولى ، صاحب كتاب أخبار ابى تمام ، من عداوة ومكيدة ، على النحو الذى يشير اليه

(١) معجم الأدباء ٨ : ٧٦

الصولى في رسالته الى ابى الليث مزاحم بن فاتك ، اذ يقول له : « وانت اعزك الله تشهد لى من بين الناس أن ابا موسى الخامض كان يثلبنى عندك وتنهاء ، ويكثر من عيبى والطعن على سائر ما أمليت ، وانه لا فائدة فى شيء منه » ١ . فلنسجل هذه الملاحظة الآن ، فقد نحتاج اليها بعد ، حين ننظر فى « الموازنة » ، وفى التماس الملاسات المختلفة التي لا يست الآمدي فى كتابتها ، وفى مكان كتاب الصولى منها .

انفق الآمدي فى دراسة النحو والسماع على شيوخه وقراءة كتبه المختلفة ما انفق من وقت وجهد ، حتى بلغ منه المبلغ الذى ارتضاه ، والذى جعله معدودا بين النحاه ، فياقتوت فى ترجمته له يلحق باسمه صفة « النحوى » ، والقضى يترجم له فى كتابه الذى جعله فى تراجم النحويين ٢ . ولكننا حين نريد أن نتعرف هذه الصفة فى أسماء كتبه التي تذكر فى تراجمه ، لا نكاد نجد بينهما ما يدل عليها دلالة صريحة ، فانما هى كتب فى الشعر والنقد واللغة . وقد يكون هنالك فيما طوى ذكره من كتبه ماهو فى النحو ، ولكن اكبر الظن انه لم يطو ذكره الا وهو غير ذى بال فى موضوعه .

فان صح هذا ، وهو الأشبه عندنا ، فما عسى أن تكون دلالاته من الناحية التي تقصد اليها ، وهى تعرف الأسباب التي وجهت الآمدي الناقد تلك الوجهة التي نراها فى كتابه « الموازنة » ؟

أحسب ان الدلالة القريبة لهذا هى أن تلك النزعة الأدبية التي جعلت تنفتح فى البصرة على تلك الحياة التي كان يمثلها فيها من الشعراء أمثال ابن لنكك والخيزأرزي ، ومن الرواة أمثال المفجع وابى رياش ، لم تستطع الدراسات النحوية التي اخذ نفسه بها ، وارتبطت نفسه فى حلقاتها ، أن تطغى عليها ؛ وان تحوله من الرجل الأديب الذى يطرب للشعر ويهتز له ، ويحس بذوقه ووجدانه مواطن الجمال فيه فينتفتح قلبه لها ، الى الرجل العالم الذى لا يرى فى الشعر الا اداة جامدة من أدوات صناعته ، ولا يكاد يعنيه منه الا مبلغ ما فيه من موافقة أو مفارقة لأصوله وقوانينه وفلسفته . واذن فهل يكون معنى هذا ان دراسته للنحو هذه المدة الطويلة — فيما نفترض — كانت عبثا من العبث ، وانه لم يفد منها شيئا سوى أن أصبح فى اعتبار الناس

(١) أخبار ابى تمام ، ص ١٠ — ١١ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧

(٢) الانباه على انباه النحاة ١ : ٢٨٥ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠

رجلا مثقفا بثقافة عصره ؟ أما انه ليس في طبيعة الدنيا أن يذهب شيء مما يجري فيها باطلا لا أثر له، فلكل شيء فيها أثره لا محالة. وسواء بعد ذلك أن يكون هو ما قصد إليه الانسان أم غيره. فان تكن دراسة النحو لم تستطع أن تحول الآمدى الى واحد من هؤلاء النحاة من أهل القرن الرابع، الذين اجترفتهم نزعة التخصص والتعمق التي اشرنا اليها في صدر هذا البحث، فمضوا مع أصولهم وقواعدهم، يمدون أطناها، ويعمقون جذورها واسبابها، دون أن يوقفوا عند روائع البيان يتملونها ويتذوقونها، كما كان يفعل اسلافهم، كالبريد وثعلب؛ اذا كانت دراسة النحو لم تصنع به هذا الصنيع، ولم تحوله الى ذلك الرجل، فانها لم تدع على كل حال أن تأخذه بروح الدقة والنظام، والميل الى تحليل ما يصدر من أحكام، وهو ما نراه في كتابه «الموازنة» فلعل ذلك يرجع في كثير منه الى هذه الدراسة النحوية في هذه الصورة وذلك المنهج. وقد كانت هذه الدراسة - فيما نحسب - من أول الأسباب التي أقدمته بغداد، فلا جرم كان اثرها في منهجه غير قليل.

وطبيعي انه وجد في بغداد - الى جانب حلقات النحو - مجالس للأدب، وانه استطاع أن يضيء فيما بدأه في البصرة من الاتصال بالبيئات الادبية التي تعنى بالشعر انشاء وانشادا ورواية ودرسا، وهي بيئات الشعراء وبيئات الرواة. وقد كان ابن دريد يقضي اذ ذاك في بغداد الشطر الأخير من حياته. وقد كان - كما قلنا - يعد في ذلك الوقت شيخ رواة عصره. وكان رجلا رواة شاعرا معا، فيه ذوق الشعراء ودقة الرواة. وقد أدركه الآمدى في بغداد في هذه الفترة، ووجد عنده ما كانت تنطلع اليه مظامحه الأدبية، وما كانت تنجيه اليه أحاسيسه الفنية، ولعله كان المثل الذي يطمح أن يكونه.

والى هنا نرى الآمدى مزاجا من الشعر والرواية والنحو. فأما الشعر فمعناه الانتماع بصور الجمال الفني، وأما الرواية فمعناها الامام بصور العبارة الفنية، أو هي الاحاطة بالوان الثقافة الفنية، وأما النحو فمعناه عند الآمدى كما رأينا هذه الصفات العقلية المنهجية: دقة النظر، ونظام الفكر، وتحليل الرأي. وتلك

بهذه المعاني وهذا الترتيب هي عناصر الآمدى الناقد: الدوق الفني، والثقافة الفنية، والنزوع العلمى.

- ٥ -

واذ لم يصلح الآمدى ليكون رجلا من رجال النحو، على ما كان عليه نحاة ذلك العصر، فقد انتفى احد الأمرين الذين افترضناهما غاية الرحلة الى بغداد: ان يكون عالما أو كاتباً، واذن فلم يبق الا أن يكون الثانى. ولا ريب انه قد حصل من النحو القدر الضرورى - أو ما فوقه - لهذه الصناعة، كما نرى انه حصل أثناء مقامه في بغداد الوان الثقافة المختلفة التي يشترط في الكاتب تحصيلها، من شرعية ورياضية وغير ذلك، على النحو الذى نراه مثلاً في مقدمة ادب الكاتب لابن قتيبة، الى جانب ما كان له من ثقافة ادبية ممتازة.

وكذلك لا نلبث حتى نجد الآمدى كاتباً من الكتاب، ولكنه لم يكن من كتاب دواوين الدولة، كديوان الرسائل أو ديوان الخراج أو ديوان الزمام أو ما الى ذلك، فقد كان دون الوصول الى هذه الدواوين عقبات وعقبات؛ ولكنه كما يقول ياقوت - «كان يكتب بمدينة السلام لأبى جعفر، هارون بن محمد الضبى، خليفة أحمد بن هلال، صاحب عمان». فلم يكن اذن كاتباً من كتاب الدولة - ولهذا فيما نرى اثره الذى سنبينه بعد - وانما كان من هؤلاء الكتاب الذين يديرون أمور السراة ويتولون شؤونهم وينظمون أعمالهم. وقد يكون هؤلاء الكتاب أقل في المنزلة الاجتماعية من كتاب الدولة، ولكن هذا المكان كان - فيما يبدو - أكثر ملاءمة لصاحبنا، فقد كان صاحبه هذا الذى يكتب له رجلا من طراز آخر غير ذلك الطراز الذى نعرفه في عامة سراة البغداديين وأغنيائهم.

كان أبو جعفر الضبى هذا رجلا سرياً حقاً بكل ما تحمله كلمة السراوة من معنى، من شرف الأصل ونبل المنزلة وعراقة الجاه ومعانى السؤدد. كان اسلافه ملوك عمان في الدهر القديم، وكان يجمع الى هذا العلم الواسع والمعرفة الغزيرة، والست والوقار وطهارة النفس، وكانت داره ندوة من الندوات الادبية الرفيعة.

وقد وصفه على بن عمر الدارقطني ، امام محدثي عصره ، بقوله : « استولى على الفضائل ، وساد بعمان في حداثته سنة ، ثم خرج عنها ، فلقى العلماء بمكة والكوفة والبصرة . ورحل الى مدينة السلام سنة خمس وثلاثمائة ، فعلت منزلته عند السلطان ، وارتفع قدره ، وانتشرت مكارمه وعطاياه ، وانتابه الشعراء من كل موضع وامتدحوه واكثروا ، وأجزل صلاتهم ، وأنفق أمواله في بر العلماء والافضال عليهم ، وفي صلات الاشراف من الطالبين والعباسيين وغيرهم ، واقتناء الكتب المنسوبة . وكان مبرزا في العلم باللغة والشعر والنحو ومعاني القرآن والكلام . وكانت داره مجمعا لأهل العلم في كل فن ، الى ان توفي في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة »^١ .

هذا هو الرجل الذي اتيج للآمدي في بغداد أن يتصل به ذلك النوع من الصلة ، وهي صلة تجعله أكثر الناس اختلاطا به ومداخلة له . وهو — كما نرى — يعد من الشخصيات الفريدة ، في ذلك العصر ، بهذه المآثر المختلفة له ، وهذه النواحي القوية لشخصيته ، مما لا نستطيع معه الا القول بأنه كبير الأثر في كتابه الآمدي .

ولعل أول ذلك انه جنبه بالكتابة له ما كان معرضا له لو أن عمله كان في الديوان ، كاتباً من كتاب الدولة ، من أسباب الغرور المقيت والدعوى العريضة ، والذهاب في ذلك مذهب العجب والصلف ، والاكتفاء بذلك المظهر البراق عن التكميل بالعلم وألوان المعرفة ، الى غير ذلك مما نعرف من اخلاق عامة الكتاب ، وكان ذلك جديرا أن يصرفه عن أسباب المنزلة الأدبية التي بلغها . وأخرى انه أتاح له بهذه الصلة بيئة من أرفع البيئات وأبعثها لحوافر الطموح الأدبي والكمال العلمي . يلتقي فيها العلم والفن ، ويجتمع فيها الحديث والشعر ، ويلتزم فيها نوع من الوقار والتحفظ . وثالثه ان ابا جعفر الضبي كان بسمته ووقاره وعلمه وادبه وفضله مثالا لا بد أن يكون قد اجتذبه اليه ، كأنما كان يرى فيه الصورة الكاملة للرجل ، في ذلك العصر الذي اختلطت فيه القيم اياما اختلاط ، واضطربت فيه معايير الرجال اياما اضطراب .

(١) تاريخ بغداد ١٤ : ٣٣

وهكذا نستطيع أن نرى في هذا الذي اتيج للآمدي في بغداد من عمل يكسب به عيشه ، عاملا جديدا في تكوين شخصيته ، وفي انضاج ملكاته العقلية والفنية ، وفي اخذه بأسباب الاتزان ، مما نحسب ان كان له أثر غير قليل في الناحية النقدية التي نلتبس بهذا كله مقوماتها وموجهاتها عنده .

وكما لم نعرف متى جاء الى بغداد ، كذلك لا نعرف على وجه التحقيق متى تركها عائدا الى البصرة ، وفيهم كانت هذه العودة . ولكن الشيء الذي نستطيع في غير قليل من الطمأنينة أن نقطع به هو أنه كان بالبصرة قبل عام ٣٣٦ ، وهو العام الذي انتهت فيه اماره ابي القاسم البريدي على البصرة^١ ، فقد نقل ياقوت عن نشوار المحاضرة للتنوخي قصة حدث بها الآمدي ، جرت بينه وبين طلحة بن الحسين بن المثنى ، عن الخصومة التي كانت بين طلحة وبين أبي القاسم البريدي ، واشارته على طلحة أن يهرب من البصرة ولا يقيم^٢ ، مما يدل على انه كان بالبصرة في اثناء اماره ابي القاسم البريدي عليها ، وكان ذلك فيما بين سنة ٣٣٢ وسنة ٣٣٦ . أما متى بدأت هذه الإقامة فليس لدينا ما يدل عليه ، الا اذا افترضنا انه لبث في بغداد مصاحبا لأبي جعفر الضبي ، الى أن مات سنة ٣٣٥ ، فرحل بعد ذلك الى البصرة . وهو فرض قريب .

— ٦ —

وتبدأ الفترة الثالثة من حياة الآمدي منذ عودته هذه الى البصرة ، الى وفاته بها سنة ٣٧١ وهي الفترة التي برزت فيها شخصيته الادبية ، وحفلت باتناجه القوى العزيز ، كما سنرى صورة من ذلك .

ولكن هذه الفترة لم تخلص تماما للتأليف والانتاج العلمي ، فقد اصطنع فيها الكتابة ايضا ، وكان ذلك في الشطر الأول منها . قال ياقوت : « وكتب بالبصرة لأبي الحسن أحمد ، وأبي أحمد طلحة بن الحسن بن المثنى ، وبعدهما لقاضي البلد

(١) انظر : تجارب الامم لسكويه ٦ : ١١٢ ط مصر ، ١٩١٥

(٢) معجم الادباء ٨ : ٩٠

أبي جعفر بن عبد الواحد الهاشمي^١، على الوقوف التي تليها القضاة، ويحضر به في مجلس حكمه، ثم لأخيه أبي الحسن محمد بن عبد الواحد، لما ولى قضاء البصرة. ثم لزم بيته إلى أن مات^٢. وأبو أحمد المذكور في هذا النص هو الذي أشرنا إليه منذ قليل، أنه كان من المناوئين لأمير البصرة أبي القاسم البريدي. وقد انتهى أمره بأن قبض البريدي عليه، «وكان من أمره ما كان»، كما يقول الآمدي في نهاية تلك القصة.

وقد ظل الآمدي يصطنع الكتابة في البصرة إلى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وكان أكثر ذلك كما رأينا في مجالس القضاء، وكان آخر عهده بهذه الصناعة حين صرف، ذلك العام، محمد بن عبد الواحد عن قضاء البصرة، وولى على قضائها «رجل لم يكن عندهم بمنزلة من صرف به»، كما يقول ياقوت. وقد قال فيه الآمدي قطعتة الشعرية العابثة الساخرة، التي تدل على شاعريته الأصلية، وعلى روح السخرية عنده، كما تدل على مذهبه الفني من إثارة السهولة واليسر وقرب المأخذ في الشعر، وتلك هي التي يبدؤها بقوله، كما يوردها ياقوت:

رأيت قلنسوة تستغيث من فوق رأس، تنادي: خذوني

وبذلك ينتهي عهد اصطناعه للكتابة، وتفرغ بعدها للعلم، وقد تهيات له الغاية الأخرى التي كانت ما تزال تساوره، أن يكون عالما يث العلم ويؤخذ عنه، كما كان شيخه أبو بكر ابن دريد.

وهكذا انتهى الأمر بالآمدي. وأصبح عالما معروف الاسم مقصود المجلس في البصرة، وصار المرجع الذي يرجع إليه الطلاب والمتأدبون في فنون الأدب المختلفة، كما قال القفطي في سياق ترجمته له: «واتسع في الآداب وبرز فيها، وانتهت رواية الشعر القديم والأخبار في آخر عمره، بالبصرة، إليه»، وبذلك أحيى مجالس الرواية الأدبية التي كانت البصرة حريصة على ألا تزال مثلة فيها، وأخذ المكان الذي كان يحتله بها ابن دريد والمفجع وأبو رياش في هذا العهد الأخير لها، وبه استطاعت البصرة أن تمد مجدها الأدبي التالذ فترة من الزمن أخرى.

(١) هكذا جاء اسمه في النص هنا، وفي موضع آخر (ص ٨١) ما يدل على أن اسمه هو:

«أبو القاسم جعفر»، كان كلمة «القاسم» سقطت من النص في هذا الموضع.

(٢) معجم الأدباء ٨: ٨٧

(٣) الإنباء على أنباء الرواة ١: ٢٨٨

وكان من وجوه النشاط التي اتجه الآمدي إليها تأليف الكتب في الموضوعات الأدبية المختلفة. ومن آثاره التي بلغت أساؤها كتب تدل هذه العنوانات على أنها من صميم النقد الأدبي، من ذلك كتابه «في أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما» فهذه المسألة التي عالجها في هذا الكتاب تعد من أصل مسائل النقد الأدبي، إذ هي — كما يبدو — تتعلق بأصل الابداع الفني. ووددنا لو أن هذا الكتاب وصل إلينا، لنعرف ماذا قال فيها، وبأي أسلوب عالجها.

ومن هذه الكتب أيضا «كتاب فرق ما بين الخاص والمشارك من معاني الشعر». وقد ذكر ياقوت في التعليق عليه أنه «تكلم فيه على الفرق بين الألفاظ والمعاني التي تشترك العرب فيها، ولا ينسب مستعملها إلى السركة، وإن كان قد سبق إليها، وبين الخاص الذي ابتدعه الشعراء وتفرّدوا به». وقد يكون بين موضوع هذا الكتاب والذي قبله صلة من حيث الأصل الأول في الموضوعين. ولكن هذا الكتاب يعالج في الواقع بحثا من الأبحاث التي أثارها في جو النقد الأدبي مسألة السركات الشعرية، وهي المسألة التي عظم شأنها وكثر الكلام فيها في الحركة النقدية التي ثارت حول أبي تمام.

ونستطيع أن تبين مذهب الآمدي في مسألة «الخاص والمشارك من معاني الشعر» فيما عرض له من ذلك في كتابه «الموازنة». فقد عرض لهذه المسألة في موضعين: أولهما في سياق الفصل الذي عقده لايراد «سركات أبي تمام» إذ عرض لكتاب ابن أبي طاهر الذي خرج فيه سركات أبي تمام «فأصاب في بعضها وأخطأ في البعض، لأنه خلط الخاص من المعاني بالمشارك بين الناس، مما لا يكون مثله مسروقا»، والثاني في الفصل الذي عقده لايراد «سركات البحتري»، إذ عرض للكتاب الذي كتبه في ذلك أبو الضياء بشر بن تميم، وقد مذهب في السرق^٢. وجملة القول في مذهب الآمدي في السرق أنه «إنما هو في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر، لا في المعاني المشتركة بين الناس التي هي جارية في عاداتهم، ومستعملة في أمثالهم

(١) الموازنة، ص ١٠٠ ط حجازي بالقاهرة، ١٩٤٤ — (٢) الموازنة، ص ٣٢٠. وقد عرض الآمدي لأبي الضياء قبل ذلك (ص ٤٥) بأنه «ذكر ما يشترك الناس فيه، وتجري طبائع الشعراء عليه، فجعله مسروقا».

ومحاوراتهم ، مما ترتفع الظنة فيه عن الذي يورده ان يقال اخذه عن غيره . فذلك هو راي الآمدي في السرقة الادبية ، وقد قرره فيما تقد به كلا من ابن ابي ماسر وبشر بن تميم ، تقريراً جلياً .

وكأنما جعل الآمدي هذا الكتاب في ايضاح ما تقع فيه السرقة ، وهو الخاص من معاني الشعر ، ومالا تقع فيه ، وهو المشترك منها ، وتفصيل ذلك وايراد شواهد وامثاله ، ومناقشة ما وقع فيه الخلاف منه .

وكذلك عني الآمدي بنقد بعض الكتب التي وضعت في عصره أو قريباً منه ، في النقد الأدبي ، فكتب في ذلك غير كتاب . من ذلك كتابه : « تبين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر » . وقد قال ياقوت عن هذا الكتاب انه « الفه لأبي الفضل محمد بن الحسين بن العميد وقد قرأه عليه ، وكتب خطه ستة خمس وستين وثلاثمائة » . ومن هذه العبارة نرى كيف استطاع الآمدي ، بما أحرزه من منزلة ادبية رفيعة وصيت علمي ذائع . ان يتصل بأصحاب السلطان ، فاتصل بابي الفضل ابن العميد وزير ركن الدولة . وكان هذا الكتاب مظهراً من مظاهر هذه الصلة . وقد عرض الآمدي لقدامة في غير موضع من كتابه « الموازنة » ، مما لعله يؤدي

اليينا فكرة ما عن كتابه هذا . عرض لبعض الاصطلاحات التي استعملها قدامة ، فنقدتها ، كاستعمال كلمة « المتكافئ » للدلالة على المطابق ، واستعماله « المطابق » للدلالة على ضرب من ضروب الجنس . قال الآمدي : « بعد اشارته الى هذا الصنيع في كتاب قدامه « المؤلف في نقد الشعر » : « وما علت أن أحدا فعل هذا غير أبي الفرج ، فانه — وإن كان هذا اللقب يصح لموافقته معنى الملقب به ، وكانت الألفاظ غير محظورة — فاني لم اكن احب له أن يخالف من تقدمه ، مثل ابي العباس عبد الله بن المعتز ، وغيره ممن تكلم في هذه الانواع وآلف فيها »^١ . ومن ذلك أيضاً استعمال قدامة لكلمة « المعاملة » ، وذهاها في اطلاقها مذهباً مخالفاً ، اذا يقول الآمدي ، بعد أن أورد تعريفها الذي اطبق عليه العلماء : « الا ابو الفرج قدامة بن جعفر ، فانه ذكر ذلك في كتابه المؤلف في نقد الشعر ، ومثل له امثله ،

(١) الموازنة ص ٢٦٠ — (٢) نقد الشعر ، ص ١٧٤ ط الخانجي ، ١٩٤٩

فغلط في امثلة المعاملة ، وقد ذكرت ذلك في كتاب بينت فيه جميع ما وقعت عليه من سهوه وغلطه . ولعلنا نستطيع أن نرى في هذا الحرص من الآمدي على اقرار المصطلح العلمي ، وتلك الكراهية لعبث قدامة به على ذلك الوجه ، مظهراً من مظاهر العقلية المنظمة ، وأثراً من آكار الدراسة النحوية ، كما سبق لنا القول في هذه الناحية .

وهناك موضع ثالث عرض فيه الآمدي لقدامة في الموازنة ، في الجزء الذي لم يطبع منها بعد ، وقد أورد الدكتور محمد مندور نص عبارته فيه^٢ . وهو يريد رأي قدامة في أن المدح يجب أن يكون بالفضائل النفسية دون أوصاف الجسم في البهاء والزينة . قال : « وقد غلط بعض المتقدمين في هذا الباب ممن ألف في نقد الشعر كتاباً ، غلطاً فاحشاً ، فذكر ان المدح بالحسن والجمال ، والذم بالقبح والدمامة ، ليس بمدح على الحقيقة ولا ذم على الصحة ، وخطأ كل من يدح بهذا أو يذم بذلك ، فبدل بهذا المعنى عن مذاهب الأمم كلها : عربياً وعجمياً ، وأستط اكثر مدح العرب وهجائها ، وقد بينت قبج غلطه في هذا تبيننا شافياً مستقصى في كتاب مفرد » .

فهذا هو كتاب الآمدي « تبين غلط قدامة بن جعفر » قدر ما تؤدي اليينا عنه هذه الاشارات المقتضية ، على اننا نرى في بعضها انه من الكتب التي سبقت في التأليف كتاب الموازنة .

ومن هذه الكتب التي كتبها صاحبنا في نقد بعض ما كان يكتبه علماء الأدب المعاصرون كتاب « الرد على ابن عمار ، فيما خطأ فيه ابا تمام » . وابن عمار هذا الذي كتب الآمدي في الرد عليه هذا الكتاب هو أبو العباس ، أحمد بن حبيب بن محمد بن عمار القطريلي ، المتوفى سنة ٣١٤ ، وكان أحد تلاميذ محمد بن داود بن الجراح^٣ . وقد عرض له الآمدي في « الموازنة » ، في سياق المقدمة التي قدم بها الجزء الثاني ، في أثناء كلامه عن تعصب المتعصبين على أبي تمام ، فقال : « وتجاوز ذلك بعضهم الى القدح في الجيد من

(١) الموازنة ص ٢٦١ — (٢) النقد المنهجي عند العرب ، ص ١٠٧

(٣) انظر ترجمة ابن عمار في تاريخ بغداد ٤ : ٢٥٢

شعره ، وطمع فيما لا يطمع عليه ، واحتج بما لا تقوم حجة به ؛ ولم يقتنع بذلك مذاكرة ولا قولاً ، حتى الف في ذلك كتاباً ، وهو أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عمار القطريلي ، المعروف بالفريدي^١ . ثم ما علمته وضع يده من غلطه وخطئه الا على آيات يسيره ولم يقم على ذلك الحجة ، ولم يهتد لشرح العلة ، ولم يتجاوز فيما نعاها بعدها عليه الآيات التي تتضمن بعد الاستعارة وهجين اللفظ . وقد بينت خطأه فيما انكر من الصواب في جزء مفرد ، ان احب القارى أن يجعله من جملة هذا الكتاب فعل ذلك ان شاء الله تعالى . فالذي تضمن يدخل في محاسن أبي تمام التي ذكرت اني اختم كتابي بها وبمحاسن البحري^٢ . ثم يأخذ الآمدي بعد ذلك في ايراد الآيات التي انكرها ابو العباس ابن عمار ولم يقم الحجة في تبين خطئها واطهار العيب فيها ، وهي ثلاثة آيات افاض الآمدي في التعليق على قول ابن عمار فيها ، مما يؤدي لنا - على أى حال - صورة من منهجه وأسلوبه في هذا الكتاب الذي لم يصل اليها .

ومن هذه الكتب أيضاً «كتاب ما في عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ» . وابن طباطبا المعنى هنا هو أبو الحسن ، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى ، «شاعر مفلق، وعالم محقق ، شائع الشعر نبيه الذكر ، مولده باصبهان ، وبها مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة» كما يقول ياقوت في صفته^٣ وقد ذكر بين ما ذكر من كتبه «عيار الشعر» هذا الذي كتب عليه الآمدي كتابه الذي لم يصل بعد اليها ، ولم تقع بعد على ما قد عمله لنا .

أما كتاب عيار الشعر نفسه فهو كتاب من الكتب الجيدة ذات الشخصية الواضحة القوية في الكلام عن الفن الشعري . وقد بقيت لنا منه نسخة مخطوطة ، نرجو أن نوفق الى نشرها قريباً ، ان شاء الله^٤ .

(١) كذا جاءت الكلمة (الفريد) في النسخة المطبوعة ، وهي مصحفة عن «العزيز» ، فقد كان يلقب ، كما في تاريخ بغداد ، بحمار العزيز . وقد أورد الخطيب بيتين لابن الرومي فيه ، وهما :

وفي ابن عمار عزيرية بخاصم الدهر بها والقدر
ما كان لم كان ؟ وما لم يكن لم يكن ؟ فهو وكيل البشر

(٢) الموازنة ، ص ١٤٦ - (٣) معجم الأدباء ١٧ : ١٤٣

(٤) وقد نشر هذا الكتاب أخيراً بمشاركة الصديق الدكتور محمد زغلول سلام ، وأصدرته المكتبة التجارية بالقاهرة .

وكما كتب الآمدي في هذا النحو من انحاء النقد الأدبي ، كتب في الموازنات الادبية ، وهي باب واسع من أبواب النقد الأدبي عند العرب ، بدأ ساذجاً ثم مازال يتمقد شيئاً فشيئاً ، اذ جعل يستجيب لمظاهر التطور المختلفة ، حتى بلغ به صاحبنا هذا المبلغ الرائع الذي نراه في كتابه هذا الذي نقصد له هذا البحث ، كما يذكر له كتاب آخر لم يصل اليها ، اسمه «تفصيل شعر امرئ القيس على الجاهليين» .

فأما كتاب «الموازنة بين الطائيين» ، فهو أحد كتابيه اللذين وصلا اليها ، وثانيهما هو كتاب «المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم والقابهم وانسابهم وبعض شعرهم»^١ . وقد قال في مقدمته تعريفاً بموضوعه ومنهجه : «هذا كتاب ذكرت فيه المؤتلف والمختلف والمتقارب في اللفظ والمعنى ، والمتشابه الحروف في الكتابة ، من أسماء الشعراء . واسماء آبائهم وامهاتهم ، والقابهم مما يفصل بينه الشكل والنقطة واختلاف الابنية . وانما ذكرت من الأسماء والألقاب ما كانت له نباهة وغرابة ، وكان قليلاً في تسميتهم وتلقيبهم ، وكانوا اذا ذكروه ذكروه مفرداً عن اسم الاب والقبيلة لشهرته» . وظاهر انه اتبع في تأليف هذا الكتاب اسلوباً من اساليب علماء الحديث في التأليف في الرجال وتصنيفهم ، وقد تحدث فيه عن ستمائة وخمسة وتسعين شاعراً ، يندرجون جميعاً تحت الشريطة التي اشترطها ، ويقعون في النسق الذي وضعه .

واذا كان كتاب الموازنة يكشف لنا عن ذوقه ورهافة حسه ومبلغ دقته ، فهذا الكتاب يكشف لنا عن علمه بالأدب واسع ، ومعرفة بالرواية دقيقة ، واحاطة بدقائق التراث الادبي شاملة ، مما اتاح له أن يتبوأ ذلك المكان الذي تبوأه في البصرة ، اذ انتهت اليه فيها رواية الأخبار والاشعار القديمة . وذلك فيما نرى عنصر من أصل العناصر في تكوين شخصيته الناقدة التي انتجت لنا كتابه الخالد : «الموازنة بين الطائيين» .

(١) طبعته مكتبة القدسي بالقاهرة سنة ١٣٥٤ هـ ، بتصحيح وتعليق الاستاذ ف ، كرنكو ، وان كانت تعليقاته المنشورة ليست الا جزءاً مما كتبه ، وقد توسع فيها «بما يدل على عناية فائقة وجهد عظيم» كما يقول الناشر .

وبعد ، فلعلنا استطعنا فيما قدمنا أن تبين شخصية الآمدى ومقوماتها وابرز سماتها ونواحي نشاطها ، وأن نتعرف الصلات التي تربط بين ذلك كله وبين الناحية النقدية فيه . وبنا الآن أن نتلمس الملابس التي لابست ابا القاسم في الاتجاه الى وضع هذا الكتاب ، لنخلص من ذلك الى الكتاب نفسه .

ولقد أشرنا من قبل الى السبب الأعم الحافز الى اثاره هذا الموضوع الذي بنى عليه كتابه ، وهو أن الكلام عن ابي تمام والخصومة حوله هو في حقيقته وجه من وجوه الكلام عن قضية التجديد في الشعر . وهي قضية متجددة دائما . وهذا الى أن تجديد أبي تمام يصدر في معظمه عن ذلك النزوع العقلي الذي أخذ يغلب على الحياة الاسلامية ، وجعل يدعو الى تحكيم النظرة المتفلسفة المتعمقة الفاحصة . واذا كان هذا النزوع العقلي قد بدأ منذ القرن الثاني ، فانه ما زال ينمو ويتغلغل حتى أخذ في القرن الرابع صورة بارزة قوية ، فلا جرم كان في ذلك ما يقوى ذلك الحافز الأول الى الكلام عن مذهب ابي تمام ، ومناقشة تلك القضية .

كما أشرنا من قبل أيضا الى حركة التأليف التي أثارها هذه الخصومة ، وظلت ماضية متصلة الى أيام الآمدى ، وقد كان هو بطبيعة اتجاهه الى الدراسات الأدبية متصلا بهذه الحركة ، فلا جرم استطاعت أن تجتذبه اليها ، وتثير في نفسه الرغبة الى المشاركة فيها ، بالمناقشة وابداء الرأي ، سواء بالحديث في المجالس والمناظرة في الاندية ، أم بكتابة الرسائل والكتب . وقد رأينا منذ قليل ان له كتابا كتبه قبل أن يكتب الموازنة في الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه ابا تمام .

وهنا موضع الكلام عن أحد الكتب التي كتبت في أيامه عن ابي تمام ، وكانت تعبيراً عن تلك الخصومة واستجابة لها ، وهو كتاب « أخبار أبي تمام » لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي ، المتوفى سنة ٣٣٥ أو سنة ٣٣٦ . وقد وضعه وهو يريد به الانتصار لأبي تمام من خصومه . ومثل هذا الكتاب لا ينبغي أن يفوت الباحث عن الاعتبارات المختلفة التي لابست تأليف الآمدى للموازنة ، ان يجعله في باله .

وقد رجح ناشرو هذا الكتاب ، فيما قدموا له ، أنه وضعه في آخر أيامه ، وذلك اذ يقولون : « ورجح ان يكون الصولي ألف هذا الكتاب في أيام محنته التي أشرنا اليها ، أي في أواخر أيامه ، حين خرج من بغداد مغضوبا عليه ، فهو يقول لأبي الليث مزاحم بن فاتك الذي قدم له الكتاب : « ... ثم أرتنى عين الرأي بقية في نفسك لم يطلعها لي لسانك ، اما كراهة منك لتعبي ، أو اشفاقا من الزيادة في شغلي ، مع ما يتقسنى من جور الزمان وجفاء السلطان وتغير الاخوان » وأيام المحنة التي تشير هذه العبارة اليها هي التي خرج فيها الى البصرة ، بعد ان ضاقت بغداد عليه ، كما ذكر ذلك الخطيب وياقوت فيما أوردها ترجمة له^(١) .

واذا صح هذا الفرض كان علينا أن نعرف تاريخ رحيله من بغداد الى البصرة ليكون في ذلك ما يعيننا في معرفة الفترة التي كتب فيها كتابه . وليس هناك نص يذكر هذا التاريخ ، وانما نستنتجه استنتاجا من انه لم يشر الى أي شيء يدل عليه في سياق ما كتبه في كتابه « الأوراق » من أخبار الراضي بالله والمتقى لله ، مع انه لم يفته أن يسجل في خلال ذلك حياته الخاصة ، واذن فان هذا الرحيل عن بغداد لم يحدث الا بعد عهد المتقى لله ، أي بعد سنة ٣٣٣ . واذن فكتاب « أخبار ابي تمام » انما كتبه الصولي في فترة تقع بين هذه السنة وسنة وفاته ، وهي ٣٣٥ أو ٣٣٦ . ويكون بذلك وثيق الصلة بالآمدى ، لا من ناحية موضوعه فحسب ، بل لأن الصولي كتبه بين عيني الآمدى وبصره ، فقد كتبه بالبصرة وشهد الآمدى مولده ، وذلك أجدر ان يثير في نفسه التفكير في موضوعه ، وترديد النظر في مسائله .

على أن هذا الفرض ليس ، عندنا ، مما يطمأن اليه ، اذ كان لا يصح الا اذا صح أن حياة الصولي استمرت هائلة هادئة مستقرة لم يتخللها غناء ولم تعترضها محنة الا تلك التي اعترضت حياته في آخرها ، فحملته على الخروج الى البصرة ، وليس هذا — فيما يبدو — صحيحا . فقد تعرض الصولي غير مرة « لجور الزمان وجفاء السلطان وتغير الاخوان » ، وهو ما يزال في بغداد : تعرض لذلك بعد عهد الراضي بالله ، كما يبدو ذلك واضحا فيما حكاه عن نفسه في سياق ما كتبه من أخبار المتقى لله ،

(١) تلخيص بغداد ٣ : ٤٣٢ ، معجم الاباء ١٩ : ١١١

كما تعرض له قبل عهد الرازي ، على النحو الذي يعرضه علينا شعره في مدح هذا الخليفة .

فما ينبغي اذن ان يكون لتاريخ كتاب الصولي شأن فيما نحن فيه من تلمس الملابس التي كان لها أثرها في اتجاه الآمدي الى وضع كتابه « الموازنة » وتأليفه . والواقع ان هذا الشأن للكتاب نفسه ايا كان زمان كتابته ومكانها . فقد كان الصولي والآمدي يمثلان في الحياة الأدبية في القرن الرابع طرفين مختلفين كل الاختلاف ، في المزاج العقلي والطبع والخلق واسلوب الحياة ، فمن الطبيعي أن صنيعا يصنعه الصولي لابد ان يتردد صده عند الآمدي في الصورة التي يكتفيها مزاجه وطبيعته .

وقد أشرنا من قبل ، عند الكلام على شيوخ الآمدي ، الى ما كان بين أحد شيوخه هؤلاء ، وهو ابو موسى الحامض ، وبين ابي بكر الصولي من منافسة ومحاسنة وبغضاء ، وأن الحامض كان ما يزال يقنع في الصولي نبزا له وتعريضا به . ويذهب الأستاذ محمد عبده عزام في المقدمة التي كتبها لديوان ابي تمام الى ان ذلك ربما كان له اثره فيما كان بين الآمدي والصولي ، اذ يقول : « وربما كان لهذه التلمذة أثر فيما كان بين هذين الرجلين : الصولي والآمدي ، من عداوة ، حتى لكأنما اتخذوا من أبي تمام ميدانا للجدل والمخاصمة »^١ . فان صح هذا الذي يستظهره الأستاذ عزام ، وهو — فيما يبدو — قريب جار مع منطق الامور ، فان ازورار الآمدي عن الصولي وسوء رأيه فيه شيء قديم ، وقد ظل كامنا منذ ذلك الوقت الذي كان يجلس فيه الى استاذة أبي موسى الحامض ، وهو ما يزال بعد شابا بغض الاهداب ، قريب عهد بهذه البيئة الجديدة في بغداد ، مقبلا عليها معجبا بها ، وانه ليستمع من استاذة — بين ما يستمع اليه — رأيه في ابي بكر الصولي ، يعرض حيناً ويصرح حيناً آخر ، بلسانه الحاد وعبارته اللاذعة . حتى اذا ما ظهر كتاب الصولي عن ابي تمام كان من الطبيعي أن يثير ظهوره هذه الآثار الكامنة في أعماق نفسه ، ويبتعث تلك البغضاء القديمة التي بقيت في صدره ميراثا ورثه عن استاذة أبي موسى الحامض ، ويكون

(١) ديوان ابي تمام بشرح الخطيب التبريزي ١ : ٢٥ (المقدمة) ، ط دار المعارف ، ١٩٥١

ذلك من العوامل أو الملابسات التي دفعت به الى وضع كتابه الموازنة ، ولو على غير وعى منه ، وان تأخر عهده .

ولعله مما يؤازر هذا الفرض ويمكن له ما يذهب اليه الدكتور محمد مندور من « ان كثيرا من اقوال انصار ابي تمام (يعني في كتاب الموازنة) ما هي الا تلخيص لاقوال الصولي في اخبار ابي تمام »^١ .

بل انا لنستطيع فوق ذلك أن نلمح في كتاب الموازنة شيئا من أصداء هذه العداوة القديمة الموروثة ، على تراخي العهد ، في غير موضع منه ، فنحن نشعر شعورا قويا باللهجة الساخرة التي يحيط بها الآمدي اسم الصولي حين يرد اسمه على لسانه — وقلما يذكره باسمه — كقوله ، وهو يتكلم عن بيت من شعر ابي تمام رابته روايته ، ووقع في خلده ان تصحيفا أصابه : « حتى رجعت الى النسخ العتيقة التي لم تقع في يد الصولي وأضرابه ، فوجدت البيت في غير نسخة مثبتا على هذا الخط »^٢ . فهذه عبارة تنضح بالسخرية . وانه ليتضح لنا ذلك حين نعرف أن الصولي كان — فيما عرف عنه واشتهر به — عريض الدعوى في كل ما يتصل بتحقيق الشعر . وقد كان فيما يكتب ما يحقق هذا الذي ذاع عنه ، كقوله مخاطبا ابا الليث : « وليس يجب — أعزك الله — أن تنظر الى اختلاف الناس في ابي تمام ، واضطراب روايتهم لشعره ، فانهم بعد اتمام هذه النسخة يجتمعون عليها ويسقطون غيرها ، كما كانوا مختلفين في شعر أبي نواس وأخباره ، ثم قد اجتمعوا عليه بعد فراغى منه ، حتى ان النسخة من شعره من غير ما عملته لتباع بدراهم ، وقد كانت قبل ذلك تباع بعددها دنانير ، ولعلها بعد قليل تنفد فلا ترى وتستقط فلا تراء »^٣ ففى هذه العبارة من ثقل الدعوى ما هو واضح جلي .

ومن هذه الاصداء التي نحسها في كتاب الموازنة ، صادرة عن تلك الكراهية القديمة ، قوله في سياق حديثه عن الشعر وأسباب ذوقه ووسائل تقده والحكم عليه : « وبعد ، فلم لا تصدق نفسك ايها المدعى ، وتعرفنا من اين طرأ لك الشعر . أمن

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ٨٣ ، ط مكتبة النهضة — (٢) الموازنة ، ص ١٩٢

(٣) اخبار ابي تمام ، ص ٥٧ — ٥٨

أجل أن عندك خزانة كتب تشتمل على عدّة من دواوين الشعراء^(١)، كما يذهب الاستاذ محمد عبده عزام الى انه يعنى بذلك ابا بكر الصولي^(٢)، وهو مذهب قريب سائغ لا تكلف فيه ان يكون بهذه العبارة انما ينظر الى الصولي في تهكم وسخرية، كما تدل على ذلك هذه الاشارة الى خزانة كتبه. وهى اشارة الى ما شاع في الناس عنها من اعتداده بها، واعتزازه بمحتوياتها، وعنايته الشديدة بترتيبها وتنظيمها، حتى أصبح ذلك موضع التندر من خصومه ومن اصحاب المبت والسخرية، كما نرى في هذه الابيات التى قالها فيه ابو سعيد العقيلى:

انما الصولى شيخ	أعلم الناس خزانة
ان سألناه بعلم	نبتغي عنه الابانة
قال: يا غلمان هاتوا	رزمة العلم فلانة ^(٣)

وبذلك نرى أن «أخبار ابي تمام» للصولى تعتبر من أدنى الملابس التى لا بست الأمدى فى وضع كتابه «الموازنة». ولعل الكتاب حين ينشر كاملا يمكن ان يؤدى الينا غير ذلك من الاصداء.

والى جانب حركة التأليف هذه كانت هنالك المجالس الأدبية التى تدور فيها المناظرة حول ابي تمام والبحترى. وقد رأينا ما كان من مثل ابي رياش اليمامى فى ذلك. كما أن الأمدى يشير فى غير موضع من كلامه الى هذه المجالس، فمن ذلك ما قاله فى سياق كلامه عن بيت ابي تمام:

الود للقريبى، ولكن عرفه للأبعد الأوطان دون الاقرب

«وقد عارضنى فى هذا البيت غير واحد ممن ينتحل نصره ابي تمام» ثم أورد صورة من الحوار الذى دار بينه وبينهم فى ذلك، ومن ذلك أيضا قوله، بعد أن بسط رأيه فى هذا البيت:

رضيت، وهل أرضى اذا كان مسخطى من الأمر ما فيه رضا من له الأمر

«وقد استقصيت القول فى هذا البيت، وما ذكره النحويون وسيبويه وغيره فى معنى قد وهل ولخصته فى جزء مفردة وانما فعلت ذلك لكثرة من عارضنى فيه، وادعى الدناوى الباطلة فى الاحتجاج لصحته»^(٤).

فقد كانت مجالس العلم اذن حافلة بالمناظرة حول هذا البيت وذاك من شعر ابي تمام، وكانت المناقشات ما تفتأ تدور حول ما يفيد هذا البيت من معنى، ومبلغ الصلة بين لفظه ومعناه، مرددة اقوال النحاة واللغويين فى التقرير والحجاج، وكان فى هذه المناظرات ما يحفز الى التأليف فى موضوعها، ويشير الرغبة فى تسجيلها وتحرير القول فيها، كما صنع الأمدى فيما دار حول ذلك البيت.

واذن فقد كان الجو فى بيئات البصرة الأدبية مغمورا بتلك الخصومة القديمة على النحو الذى رأينا صورة منه. ثم جاءت خصومة جديدة حول شاعر جديد هو المتنبى، فزادت الخصومة القديمة حدة على حدة ونشاطا على نشاط. وبين مذهب المتنبى الأدبى ومذهب أبى تمام وشائج قري، فكان المحتجون للمتنبى والمعتذرون عنه يتخذون من أبى تمام ذريعة لهم، واذن فقد جاءت هذه الخصومة الأدبية الجديدة بمادة جديدة، فزادت النار وقودا، وأعادت الحرب جذعة، بدلا من أن تصرف الناس عنها، لتجندهم لها وتحشدتهم فى ميدانها.

ولا ريب أن مثل هذا الجو كان جديرا بأن يشير الأمدى الى ان يسهم فى هذه الحركة الأدبية النشيطة بعمل كبير حاسم، وهو الذى شغلت هذه الحركة مكانا ظاهرا فى حياته، وأخذت بنصيب غير قليل من تفكيره. وقد كانت الرغبة فى الموازنة بين الشعارين قد حملته على أن يدون كل ما يراه رائعا من شعرهما، كل بازاء الآخر، على مر الأوقات، ليرى بوضوح فى آخر الأمر مجموعة محاسن هذا، مقابلة بمجموعة محاسن ذاك، على نمط دقيق منتظم، كما يقرر هو ذلك عن نفسه فى موضع من كتابه^(٥). كأنما كان يهدف منذ ذلك الوقت على هذه الصورة لوضع كتابه هذا:

(١) الموازنة، ص ١٩١ - (٢) الموازنة، ص ٤٤

(١) الموازنة ص ٣٨٦ - (٢) ديوان ابي تمام بشرح التبريزى، ص ٢٣ (المقدمة)

(٣) معجم الادباء ١٩ : ١١١ - (٤) الموازنة ص ١٥٥

وهكذا وضع الآمدى كتابه هذا استجابة لهذه الحوافز الادبية القوية التي اتخذت صوراً مختلفة، والتي كانت ما زالت تعمل في نفسه وتدفع به وتوجهه، وان يكن صدره بما يشير الى ان شخصا بعينه قد رغب اليه فيه، وحشه على صنعه، اذ يقول : « هذا ما حشث - ادام الله لك العز والتأييد والتوفيق والتسديد - على تقديمه من الموازنة بين ابي تمام حبيب بن اوس الطائي ، وابي عبادة الوليد بن عبيد الله البحتري » . وليس يعنيننا كثيرا أن تتلمس السبل الى معرفة هذا الرجل، فانما الشأن الأول عندنا في هذه الدراسة هو تبين الملابس الخارجية والنفسية التي لا بدت وضع هذا الكتاب ، وتعرف مقومات الشخصية التي أنشأته .

ولعل ما أسلفناه من سيرة الآمدى يبين لنا أن شخصيته كان يغلب عليها الطابع الادبي والزروع الفني ، فهو شاعر يحسن قول الشعر ، ويجيد التعبير عن مشاعره ، ويعرف كيف يسخر السخرية اللاذعة ، وهو - في هذا القدر الذي بلغنا من شعره - شاعر مطبوع لا تكلف في شعره ولا تعسف ولا تعقيد . كما رأينا أن الثقافة الادبية التي عرض لها او عرضت له قبل ان يترك البصرة الى بغداد انما كانت ثقافة أقرب الى الفن الخالص منها الى الدرس العلمي أو المعاناة العقلية ، فاکثر الرواة الذين كان يؤخذ عنهم الشعر القديم ويرجع اليهم فيه كانوا أيضا شعراء مطبوعين كابن دريد وابن لنكك والمفجع البصري ، وكانوا في شعرهم يؤثرون الديباجة الجيدة الرائعة والمعاني القرينة التي لا تكلف فيها ولا اجتلاب لها . ومن ذلك جرت نزعة الفنية وثقافته الادبية ابان نشأته الأولى في البصرة في مجرى واحد ، متساويتين تغذوا الواحدة منهما الاخرى ، حتى اذا مضى الى بغداد يلتبس لشخصيته أسباب التكميل فيها بطلب النحو والجلوس الى النحاة والاتصال بتلك الثقافات العلمية المختلفة التي كانت بغداد مركزا لها ، كانت له شخصيته الادبية الناضجة . ولكن

هذه الدراسة لم تخله بطبيعة الحال من آثارها، فأصبحت على هذه الشخصية رداءا عليها ، وأخذت عقله بالتنظيم والتحرير والتعمق وحج الاستقصاء . ثم جاءت صحبتة لأبي جعفر الضبي فوسعت آفاقه ، وعدلت هذه المقادير في نفسه ، ووازنت بين النوازع المختلفة عنده ، وهياته لذلك المكان الذي استقر به أخيرا : مكان الناقد الادبي المستقل الرصين المتزن ، على النحو الذي نراه في كتابه هذا .

وقد رسم الآمدى خطة الكتاب على نحو أراد به أن يضع أمام القارئ المواد التي تمكنه من الفصل في هذه الخصومة الشعرية على هدى وبصيرة ، فهو يبدؤه بنوع من المقدمة يذكر فيها بعض القضايا العامة في هذه الخصومة ، ويحكي فيها ما كان يدور بين طرفي الخصومة من احتجاجات لها ومناظرات عليها ، كدهوى ان ابا تمام صاحب مذهب في الشعر ، ومدى ذلك ، وقضية الشعر والعلم ، ومبلغ ما بينهما من تعاضد أو تعارض وتدافع، اذ كان أبو تمام شاعرا عالما ، الى غير ذلك مما تثيره « كل فرقة من اصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الأخرى ، عند تخصمهم في تفضيل احدهما على الآخر ، وما ينشأه بعض على بعض » . وقد صرح هو في هذه المقدمة ، أو ما نعتبره نحن كالمقدمة ، بأنه انما يفعل ذلك « ليزداد القارئ بصيرة وقوة في حكمه ان شاء أن يحكم ، واعتقاده فيما لعله يعتقد احتجاج الخصمين به » . فقد وقف نفسه كما نرى منذ البدء في موقف من يمد القارئ بمواد الخصومة ، ليكون القارئ نفسه هو الحكم فيها . أترى كان ذلك أمره في مجالس القضاء حين كان من كتابها ؟

فاذا فرغ من هذه المسائل العامة ومن عرض وجهتي النظر المختلفتين في كل منها ، أخذ في صميم الكتاب ، وقد اختط لنفسه خطته في تصميمه وبناءه على الصورة التي يعرضها في بدايته ، اذ يقول :

« وانا ابتدىء بذكر مساوي هذين الشاعرين لأختم بذكر محاسنهما ، واذكر طرفا من سرقات ابي تمام ، واحالاته ، وغلطه ، وساقط شعره ، ومساوي البحتري في أخذ ما أخذه من معاني ابي تمام ، وغير ذلك من غلظه في بعض معانيه . ثم أوازن

من شعريهما بين قصيدتين اذا اتفقتا في الوزن والقافية واعراب القافية، ثم بين معنى ومعنى، فان محاسنهما تظهر في تضاعيف ذلك، ثم اذكر ما انفرد به كل واحد منهما من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه. وافرد بابا لما وقع في شعريهما من التشبيه، وبابا للأمثال، اختتم بهما الرسالة^١.

وبهذا التخطيط الذى رسمه الآمدى لكتابه وضعه في جزأين كبيرين: أحدهما يوازن فيه بين الشاعرين من ناحية المآخذ التى أخذت على كل منهما، مع خاتمة مجملة يبين فيها ما قيل من فضل هذا وفضل ذاك، والآخر يوازن فيه بينهما من ناحية قدرة كل واحد منهما وأسلوبه في معالجة المعنى الواحد وأدائه.

فأما جزء المآخذ فقد جعله في باين كبيرين، وان كانا متفاوتين تفاوتاً شديداً، قدر تفاوت الرجلين عنده في المآخذ عليهما: أولهما خاص بابى تمام والثانى خاص بالبحترى. وقد صنف مساوى أبى تمام في سبعة فصول، وهى: (١) سرقاته^٢، (٢) ما غلط فيه من المعانى والالفاظ^٣، (٣) قبيح الاستعارات^٤، (٤) قبيح التجنيس^٥، (٥) ما يستكره من الطباق^٦، (٦) سوء النظم والتعقيد ووحشى الالفاظ^٧، (٧) الزخاف واضطراب الوزن^٨. فأما مساوى شعر البحتري فقد صنفها في أربعة فصول وهى: (١) سرقاته^٩، (٢) ما أخطأ فيه من المعانى^{١٠}، (٣) ردى التجنيس وقبيحه^{١١}، (٤) اضطراب الأوزان^{١٢}.

وأما الجزء الثانى وهو الخاص بالموازنة بين الشاعرين من ناحية الديباجة الشعرية والتعبير عن المعانى فقد كانت خطته التى اختطها، كما رأينا في عبارته التى أوردناها، أن يوازن « بين قصيدتين اذا اتفقتا في الوزن والقافية واعراب القافية، ثم بين معنى ومعنى ». فقد كان يريد اذن ان يصطنع نوعين من هذه الموازنة: الأولى موازنة في الديباجة والصياغة دون نظر الى المعنى، والآخر موازنة بين أسلوب وأسلوب في التعبير عن المعنى الواحد. كذلك كان يتقدر، ولكنه حين أخذ يواجه الأمر ويضع

(١) ص ٤٥ (٢) ص ٤٦ (٣) ص ١٢٤ (٤) ص ٢٢٨ (٥) ص ٢٤٨ (٦) ص ٢٥٦ (٧) ص ٢٦٠ (٨) ص ٢٧٢ (٩) ص ٢٧٧ (١٠) ص ٢٤٨ (١١) ص ٢٧٨ (١٢) ص ٢٨٠

خطته موضع التنفيذ، وجد أن الموازنة في الديباجة والصياغة دون اعتبار المعنى الذى صيغ له الشعر، ودون نظر الى غير الاتفاق في الوزن والقافية واعراب القافية، خطأ لا مساغ له، اذ لا بد مع ذلك « من اتفاق المعانى التى اليها المقصد، وهى المرمى والغرض، وهذا لا يكاد يتفق »^١. لقد خدعت الرغبة في التقسيم النظرى الآمدى عن حقيقة الأمر، ولكنه لم يلبث على كل حال ان اكتشف هذه الخديعة، ولم يكن بد من أن يعدل عن هذا النوع المطال من الموازنة، ومضى في النوع الآخر. ابتدأ هذا النوع بذكر ابتداءات القصائد، فصنف المعانى التى تشتمل عليها، من الوقوف بالديار، والتسليم على الآثار، ووصف تغية الازمان لها، وبكاء الشاعر عليها، الى غيره من المعانى والصور التى تنصل بهذا الموضوع. وبذلك تنتهى النسخة المطبوعة التى بين أيدينا من هذا الكتاب. ثم يبدأ فصلاً آخر من فصول هذه الموازنة يعقده للجزء الثانى مما تشترك فيه القصيدة العربية، وهو الذى سماه « الخروج »، اذ ينتقل فيه الشاعر من الافتتاح الذى عقد له الآمدى الفصل الأول، الى الموضوع الرئيسى الذى بنى القصيدة عليه وصاغها له. فاذا انتهى من هذين الجزأين المشتركين انتقل الى الجزء الثالث من أجزاء القصيدة، وهو موضوعها، وهذا الموضوع يندرج تحته كثير من الأغراض الشعرية، وبدأ الآمدى منها بالمديح، وبه تنتهى النسخة المخطوطة التى بين أيدينا، ناقصة أيضاً، فلا يزال هناك بقية الأغراض الشعرية من الهجاء والثناء والنسيب وما الى ذلك، كما لا يزال كذلك الباب الذى وعد الآمدى أن يجعله في ذكر « ما انفرد به كل واحد منهما من معنى سلكه، ولم يسلكه صاحبه »، ثم لا يزال هنالك فوق ذلك البابان اللذان قصد أن يجعلهما ختاماً لكتابه، وهما بابا التشبيه والأمثال.

ومهما يكن من أمر فهذه هى خطة كتاب الموازنة، وهذا هو الهيكل العام له، وهى خطة جيدة — كما نرى — في تنظيمها وتقسيمها، وهو هيكل تبدو فيه براعة الآمدى في التوبيع والتصنيف.

أراد الآمدى بهذه الخطة أن يحقق ما قصد اليه بادىء ذى بدء، وهو أن يضع أمام القارئ ما يمكنه من الحكم في الخصومة بين الشاعرين، ويملكه الوسيلة الصحيحة

الى الفصل بينهما ، اذ كان هو لا يريد أن يقضى في ذلك برأى ، أو يحمل القارىء على ما يذهب اليه في ذلك من مذهب ، وانما موقعه منها موقف الحيدة ، فالأمر بينهما عنده أمر خلاف بين مذهبين ، قبل أن يكون أمر خلاف بين احسان واساءة ، أو بين جودة ورداءة . وفي ذلك يقول : « ولست أحب أن أطلق القول بأيهما أشعر عندى ، لتباين الناس في العلم ، واختلاف مذاهبهم في الشعر . . . » فان كنت — ادام الله سلامتكم — ممن يفضل سهل الكلام وقريه ، ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرواق ، فالبخترى أشعر عندك ضرورة ، وان كنت تميل الى الصنعة والمعاني الغامضة التى تستخرج بالغوص والفكرة ، ولا تلوى على غير ذلك ، فأبو تمام عندك أشعر لا محالة . فأما انا فليست افصح بتفضيل احدهما على الآخر^١ . ويقول في موضع آخر : « وانا اذكر — باذن الله — الآن المعانى التى يتفق فيها الطائيان ، فأوازن بين معنى ومعنى ، واقول ايهما أشعر في ذلك المعنى بعينه فلا تطلبني أن اتعدى هذا الى أن افصح لك بأيهما أشعر عندى على الاطلاق ، فاني غير فاعل ذلك »^٢

فهل استطاع الأمدى أن يقف عنده هذا الحد الذى التزمه ، وان يلزم جانب الحيدة التى رسمها لنفسه ، فلا يفصح برأيه ، ولا ينصر جانبا على جانب ؟ ذلك مطلب ولا ريب عسير كل العسر ، ولا سيما فى المسائل الادبية التى تتصل بالوجدان أوثق اتصال . وانا لنذكر مبلغ ما حمل الرجل على نفسه وهو يحملها على هذا المحمل ويريد أن يدفعها فى تلك السبيل . وانا لنمثل هذا العنت حين نستمع اليه وهو يدعو الله أن يقويه فيما هو بسبيله ، وذلك اذ يقول فى موضع من كتابه : « وبالله استعين على مجاهدة النفس ، ومخالفة الهوى ، وترك التحامل ، فانه — جل اسمه — حسبى ونعم الوكيل »^٣

وانا لنعلم أن نزعة الرجل الأدبية كانت تجعله «ممن يفضل سهل الكلام وقريه ، ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرواق » ، وممن يرى أن كلام الأوائل وأسلوبهم هو المقياس الأول الذى ينبغى أن يقاس به الشعر ،

(١) ص ٤ — ٥ — (٢) ص ٢٨٣ — (٣) ص ٣٩٦

وتفضل به عبارة عبارة ، كما يبدو ذلك فى غير موضع من كتابه ، فهو بذلك بخترى الهوى ، « لأن البخترى أعرايى الشعر مطبوع ، وعلى مذهب الأوائل ، وما فارق عمود الشعر المعروف ، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشى الكلام »^١ . وبذلك كله نرى أى غاية صعبة قصدتها ، وأى سبيل وعرة سلكها ، وأى أمانة ثقيلة احتملها ، حين رسم لنفسه أن يقف من الشاعرين موقفا وسطا .

وقد استطاع الأمدى بهذا المنهج الذى اختطه أن يحقق هذه الغاية الى حد غير قليل ، كما استطاع بهذا الذى أخذ به نفسه من القصد الى الانصاف أن ينصف ابا تمام فى غير موضع ، وان يقف من المتعصبين عليه موقف المدافع عنه ، فى مثل موقعه من أبى العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار القطربلى فى كتابه الذى أشرنا اليه من قبل ، وقد جعله جزءا من الموازنة . واذا كان هذا الجزء لم يصل اليها ، فان فى حديث الأمدى عنه ما يدل على روح الانصاف التى كان يصطنعها أزاء هذه الخصومة . وقد كان حديثه عنه فى سياق الحديث عن أبى تمام والأسباب التى أدت الى كثرة غلظه واحالته ، قال : « وافرط المتعصبون له فى تفضيله ، وقدموه على من هو فوقه من أجل جيده ، وسامحوا فى رديئه ، وتجاوزوا له عن خطئه ، وتأولوا له التأويل البعيد فيه ، وقابل المنحرفون عنه افراطا بافراط ، فيخسوه حق ، واطرحوا احسانه ، ونعوا سيئاته ، وقدموا عليه من هو دونه ، وتجاوز ذلك بعضهم الى القدح فى الجيد من شعره ، وطمعن فيما لا يطمعن عليه ، واحتج بما لا تقوم حجة به ، ولم يقنع بذلك مذاكرة ولا قولاً حتى الف فى ذلك كتابا »^٢ الى آخر ما أوردنا من ذلك النص قبل .

ومن مظاهر روح الانصاف وتواضع الممد له فى كتابه ما جاء فى الفصل الذى عقده عقب كلامه عن سرقات أبى تمام ، مناقشا فيه ما خرج ابن أبى طاهر من ذلك ، « فأصاب فى بعضها واخطأ فى البعض » على حديثه ، اذ كان « ممانسبه فيه ابن أبى طاهر الى السرقة ما ليس بمسروق ، لأنه مما يشترك فيه الناس من المعانى والجري على سنتهم ، ومنه ما نسب الى السرقة والمعنىان مختلفان »^٣ وقد ناقش ما جاء من هذا القبيل ، وابطل دعوى ابن أبى طاهر السرقة فيه ، ايثارا للانصاف ، وتوخيا للمعدلة ، بعد أن أورد ما يراه مصيبا فيه .

(١) ص ٤ — (٢) ص ١٢٤ — (٣) ص ١١١

وكما كان من انصافه أن أورد ما ذكره ابن أبي طاهر من سرقات أبي تمام مناقشا ما رآه مخطئا فيه منها ، كذلك كان موقفه من أبي الضياء بشر بن تميم ، فيما أورد من سرقات البحتري ، مما أخذه من أبي تمام خاصة ، فقد ذكر منها ما رآه جائزا ، وناقش منها ما رآه متعسفا^١

وكذلك تبدو روح الانصاف عنده ظاهرة جلية فيما عمد اليه من الموازنة بين أبي تمام والبحتري في المعاني الشعرية ، وانما تتبين هذه الروح على وجهها وتقديرها قدرها اذا عرفنا انه بحتري الهوى كما سبق القول ، وكما يبدو في مواضع من الكتاب مختلفة ، ومع ذلك فانه لا يعنى البحتري من النقد أحيانا في هذه الموازنة ، كالذي نرى من ذلك في نقد احد أبياته في الابتداء بذكر الوقوف غير مترفق به ، وان شهد له بحسن اللفظ ، وفي مناقشة المدافعين عن البحتري والمحتجين له والمعتذرين عنه مناقشة لا يتحرج فيها من أن يستشهد بشعر أبي تمام ، منوها به ، غير ملق بالا الى نزعتة البحترية^٢

فاذا انتقل الى الفصل الذى يلى هذا الفصل ، وهو « التسليم على الديار » نراه يعلق على أحد أبيات أبي تمام بهذه الشهادة القوية القاطعة في نصرة أبي تمام : « هذا المصراع الأول في غاية الجودة والبراعة والحسن والحلاوة ، وعجز البيت أيضا جيد بالغ »^٣ ، وفي حين ذكر للبحتري في هذه الموازنة اربعة ابيات ، قضى لاثنتين منها بقوله : « وهذا ابتداء ان جيدان » وسكت ، وللثالث بقوله : « وهذا ابتداء صالح » ، وقضى على الرابع بقوله : « وهذا البيت ردى » . فاذا ما انتهى من هذا الفصل كانت كلمته الأخيرة أن قضى لأبى تمام على البحتري ، اذ يقول : « فهذا ما وجدته من تسليمها على الديار ، وأبو تمام عندي في قوله : (دمن الم بها فقال سلام) أشعر من البحتري في سائر أبياته »^٤

هذه بعض ما نرى في كتاب الآمدى من مظاهر الانصاف التى أخذ ابو القاسم بها نفسه ، منذ وضع نفسه من هذه الخصومة في ذلك الموضع . وكأن الأصل في هذا هو انصافه لنفسه أولا ، فله شخصيته الأدبية التى لا يمكن أن يهدرها ، وله ذوقه الفنى الذى لا يجوز أن يلغيه ، وبهذه الشخصية كان يتنصف أحيانا من البحتري

(١) ص ٢٩٠ - ٣٤٧ — (٢) ص ٤٠٠ - ٤٠٥ — (٣) ص ٤٠٧ — (٤) ص ٤١٠

لأبى تمام ، وبها كان يناقش أيضا شعر أبى تمام ، مما جاء على خلاف مذهبه الفنى . ومن ذلك ما نرى من اعترافه أن شعر أبى تمام ليس جاريا كله ولا أكثره في هذا المجرى الذى ينكره ، بل أن الأكثر يعد من الروائع الشعرية في عصره ، وهو يقول في هذا : « ... ولو كان أخذ عفو هذه الأشياء ، ولم يوغل فيها ، ولم يجاذب الألفاظ والمعاني مجاذبة ، ويقتصرها مكارهة ، وتناول ما يسمح به خاطره وهو بجهامة غير متعب ولا مكدود ، وأورد من الاستعارات ما قرب في حسن ولم يفحش ، واقتصر من القول على ما كان مجذوا حذو الشعراء المحسنين ، ليسلم من هذه الأشياء التى تهجن الشعر وتذهب ماءه ورواقه — ولعل ذلك أن يكون ثلث شعره أو أكثر منه — لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر أكثر الشعراء المتأخرين ، وكان قليله حينئذ يقوم مقام كثير غيره ، لما فيه من لطف المعاني ومستغرب الألفاظ »^١ . فهو اذن لا يرفض أبا تمام جملة ، كما كان أبو رباح يرفض الشعر المحدث جملة ، وانما يرفض من شعره ما لا يتفق وشخصيته الادبية .

فالأمدى فيما يقبل ويرفض جار مع شخصيته منصف لها . وليس يمكن القول بأن في رفضه مافرض من شعرا بى تمام خروجا على الانصاف الذى التزمه ، اذ ما كان من الممكن أن نطلب الى ناقد أدبى أن يلغى شخصيته ويهدر مقومات مذهبه الفنى فيما ينقد من آثار وما يقرر من رأى . والناقد ما دام في هذا فهو في نصابه الطبيعى ، لا يمكن أن نرميه بالتعصب أو مجانبة النصفة . وكذلك الآمدى عندنا ، فهو بعيد عن التعصب ما وقف عند حدود مذهبه الفنى في النقد ، وما وقف عند حدود خطته التى رسمها في الموازنة بين الرجلين ، يورد لكل منهما ماله وما عليه .

فهل استطاع الآمدى أن يقف الى النهاية في هذه الحدود المرسومة لا يخرج عليها ولا يتحرف عنها ؟ لقد استراب المتقدمون في هذا ، كالذى حكاه ياقوت في سياق ترجمته للآمدى من قول أبى الفرج البغيا الشاعر : « كان الآمدى النحوى صاحب كتاب الموازنة يدعى هذه المبالغات على أبى تمام ، ويجعلها استطرادا لمبىه ،

(١) ص ٤٠٧ — (٢) ص ٤١٠ — (٣) ص ١٢٣ - ١٢٤

إذا ضاق عليه المجال في ذمه» . ثم قال في سياق كلامه عن كتبه : « منها كتاب الموازنة بين البحرى وأبي تمام في عشرة أجزاء . وهو كتاب حسن ، وإن كان قد عيب عليه في مواضع منه ، ونسب إلى الميل مع البحرى فيما أورده ، والتعصب على أبي تمام فيما ذكره . والناس بعد فيه على فرقتين : فرقة قالت برأيه حسب رأيهم في البحرى وغلبة حبهم لشعره ، وطائفة أسرفت في التقييح لتعصبه ، فانه جد واجتهد في طمس محاسن أبي تمام ، وتزيين مردول البحرى . ولعمري أن الأمر كذلك . وحسبك أنه بلغ في كتابه إلى قول أبي تمام : (أصم بك الناعى وإن كان أسما) ، وشرع في إقامة البراهين على تزييف هذا الجواهر الثمين ، فتارة يقول : هو مسروق ، وتارة يقول : هو مردول . ولا يحتاج المتعصب إلى أكثر من ذلك . إلى غير ذلك من تعصباته . ولو أنصف وقال في كل واحد بقدر فضائله ، لكان في محاسن البحرى كفاية عن التعصب بالوضع من أبي تمام »^١

واذن فلم يغن عن الآمدى ما رسم من خطة منصفة ، وما أبدى في كثير من مواضع كتابه من تحرر للنصفة ، وقصد إلى المعدلة ، من أن يصبح غرضاً لتهمة التعصب ، يدفعه إلى « طمس محاسن أبي تمام ، وتزيين مردول البحرى » ، يتهمه بها غير واحد من المتقدمين ، على النحو الذى رأينا في كلام ياقوت ، وفي حكايته عن أبي الفرج البغيا . كما رماه بها من المتأخرين المعاصرين الأستاذ أحمد أمين في تقديمه كتاب أخبار أبي تمام ، وعرضه للخصومة التى اثارها شعره ، والانقسام حول مذهبه ، اذ يقول : « وخلف هذا الانقسام ثروة جيدة من النقد الأدبى ، لم ننظر بمثلها في أى عصر سابق ، فألف الآمدى كتابه ، الموازنة بين أبي تمام والبحرى يتعصب فيه للبحرى من وراء حجاب » .

فما هو الأصل في هذه التهمة وأنى اتجهت إليه ؟ اتكون نوعاً من التعصب على الآمدى من شيعة أبي تمام لما يبدو في كتابه من ميل إلى البحرى ؟ أم أن الأمر وجهاً غير هذا يمكن أن نلتصه في الكتاب ، وانه بالرغم من حرصه على أن يقف موقف الانصاف ويأخذ جانب الحيدة ، وبالرغم من روح المعدلة التى تظهر بين الحين

الحين في كتابه . فيما ينتصف به لأبى تمام من خصومه ، فانه لم يكن من الممكن أن يرمى في هذا إلى غايته ، فتلك — كما قلنا — غاية عسيرة كل العصر ، ولو حرص عليها كل الحرص .

وذلك في الواقع هو ما يخيّل إلينا حين ننظر في كتابه الموازنة نظرة مجتمعة تضم الاطراف المختلفة ، فنرى أن تهمة التعصب ليست تجنباً صرفاً ، كما يذهب إلى القول بهذا الدكتور محمد مندور في الفصل الذى كتبه عن هذا الكتاب ، بل أن لهذه التهمة ما يبررها ، فوق ما أشار إليه ياقوت من ذلك .

ذلك أن الآمدى لم يكذب ينتهى من تصدير كتابه بخطة الحيدة التى رسمها ، واقتبل على ذلك الفصل الذى عقده لايراد احتجاج كل فريق ، حتى بدا واضحا أن الرجل لم يستطع أن يقيم ميله أو ينحى هواه في هذه الخصومة ، في هذا الوجه منها ، وذلك في ادارتها وتنظيمها وتوجيهها ، فقد كان موقفه منها ، وإن تحرز عن التصريح برأى فيها ، بادئ ذى بدء ، بعيداً عن أن يوصف بالحيدة المطلقة ، كما هو واجبه في إدارة المناقشة ، بل كان موقفه المتشيع لأصحاب البحرى ، المشجع لهم ، حين يعطى لهم الكلمة ، فيتركهم يقولون ما يشاءون ويبدعون ويبدون ، المائل عن اصحاب أبي تمام الجائر عليهم ، حين لا ياذن لهم في عرض وجهة نظرهم إلا بالجملة أو الجملتين ، ثم يسارع فيعطى الكلمة لخصومهم : يمدون في أطواب القول وتشقيق الكلام وافتراس الفروض والرد عليها ، دون أن ياذن لأصحاب أبي تمام بمناقشتهم ، فإذا اذن لهم ، وقلما يفعل ، فبكلمة موجزة يشيرون بها إشارة إلى رأيهم . ثم يجعل للبحريين الكلمة الأخيرة دائماً . فهذا هو موقف الآمدى وقد أمسك بيده زمام المناظره يديرها وينظمها ، فإذا به في ذلك يكشف عن نزعة التعصب التى يحاول سترها أو قمعها .

ومن ذلك ما نراه ، مثلاً ، في الفصل الذى عقده للكلام في « سرفات أبي تمام » ، اذ يحكى قصة دعبيل الخزاعى في سرقة أبي تمام معظم قصيدة مكثف في رثاء أبي سلمى المزنى ، مكثفياً بإيرادها كأنما هى قضية محكمة ، قد فرغ من القول فيها .^٢ وليس الأمر كذلك . فهناك قول يحكىه الصولى في كتابه « اخبار أبي تمام » في هذه

(١) النقد المنهجى عند العرب ، ص ٧٨ ، ط مكتبة النهضة ، ١٩٤٨

(٢) الموازنة ص ٥٩ - ٦٠

المسألة ، لا ريب عندنا في أن الآمدى يعرفه ، فكان من واجبه تحقيقا للنصفه التى اختطها وألزم نفسه بها أن يذكره الى جانب ما روى عن دعبل ، خاصة وانه - فيما يبدو - غير موافق لدعبل ، اذ انه يرى (في الفقرة السابقة) ان ابا تمام أخذ أحد ابياته تلك عن مريم بنت طارق ترثى اخاها ، أو عن جرير يرثى الوليد بن عبد الملك .

بل ان الآمدى وهو في مكانه الذى اتخذه بين الخصمين لم يملك نفسه من أن يصرح برأيه ، وذلك حين قال صاحب البحرى : « انما صار جيد ابنى تمام موصوفا لأنه يأتى في تضاعيف الردىء الساقط والمطبوع الذى هو مستوى الشعر قليل السقط لا يتبين جوده من سائر شعره بينونة شديدة ، ومن أجل ذلك صار جيد ابنى تمام معلوما وعدده محصورا » ، فانه لم يلبث ان قال معقبا على ذلك مؤيدا له : « وهذا عندى أنا هو الصحيح ، لأننى نظرت في شعر ابنى تمام والبحترى وتلقطت محاسنهما ، ثم تصفحت شعريهما بعد ذلك على مر الاوقات ، فما من مرة الا وانا الحق في اختيار شعر البحرى ما لم اكن اخترته من قبل ، وما أعلم انى زدت في اختيار شعر ابنى تمام ثلاثين بيتا على ما كنت اخترته قديما »^١ .

وهكذا لم يكتف الآمدى بان يدير المناظرة ادارة تجعلها في صالح أصحاب البحرى ، حتى أدخل في صورة أخرى بحق المكان الذى اتخذه ، فتدخل في الخصومة مناصرا لهم مهاجما خصومهم بمثل هذه العبارة ، ولما يمض غير قليل على قوله في ذلك التصدير : « فأما أنا فلست أفصح بتفضيل احدهما على الآخر » .

ليس في مثل هذا المسلك الذى سلكه الآمدى في هذه الخصومة ، وفي أول مجلس من مجالسها ، ما يبرر تهمة التعصب التى رمت بها ؟

وفي تضاعيف الكتاب تبدو هذه النزعة التى يكاتمها الآمدى ويقاومها جهده ، ولكنها لا تلبث أن تغلبه على أمره ، فتعلن عن نفسها على نحو ما ، كما في تعليقه على هذا البيت من شعر ابنى تمام :

جارى اليه البين وصل خريدة ماثت اليه المظل مشى الأكبد
« فيا معشر الشعراء والبلغاء ويا أهل العربية ، خبرونا كيف يجارى البين

وصلها ، وكيف تماشى هى مطلبها ؟ الا تسمعون ؟! الا تضحكون ؟! »^٢ . وهكذا ترى في مثل هذه العبارات كيف ان الآمدى لم يغلب على أمره في مكاتمته نزعته ضد ابنى تمام وتحامله عليه ، فحسب ، ولكنه غلب أيضا على وقاره ووزانته وسمته ، فترك هذه العبارات تنطلق منه ، ثم لم يلبث أن اردفها بعبارة قالها ابن المعتز في بيت لسلم الخاسر ، اذ يقول عنه : « هذا ردىء كأنه من شعر ابنى تمام الطائى » . الى غير ذلك مما حمل ياقوتا وغيره على اتهام الآمدى بالتعصب على ابنى تمام في كتاب الموازنة . وربما لم يقصد الآمدى الى شيء من هذا ، ولكنها - على كل حال - الطبيعة التى لا تقابل مها تحرز المتحرز وتحصن .

وبعد فما هو منهج الآمدى في نقده ، وما هى خصائصه وسماته البارزة ، كما تبدو في هذا الكتاب ؟

يبدو أن الأصل الأول في ذلك هو تلك النزعة الأدبية التى تنزع بالآمدى - كما قلنا - الى ايثار طريقة الأوائل والتزام عمود الشعر المعروف ، وبذلك كان يقوم نقده على تجرييح ما خرج على هذا الأصل ، سواء في المعانى الشعرية أم في الصياغة ، فالتكلف والتعقيد والاسراف في توليد المعانى والمبالغة في الوصف والاكتثار من التجنيس والطباق والقصد اليهما من العيوب التى اسقطت شعر ابنى تمام عند الآمدى ، لأنها مجانبية لمذهب الأوائل وخروج عليه . فأما حين يقول مثلا :

أرامنة ، كنت مألوف كل ريم	لو استتممت بالأنس القديم
أدار الأنس ، حسنك التصايبى	الى ، فصرت جنات النعيم
لئن أصبحت ميدان السوافى	لقد أصبحت ميدان الهموم
ومما ضرم البرحاء أنى	شكوت ، فما شكوت الى رحيم
أظن الدمع فى خدى سيبقى	رسوما من بكائى فى الرسوم

فمثل هذا عند الآمدى من جيد شعره ، لأن « هذا من أسهل الكلام وأسلس نظمه ، ومن أبعد قول من التكلف والتعسف ، وأشبهه بكلام المطبوعين وأهل

البلاغة» فالمسهولة والسلاسة والبعد عن التكلف والتعسف، وشبهه بكلام المطبوعين هو الذي اتاح لهذا الشعر أن يكون من جيد شعر أبي تمام. ولكن الآمدى يلحظ في البيت الثاني شيئاً من الاسراف، فيقف عنده بين الإعجاب بما فيه من معنى لم يستطع أن ينكر حسنه، والانتكار لما فيه مع هذا الحسن من مبالغة، وفي المبالغة خروج على مذهب الأوائل فيقول: «وقوله (فصرت جنات النعيم) معنى حسن، ولكن فيه اسراف أن يجعل داراً - خلعت من أهلها - دار بؤس - وهو بالك فيها - جنات نعيم»^١

بل أن الآمدى لا يقف في إثارة مذهب الأوائل وبناء نقده الأدبي عليه عند الجري مع الطبع ومجانبة التكلف، بل يرى فوق هذا أن يلتزم الشاعر عادة العرب وعرفهم السائد في اعتبار الأشياء والتعبير عن المعاني، فحين يقول أبو تمام، من قصيدته في مدح ابن أبي دؤاد:

ظعنوا، فكان بكأى حولا بعدهم ثم اروعيت، وذلك حكم ليبد
اجدر بجمرة لوعة المفاؤها بالدمع أن ترداد طول وقود

فانه يعتبر من أخطائه أن يخالف عن سنة العرب في اعتبار البكاء مخففاً من لوعة الحزن، وقد جرى بذلك العرف عندهم، ومضى على السنة شعرائهم ومن سلك سبيلهم. وذلك إذ يقول في التعليق على هذين البيتين: «وهذا خلاف ما عليه العرب، وضد ما يعرف من معانيها، لأن من شأن الدمع أن يطفىء الغليل، ويبرد مرارة الحزن، ويزيل شدة الوجد، ويعقب الراحة، وهو في أشعارهم كثير موجود ينحى به هذا النحو من المعنى، فمن ذلك قول امرئ القيس: . . . وقول ذي الرمة: . . . وقال الفرزدق: . . . وهو كثير في أشعارهم، ما عدل أحد منهم عن هذا المعنى، وكذلك المتأخرون هذا السبيل سلكوا . . . فلو كان اقتصر على هذا المعنى الذي جرت به العادة في وصف الدمع لكان المذهب المستقيم، ولكنه أحب الاغراب، فخرج إلى ما لا يعرف في كلام العرب، ولا مذاهب سائر الأمم»^٢. فالأصل في تخطئه هذا الشعر انه «خلاف ما عليه العرب وضد ما يعرف من معانيها».

أما ما جاء بعد هذا فانما هو لتفسير ما عليه العرب وتأنيده، كما هو ظاهر في سياق العبارة.

ومن ذلك نقده هذا البيت من شعر أبي تمام:

سأحمد نصراً ما حيت، واننى لأعلم أن قد جل نصر عن الحمد
ووجه العيب في هذا البيت عنده أن رفع المدح عن الحمد مذهب لا تعرفه العرب، إذ «ما فيهم من رفع أحداً عن أن يحمد، ولا من استقل الحمد للمدح»، ثم مضى يستشهد لهذا من شعر زهير والأعشى وغيرهما، ثم قال: «فهذه هي الطريقة المعروفة في كلام العرب»^١

ومن هذا - فيما نحسب - كان مذهب اللغوى: ألا يتجاوز باستعمال اللفظ استعمال العرب له، فلا قياس في اللغة ولا توسع، فذلك شيء لا تملكه، ولا يجوز لشاعر يذهب بشعره المذهب العربي أن يخرج على استعمال العرب، قياساً أو توسعاً. فإذا استعمل أبو تمام كلمة «الجاهد» في قوله:

فافزع إلى ذخر الشؤن وعذبه فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد

في معنى المجهود، كان ذلك عنده خطأ لا مساغ له، انما الوجه في تأويل قوله: «بعض جهد الجاهد»، «بعض جهد الحزن الجاهد»، أى الحزن الذى جهدك، فهو الجاهد لك»، فلكي تصح العبارة على مذهبه في الاستعمال اللغوى يجب أن تكون كلمة «الجاهد» وصفاً للحزن لا وصفاً للمحزون بالرغم من السياق، ومن المعنى الذى أراد الشاعر أن يعبر عنه، ويصور به ألمه وجهده، في توديع صديقه على بن الجهم، والا فقد أخطأ الشاعر في وضع كلمة الجاهد موضع المجهود. ثم يقول: «وقد جاء أيضاً فاعل بمعنى مفعول، قالوا: عيشة راضية، بمعنى مرضية، ولحم باصر، وانما هو مبصر فيه. وأشياء هذا كثيرة معروفة، ولكن ليس في كل حال يقال، وانما ينبغى أن ينتهى في اللغة إلى حيث انتهوا، ولا يتعدى إلى غيره، فان اللغة لا يقاس عليها»^٢

فذلك هو مذهب في هذه المسألة، والذي يعنينا هنا هو تقريره وتقرير الصلة

بينه وبين ذلك الأصل الأول في شخصيته الأدبية . وهو — كما قلنا — ايثار طريقة الأوائل ، فهو فرع من أصل .
 وإذا كان التزم قد بلغ من الأمدى هذا المبلغ في الاستعمال اللغوى ، حتى ما يجيز القياس فيها ، وإن كان قياس صيغة على صيغة كما في اطلاق صيغة فاعل على مفعول ، فهو من باب أولى يمنع أى توسع في الاطلاق للغوى ، ويوجب الدقة المطلقة في التزام المعانى التى جاءت عن العرب . فاذا وصف ابو تمام الفرس بالصف والتلهوق ، فى قوله :

ما مقرب يختال فى أشطانه ماآن من صلف به وتلهوق

أخذ عليه انه وضع هاتين اللفظتين فى غير موضعهما الحق الذى نعتة العرب لهما ، فقد استعمل الصلف فى معنى التيه والكبر ، « وهذا مذهب العامة » ، فأما العرب فانها لا تستعملها على هذا المعنى ، وإنما تقول : « قد صلفت المرأة عند زوجها إذا لم تحظ عنده ، وصلف الرجل كذلك إذا كانت زوجته تكرهه . . . » والصلف الذى لا خير عنده . . . فهذا معنى الصلف فى كلامهم ، وعلى هذا قد ذم ابو تمام الفرس من حيث أراد أن يمدحه . « وكذلك الأمر فى التلهوق ، فهى — كما يقول — « لطف المدارة والحيلة بالقول وغيره ، حتى يبلغ الحاجة »^١

وكما يدل هذا على مذهب الأمدى اللغوى ، فانه يدل من ناحية أخرى على دقته وقوة ملاحظته وحسه اللغوى اليقظ المتنبه ، وهذه أيضا من صفات الأمدى الظاهرة ، نراها فى غير موضع من كتابه ، وانه ليبذل فى بعضها غاية بعيدة تكشف عن بصيرة لامة وذوق مرهف وحس دقيق بمواقع الكلام واستعمال الالفاظ فى مواضعها ، كالذى نرى فى قصده استعمال ابى تمام لكلمة « العسر » فى هذا البيت :

مالا مرىء خاض فى بحر الهوى عمر الا وللين فيه السهل والجلد

اذ يقول : « وهذا عندى خطأ ان اراد بالعمر مدة الحياة لانه اسم واحد للمدة بأسرها ، فهو لا يتبعض فيقال لكل جزء منه عمر . كما يقال : ما لزيد رأس الا

(١) ص ٢١٩ ، وقد جاءت كلمة الصلف والتلهوق مقترنتين فى شعر الكميت فى مخلد بن يزيد المهلب ، قال :

اجزيهم يد مخلد وجزاؤها عندى بلا صلف ولا بتلهوق

(اللسان ٢ : ٢١٩) وكان ابا تمام انما صدر عن هذا البيت .

وفيه شجة أو ضربة ، وماله لسان الا وهو ذرب فصيح ، لذلك لا يقال : ماله عمر الا وهو قصير . وإنما يسوغ هذا فيما هو فوق الواحد ، مثل ان تقول : ماله ضلع الا مكسورة ، وماله يد الا وفيها اثر ، ولا رجل الا وفيها حنف « الى آخر هذا الفصل الذى يدل دلالة واضحة على يقظة الأمدى ودقته فى وضع الالفاظ مواضعها ، كما يدل على وضوح ذهنه وقدرته على الابانة وابرار الدقائق والفروق فى العبارات والتراكيب .

وما دنا فى الكلام عن دقة الأمدى ووجوهها ومظاهرها فلا يفوتنا الاشارة الى لون آخر منها غير ما رأينا من دقته فى استعمال الالفاظ فى حاق معانيها ، ودقته فى وضعها مواضعها ، وهو الدقة فى ايراد المعنى وتأليفه وملاحظته ما قد يتخلله من خلل أو يعرض له من فساد . ونكتفى فى بيان هذه الناحية عنده بهذا المثل ، اذ يعلق على هذا البيت من شعر ابى تمام وينقده ، وهو فى صفة الخمر :

بقاعية ، تجرى علينا كؤوسها فتبدي الذى نخفى وتخفى الذى نبدي

وسرى أن تعليقه عليه يدل على فهم دقيق وقطنة ثاقبة اذ يفسر صنيع الخمر الذى ذكره ابو تمام ، فيقول : « ذهب فى هذا الى أن الخمر تخفى الذى نبديه فى حال الصحو من الحلم والوقار والكف عن الهزل واللعب ، و « تبدي الذى نخفى » أى الذى نعتقده ونكتسه من ضد ذلك كله ، لأنه فى الطبيعة والغريزة ، والذى كنا نظهره انما هو تصنع وتكلف » ، ويمضى يوضح هذا بالأمثال يضربها ، وهو تفسير دقيق بصير كما نرى ، ولكنه انما يسوق هذا التفسير ليقرر شيئا آخر يكشف ما فى عبارة ابى تمام ، من فساد ، ذلك أن « كل شئ يظهره الانسان وليس فى اعتقاده ولا نيته فان الذى يضمره ويكتمه فى نفسه فهو ضده ، فاذا اظهر السكر اعتقاد المعتقد الذى هو الصحيح ، فان ضده ما كان يتجمل باظهاره يبطل ويتلاشى » ، واذن فهناك عمل واحد لا عمالان ، فما بال أبى تمام يقول فى هذا البيت : « فتبدي الذى نخفى وتخفى الذى نبدي » أما الشطر الأول من قول ابى تمام : « فتبدي الذى نخفى » فصحيح ، وأما الثانى ففساد ، « لأن تخفى معناه تكتم وتستتر ، والذى قد أبطلته وأزلته لا يجوز أن يعبر عنه بانك أخفيته ولا كتسته »^٢

(١) ص ١٩٩ — ٢٠١ — (٢) ص ٢٢٢ — ٢٢٣

وحسبنا هذا في بيان دقة حس الآمدى وشدة فطانتها في تناول الآثار الأدبية وتحليلها ونقدها .

— ١٢ —

وتمد الآمدى في نقده المبني على ذلك الأصل والذاهب مع تلك النزعة ثقافية أدبية شاملة ، وذاكرة قوية ماثلة ، وقدرة على استحضار الشواهد والأمثلة ، وقد أتاحت له تلك الثقافة الادبية الاحاطة بصور الحياة العربية ومثلها ، ومكنت له من التغلغل في دقائق تلك الحياة ، وبذلك كان كثيرا ما يكون نقده لهذا البيت أو ذاك فصلا متمتا ودراسة عميقة مستقصية لهذه الصورة أو تلك من صور الحياة العربية كما تمثلها الآثار الادبية الماثلة في ذاكرته ، كما في نقده لهذا البيت من شعر البحتري :

قف العيس ، قد أدنى خطاها كلالها وسل دار سعدى ، ان شفاك سؤلها
فقد اعتمد في نقد هذا البيت ، في قراءته ، على ثقافته الادبية الواسعة ومعرفته الدقيقة بمثل الحياة العربية ^١

ومثل هذا أو قريب من دلالاته هذه كثير في كتابه ، وان لم يبسط القول فيه كما بسط القول في هذا الفصل ، من ذلك ما أورده في نقد بيت لابي تمام يذكر فيه الخيل ، ويصورها في صورة تنكرها المعرفة العربية والثقافة الادبية ، وذلك اذ يقول :

في مكر تلوكها الحرب فيه وهي مقورة تلوك الشكيما

فقد جمل الخيل تلوك الشكيم في الحرب ، وهذا فيما نبه عليه الآمدى خطأ «لأن الخيل لا تلوك الشكيم في المكر وحومة الحرب ، وانما تفعل ذلك واقفة لا مكر لها وانما طرح ابا تمام في هذا قلة خبره بأمر الخيل . الاترى الى قول النابغة :

خيل صيام ، وخيل غير صائمة تحت العجاج ، وأخرى تملك اللجما
والصيام ههنا القيام . أى خيل واقفة مستغنى عنها لكثرة خيلهم فهي واقفة ، وخيل تحت العجاج في الحرب ، وخيل تملك اللجم ، قد أسرجت والجمت واعدت للحرب» ^٢

(١) ص ٤٠٠ - ٤٠٥ والقراءة الأخرى «أوفى خطاها» — (٢) ص ٢١٦ - ٢١٧

ثم مضى الآمدى بعد ذلك يعرض بعض الشواهد في هذا ، ويثير بعض التفاصيل والصور .

ومن ذلك أيضا ما نقد به بيتا للبحتري يصف فيه فرسا بأنه يسحب ذيله ، وهو قوله :

ذنب كما سحب الرداء ، يذب عن عرف ، وعرف كالقنصاع المسبل
يقول الآمدى : « هذا خطأ من الوصف ، لأن ذنب الفرس اذا مس الأرض كان عيبا ، فكيف اذا سحبه ، وانما الممدوح من الاذئاب ما قرب من الأرض ولم يسها ، كما قال امرؤ القيس :

بضاف فوق الأرض ليس بأعزل

فقال فوق الأرض بقليل » . ولكن الآمدى لا يقف من نقده البيت والتعليق عليه عند هذا الحد ، فقد أراد ان يستطرد الى تحرير القول فيما وجه من هذا القليل الى امرى القيس في بيت آخر له ، زعم بعض النقاد ، وسجل هذا الزعم ابن المعتز في كتاب له ، انه أخطأ فيه ، اذ وصف ذنب الفرس بمثل ما جاء في بيت ابي تمام ، حين جعله « مثل ذيل العروم » ، فأنكر الآمدى هذا المأخذ وناقشه ، ووجه وصف امرى القيس التوجيه الذى يستند الى دقة فهمه ، كما يستند الى شواهد من الأدب القديم

وهذا ولا ريب من آثار دراسته الأدبية الواسعة التى بدأها في البصرة ، على النحو الذى رأينا وقد جعلت تنمو وتتسع ، كما انضجتها مشاركتها المستمرة في حركة النقد الأدبى ، قراءة ودراسة ومناظرة وتأليفا .

فاما دراساته العلمية التى اتاحها له ، على وجه واسع منظم ، مقامه في بغداد واخذه عن شيوخها ، فمن الطبيعى أن يكون لها هى أيضا أثرها في نقده ، كما نراه في هذا الكتاب ، ومن مظاهرها فيه ما يرجع الى الدراسة النحوية التى قصد بغداد لها ، ومنها ما يتصل بالوان المعرفة الأخرى .

(١) ص ٣٤٨ - ٣٤٩

والفاعلية ، والتنامية ، وعقد لها هذا الفصل الذى يبدو شذوذاً فى كتابه ، يحمل طابعاً مختلفاً عن طابعه العام^١ ولكن مهما يكن من أمره فانما ذلك مظهر من مظاهر الاستجابة لروح العصر ، ونوع من التجاوب معها ، اذ كان ذلك النزوع الفلسفى يحتل مكاناً ظاهراً من تلك الروح ، فى البيئات العقلية جميعاً . وحسبنا لتبيين ذلك ان نراه ينسب هذه المعارف الفلسفية الى شيوخ أهل العلم بالشعر ، فيقول فى صدر هذا الفصل : « وانا أجمع لك معانى هذا الباب فى كلمات سمعتها من شيوخ أهل العلم بالشعر » .

طه المحامري

أما معارفه النحوية فقد استطاع أن يستخدمها استخداماً متصلاً بالناحية الادبية ، ملتبساً بالذوق الفنى ، على النحو الذى نراه فى غير موضع من الكتاب ، مما هو جدير أن يخص بحث على حدة . وانما نكتفى هنا بالإشارة الى بعض هذه المواضع ، ككلامه عن الوصف بالمصدر فى سياق نقده لبيت أبى تمام :

وليسن بالعوان العنس عندي ولا هى منك بالبكر الكعاب
وافترض انه « اراد بالهنس مصدر عنست المرأة تعنس غنسا وغنوسا ، فجعل المصدر وهو عنس وصفا للعوان » ، وفى مناقشة هذا القول استطاع الآمدى أن يحقق القول فى مسألة الوصف بالمصدر ، ويفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز فى وضوح وجلاء^١ . ومن ذلك حديثه عن قد وهل فى سياق نقده لهذا البيت من شعر أبى تمام :

رضيت ، وهل أرضى اذا كان مسخطى من الأمر ما فيه رضى من له الأمر
وادعاء بعض المدافعين عن أبى تمام « ان هل هنا بمعنى قد ، وانما أراد الطائي : رضيت وقد أرضى » . كما قال الله تعالى : (هل اتى على الانسان حين من الدهر) ، أى قد أتى^٢ .

وفى هذه الابحاث النحوية التى يعرض لها الآمدى فى كتابه تبدى لنا صورة جديدة من النحو ، اذ جعله دراسة للأساليب وفروق ما بينها . وتبيننا لخصائص الجبل ودقائقها ، فى أسلوب ناصع غاية النضوج . وليس يتسع هذا البحث — كما قلنا — لدراسة هذه الناحية فى كتاب الموازنة دراسة مستفيضة فلنجتزئ بهذه اللامحات السريعة اليها ، حتى يتاح لها أن تظفر ببحث مستقل جدير بها .

وكذلك شأننا فى النواحي الأخرى من دراساته التى اتاحتها بعداد له ، مما يتردد صداها فى كتابه ، وخاصة الناحية الفلسفية ، فلا نملك هنا الا الإشارة اليها ، والى انا لا ندرى على وجه الدقة مدى اتصاله بها ، فانما هى هذه المحاولة التى أراد فيها أن يطبق بعض المعارف والمقررات الفلسفية على درس الشعر ، كما صنع قدامة من قبل ، فاستعار من الفلسفة الكلام عن العلل الأربع : الهيولانية ، والصورية ،

(١) ص ١٥٢ — ١٥٣ — (٢) ص ١٨٨ — ١٩١

(١) ص ٣٩٢ — ٣٩٥

اللغة والمجتمع

رأى ومنهج

بقلم الدكتور محمود السمران

- ١ -

وظيفة اللغة

(١) يحاول علم اللغة العام أن يجد طرقا لدراسة اللغة باعتبارها ظاهرة انسانية عامة، طرقا تصلح لدراسة جميع الاشكال الكلامية التي تصطنعها الجماعات البشرية على اختلافها، وهذه الطرق لن تكون هي نفسها دراسة للغة مفردة من لغات البشر، سألها أو حاضرها أو قادمها، إن هذه الطرق شيء أشبه بالألف باء الصوتية الدولية، فبذلك الألف باء لا يقصر استعمالها على لغة بعينها، ولكنها قد قصد من وضعها أن تكون وسيلة صالحة لتمثيل أي لفظ في أي لغة، فهذا الرمز أو ذلك من رموزها لا يمثل هذا الصوت أو ذلك في هذه اللغة أو تلك، ولكنه يمثل « نوعا » صوتيا عاما.

والمبدأ الذي يجب أن يراعى في رسم تلك الطرائق المؤدنة بدراسة اللغة تلك الدراسة هو المحافظة على ما يدعو به دي جرون اللغوي الهولندي « استقلال علم اللغة »، فلعلم اللغة موضوعه الفرد، وإن « موضوع علم اللغة الوحيد والصحيح هو اللغة معتبرة في ذاتها ومن أجل ذاتها » كما يقول فرديناند دي سوسير في « محاضرات في علم اللغة العام »، ولذلك يجب أن تكون مناهج علم اللغة ووسائله وأسسها « الفلسفية »

General Linguistics	(١)
International Phonetic Alphabet	(٢)
De Groot	(٣)
The autonomy of Linguistics	(٤)
Ferdinand de Saussure : Cours De Linguistique Générale, Quatrième édition, Payot, Paris 1949, p. 317	(٥)
"la linguistique a pour unique et véritable objet la langue envisagée en elle-même et pour elle-même."	

مستمدة من طبيعة موضوعه ، ومتلازمة وإيهام . نعم انا لنستعين بعلوم أخرى في تكويننا لنظرية عامة في اللغة ؛ ولكن فرق بين هذا وبين أن ننظر الى اللغة من خلال مناهج علوم أخرى ، أو أن ننظر اليها على أنها فرع من علم آخر .

(٢) لقد سبق أن قامت الدراسات اللغوية على أساس أنها فرع من الفلسفة ، أو فرع من علم النفس ، أو فرع من الاثروبولوجيا الاجتماعية ، أو ... الخ . وخلاصة ما أدت اليه هذه الدراسات هو اعتبار اللغة وسيلة للتعبير عن الافكار والعواطف والرغبات أو وسيلة لتوصيل الأفكار ... الخ . وان « هنري سويت » يقدم نوعا من النظرية الكلاسيكية في اللغة اذ يقول : « ان اللغة هي التعبير عن الافكار بواسطة الأصوات الكلامية المؤتلفة في كلمات »^٢

وادوارد ساپير يذهب نفس المذهب اذ يقول : « اللغة وسيلة انسانية خالصة ، وغير غريزية اطلاقا لتوصيل الأفكار ، والانفعالات ، والرغبات عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة ارادية »^٣

ولا يزال بعض المحدثين من علماء اللغة ينظرون الى اللغة هذه النظرة ، على الرغم من دراستهم لـ « الكلام الحي » ، ومن استعانتهم بعلم الاجتماع في دراسة اللغة .

ولكن « الأفكار » و « الانفعالات » و « العواطف » والرغبات الخ مصطلحات منقولة من دراسات أخرى غير لغوية في أصلها . ولو جاز أن « الكلام » في بعض استعمالاته تعبير عن « الفكر » فانه ليس كذلك في جميع استعمالاته أو في معظمها ؛ فليس ثمة توصيل للأفكار أو تعبير عن أفكار في لغة التحيات ، ولغة التأديب ، ولغة التدريب الرياضي والعسكري مثلا ، كما سنرى . ان أصحاب هذه النظرية في اللغة ، على اختلافهم ، يرون أن :

- (1) Social Anthropology
- (2) Henry Sweet : New English Grammar : "Language is the expression of ideas by means of speech-sounds combined into words."
- (3) Edward Sapir : Language, An Introduction to the Study of Speech ; New York, Harcourt, Brace and Company, 1921, P. 7 :
"Language is a purely human and non-instinctive method of communicating ideas, emotions and desires by means of a system of voluntarily produced symbols."

ويقول ساپير في ص ٢١ من نفس الكتاب :
"Language, as a structure, is on its inner face the mold of thought."

١ - الوظيفة الأساسية للغة هي أنها وسيلة من « الاتصال » أو « التوصيل »^١ ، أو « النقل »^٢ ، أو « التعبير »^٣ عن طريق « الأصوات الكلامية »^٤ .

ب - وأن ما « توصله » اللغة ، أو « تنقله » أو « تعبر عنه » هو الأفكار ، والمعاني ، والانفعالات ، والرغبات ، و ... الخ ، أو « الفكر »^١ بوجه عام .

ذهب هذا المذهب كثير من علماء اللغة ، لا سيما أولئك الذين تقوم دراساتهم للغة على أساس « منطقي »^٢ ، أو « فلسفي » أو « نفسي » ، أو « رياضي » ، أو « آلي » . يرى هؤلاء أن اللغة لا تعدو أن تكون مرآة ينمكس عليها الفكر ، أو أداة عاكسة للفكر ، أو « مستودعا » للفكر المنعكس ، أو وسيلة لتجسيم الفكر أو التعبير عنه ، الى أشباه هذا .

Communication	(1)
Transmission	(2)
Expression	(3)
Speech - sounds	(4)
Ideas	(5)
Thought	(6)

(٧) ليس هذا الكلام قاصرا على اللغويين القدماء من يونان ورومان ، وعلى لغويي العصور الوسطى ، أولئك الذين خضعوا في تفكيرهم اللغوي لمنطق أرسطو وبعض التصورات الفلسفية ، ولكنه يصدق كذلك على كثير من المناطق الحديثة الذين تعرضوا للغة ، ومن هؤلاء جفونز Jevons الانجليزي فقد قال في كتابه :
Elementary Lessons of Logic, p. 257 ان اللغة تستخدم ثلاثة اغراض :

(١) أنها وسيلة للتوصيل (٢) أنها تساعد آلي للتفكير (٣) أنها وسيلة للتسجيل والرجوع اليه . ويقول جفونز : « كانت اللغة في نشأتها الاولى تستعمل في الغرض الاول على وجه الخصوص ان لم يكن استعمالها فيه وحده » . وقد ناقش الأستاذ يسپرسن Otto Jespersen في كتابه

Mankind, Nation and Individual from a Linguistic Point of View, P.P. 6-7
راى جفونز فلاحظ أن الاستعمال الثالث للغة في رأى جفونز لا يبدو أن يكون فرعا ثانويا من الاستعمال الاول وذلك « لانه عندما يدور الإنسان مذكرة عن شيء ما يرجع اليها من بعد ، ومن ثم يحضر في ذهنه أفكاره السابقة ، فهذا أمر لا يختلف في جوهره عن الغاية الاولى للغة . فالإنسان عند ما يقرأ مذكراته الماضية يكون هو نفسه ويكون شخصا آخر في نفس الوقت » (ص ٦) أي أنه عندما يقرأ الإنسان مذكراته الماضية يكون ثمة « توصيل » .

= ويقرر سبيرسن (ص ٧) أنه لا يستطيع أن يتبع جفونز في قوله أن اللغة في نشأتها الأولى كانت تستعمل في الغرض الأول - وهو كونها وسيلة للتوصيل - على وجه الخصوص أن لم يكن استعمالها فيه وحده . وكان سبيرسن ، قبل مناقشته رأى جفونز هذا ، قد عرض رأيا شبيها به لهرمان بول Hermann Paul ورفضه . قال سبيرسن (ص ٥) : « ولعل لقارب أبدا فهما تماما لطبيعة اللغة ما حصرا انتباهنا في وظيفة العقلية بوصفها وسيلة لتوصيل الفكر . ولكن هذه النظرية الجزئية قد رأها (جماعة من) أبرز الباحثين . فهرمان بول في خطابه البارع عن Völker-psychologie (الذي ألقاه في ميونيخ سنة ١٩١٠) يقول عن غرض اللغة : « أن وظيفتها الأصلية أن تكون في جميع الأحوال وسيلة لتوصيل Imparting شيء من الأشياء » . لا ، ما هذا بوظيفتها الأصلية وما هو بوظيفتها الحالية . أما فيما يتعلق بنشأة اللغة فقد حاولت في كتابي Progress in Language ثم أحدث من هذا في القسم الأخير من كتابي Language ، حاولت أن أبين أننا نبدأ أن نحسد ليس إلا ماذا كانت نشأة اللغة عند ما نرى ، بعد اقتفاء تاريخها إلى الوراء إلى أقصى ما نستطيع ، أن اللغة المبكرة كانت أي شيء إلا عقلية Intellectual ، أنها كانت حفا منزلا وسطا بين النساء والكلام ، أنها بمجموعة من الأصوات الطويلة والتي تكاد تكون عارية عن المعنى كانت تعمل كمستفسر للاحاساس استيفت أكثر من عملها على أن تكون تعبيرا مفهوما عنها ، وأنها لم تكن في أي حال من الأحوال تعتبر في أساسها وسيلة لاختيار الآخرين هذا الشيء أو ذلك ، ولو أنها ، بطريق غير مباشر ، قد صارت في الواقع آخر الأمر إلى أن تكون وسيلة للتوصيل . »

أما الغرض الثاني من أغراض اللغة الثلاثة في رأى جفونز - وهو أنها مساعد إلى للتفكير - فقد قال عنه سبيرسن (ص ٧) : « من الثابت أن امتلاك لغة من اللغات يساعد حقا التفكير الإنساني مساعدة جوهرية . ولكن علينا من ناحية أخرى ألا ننسى أن جملة من أعمق المفكرين طالما شكوا من أن اللغة التقليدية كانت في حالات عائقا لهم عن التفكير في شيء إلى أعمق أعماقه . فهي بغيردائها المحدودة . وبصيفها الثابتة قد أكرهت الفكر على أن يسير في سبيل مطروقة ، حتى أنهم اضطروا إلى متابعة السير في خطوط قديمة ، وانبهوا إلى أن يكون تفكيرهم شديد الشبه بتفكير أفوام آخرين من قبلهم . »

وقد خلاص سبيرسن من مناقشته رأى جفونز بقوله أنه لا يستطيع أن يتبعه في اعتباره هذه الغايات العقلية الثلاث هي الغايات الوحيدة التي تستعمل من أجلها اللغة فاستعمل اللغة في هذه الغايات لا يتحقق إلا في حالة المفكرين من الرجال والنساء ، ولا يتحقق عند هؤلاء إلا في أسمى لحظاتهم الأكاديمية (ص ٧) .

لصديقي وزميلي الدكتور عبدالرحمن محمد أيوب ، المدرس بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، ترجمة لكتاب سبيرسن هذا ظهرت سنة ١٩٥٤ بعنوان « اللغة بين الفرد والمجتمع » (ملنزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية - مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة) . ولكننا لم نشأ أن نأخذ عن الترجمة بل أخذنا عن الأصل مباشرة ، فهذه الترجمة « بتصرف » ، وهذا التصرف يندرج تحته اختصاص كلام المؤلف أحيانا ، وإطالته أحيانا ، وكتابة بعض الفصول من جديد في ضوء ما كتبه المؤلف أحيانا أخرى

(٣) ولكن هل يجوز أن يعد هذا تعريفا صادقا للغة ؟ إن دراسة الأنواع المختلفة للوظائف الكلامية ^١ في لغة من اللغات « الحية » لا تؤيد أمثال التعريفات السابقة للغة ، ولا توحى بها .

ولقد كان مالمينوفسكى ^٢ العالم الأنثروبولوجى فضل كبير في تغيير النظر إلى اللغة فقد أدرك عندما كان يدرس بعض المجتمعات التي جرى الاصطلاح على تسميتها بالمجتمعات « البدائية » أو « الفطرية » أو « الوحشية » ، أن دراسته أن تصح دون معرفة الوظيفة التي تقوم بها اللغة في المجتمع . ومن هنا كانت نظريته الهامة في اللغة ، والتي كانت بين عوامل تطور النظر إلى علم اللغة . وصل مالمينوفسكى بعد دراسته لأمثال هذه المجتمعات إلى أن وظيفة اللغة ليست أنها مجرد وسيلة للتخاطب أو للتوصيل ؛ بل وظيفتها هي أنها حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنظم ، هي أنها جزء من السلوك الإنساني ، أنها ضرب من العمل وليست أداة عاكسة للفكر . واستعمال اللغة على هذه الصورة ليس قاصرا على الجماعات

لتكون مفهومة لدى القارئ العربي . ثم إن التعليقات التي أضافها الدكتور أيوب - وهي في جملتها تعليقات قيمة نيرة تبسر فهم الأصل على القارئ العربي تسيرا كبيرا في معظم الأحوال - قد كتبت في الأغلب مع الأصل دون فصل أو تنبيه ، ففدا من العسير أن تعرف أين المؤلف وأين المعلق . وقد كان يسرا على المترجم أن يضع تعليقاته في الهامش مع النص على أنها من صناعته حتى لا تختلط مع التعليقات الأصلية للمؤلف ، كما كان عليه أن يشير إلى النصوص التي اختصرها ، وإلى تلك التي أطلها حتى يكون القارئ على بينة . نرجو أن يتدارك الدكتور أيوب هذه المسائل في طبعته القادمة لهذه الترجمة .

وقد ظهر سنة ١٩٥٥ كتاب لصديقي وزميلي الدكتور تمام حسان ، المدرس بكلية دارالعلوم بجامعة القاهرة ، بعنوان « مناهج البحث في اللغة » ، (ملنزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية - مطبعة الرسالة ، القاهرة) ، وقد عرض رأى سبيرسن في وظيفة اللغة في الفصل الذي كتبه عن « اللغة والكلام » (انظر بوجه خاص الصفحات من ٤٥ إلى ٤٥ من كتاب الدكتور تمام) .

(١) Types of speech - function (١)

(٢) Bronislaw Malinowski انظر الملحق الذي كتبه لكتاب

« معنى المعنى » The Meaning Of Meaning من تأليف العالمين التفسيريين :

C.K. Ogden و I.A. Richards

Malinowski, op. cit., p. 312 (٣)

"In its primitive uses, language functions as a link in concerted human activity, as a piece of behaviour. It is a mode of action and not an instrument of reflection."

« البدائية » بل انه ليلاحظ في أرقى الجماعات تمدنا .

واليك أنواعا من وظائف الكلام تبين بجلاء أن الوظيفة الأساسية للغة ليست كونها ضربا من توصيل الأفكار و . . . الخ . وأول ما نذكره من هذا

١ - « المونولوج » (الكلام الانفرادي) بصوره المختلفه ، كالتقراء

الانفرادية بصوت عال ، وكتدوين الملاحظات التي لا يقصد بها الا الكاتب

نفسه . والمونولوج يعرف أحيانا : « تحديث الانسان نفسه » ٢ ، أو

« التفكير بصوت مرتفع » ٣ . ان المرأة المصرية عند ما تخلو الى نفسها

— سواء أكانت تقوم بعمل يدوي أم لا — وتشد الأسماع الحزينة ،

والنثر المسجوع ، باكية من فقدتهم من الاحباب ، لا ترمى الى « نقل »

احساسات أو « أفكار » ، بل تستعمل اللغة بقصد التنفيس والتفريغ عن

آلامها وأحزانها ، وغريب كل الغرابه أن يرى « ساپير » أن هناك حتى

في هذه الوظيفة الكلامية ألا وهي المونولوج ، توصيلا للفكر ، يقول :—

(المتكلم والسامع هنا محققان في شخص واحد يمكن أن يوصف بأنه

ينقل الأفكار الى نفسه .) ٤

ب — ومن أنواع الوظائف الكلامية التي لا نجد فيها نقلا للأفكار ، أو شيئا

يمكن أن ينقل ، كثير من صور استعمال اللغة فيما يسمى بالسلوك

الجماعي ٥ . فاصطناع اللغة في الاجتماعات الدينية كالصلاة ، والدعاء ،

ومخاطبة الله أو « المعبود » أو أية كائنات أخرى مقدسة ، أبعد من أن

بعد نقلا للفكر .

ج — وكذلك فإن ملاحظة استعمال اللغة في المخاطبات الاجتماعية التي لا تستهدف

غاية ، مثل لغة التحيات ولغة التأدب ، والكلام عن حالات ظاهرة كالجوع ،

Monologue	(١)
talking to one's self	(٢)
thinking aloud	(٣)
as releaser of forces	(٤)
Language, P. 18	(٥)
Choric Behaviour	(٦)

تؤيد وجهة النظر التي ترى أن تبادل الكلمات يمكن أن يكون غاية في

نفسه . وهذا الاستعمال للغة قائم في الجماعات الوحشية والمتقدمة على

السواء ، وهو مائل في جميع اللغات دون خلاف . هذا الاستعمال للغة

هو في أساسه صورة من صور العمل الاجتماعي ، ووسيلة من وسائله ،

ذلك لأن كل كائن بشري يجد في نفسه الميل الى الاجتماع بسواه ،

والاستمتاع بصحبة غيره ، والنفور من العزلة الصامتة ، والكلام أقرب

مستلزمات تحقيق هذا الميل ٦ .

٥ — ومن الوظائف التي تؤديها اللغة مما لا شأن له اطلاقا بتوصيل الفكر أو

التعبير عنه ، أنها كثيرا ما تتخذ بين الكبار والصغار على السواء ، وسيلة

الى اللعب بالأصوات ، والى التلذذ والانتشاء والسرور . فنحن كثيرا

ما نردد أصواتا وكلمات غير قاصدين الا المتعة بأصواتنا ، والانتشاء

بلفتنا ، ودون أن يكون لدينا ما هو جدير بالسماع . وقد عبرت عن

هذه الحقيقة تعبيرا بارعا « مدام دي ستايل » ، ولو أن كلامها كان

مقصورا على اللغة الفرنسية ، وهو لا شك صادق على كل لغة من لغات

الأرض دون أن يمنع هذا من احتمال تحققه في الفرنسية بطريقة أحذق ،

وبدرجة أكبر ٧ .

(١) انظر قول مالىنوفسكى ص ٣١٠ ن.

"Speech is the necessary means of communion; it is the one indispensable instrument for creating the ties of the moment without which unified social action is impossible."

وترجمته : ، ، الكلام هو الوسيلة الضرورية للتشارك ، انه الآلة الفريدة التي لا غنى عنها لخلق روابط اللحظة ، هذه الروابط التي يستحيل بدونها قيام العمل الاجتماعي الموحد . ، ،

(٢) انظر كتاب سبوسن السابق ص ٨٧ . وقد نقل سبوسن كلام مدام دي ستايل

عن Mme de Staël عن Gerber, Sprache als Kunst, I. 79 . تحدثت مدام دي ستايل

عن اللغة الفرنسية قائلة : ، ، انها ليست كما هي عند غرنا مجرد وسيلة لتوصيل

أفكارها واحساساتها ، وشئونها ، ولكنها آلة يجب الانسان أن يلعب بها ، وهي تحرك

النفس كالوسيقى عند أقوام ، والخمور القوية عند آخرين . ، ،

"elle n'est pas seulement comme ailleurs un moyen de communiquer ses idées, ses sentiments et ses affaires, mais un instrument dont on aime à jouer et qui ranime les esprits comme la musique chez quelques peuples et les liqueurs fortes chez quelques autres".

٥ - ومن ذلك أن اللغة كثيرا ما تستعمل لاختفاء أفكار الإنسان ١ كما يحدث أحيانا في لغة السياسة وغيرها (انظر شيئا من هذا فيما يلي بعنوان « اللغة والحياة السياسية » وبمعنوان « الكلام المحرم ») وكما يحدث أحيانا في لغة اللصوص والخارجين على القانون بصفة عامة .

وهكذا نرى أن تلك النظرية الكلاسيكية في اللغة التي تقصر وظيفتها على توصيل الفكر أو التعبير عنه ، نظرية لا يمكننا من أن نحلل جميع أشكال « السلوك الكلامي » ٢ ، وأصبح منها وأدق أن ننظر إلى اللغة على أنها « وظيفة اجتماعية » ٣ ، على أنها « طريقة من العمل » ٤ ، فما من شك في أن مما يعيننا على فهم طبيعة اللغة وجوهرها حق الفهم أن ننظر إلى الدور الذي تقوم به في حياة الفرد ، وفي حياة الجماعة التي يؤلف بين أفرادها الحديث بلمغة مشتركة ، وفي حياة النوع الانساني عامة .

(١) ينسب إلى تاليران Talleyrand الفرنسي تلك العبارة المشهورة وهي أن اللغة كائنة لتخفى أفكار الإنسان ، وقد حسن هذه العبارة Søren Kierkegaard بقوله ان اللغة يستعملها كثير من الناس لتخفى فقرهم الى الأفكار .

وواضح ان عبارة تاليران لا يجوز أن تكون تعريفا لوظيفة اللغة ، فما ذكره ليس الا استعمالا واحدا من استعمالاتها الكثيرة . أما عبارة كيركجارد فليس فيها ما في عبارة تاليران من تعميم فهي تشير الى استعمال خاص للغة غير متضمنة ان هذا هو الاستعمال الوحيد لها .

Speech Behaviour	(٢)
Social Function	(٣)
Mode of Action	(٤)

دراسة الوظيفة الاجتماعية للغة

هذه الوظيفة الاجتماعية للغة كيف يتسنى درسها ؟

(١) ان الطرق التي اقترحت للقيام بهذه الدراسة تختلف باختلاف المدارس اللغوية . وسنحاول فيما يلي أن نرسم خطوط طريقة يرتضيها كثير من علماء اللغة في إنجلترا خاصة . وهذه الطريقة صالحة للتطبيق على أية لغة من اللغات « الحية » لدراستها من الناحية « الوصفية » ٥ . أما دراسة لغة من اللغات « الميتة » ، أو دراسة مرحلة أو أكثر من تاريخ لغة من اللغات فلذلك مناهجه الخاصة .

١ - هذه الطريقة تعد الكائن البشري مركز دراسة اللغة ، ولا تعد ذلك المركز بعض العلاقات الرياضية أو الآلية أو المنطقية ، أو ما يشبه هذامما تنقسم به الدراسات اللغوية القائمة على أساس فلسفي أو منطقي ، أو نفسي .

هذه الطريقة تتخذ الكائن البشري نقطة البدء في دراستها للغة . ولكن كيف تستقي مادة دراستها ؟ هل تسجل أحاديث كل شخص في الجماعة التي تتكلم بلمغة مشتركة ؟ ان هذا على ما فيه من مشقة وضياح للوقت سيؤدي الى خلط كثير . هل تسجل كيفما اتفق كلاما يصدر عن هذا ، وكلاما يصدر عن ذلك ، وآخر تنطق به تلك ، وتتخذ مادة دراستها ؟ ان في هذا ما فيه من اضطراب ولن يؤدي الى نتائج ذات بال . يتفق ذوو الدراية من علماء اللغة على أن العدد الأدنى للحصول على فكرة صحيحة عن اللغة هو ألفان من أفراد الجماعة الكلامية : متكلم ومخاطب .

(١) من أصحاب هذه الطريقة المتحمسين لها أستاذي ج . ر . فيرث وقد عرض رأيه في محاضراته وكتاباته ؛ انظر على وجه الخصوص مقاله القيم « الشخصية واللغة في المجتمع »

J.R. Firth : Personality and Language in Society. The Sociological Review (Journal of the Institute of Sociology, Ladbury, Herefordshire, England) Vol. XLII, Section Two, 1950, pp. 37 - 52.

Descriptive	(٢)
Mathematical Relations	(٣)
Mechanical	(٤)
Logical	(٥)

ويرى الاستاذ فيرث أن العدد الأدنى في هذا السيل شخص واحد ،
وان كان يسلم بأن اعتبار الحد الأدنى شخصين صالح للوفاء بمعظم
الأغراض^١ .

ب - هذه الطريقة تؤرخ للتطور اللغوي للشخص في الجماعة منذ ولادته ،
لا بل أنها تدخل في حسابها أن الطفل يولد على طبيعة خاصة ، ومن أهم
ما في طبيعة الكائن البشرى مما يتصل بدراسة اللغة ، هو الجهاز
العصبى^٢ ، وبعض الصفات الوراثية ، وأعضاء النطق . ما نوع الجهاز
العصبى الانسانى ؟ كيف تنشأ اللغة في الجهاز العصبى ؟ أمة عناصر
وراثية تجعل الكائن البشرى ذا قدرة على اكتساب اللغة ؟ قد يجوز لنا
أن نصف الانسان بأنه « حيوان لغوى »^٣ ، وانا لنلاحظ أن الطفل يميل
الى أن يكون لغوياً فهل للوراثة دخل في هذا ؟ هل يولد الطفل وقد
وهب قدرة على تعلم لغة معينة : العربية أو الانجليزية أو الالمانية مثلاً ؟
واذا كان الجواب بالاثبات فكيف نعلم أن أطفال المهاجرين الى جماعة لغوية
مختلفة هؤلاء الأطفال الذين يولدون في البيئة الجديدة ويمشون فيها حياتهم -
وقد انقطعت الأسباب بينهم وبين لغة آبائهم - يتعلمون لغة هذه الجماعة ،
ويتعلمونها بنفس السرعة التي يتعلمها بها أهلها الأصليون ، ويتكلمونها
كما يتكلمها أصحابها ؟ أم أن القدرة اللغوية الوراثية ، ان كانت ، فهي
« عامة » ؟ ومن الملاحظ أن المتكلم بأى لغة لا يستعمل أعضاء نطقه
فحسب ، بل كثيراً ما يلجأ الى التعبير اليدوى^٤ ، والى التعبير بلامح
وجهه ، فهل لهذا دخل بماضى الانسان ، وبالتراث الانسانى ؟

هذه المسائل وغيرها المتعلقة بالصلة بين طبيعة الكائن البشرى وصفاته
الوراثية وبين سلوكه اللغوى ، مسائل أثارها بعض المحدثين من علماء
اللغة ، وهم يدعون الى بحثها ، ولكنها لمّا تبحث البحث الواجب ، وينتظر

- (١) المرجع السابق انظر ص ٤٥ ، ص ٤٧ ، ص ٤٩ ، ص ٥٠ - ٥١ .
(٢) Nervous System .
(٣) Linguistic Animal .
(٤) Hand Expression .

أن تؤدى البحوث المقبلة فيها الى أن يزداد فهمنا لطبيعة اللغة ووظيفتها .
ومن البين أن البحوث في هذه الامور تستدعى الاهتمام بعقائى مستمدة
من علم الأعصاب ، وعلم الوراثة^٥ ، وعلم الحياة العام^٦ أكثر من الاهتمام
بنتائج علم النفس .

هذه الطريقة تهتم بـ « الشخص »^٧ و « الشخصية »^٨ اهتماماً كبيراً ،
وان الدراسات الفسيولوجية ، والتشريحية ، والعصبية ، والطبية لتبين
أهمية الجهاز العصبى كله « والفرد المفردة للمهرمونات »^٩ في تكامل الشخصية ،
وان مميزات الشخصية لتجد التعبير عن نفسها من خلال النظام اللغوى .
ثم ان دراسة العيوب الكلامية^{١٠} والاضطرابات اللغوية^{١١} ذات أهمية
كبيرة بالنسبة الى هذا الموضوع . ولا شك أن الدراسات الكليينكية^{١٢}
للأفازيا^{١٣} قد أفادت اللغويين بما ألقته على اللغة من ضوء . ولكن في دراسة
هذه الحالات المركزية يجب أن نأخذ الشخصية عاملاً هاماً ذا صلة وثيقة
بالموضوع . ان الاهتمام بالشخص والشخصية يفيد في جوانب كثيرة
من الدرس اللغوى ، وفي دراسة الأسلوب^{١٤} بوجه خاص ، ولكن ثمة
حقائق وخصائص لغوية « غير شخصية »^{١٥} وعلى الباحث اللغوى أن
يعبر الخصائص الشخصية من الخصائص غير الشخصية^{١٦} .

ج - وهذه الطريقة اذ تهتم بالشخص وبالشخصية فهي لا تنظر الى الشخص

Neurology	(١)
Genetics	(٢)
General Biology	(٣)
Person	(٤)
Personality	(٥)
Endocrine Organs	(٦)
Speech Defects	(٧)
Language Disorders	(٨)
Clinical Studies	(٩)
Aphasia	(١٠)
Stylistics	(١١)
Impersonal	(١٢)
هذه الفقرة عن :	
J.R. Firth : Personality and Language In Society, pp. 50 - 51.	(١٣)

على أنه « مستقل » ، إنما تدخل في حسابها أنه عضو في جماعة كلامية معينة ، فهي — كما تدخل في اعتبارها مقومات الشخصية وطبيعتها التي لها علاقة باللغة : بتعلمها ، وباستعمالها وبتطويرها الخ — تقيم نظرتها على أساس من العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي للشخص ، على أساس من العلاقات الاجتماعية التي يرتبط بها الشخص ، ومن القيود الاجتماعية التي تفرض عليه والتي تلزمه بسلوك لغوي معين في حالات معينة ، ولا شك أن هذه العوامل والظواهر والعلاقات والقيود تختلف من مجتمع إلى مجتمع ، وتختلف في المجتمع الواحد باختلاف العصور . إن الأساس الاجتماعي في دراسة « اللغة » ، وفي دراسة السلوك اللغوي للشخص أساس على جانب كبير من الأهمية : فاللغة الانسانية في نشأتها — سواء أكانت أساسية المنشأ أم متعددة ، وأيا كانت الطريقة التي نشأت بها — من صنع المجتمع^٢ ، وفي المجتمع يكون استعمال اللغة ، وتعلمها ، وتطورها ، كما أن تأثيرها كائن فيه .

ولذلك فإن أى نص كلامي — ملفوظا كان أو مكتوباً — لا يوصل إلى معناه الحق الكامل بدراسته وحده مستقلاً ، بدراسته من الناحية الصوتية ، ومن الناحية النحوية ، ومن الناحية المعجمية ، بل يجب أن يدخل في تقدير معناه عناصر أخرى غير العنصر الكلامي ، عناصر أخرى تكون هي والعنصر الكلامي كلا متكاملًا ، فمن الواجب الاهتمام بالمسائل الآتية :

(١) ما للمشاركين في الموقف الكلامي من خصائص متصلة به ، خصائص متعلقة بأشخاصهم وشخصياتهم ، وبالعلاقات القائمة بينهم . وهؤلاء المشاركون هم

المتكلم والسامع — أو والسامعان أو والسامعون — (أو هم في حالة النص المكتوب الكاتب ومن يقرأ) وغير من يتكلم ويسمع (أو غير الكاتب ومن يقرأ) من الحاضرين .

ويندرج تحت هذا النصوص الكلامية للمشاركين ، والأحداث غير الكلامية التي تصدر عنهم أو التي يتخذونها كإشارات وتعبيرات الوجه والانفعالات وما إلى ذلك .

(ب) الموضوعات (= الأشياء) المتصلة بالموقف الكلامي ، كالمكان الذي يجري فيه الكلام ، أو حالة الجو إن كانت متعلقة بالموقف الكلامي الخ .

(ج) أثر النص الكلامي في المشاركين ، كالاتقاع ، أو الضحك ، أو الألم الخ .

(٢) هذا عن الدراسة الوصفية للغة « حية » ، أما دراسة لغة « ميتة » في مرحلة من مراحلها ، فهي وإن كانت في جوهرها دراسة وصفية إلا أنها تختلف في أمور عن الدراسة الوصفية في الحالة الأولى ، إذ أنه في الحالة الثانية لا يتسنى للغوي الوقوف على كثير من الظروف التي كان يستعمل فيها الكلام ، ولذلك فهو في حاجة إلى الاستعانة بالمعلومات التاريخية عن المجتمع صاحب اللغة في الفترة التي يدرسها ليتأني له إعادة بناء شيء قريب من الظروف التي كان يستعمل فيها الكلام الذي يدرسه . ومن الثابت أن النتائج التي يصل إليها اللغوي أحياناً في هذا المجال لا تكون دقيقة أو كافية .

(١) هذه العناصر الثلاثة هي عناصر التصور الذي يدعوه الأستاذ فيرت Context of Situation ، انظر المرجع السابق ص ٦ - ٩ ، وانظر تفسير الأستاذ فيرت لهذا التصور في كتابات أخرى له هي —

1) Speech (Bena, 1930) pp. 38 - 43.

2) Linguistics and the Functional Point of View (English Studies XVI, 1, February, 1934).

3) The Use and Distribution of Certain English Sounds (English Studies XVII, 1, February, 1935).

4) The Technique of Semantics (Transactions of the Philological Society, 1935, pp. 64 - 72).

5) Tongues of Men (Watts & Co., London, 1937) Chapter X.

وانظر عرض الدكتور تمام حسان لهذه الفكرة في كتابه « مناهج البحث في اللغة » ص ٢٦٦ - ٢٦٩

(١) انظر المرجع السابق ص ٤٢ - ٤٩
(٢) انظر الكلام عن « أصل اللغة » في كتاب « اللغة » لـ « فندرس » تعريب الأستاذين عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص (نشر مكتبة الانجلو المصرية ، طبع مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٥٠ م) ص ٢٩ - ٤٢ . وانظر الجزء الخاص بنشأة اللغة في :

Otto Jespersen : Language

E.H. Sturtevant : Introduction to Linguistic Science.

وقد ظهر بالعربية حديثاً كتاب للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وآق موضوعه « نشأة اللغة » .

وما من شك في أن الدراسة الوصفية لمرحلة قديمة من مراحل لفظة لا تزال تبقى على الألسنة ، تختلف كذلك عن الدراسة الوصفية للمرحلة الراهنة لهذه اللغة أو لسواها ، ففي الحالة الأخيرة يتاح للغوي - كما بينا - أن يدرك الحقائق « غير اللغوية » التي يحتاج إليها في دراسة المعنى ؛ وهذه الحقائق يكون الوصول إليها في الحالة الأولى عن طريق التصور استعانة بالمعلومات التاريخية كما هو الشأن في دراسة مرحلة من مراحل لغة « ميتة » .

(٣) ثم إن دراسة تغير المعنى من مرحلة إلى أخرى في اللغة الواحدة تتبع منهجا تاريخيا له اعتباراته وشروطه الخاصة ؛ ومن أول هذه الشروط دراسة كل مرحلة من المراحل على حدها دراسة وصفية قبل الانتقال إلى الدراسة التاريخية أو التطورية .

والدراسة اللغوية محوجة ، في بعض جوانبها - بالمقارنة بين لغتين أو أكثر من بعض الوجوه - إلى اصطلاح منهج آخر هو المنهج المقارن^٢ :

(١) دراسة اللغة في فترة معينة من تاريخها توصف بالفرنسية بأنها -

Descriptive أو Statique أو Synchronique
ويقابل هذا بالإنجليزية : Synchronic (Synchroistic) أو Static أو Descriptive
وترجمة هذا بالعربية : سكونية - ساكنة - استقرائية = مستقرة = حال الاستقرار ؛
أو ثابتة - (حال الثبات) أو وصفية .

أما دراسة اللغة من حيث تغيرها من فترة إلى أخرى فتوصف بالفرنسية بأنها :
Diachronique أو (Dynamique) Evolutive أو Historique
ويقابل هذا بالإنجليزية : Diachronic (Diachronistic) أو Dynamic أو Historical
وترجمة هذا بالعربية : حركية - متحركة - أو تطورية أو تاريخية .

وكان فرديناند دي سوسير ، العالم السويسري ، أول من ميز تمييزا علميا بين هاتين النظرتين ، كما كان له فضل إدخال المصطلحين :

Synchronique و Diachronique
و قد أبرزت محاضرات فرديناند دي سوسير (ولد سنة ١٨٥٧ ومات سنة ١٩١٣) التي نشرها تلاميذه سنة ١٩١٦ أهمية الفصل القاطع بين هاتين النظرتين : بين اللغة من حيث هي نظام ثابت ، وبين اللغة من حيث هي تغير لغوي . وأصر دي سوسير على ضرورة الفصل القاطع بين دراسة اللغة حال ثباتها ، وبين دراستها حال حركتها . كما بين أن كل دراسة من هاتين يجب أن يكون لها مناهجها الخاصة بها ، من :
Alf Sommerfelt : Recent Trends in General Linguistics (Diogenes, Number 1, English Edition pp. 64 - 70. A Quarterly Publication of the International Council For Philosophy and Humanistic Studies, Unesco.)
Comparative Method (٢)

ولهذا المنهج ، شأن أي منهج ، شروطه واعتباراته ووسائله .

بعد ذاك التعريف بوظيفة اللغة تعريفا مخالفا للتعريف « الكلاسيكي » لها ، وبعد هذا البيان الموجز لطريقة دراسة هذه الوظيفة ، شرع في تناول طائفة من المسائل الهامة التي تدرج تحت « اللغة والمجتمع » فنبين أنواعا من العلاقات المتبادلة بين اللغة والمجتمع ، مبرزين أنواعا مختلفة من الوظائف اللغوية . وليس القصد من تناول هذه المسائل في هذا المجال أن ندرسها دراسة منفصلة كاملة فهذا محجوج إلى فضل زمان ومكان ، ولا ينهض به حق نهوضه الا طائفة متعاونة من العلماء ، إنما القصد أن تعرض تخطيطا للموضوع يبرز ماهية كل مسألة من المسائل ، ويوضح طرائق دراستها ، وينبه إلى ما قد يكون في دراسة بعض المسائل من فجوات . وقد تفصل أحيانا قليلة في بيان بعض ما نذهب إليه على سبيل التمثيل . وسنرى أن هذا العرض ، ببيانه للدور الذي تقوم به اللغة في حياة الفرد والجماعة والنوع الانساني ، يديننا من فهم حقيقة « اللغة » ، وأنه يشرع للدراسة اللغوية ، لا سيما في حالة العربية فصيحها وعاميتها ، مجالات جديدة واسعة تصطنع فيها مناهج ووسائل حديثة دقيقة . وسنرى كذلك أنه عند بحث الموضوع الواحد يحجج الأمر إلى أن نستخدم مع المنهج الوصفي المنهج التاريخي أو المنهج المقارن أو كلا المنهجين ، مع الاحتفاظ لكل بمجاله وشروطه ، أي دون الخلط بينهما أو بينهما .

السلوك اللغوي للطفل

(١) من جوانب دراسة السلوك اللغوي للشخص ، ومن أول ما يهديننا في سبيل فهم الوظيفة الاجتماعية للغة ، دراسة السلوك اللغوي للطفل : كيف يكتسب الطفل لغة الجماعة التي يولد فيها ويعيش ؟ هل يتعلمها دفعة واحدة أو أنه يتعلمها على مدى طويل ، وعلى مراحل متدرجة ؟ ما الظروف التي يتعلم فيها الطفل اللغة ؟ أهو يتعلمها وحده أم هو يتعلمها بعون ؟ وإذا كان يتعلمها بعون فما حقيقة هذا العون ؟ أئمة مدة واحدة يستغرقها الأطفال جميعا لتعلم اللغة أم أن هذه المدة تتفاوت من طفل إلى طفل ، أو من جماعة من الأطفال إلى جماعة أخرى ؟ وإذا كان تفاوت في هذا الشأن فما أسبابه ، وما ظروفه ، وما نتائجها ؟ ثم هذه اللغة التي يتعلمها الطفل ، ما دلالتها بالنسبة إليه ؟ وما دلالتها بالنسبة لمن حوله ؟ قيم يستعملها ، وما ظروف استعمالها أيها ؟ إلى غير هذا من عشرات الأسئلة .

إن أول ما نقرره فيما يتعلق بالسلوك اللغوي للطفل أنه لا توجد حتى الآن دراسة علمية كاملة موثوق بها لـ « لغة » الطفل قائمة على أساس لغوي . وأكثر ما كتب عن لغة الطفل قائم على أسس نفسية ، ومن وجهة نظر علم النفس على اختلاف مذاهبه ، وهو غالبا ما يستهدف الاهتمام إلى خير الوسائل المعينة على تعليم اللغة للأطفال وللأكبار ، وعلى تعليم الطفل لغة أجنبية ، كما أنه يرمى إلى التوصل إلى بعض الحقائق التي تعنى علم النفس .

(١) فيما يلي بيان بطائفة من أشهر الدراسات المتداولة عن لغة الطفل :

- Bühler, Charlotte : (1) The First year of Life ; New York, U.S.A., 1930 (Trans. from German)
(2) From Birth to Maturity ; Kegan Paul, London, 1937
Descoudres, A. : Le Developpement de l'enfant, de deux à sept ans ; Delachaux & Niestlé, Neuchâtel & Paris, 1943.

- Gesell, A. & Others : The first five years of Life; Methuen & Co. Ltd., London, 1940
Gesell, A. : Studies in Child Development, New York, 1948.
Grégoric, A. : L'Apprentissage du Langage, les deux premières années ; Alcan Paris, 1937.
Grégoric, A. : L'Apprentissage du Langage, la 3 ème année et les années suivantes; Alcan, Paris, 1947.
Guillaume, P. : L'Imitation chez l'Enfant ; Presses Universitaires de France, Paris 1950.
Lewis, M.M. : Infant Speech ; Kegan Paul, London, 2nd ed., 1951.
McCarthy, D. : The Language Development of the Pre-School Child ; University of Minnesota Press, U.S.A., 1929.
Piaget, J. : Le Langage et la Pensée chez l'Enfant. Delachaux & Niestlé, Neuchâtel & Paris, 1929.
Piaget, J. : La Fonction du Symbole chez l'Enfant.
Seth and Guthrie : Speech in Childhood ; Oxford University Press, 1935.
Shirley, Mary : The first two years, a study of twenty five Babies. The University of Minnesota Press, U.S.A., 1933.
Stein, L. : The Infancy of Speech and the Speech of Infancy ; Methuen & Co., London, 1949.
Stern, W. : Psychology of Early Childhood up to the sixth year of age ; G. Allen & Unwin Ltd., London, 1924.

هذا عدا عشرات المقالات في المجلات العلمية لا سيما مجلات علم النفس .

وقد ظهر بالعربية حديثا كتاب عنوانه « اللغة عند الطفل من الميلاد إلى السادسة » ، للأستاذ صالح التميمي (ملتزم الطبع والنشر دار المعارف ، مصر سنة ١٩٥٥) ، وهذا الكتاب هو الرسالة التي نال بها الأستاذ التميمي درجة الماجستير (قسم الفلسفة - كلية الآداب ، جامعة القاهرة) وقد نشر ضمن سلسلة « منشورات جماعة علم النفس التكاملي » ، التي يشرف على إصدارها الدكتور يوسف مراد ، وقد كتب الدكتور يوسف مراد - وكان الأستاذ المشرف على الرسالة - مقدمة هذا الكتاب .

وقد ذكر المؤلف في تمهيده (ص ١) والتقدم في مقدمته (الصفحة الثانية) أن هذا البحث يطبق « المنهج التكاملي » . قال صاحب الرسالة (تمهيد ص ١) أنه لا يقدم بأية نظرية جديدة ، وإنما منذ أقدمنا على اختيار هذه الرسالة كان رائدنا بضعة توجيهات وخطوط عامة سلمنا بها دون نقاش وأخذنا أنفسنا بتطبيقها وفي مثل هذا التطبيق يكون التقدير النهائي لعملنا . وإن أهم هذه الخطوط والتوجيهات هي فكرة : « التكاملي » التي نشأت عليها . . . ثم ذكر (تمهيد ص ٢) أن تطبيق المنهج التكاملي يسر له ألا يتقيد بمدرسة دون أخرى في دراسة ظاهرة معقدة كاللغة ، فاستفاد من شتى المذاهب والاتجاهات ، ولكنه أهتم اهتماما خاصا بمناقشة آراء ثلاث من مدارس علم النفس وهي مدرسة التحليل النفسي ، والسلوكية ، والجشطلية ولم ينس جهود علماء آخرين .

= وقال الدكتور يوسف مراد في مقدمته (الصفحة الثانية) : « ويكفى أن تلقى نظرة سريعة إلى اللغة لتدرك على الفور أن دراستها لا يمكن أن تقوم إلا على المنهج التكاملي إذ لا بد من تضافر عدد كبير من العوامل الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية لكي تنشأ اللغة وتتطور حتى تصبح أداة ممتازة للتعبير والاتصال بالآخرين . » ، لاحظ أن هذا الكلام ينهم منه أن صاحبه يرى أن وظيفة اللغة ، أو وظيفتها الرئيسية على الأقل ، هي أن تكون « أداة ممتازة للتعبير والاتصال بالآخرين » وقد سبق لنا أن ناقشنا هذا الرأي . ثم قال (نفس الصفحة) :

« وقد أدرك مؤلف هذا البحث ، الأستاذ هادي صالح التماح ، ضرورة تطبيق المنهج التكاملي في دراسة نشأة اللغة وتطورها في الطفولة . فبعد أن تحدث عن مناهج دراسة اللغة تناول الأسس البيولوجية للكلام ، واللغة عند الحيوان ، أي أنه نظر إلى اللغة من حيث هي مظهر من مظاهر السلوك العام وأن دراسة المعالم الأولى للغة الانفعالية تعين في فهم اللغة التصورية التي ترتقي تدريجاً نحو مستوى التجريد والتعميم . وفي هذه المرحلة التي تتحول عندها اللغة من مستواها الانفعالي البحث إلى مستواها التصوري نلمس ما بين العوامل الفسيولوجية والنفسية من تضافر وثيق .

وبعد أن تحدث المؤلف طويلاً عن المادة الأولية للغة من صراخ وأصوات ومناغاة انتقل إلى وسائل اكتساب اللغة مبرزاً أثر العوامل الاجتماعية في تطورهما وارتقاها . »

والذي نراه أن هذا البحث يقوم في جملته على أسس نفسية ، وهو صادر من ثقافة نفسية ، وينظر إلى لغة الطفل من وجهة نظر على النفس في الأغلب ، وأن اتبع ما يسمى المنهج التكاملي ، وأن ذهب صاحبه إلى أنه يؤكد على الجانب الاجتماعي توكيداً كبيراً (ص ١٦٧) ، والدكتور مراد ينظر إلى هذا البحث على أنه « جدير بأن يحتل مكانة ممتازة بين المراجع العربية الخاصة بالعلوم السيكولوجية » (الصفحة الثالثة من المقدمة) .

وليس هذا البحث محاولة لوصف لغة طفل مصري مثلاً أو لتدوين ملاحظات عن لغة مجموعة من الأطفال الذين يتكلمون لغة واحدة ، ولكنه أشبه بالعرض لطائفة من أهم النتائج التي وصل إليها جمهور من درسوا لغة الطفل على اختلاف مذاهبهم ومناهجهم ولطائفهم من أبرز الآراء التي ذهب إليها مع محاولة الاختيار منها قيمة الكتاب وليس هذا بالامر البين - أنه يقدم إلى قراء العربية تعريفاً من وجهة نظر صاحبه - بما وصلت إليه دراسة لغة الطفل عند جماعة من الغربيين . ولذلك فالكتاب يصلح أن يكون دافساً ومدخلاً إلى دراسة لغة الطفل . ونرجو أن يتبع هذا العمل أعمال أخرى بالعربية تحاول أن تدرس لغة الطفل ، أو جوانب من لغته ، على أسس لغوية . وهذه الدراسات يحتاج القائمون بها إلى التزود بثقافة لغوية حديثة ، ولا ينفي بالقيام بها التزود بنظريات علم النفس على اختلافها : يحتاجون إلى دراسة علم اللغة العام لتكون لديهم فكرة صحيحة عن ماهية اللغة ، وعن طرائق دراستها ، وعن وسائل هذه الدراسة ، وهم محتاجون على وجه الخصوص إلى إتقان علم الأصوات اللغوية نظراً وعملاً فمن الضروري أن تقوم دراسة لغة الطفل منذ أوائل مراحلها على وصف صوتي دقيق .

أما ما كتبه بعض علماء اللغة عن لغة الطفل على أسس لغوية فلا يبلغ أن يكون دراسة كاملة ، إنما هو تخطيط لخير الطرق المؤدية إلى هذه الدراسة ، وتدوين لطوائف من الملاحظات ، وتنبيه إلى ما في هذه الملاحظات من ثغرات : أن ما صنعه هو محاولة لتفهم المشكلة ، وبيان لأهميتها ، ودعوة علمية إلى بحثها أكثر من أن يكون حلاً لها كاملاً أو أشبه بالكامل .

(٣) وتأخذ الآن في عرض مجمل لبعض الملاحظات الهامة التي توصل إليها طائفة من اللغويين فيما يتعلق بلغة الطفل .

١ - يرى جماعة من علماء اللغة المحدثين - ومنهم الأستاذ فيرث - أن تتبع النمو اللغوي للطفل يجدر أن يكون مرتبطاً بالتجارب الهامة التي تمر بها حياة الطفل ، وهذه التجارب الهامة ، في رأى الأستاذ فيرث ، هي :

١ - المرحلة الأولى ، مرحلة المهد ٢ ، وهي منذ ولادة الطفل إلى ما قبل استطاعته الجلوس .

٢ - مرحلة الجلوس ٣ ، وفي هذه المرحلة يكون بدء الكلام ، واللعب بالدمى وما إليها .

٣ - مرحلة الحبو ، وفي هذه المرحلة يتسع عالم الطفل شيئاً ما ، لأن الحبو ينقله إلى أبعد من مجلسه .

٤ - مرحلة السير بمساعدة ، وفي هذه المرحلة ينتقل الطفل إلى عالم أرحب .

٥ - مرحلة سير الطفل وحده ، في الأماكن القريبة من المنزل .

(١) J.R. Firth عن محاضراته في علم اللغة العام بمعهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن وقد استمعت إليها من ١٩٤٨ - ١٩٥١ م.

Nursery	(٢)
The Sitting-Up Stage	(٣)
Speech	(٤)
Crawling About	(٥)
Walking with Help	(٦)
Walking alone	(٧)

٦ - مرحلة السير خارج المنزل، وفي هذه المرحلة يستثمر الطفل حرية لا يجدها في المرحلة التالية .

٧ - مرحلة الذهاب الى المدرسة ، وهذا في المجتمعات التي يكون بها « مدارس » ، أو مرحلة التربية الخاصة التي يتلقاها الطفل من بيئته لتأهيله لنوع من العمل في المجتمعات التي ليس بها « مدارس » . وهذه المرحلة من أهم المراحل بالنسبة للغة .

ب - هذا ترتيب مقترح لسير « الدراسة » ، ولكن الترتيب الذي تسير عليه « الدراسة » شيء يختلف عن الترتيب الذي تقرر فيه نتائجها . ومن ثم فإننا ، في عرض الملاحظات الخاصة بلغة الطفل ، سنتبع التقسيم الثلاثي الذي ارتضاه العالم الدنماركي الكبير « أوتو يسيرسن »^١ وهو أن النمو اللغوي للطفل يستغرق ثلاث مراحل هي :-

١ - مرحلة الصياح^٢

٢ - مرحلة البأبة^٣

٣ - مرحلة الكلام^٤ التي تنقسم الى فترتين (أ) فترة « اللغة الصغيرة »، أي اللغة الخاصة بالطفل ، وفي هذه الفترة يكون الطفل من الوجهة اللغوية « متفردا » (ب) وفترة اللغة المشتركة^٥ ، أو لغة الجماعة ، وفي هذه الفترة يأخذ خضوع الطفل للمجتمع وتأثره به في الازدياد شيئا فشيئا .

والآن نشرع في التعريف بالخصائص العامة للغة الطفل في كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث .

Walking Outside	(١)
Otto Jespersen : Language, Its Nature, Development and Origin ; P. 103 .	(٢)
Screaming Time	(٣)
Babbling time ; Cooing time ; Crowing time	(٤)
Talking time	(٥)
Little Language	(٦)
Common Language	(٧)

١ - مرحلة الصياح :

وهذه المرحلة تمتد من مولد الطفل الى حوالي الاسبوع الثالث من عمره ، وقد تستمر الى حوالي الاسبوع السابع أو الثامن .

ان الطفل يقابل العالم ساعة يولد بصراخ وصياح ، ولكن هذا الصراخ الصادر عن « جهازه الصوتي » ليس « كلاما »^١ ، ليس من كلام جماعته ، ولا هو من كلام نى جماعة تتكلم بلغة أخرى غير لغة جماعته . وهذا الصراخ لا يدل وحده على أن الطفل لو قطع عن المجتمع كل القطع فسينطق يوما ما بكلام جماعته ، أو بكلام أى جماعة غيرها . ذلك لأن الطفل لا يتلهم لغة جماعته ، أو أية لغة ، الهاما ، ولا هو يتنكر النطق بها ، أو بسواها ، ابتكارا ، ولكنه يمر ، وهو في مجتمع ما ، بمراحل طويلة وشاقة حتى يستطيع أن يتفاهم مع من حوله بلغتهم ، يمر بمراحل أولها هذه المرحلة ، مرحلة الصياح .

ان الصيحات التي تصدر عن الاطفال في هذه المرحلة صيحات « عامة » تكاد تكون واحدة عند جميع الاطفال . وعلى الرغم من أن الصياح ليس « كلاما » ، وليس الأصل فيه أن الطفل يريد أن « ينقل » شيئا ما الى غيره ، الا أنه ، بالنسبة لمن حول الطفل من الكبار ، يحدث شيئا مما يحدثه الكلام . فهم « يقرأون » فيه شيئا ما ، ويهرعون الى الطفل عند سماعهم صياحه لازالة ما به من ضيق . وانه ليأتي وقت يلاحظ فيه الطفل أنه عندما يصيح فان شخصا ما يهرع اليه ويرضيه بشئ ما ، ولو كان هذا الارضاء بمصاحبه اياه ليس غير .

وعندما يدرك الطفل هذا فانه يستعمل الصياح استعمالا اراديا عندما يقع في ضيق ، أو عندما يريد شيئا ما . وهكذا تغدو الصيحة عملا اراديا^٢ بعد أن كانت

(١) انظر يسيرسن : المرجع السابق ص ١٠٣ - ١٠٤

(٢) Speech
(٣) Voluntary Action

في أول أمرها عملاً انكاسياً .

ولكن للصياح فائدة أخرى غير هذه ، هي فائدة فسيولوجية ، فهو تدريب لجميع العضلات والاعضاء التي سيستعملها الطفل ، فيما بعده في البأبة ، والكلام ، والغناء . وتقول بعض المربيات ، وقد يكون في كلامهن معنى ما ، ان الطفل الذي يكون أعلى صياحا يصبح عندما يكبر خيرا من سواء غناء .

٢ — مرحلة البأبة : ٢

لا تبدأ هذه المرحلة قبل الاسبوع الثالث من حياة الطفل ، وقد لا تبدأ قبل أسبوعه السابع أو الثامن ، وهي تمتد الى حوالي نهاية السنة الاولى من عمر الطفل . تصدر عن الطفل في هذه المرحلة أصوات ، ومجموعات من الاصوات مثل ، ا ، آم ، بب ، ت ت ، د د ، الخ . ولا شك أن هذه الاصوات أطلقها كما كان يصدر عنه في مرحلة الصياح ، وأشد ملائمة لأغراض الكلام . والاصوات ، أو مجموعات الاصوات ، التي تصدر عن الطفل في هذه المرحلة ، لا معنى لها .

والأصوات التي تصدر عن الطفل في أوائل هذه المرحلة لا ينطقها قاصداً أو مقلداً للأصوات التي يسمعها من حوله ، انها نشاط عضلي خالص وبسيط كتجريكه أصابعه ، أو يديه ، أو ذراعيه ، أو رجليه . والطفل يجد من اللذة في اصدار هذه الاصوات ما يجده من لذة في تحريك تلك العضلات الأخرى . والدليل على ذلك أن الاطفال الصم البكم تصدر عنهم أشياء هذه الاصوات وهم بطبيعة الحال لا يسمعونها ، ولا يسمعون كلام من حولهم ليقبلوه . ولكن اذا كانت حركات أعضاء النطق عند الطفل لا تحكم فيها ، ولا سيطرة عليها أول الامر فانها تأخذ شيئاً فشيئاً في أن تصبح أشد انتظاماً ، فيعرف الطفل الصوت الذي يريد أن ينطقه ، ويكون في وضع يمكنه من أن ينطقه بالضبط .

Reflex Action

- (١) أنظر بيكرسن : المرجع السابق ص ١٠٤ - ١٠٥
- (٢) na ; am ; baba ; tata ; dodo. etc.
- (٣) Deaf-Mutes
- (٤)

واذا كان الطفل في أوائل هذه المرحلة ينطق أصواته غير قاصداً ، وغير مقلداً لأنه لا يسمع ، فانه يصل الى وقت تقوى فيه حاسة سمعه ، ويجد متعة أى متعة في سماع الأصوات التي يخرجها هو نفسه . ثم تحدث خطوة بالغة الأهمية عندما يأخذ الطفل في سماع مشابهة بين الاصوات التي تنطقها أمه أو مربيته وبين تلك التي ينطقها هو نفسه . ان الأم عندما تسمع طفلها يخرج صوتاً أو مقطعاً فانها تقبل عليه مسرورة مكررة ما أخرجه من صوت أو مقطع ، وعندما يدرك الطفل الشبه أو المماثلة بين ما ينطقه هو نفسه وبين ما تردده أمه فانه يقع على منبع من المتعة لا يفيض . وهو يصل بعد ذلك الى المرحلة التالية ، عندما يحاول هو نفسه أن يقلد ما يقال له (وهذا يكون عادة حوالي نهاية السنة الاولى) .

ان الطفل في حوالي نهاية فترة البأبة يكون قد تمكن من نطق عدد كبير من الاصوات . وهو في هذا الوقت يجب ان يكون سلاسل طويلة من مقطع واحد مثل *تتتت* ، *وووو* ، *ونننن* ، *وددودودود* ، الخ .

ولقد حاول معظم من عنوا بتتبع لغة الطفل ترتيب الاصوات المختلفة التي ينطق بها الطفل في هذه المرحلة ، وفيما يليها ، ترتيباً زمنياً ، ولكنهم لم يتفقوا في هذا الشأن في جميع التفصيلات . والشائع أن أول ما ينطقه الطفل «صوائت مفردة»^١ ، أو صوائت يسبق كلامها ، وصامت^٢ ، واحد وذلك مثل ل ، رت الخ . وان الاصوات الاولى التي ينطقها الطفل ، ان كنا نمثلها بالرموز الكتابية التي تمثل بها بعض أصواتنا ، فهذا من باب التجوز ، فانها ليست في الحقيقة هي نفسها : فما مثله من أصوات الطفل : « ل » و « ر » الخ ليس مطابقاً لما مثله من أصواتنا بهذه الرموز . ويتفق دارسو لغة الطفل على أن « الصوائت الثموية »^٣ (التي يرمز اليها ب) من

Syllable	(١)
tatatata... wawawawaw... nenenenene... dododododo... etc.	(٢)
Single Vowels	(٣)
Consonant	(٤)
la, re, to etc.	(٥)
Labial Consonants	(٦)
P, b, m	(٧)

الصوامت الأولى التي يعلتها الطفل ، ان لم تكن أولها على الاطلاق .

ومما يلاحظ أن الطفل في مرحلة البابأة قد تصدر عنه أصوات ليست من جملة الأصوات التي تتكون منها لغة الجماعة التي سيستعملها يوما ما . فالطفل المصري مثلا قد تصدر عنه في هذه المرحلة أصوات لا يسميها ممن حوله (وذلك كالأصوات التي يرمز اليها كتابة بـ ٢) ، وقد تصدر عنه أمثال هذه الأصوات في أوائل مرحلة البابأة حين لا يكون ثمة قصد الى أحداث أصوات معينة ، أو الى تقليد أصوات معينة . ان الذي يحدث أن الطفل يحرك أعضاء نطقه تحريكا متحررا فيحدث أنها أحيانا تتخذ الأوضاع الخاصة بنطق هذه الأصوات فإذا بها تصدر عنه . وقد يحدث أن طفلا ممن كانت تصدر عنهم في مرحلة البابأة ، أو بعدها ، أصوات ليست من جملة الأصوات الرئيسية للغة الجماعة التي سيتكلم بها يوما ما ، يجد صعوبة في تكوين هذه الأصوات نفسها فيما بعد عند ما يكون قد تعلم لغة جماعته وأخذ في تعلم لغة أجنبية تستعمل هذه الأصوات . ومرجع ذلك الى أن الطفل في مرحلة البابأة ، وفي أوائل مرحلة الكلام ، ينطق عددا من الأصوات أكبر مما تستعمله اللغة التي عليه أن يتعلمها ، ولكن تعلمه الطويل لهذه اللغة (بما فيه من كثرة سماع أذنه لأصوات محدودة ، ومن تقليده لهذه الأصوات ، ومن تصحيح الكبار للأصوات التي ينطق بها حتى تتفق مع أصوات لغتهم أو تقرب منها . الخ) ينتج عنه أن تمرر أذنه على سماع أصوات خاصة ، وتبرز أعضاء نطقه على أحداث أصوات معينة ، فإذا أراد أن ينطق أصواتا أجنبية عن تلك التي بذل مجهودا شاقا لتعلمها فإن أعضاء نطقه لا تكون له طبيعة سليمة .

٢ - مرحلة الكلام : ١

تبدأ هذه المرحلة من حوالى نهاية السنة الأولى من عمر الطفل وتتمد سنوات طويلة . ولما كانت هذه المرحلة طويلة وتشتمل على فترات متغيرة متنايزة ، فقد رأى الأستاذ يسيرسن أن يقسمها الى فترتين : (١) فترة اللغة الصغيرة و (ب) فترة اللغة المشتركة . والحق أن هذا التقسيم هو أيسر ما يمكن أن يكون لتقرير نتائج الملاحظة والدراسة ، ولكن الواقع أن الطفل في تعلمه الكلام يمر في كل فترة من هاتين بطورين كثيرة متغيرة قد يعتبر بعضها فترات مستقلة متنايزة .

١ - فترة اللغة الصغيرة :

والمقصود باللغة الصغيرة اللغة التي يتحدثها الطفل لنفسه بتقليده تقليدا غير محكم كلام من حوله من الكبار . والطفل في هذه الفترة « متفرد » شيئا ما من الناحية اللغوية . فالكلام الذي ينطق به يبعد بعيدا بينا عن « الأصل » الذي يحاول أن يقلده . وكثير مما ينطقه في هذه الفترة لا يكون مفهوما الا في نطاق بيئته الضيقة : أمه ، وأبيه ، وإخوته ، ومن اليهم ممن يمشون معه . وبديهي أن الأم ، أو من يقوم مقامها ، هي خير من يفهم كلامه ، أما غير من حوله من صغار وكبار فقد يفوتهم كثير من معاني ما ينطقه . ان كلام الطفل في هذه المرحلة يبدو تعسفيا حتى أنه لم يكن مقارنته برسوم الطفل الأولى للرجال والحيوان (فقد يقول أحد الأطفال المصريين « م » بدلا من « مَيْت » ، و « آيك » بدلا من « كَيْت » ، و « لك » بدلا « أكرام » ، و « بر » بدلا من « عيش » . الخ) .

ب - فترة اللغة المشتركة :

يأخذ الطفل شيئا فشيئا من التخلص من خواص لغته الصغيرة الفردية الى أن يصبح كلامه أشد انتظاما ، وأقرب الى كلام الكبار ، وأوضح عند من يحيطون به وعند الغرباء جميعا . ويستغرق الامر زمنا طويلا حتى يصير كلام الطفل « مثل » كلام الكبار ، أى حتى يتقن الطفل الكلام باللغة التي تتكلم بها جماعته .

(١) يقول يسيرسن (ص ١٠٥ من كتابه السابق) :

لقد فسر هذا بأن الطفل يستطيع أن يرى تحرك شفهي أمه وهي تنطق هذه الأصوات ، وهكذا يقلد حركاتها . ولكن هذا التفسير يتضمن أن الطفل يقوم بدرجة كبيرة من التفكير الواعي ، هذا الطفل الذي ينطق م أو م قبل أن يأخذ في تقليد أى شيء يتوله له من حوله . فضلا عن هذا فلقد قيل ان انتباه الطفل لا يكاد يتجه الى ثم أمه بل هو مركز دائما على ميمها . ان الأوجه أن السبب الحقيقي في هذا هو ان العضلات الشفوية المستخدمة في نطق ب أو م هي نفس العضلات التي دربها الطفل في الرضاعة من ثدي أمه أو من رضاعة . وانه لمن المهم في هذا الشأن أن نعرف الصوامت الأولى التي يعلتها الأطفال البعيان هي الصوامت الشفوية أم غيرها .

(٢) P ; v etc.

(١) انظر يسيرسن : المرجع السابق ص ١٠٦ - ١٠٧

Individualist

(٢)

في أوائل هذه المرحلة يكون كلام الطفل أشد انتظاما ، وإن كان الطفل « يحرف » كثيرا من الكلمات العادية . ولكن العالم اللغوي يستطيع في حالات كثيرة أن يكشف عن أسباب تحريفه للكلمات . وللطفل في هذه الفترة « قوانينه » الصوتية الخاصة ، وقد يحوج الأمر الى عالم في الأصوات اللغوية لفهم القوانين الصوتية الفردية لطفل من الأطفال .

ويلاحظ أن الطفل في أوقات من هذه المرحلة (في أوائلها خاصة) يجد صعوبة في نطق بعض الأصوات عندما تكون جزءا من مجموعة ، أو مجموعات ، من الأصوات ، بينما هو قادر على نطقها مفردة ، أو على نطقها عندما تقع في مجموعة أو مجموعات صوتية أخرى . كما أنه لا يستطيع عادة أن ينطق سلسلة طويلة متتابعة من المقاطع ، وهو يفضل الكلمات المكونة من مقطع واحد ، وكثيرا ما ينطق الأطفال جزءا واحدا من الكلمة ، وهو غالبا ما يكون المقطع الأخير أو المقاطع الأخيرة منها ، وهذا يسمى بـ « الاختصار » أو « القطع » .^٢ ومن المشاهد أن لغة الأطفال يكثر فيها « التضعيفات »^٣ ، وليس المقصود بهذا تلك « التضعيفات » الموجودة بطبيعتها في لغة الكبار ، بل تلك التي تكون من صنع الطفل نفسه ، فكثيرا ما يكون الأطفال كلمات من تلك التي يسمعونها من حولهم بأن يكرروا مقطعا واحدا من مقاطعها (بعض الأطفال الانجليز يقولون « بيب » بدلا من « بيشل » ، و « كك » بدلا من « كرسى »^٤) كما أن بعض الأطفال يكررون كلمات كاملة (مثل « كنج كنج » و « رنج رنج »^٥ بين الأطفال الانجليز) . وربما كان المرجع في كثرة « التضعيفات » في لغة الأطفال هو اللذة التي يستشعرها الطفل في تكرار نفس الفعل العضوي حتى يصيبه الكلال .

ومما يلاحظ أن الطفل يكون قادرا على إدراك نغم الكلام الذي يسمعه قبل أن يفهم كلمة واحدة مما يقال له أو على مسمع منه بزمان طويل : فهو في هذه المرحلة

يستطيع أن يميز بين الكلام الذي يوجه اليه بحب وعطف ، وبين ذلك الذي يوجه اليه بحدة وغضب ، فتنبسط أساريره ويهش لسماع الكلام الأول ، ويعبس ويجنح الى البكاء عند سماعه الكلام الثاني . وقد لوحظ أن كثيرا من الأطفال يستطيعون في سن باكرة أن يدركوا النغمة الصحيحة التي يقال عليها شيء ما ، أو يغنى عليها شيء ما .^٦

وهذا الحديث عن إدراك الطفل لنغم الكلام يقلنا الى الحديث عن مسألة أخرى : إن الطفل لا يسمع أصوات اللغة مفردة ، ولكنه يسمع كلمات وجملًا سواء أكانت هذه الكلمات والجمل موجهة اليه أم لم تكن بأن كان الكبار يتحدثون فيها بينهم على مسمع منه . وهو لا يتعلم الجانب الصوتي ، أي العنصر الخارجي ، للكلمات والجمل مستقلا عن معانيها المرتبطة بها ، أي عن عنصرها الداخلي ، ذلك لأن الجانب الصوتي لأي كلمة ومعناها مرتبطان ارتباطا لا انفصام له بالنسبة للطفل ، كما هو الشأن بالنسبة للكبار كذلك .^٧

وإن الطفل يأخذ في سن مبكرة في إدراكه أن للكلمات « معنويات » ، بل إن فهم الطفل لمعاني الكلمات دائما ما يسبق قدرته على أن ينطق هو نفسه نفس الكلمات التي يفهم معناها ، وغالبا ما يسبق هذا الفهم تلك القدرة بزمان طويل^٨ (فالطفل قبل أن يتمكن من نطق الكلمات يطلب منه مثلا أن يجلس فيجلس ، أو أن يقف فيقف ، أو أن يحضر شيئا فيحضره ، أو أن يترك شيئا في يده فيتركه وهكذا) .

وإن الكيفية التي يكتسب بها الطفل معاني الكلمات على جانب عظيم من التعقيد والصعوبة ، فمن ذلك أن بعض الكلمات المختلفة المعنى متفقة صوتا ، وهذا من شأنه أن يوقعه في الحيرة ، وإذا كان الطفل يستطيع أن يدرك الكلمات التي تدل على محسوسات يشار اليها وقد يستعملها (مثل : لبن - كرسى - قنطرة الخ) فكيف يدرك معاني الكلمات التي تدل على أمور معنوية ؟ إن فهمه لهذه الأخيرة يتأخر ، وغالبا ما يكون غامضا غير دقيق . ثم إن من الكلمات ما يستعمل استعمالا

- | | |
|---|-----|
| Monosyllables | (١) |
| Mutilation | (٢) |
| Reduplications | (٣) |
| "Pepe" instead of "Pencil" ; "Kaka" instead of "Carrie" | (٤) |
| King-King ; Ring-Ring (=bell) | (٥) |

(٦) انظر المرجع السابق ص ١٠٨

- | | |
|--------------------------|-----|
| Tone | (١) |
| الرجع السابق ص ١١١ - ١١٢ | (٢) |
| الرجع السابق ص ١١٣ | (٣) |
| الرجع السابق ص ١١٢ - ١١٤ | (٤) |

مجازيا ، وان الطفل ليتعلم في ادراك هذه المعاني . وما يصعب على الطفل ادراك معاني بعض الكلمات أن الكلمة قد يكون لها أكثر من معنى باختلاف السياقات اللفظية التي تقع فيها ، أو باختلاف الظروف الخارجية المحيطة أو باختلاف النغمة التي تقال عليها ، أو لغير هذا . كما أن الطفل يجد صعوبة كبيرة في ادراك فكرة الزمن التي تدل عليها بعض الكلمات . ولكن ما يعين الطفل على اكتساب المعاني أنه طئله اذ يأتي عليه وقت من الأوقات يكثُر فيه من السؤال عما لا يعرفه ، وعن أسائه فيظل يردد « ما هذا ؟ » أو « ما اسم هذا ؟ » .

يتعلم الطفل آخر الامر لغة جماعته . وما يعينه على ذلك قدرته الفائقة على التقليد ، وشدة تطلعه ، وما يجده من عناية من حوله من الكبار لا سيما الام . فالأم ، أو من يقوم مقامها ، تظل « تناعيه » وتكرر على مسامعه دون أن تمل ، الكلمات والجميل والمبارات والاعاني والانشيد حتى عندما تعرف أنه لا يفهم عنها ، ولكنها يجدان في ذلك من المتعة ما يدعوها الى الاستغراق فيه ؛ وهكذا يسمع الطفل الكلمات والجميل مرات ومرات بطريقة محببة . والطفل يجد من تشجيع من حوله على محاولاته الكلامية ما يسر له الطريق . كما أن الطفل يتفسيح أمامه المجال لتصحيح أخطائه اللغوية في نطق الاصوات ، أو في صيغ الكلمات ، أو في تركيب الجمل ، أو في مدلولات الكلمات . فالأم والأب والأخوة والأخوات والأقارب والرفاق الكبار والخدم (ان كان ثمة خدم) لا يزالون يصححون له أخطاءه ، وان كانوا أحيانا يعملون على استبقاء بعض أخطائه استعمالها واستطرافا ، أو لغير ذلك من الأسباب ؛ وقد يصحح الطفل بعض أخطائه نتيجة لادراكه الخاص .

وللطفل قياسه اللغوي من النواحي الصوتية ، والنحوية ، والمعنوية ، فهو يقيس ما لم يسمع أو يدرك على ما سمع أو أدرك ؛ وهذا القياس يعين الطفل من جانب على تعلم اللغة ، كما أنه من جانب آخر يوقفه في بعض الخطأ . ان الطفل في مراحله الاولى لا يتهيا له سماع جميع مفردات اللغة ، وكل صيغها وتركيباتها ، أو قد لا يذكر جميع ما يسمع ، أو قد لا يحضره جميع ما يعرف وقتما يريد ، كما أنه لا يتييسر له ادراك معاني جميع المفردات . فمن قياس الطفل النحوي أنه قد يسمع مثلا مذكر كلمة ولا يسمع مؤنثها ، أو قد يعرف مفرد كلمة ولا يعرف مثناها أو جمعها ، ولكنه يلحظ — ان كانت اللغة التي يتعلمها هي العامية المصرية — أن الكلمات المؤنثة

التي يعرفها تختتم بناء تضاف الى المذكر ، فاذا أراد نطق مؤنث « أخضر » قال « أخضرة » ، ومؤنث أحمر قال « أحمرة » بدلا من « خضرة » و « حمرة » وهكذا . وهو من كثرة سماعه لأسماء دالة على الجمع تنتهي بـ « ين » يعمم هذه الطريقة عندما يريد جمع كلمات لا تجمع في المصرية بهذه الطريقة ، فيجمع « ولد » على « ولدين » مثلا وهكذا . وكثير من الاطفال المصريين يعممون طريقة النفي المستعملة في حال الاسماء على بعض الافعال التي لا تنفي بهذه الكيفية فيقولون « مش جه » بدلا من « ما جاش » وهكذا .

ان لكل طفل لغته المميزة له ، لا بل ان لكل فرد لغته متفلا كان أو صبيبا أو شابا أو كهلا أو شيخا ، ذكرًا كان أو أنثى في كل حال من هذه الاحوال . وأخطاء كل طفل تختلف عن أخطاء غيره من الاطفال الذين ينتمون الى جماعته الكلامية ، وان كان ثمة أخطاء عامة يشتركون فيها جميعا . والاطفال يتفاوتون فيما بينهم في سرعة تلقينهم للغة ، وفي سرعة تصحيحهم لأخطائهم اللغوية ، كما يتفاوتون في عدد المفردات التي يعرفها أو التي يستعملها كل منهم ، وهم كذلك يتفاوتون في دقة الابانة عما يريدون ، وفي مسائل أخرى غير هذا كله .

اللغة مميز فردى ومميز طبقي

(١) ان اللغة علامة مميزة للفرد . وأول ما يبدو من تمييزها هذا هو اختلاف « الأصوات » الطبيعية للأفراد ، هذا الاختلاف الذي يرجع الى أسباب عضوية . نعم ان « الصوت » الطبيعي يميز جماعة الأطفال من جماعة الراشدين ، ويميز كلام هاتين الجماعتين من طائفة الشيخوخة ، كما أنه يميز ذكور كل جماعة من هذه من اناثها ، ولكن الامر لا يقتصر على هذا النوع من التمييز بل انه ليمتد حتى يميز كل فرد من سواء . وان للصوت الطبيعي بهذا الاعتبار وظيفة ، فنحن نميز الشخص بصوته ، نعرف أن فلانا هو فلان . بسماعنا لصوته دون رؤية شخصه . فالصوت بهذا الاعتبار يكاد يكون صنو الجسم ، فكما يتميز الأفراد طولاً وعرضاً ، وسناً ونحافة ، وبياضاً وسمره . الخ . فهم يتميزون أصواتاً . ولما لم يكن للفرد دخل في هذه الخاصة إذ أنه ليس كاسبها ، ولكنه ولد عليها (وقد يتخذ صوت فرد من الأفراد صفة غير تلك التي ولد عليها نتيجة مرض أو حادث . الخ .) فكل منا على هذا الأساس يولد متفرداً . وان الأصوات الطبيعية للأفراد من العوامل التي تكيف المواقف التي تتخذها ازاءهم ، فقد يكون في صوت من الأصوات ما يدعو الى السخرية والزراية ، وفي آخر ما يدعو الى الإعجاب والاقبال ، وفي ثالث ما يدعو الى النور والابتعاد ، وفي غير هؤلاء ما يوجب التوقير والاحترام ، وهكذا . ومن وظائف الصوت الطبيعي أن سماعه — ولو لم يكن صاحبه يتوجه اليه بالكلام ، بل دون رؤيته لصاحبه — يدفعنا الى تسرع أو أنواع من السلوك : فالتفصل يسمع صوتاً من خارج البيت يعرف فيه صوت أبيه فيتهلل ويستطار ويصبح ويهرع الى لقيائه ، أو قد يصيبه شيء من خوف ، ويتكلف الجهد ان كسان أبوه شديد الولاية عليه . وقد يسمع مرءوس صوتاً قادماً من خارج فيدرك فيه صوت رئيسه فيتصنع الانصراف الى العمل مثلاً . وقد يظرق سماعاً صوت جميل لشخص حبيب فتأهب خفافاً للقياء مصلحين من شأن مظهرنا مثلاً . وقد يسمع الجندي صوتاً يتكلم كلاماً لا يفهمه فيرى فيه عدوه فيسرع الى سلاحه مستعداً للقتال به ، وينذر زملاءه بتقديم العدو . كل هذا وليس ثمة « تغافل » ، أو « اتصال » ، أو قصد الى الاتصال .

ومما يميز لغة فرد من فرد ما يكون لكل متكلم من « لوازم » لغوية . و « اللازمة » اللغوية قد تكون كيفية من نطق كلمة أو كلمات ، وقد تكون عبارة يكثر من ترادها ، وقد تكون كلمة أو جملة ينطق بها في ظروف معينة ، وقد تكون لفظة أو ألفاظاً لا يستعملها نظراً ويستعملها هو تعلماً أو تباهياً أو تواضعاً أو مرئياً غير ذلك ، وقد تكون عيباً عضوياً في النطق كاللثغة أو الفأفة أو التمتمة ، وقد تكون جمعا بين شيئين أو أكثر من هذا ، وقد تكون أمراً آخر يكفي سماعه أو ذكره لتحديد شخص القائل أو المتحدث عنه .

ان « اللازمة » اللغوية علامة دالة على الفرد قد يغنى ذكرها عن ذكر اسم صاحبها ، وهي أشبه بالسمة العضوية البارزة البادية كجحوظ العين ، أو ضخامة الأنف ، أو الغرابة في شكل اليد أو الاصبع . الخ . ومن « اللوازم » اللغوية ما يثير الضحك على صاحبها ، ومنها ما يبعث على الضيق به ، ومنها ما ينشر جواً من الأمل اليه وهكذا ، فللزمة اللغوية أثر في تكيف العلاقة بيننا وبين صاحبها . ذكرنا أن الفرد لا يأخذ لغة جماعته الهاماً ، أو وحياً ، أو ابتكاراً ، ولكنه يأخذها عن طريق التعلم الطويل الشاق في سنوات طفولته الأولى ، وهو لا يزال يضيف الى لغته ، ويعدل فيها الى أن يموت . فمن الخطأ أن تتصور أن لغة الفرد تثبت على حال واحدة بعد انتهاء مرحلة الطفولة التي يصل عندها الى القدرة على التفاهم مع الكبار باللغة العامة المشتركة .

ومما يبين أن لغة الفرد في تفيش دائم أن الفرد لا يحيط بجميع مفردات اللغة العامة في سن معينة ، بل أنه لا يزال يسمع ألفاظاً جديدة يضيفها الى ما يعرفه . فهو في كل دور جديد من أدوار حياته ، وفي كل تجربة من التجارب الهامة التي يخضع لها يسمع ما لم يكن قد سمع . ولنا في حاجة الى أن نذكر أنه في كل حال من هذه الاحوال لا يسمع مفردات جديدة فحسب ، ولكنه يسمع كذلك تعبيرات جديدة ، وطرائق من الكلام حديثة . ان الصبي في المدرسة يتصل بزملاء له يختلفون عنه طبقة وسناً وتجربة فيسمع من أولاد من هم أغنى من ذويه كلمات وعبارات لا يعرفها ، ويسمع من أولاد من هم أدنى من أهله كلمات وعبارات لم يكن له بها علم ، بل انه ليسمع من أولاد نظراء أهله — ولو كانوا مثله سناً — كلمات وعبارات لم يسبق له أن سمعها من أبيه أو أمه ، أو من اخوته الكبار وسائر

من اتصل بهم من قبل . هذا بطبيعة الحال بالإضافة الى ما يسمعه من جديد الالفاظ المتعلقة بالدراسة ونظامها ، وبالسلوك الذى يفرض عليه وما الى ذلك . وعندما يتصل فرد بفرد من الجنس الآخر تتكشف له كلمات وعبارات جديدة ، وطرائق من الحديث لم يكن له بها عهد . ومعروف أن المتزوجين من الرجال والنساء لا يزال كل منهم يسمع من قريبته مفردات وعبارات لم تكن من جملة ما يعرفه . وهكذا فلغة الفرد الواحد في زمن من الأزمان تختلف عن لغته فيما سبق هذا الزمان وفيما لحقه أو يلحقه .

* * * *

(ب) وكما ان اللغة علامة فردية مميزة فهي كذلك علامة « طبقية » مميزة .

ففى الجماعة الكلامية الواحدة تختلف لغة المتعلمين عن لغة الأميين ؛ والمتعلمون يختلفون لغة فيما بينهم باختلاف درجة تعلمهم ، وباختلاف مهنتهم ، وباختلاف درجة تراثهم وبسوى ذلك من الاسباب . ولغة الصيادين تختلف عن لغة التجارين وعن لغة الحدادين . . الخ . وكل من هذه تختلف عن لغة طلبة المدارس مثلاً أو عن لغة الموظفين الحكوميين الخ . ولغة المسيحيين فى جماعة كلامية ما تختلف عن لغة من يدينون بالاسلام أو اليهودية مثلاً من أفراد نفس الجماعة الكلامية . هذا بالإضافة الى مبانة لغة كل فرد من أفراد كل طائفة من هذه الطوائف للغة أى فرد آخر من أفراد الطائفة نفسها .

ان سماع فرد من الافراد وهو يتكلم لقاض بمستواه العقلى ، والمادى ، وبمفقتة الطائفية والمهنية . . الخ . وهكذا فاللغة قيد من القيود ، أو هى أشبه ، مع شئ من الفارق ، ببصمات الاصابع ، أو بالزى .

وان نغير الفرد للغته المفصحة عن وضع طبقى معين حتى تصبح مثيلة للغة طبقة أعلى أو أدنى ، أو للغة طائفة أخرى من طوائف نفس الجماعة الكلامية لأمر جد عسير ؛ وهو يحتاج الى طول مران ، وتعلم شاق ، وحتى بعد هذا فقد تند عن الفرد ألفاظ أو تعبيرات تدل على أنه دخيل على هذه الطبقة الجديدة لا أصيل فيها .

وهذا يذكرنا بما صنعه برنارد شو فى مسرحيته « بيجماليون »^(١) : فالأستاذ هيجنز عالم الصوتيات اللغوية يلتقط بأذنه اليزا دوليتل^(٢) ، وهى فتاة فقيرة من أسرة متواضعة تتكلم اللغة اللندنية العامية ، ويتمهدها بالتعليم الصوتى واللغوى الشاق ، وبالتعويد على آداب السلوك الراقية ، حتى يصير حديثها كحديث سيدات الطبقة الأرستقراطية بلندن . ويقول برنارد شو فى مقدمة تأليفه هذا انه يقرر ، تشجيعاً لأولئك الأشخاص الذين يتحدثون لهجات تقطعهم عن كل مركز رفيع ، أن ذلك التحول الذى أحدثه « هيجنز » فى بأذنه اليزا لا هو بالمستحيل ، ولا هو بالأمر غير المألوف . فكثير من ذوى الضموح من الرجال والنساء قد استطاعوا أن يكتبوا « لهجة » جديدة راقية غير « لهجاتهم » الأصلية . وهو يقول ان كثيراً من العائلات والعمال بالمحلات الراقية بحى « وست اند » بلندن يتكلمون لنتين (وهو يقصد لغتهم الأصلية التى تنم عن وضع اقتصادى واجتماعى فقير حقير ، وتلك اللغة التى اكتسبوها من مخالطتهم الطبقة الأرستقراطية ومن تشبههم بهم فى حديثهم والتى يستعملونها فى مخاطبة أفراد هذه الطبقة وفى أدائهم عملهم على وجه العموم) . ولكنه يرى أن هذا التحول يجب أن يتم بطريقة علمية والا كانت الحالة التى ينتهى اليها النظام الى اكتساب « لهجة » جديدة أسوأ من حالته اول الامر . وهو يحذر بأذنه اليزا اللاتى يقرآن مسرحيته هذه أن يتخيلن أن فى استطاعتهم أن يصرن سيدات رقيقات بالتقليد الذى لا معلم معه ؛ بل عليهن أن يتعلمن « الأبجدية » من جديد ، وبطريقة مخالفة ، من عالم صوتى قدير .

وهذا ينقلنا الى لغة حديثى الثراء . فهؤلاء قوم ترفعهم الأموال التى انهالت عليهم فجاءة الى مستوى مادى أعلى . وهم يستطيعون أن يقلدوا الطبقة الراقية فى مجتسمهم بالتشبه بهم فى ظاهر المسكن والمأكل والملبس ، وباتخاذ ما يتخذون من أدوات الزينة ومن وسائل التنقل . . الخ ، وقد يبالغون فى ذلك مبالغة تكشف عن حقيقتهم . ولكن اذا كان اتخاذهم هذه المظاهر المادية ممكناً يسيراً ، فانهم لا يستطيعون أن

(١) Bernard Shaw : Pygmalion, Penguin ed., 1949 .
(٢) Higgins .
(٣) Eliza Doolittle .
(٤) Pygmalion, pp. 9 - 10 .

يتحدثوا حديثهم ، أو هم لا يستطيعون أن يتحدثوا حديثهم بنفس السرعة التي يتخذون بها مسكنهم وماكلهم وملبسهم و . . الخ . ومعروف أن محاولتهم التشبه بلهجة الطبقة الراقية الأصلية كثيرا ما تجعل منهم مادة للهزء والسخرية .

إن وجود طرائق مختلفة من الحديث تميز طائفة من طائفة في الجماعة التي تتكلم لغة مشتركة حقيقة معروفة ، وهي قائمة في كل مجتمع ، ونحن نضنف الناس على أساس منها . إن التغيرات التي تطرأ على أية لغة مشتركة حسب المستويات الاجتماعية يسمى كل منها «لهجة طائفية» أو «لهجة طبقية»^(١) .

ومن ألوان اللهجات الطائفية الموجودة في كل مجتمع تلك التي تسمى **اللهجة السرية** «أو «الكلام السري»^(٢) . والمقصود بها تلك اللغة التي تستعملها طائفة تخشى سلطة المجتمع ، وتهرب من عقابه ، وتحاول أن تخفي عنه أمرها ، وذلك كلغة اللصوص ، ولغة رجال العصابات ، ولغة الحشاشين ومن اليهم ممن يتعاطون مخدرات يحرمها مجتمعهم ، ولغة «القوادين» . الخ . فالملاحظ أن كلا من هذه الطوائف وأشباهها تصطنع مفردات وتعبيرات لا يعرف معناها من ليس منها أو من لم يتصل بهم ويكشف عنها . والذي تلجأ اليه هذه اللغة في الاغلب أنها تعطي بعض الكلمات المستعملة في اللغة المشتركة دلالات جديدة ، وتعتمد على الاستعمالات المجازية ، وقد تستعمل كلمات مأخوذة من لغات أجنبية محرفة أو غير محرفة ، وقد تخترع بعض الكلمات والتعبيرات اختراعا . وهذه التغيرات التي تلحق اللغة تغيرات عامدة . وقد لوحظ أن في «اللهجات السرية» المختلفة في الجماعات التي تتكلم بلغات مختلفة قسما مشتركا من المفردات والتعبيرات ، لا سيما في البلاد الأوروبية والأمريكية . ومن أمثلة اللهجات السرية أن بعض الحشاشين في الاسكندرية يستعملون كلمة «سكر» بدلا من «حشيش» . وبعض اللصوص

(١) Class Dialect (١)
(٢) Secret Language ; Underworld Speech. (٢)

في أمريكا يدلون على الجواهر^١ بكلمة «جليد»^٢ ويدلون على الجواهر المروقة بمباراة «الجليد الساخن»^٣ .

Jewels (١)
Ice (٢)
Hot Ice (٣)

انظر في هذا :

اللغة وأصحابها

(١) العلاقة بين البنية اللغوية^١ والبنية الاجتماعية^٢

من المسائل الهامة التي يخوض فيها علم اللغة العام مسألة بنية اللغة ومسدى تمثيلها للبنية الاجتماعية + معروف أن لكل لغة بنيته الخاصة بها فهل هذه البنية تمثل تمثيلا صادقا للبنية الاجتماعية للجماعة المتكلمة بها ؟ أو هل تمثل هذه البنية بدرجة معينة ؟ وإذا كانت تمثلها فكيف يكون هذا التمثيل ؟ ومعروف أن أية لغة من اللغات لا تنظر ثابتة بل هي في تطور مستمر، كما أن البنية الاجتماعية دائمة التطور، ولكل نوع من هذين النوعين من التطور شروطه الخاصة به ؛ فهل كل تطور في البنية الاجتماعية يقابله تطور ما في البنية اللغوية ؟ أو بمباراة أخرى ما القوانين التي تحكم العلاقات الضرورية بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية ؟

كان أنطوان ميهيه^٣ من أوائل من وجهوا اللغويين إلى الكشف عن هذه القوانين فلقد رسم في سنة ١٩٠٦ المنهج الآتي :-

« انه من الواجب أن نحدد مع أي بنية اجتماعية تتفق بنية لغوية معينة، كما أنه من الواجب أن نحدد كيف تمثل تغيرات البنية الاجتماعية ، بطريقة عامة ، في تغيرات في البنية اللغوية . »

Il faudra déterminer à quelle structure sociale répond une structure linguistique donnée et comment, d'une manière générale, les changements de structure sociale se traduisent par des changements de structure linguistique.

ولقد أتى ميهيه نفسه بمثال يوضح في رأيه العلاقة بين هذين النوعين من البنية فقال : ان اللغة الهندو أوروبية كان تصرفها يصططع « عوامل صيغة » كثيرة

Linguistic Structure	(١)
Social Structure	(٢)
Antoine Meillet	(٣)
Flexion	(٤)
Morphèmes	(٥)

جدا يمثل كل منها مجموعة من الخصائص ، وكانت تعطي الكلمة استقلالاً ذاتياً كبيراً في الصبغة ؛ وذلك لأنها كانت لغة عقلية منفردة ؛ وهذه الصفة ذات علاقة بالبنية الاجتماعية للأمة الهندو أوروبية التي كانت جملة جماعات صغيرة كل منها على درجة كبيرة من التحرر عن سائرهما .

أما فـ برونـدال^٤ فقد أقام علاقة بين وجود « الحروف »^٥ وبين تقدم المدنية ؛ فقرر أن « كل شيء يبين أن الحروف في آسيا القديمة ، وفي إفريقيا الشمالية ، وفي أوروبا كذلك ، هي أداة منطقية ؛ لم تكتسب إلا في مرحلة من مراحل المدنية متقدمة نسبياً . »

وكثيراً ما نسب اللغويون وجود الأقسام الاسمية^٦ إلى عقلية « بدائية » ولكن الأبحاث الحديثة التي قام بها لـ هومبورجر^٧ تدعو إلى إعادة النظر في هذه المسألة التي يبدو أنه قد أسى فهم طبيعتها الحقيقية ولو في حالة لغات البانتو^٨ على الأقل .

وفي رأى كثير من اللغويين أن من الميول العامة المرتبطة بتقدم المدنيات الميل إلى التخلص من « المثني »^٩ وهو عدد « حصى »^{١٠} من اللغات التي كان موجوداً فيها حتى لا يقوم إلا التقابل بين المفرد والجمع ، وهو تقابل ذو طبيعة أشد تجرداً ؛ كما أن من هذه الميول الميل إلى تضاعف زمن الفعل على هيئته للوفاء بحاجات المجتمعات في تطورها^{١١} .

Jean Perrot : La Linguistique, (Que sais-je ? Paris) p. 128	(١)
V. Brondal	(٢)
Prépositions	(٣)
Instrument Logique	(٤)
المرجع السابق	(٥)
Classes Nominales	(٦)
L. Homburger	(٧)
Les Langues Bantoues	(٨)
Concret	(٩)
Jean Perrot : La Linguistique pp. 126 - 127	(١٠)

ان هذه الامثلة وسواها مما قدمه اللغويون اثباتا لوجود علاقة بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية، قد تكون قاصرة، أو متعسفة، أو لم تؤد إليها مقدمات علمية يقينية؛ ذلك لأن البحث في العلاقة بين هاتين البنيتين لا يزال في أوائله، وهو بطبيعة محوج إلى فضل استقصاء، وزيادة احتراز، وأن النتائج المرضية التي توصل إليها قليلة قلة بالغة. وأيا ما كان فلنا أن نقول مع جان بيرو (1) :

« من الثابت أن بنية أية لغة من اللغات ذات علاقة بعقلية المتكلمين بها، وبنظمتهم وبمحاورتهم المادية. »

جانب العناصر الموروثة في كل حالة من حالات اللغة لجهد كثيره فالتغير الكامل في مجتمع يصطنع لغة ما لا يستلزم بالضرورة تغيرا في بنية هذه اللغة؛ فالمجتمع الروسي قد قلب أيا قلب في القرن العشرين، ولكن اللغة الروسية احتفظت ببنيتها القديمة. ولقد أدت مناقشة قامت في الاتحاد السوفييتي في سنة ١٩٥٠ واشترك فيها ج. ستالين إلى هذه النتيجة : ان اللغة لا يمكن اعتبارها في مجموعها بنية عليا يحددها في مجموعها البنية السطحية الاقتصادية والاجتماعية. »

(ب) اللغة والجنس : ٤

هل ثمة روابط ضرورية بين اللغة والجنس ؟ أي هل تتمايز اللغات بتمايز الأجناس، وهل التغيرات التي تطرأ على جنس من الأجناس لا بد أن يكون لها أثرها في لغته ؟ هل نستطيع أن نستخلص من درسا لغة ما أنها لغة جماعة مستطيلي الرأس، ومن درسا لغيرها بأنها لغة جماعة مستديري الرأس ؟ هل نستطيع الحكم بأن هذه اللغة لغة راقية طيبة قادرة على التعبير عن لطائف الفكر ودقائق الحس لأن أصحابها ناعمو الشعر، وبأن تلك متخلفة جامدة لا طاقة لها على التعبير عن المعنويات والمجردات لأن أصحابها مجعدو الشعر ؟ هل ثمة رابطة ضرورية بين الجنس وبين القدرة على اجادة لغة بعينها ؟ أتوجد علاقة بين المميزات الجنسية وبين

(1) Jean Perrot : La Linguistique p. 127

(2) Superstructure

(3) Infrastructure

(C) انظر فندريس : اللغة (تعريب الدواخلي والقصاص) ص ٢٩٥ - ٢٩٨

Margaret Schlauch : The Gift of Tongues, pp. 283 - 285

قدرة الناس على التفكير، وعلى التفكير بصورة خاصة، وعلى التعبير عن تفكيرهم بطريقة معينة ؟

لقد أغرى بعض اللغويين بإيجاد روابط بين اللغة والجنس؛ واستغلت بعض المذاهب السياسية التعصب للجنس والزهو بلغته واتخذتها ذريعة لفرض سلطانها على شعوب تنتمي في رأيها إلى أجناس أدنى من أجناس أصحابها ويتكلمون لغات أدنى من لغاتهم. فالعالم فردريك مولر Friedrich Müller مثلا قد أنشأ كتابه "Grundriss der Sprachwissenschaft" (١)

على أساس من هذه الفكرة، فصنف اللغات طبقا للمميزات الانثولوجية، فاستعرض لغات الشعوب المجعدة الشعر واحدة فواحدة ثم لغات الشعوب الناعمة الشعر.

واقف نتج عن الدراسات اللغوية المقارنة ونظرية العائلات اللغوية أن رأى كثير من الغربيين لغويين ومفكرين وساسة، أن اللغات الهندو أوروبية أسس من سواها كالسامية والحامية، وأن ما سموه « الجنس الهندو أوروبي » أو « الجنس الآري » أسس الأجناس. والحق، كما تقول مارجريت شلاوش Margaret Schlauch أن ما لحق كلمة « آري » Aryan من اضطراب ومن اساءة استعمال ليدعو المرء إلى التردد في استعمال الكلمة ولو في المعنى السائع لها وهو اللغات المنحدرة من الايرانية القديمة Old Iranian والهندية القديمة Old Indian (٢).

لقد برر كثير من البرامج السياسية المستهدفة اتحاد الأقليات وقهرها، والقضاء على العدوان الأجنبية، على أساس أن الجماعة الحاكمة سمي جنسا من الجماعة المغلوبة على أمرها. وقد ذهب الألمان والظليان النازيون والفاشيون دفاعا عن نظامهم السياسي إلى أن اللغات الهندو أوروبية على وجه العموم، والألمانية والاطالية على وجه الخصوص، خير الأدوات الممكنة للفكر الانساني، وإلى أن سائر اللغات جميعا يجب أن تخضع أمامها، وأن تفسح لها الطريق. ومن ثم فقد رأوا أن من الحق، بل من المرغوب فيه، أن تشن الحروب على أولئك الذين اتفق أنهم يتكلمون لغات سامية أو حامية أو غيرها.

(1) Wien, 1876 - 1888.

(2) The Gift of Tongues ; p. 285

والحق أنه لا علاقة ضرورية بين المميزات الجنسية كلون الشعر وتجمده وتوجهه أو نمومته ، ولون العينين وهيتهما ، ولون البشرة ، وشكل الرأس والجبهة ، وطول الجسم وهيته العظام ، وما إلى ذلك ، وبين قدرة الناس على التفكير ، أو على تعلم لغة من اللغات ، أو بين اللغة على وجه الإطلاق . وحتى إذا غضضنا النظر عن دلالة اختلاط الأجناس فإنه لا ينبغي الخلط بين المميزات الجنسية المختلفة التي لا يمكن تحصيلها إلا بالدم وبين النظم من لغة ودين وثقافة التي تعد أعيانا قابلة للنقل ، وتبادل . «^١ أن الأنثروبولوجيين عندما يشرون على جماجم آدمية ترجع إلى عشرات الآلاف من السنين لا يستطيعون إلا القول بأن أصحاب تلك الجماجم كانوا مستطيلي الرأس^٢ أو بأنهم كانوا مستديري الرأس^٣ وهم لا يستطيعون القول بأنهم كانوا يتكلمون - دون شك - لغة اعراية متطرفة في اعراها . ومن الأدلة القوية الحاكمة بفساد هذا الربط بين اللغة والجنس أن من اللغات ما يستفيض حتى يكون لغات جماعات تنتمي إلى أجناس مختلفة ، وهذه الجماعات - على اختلافها في الجنس تجيدها ولا تأنس مشقة في تعلمها ، وذلك شأن الإنجليزية والعربية مثلا . فمن الفتوح والهجرات ما نشر لغات الفاتحين والمهاجرين بين شعوب لا تربطهم بالتكلمين الأصليين روابط بيولوجية . والزنجي الأفريقي الذي يربى منذ طفولته الباكرا في إنجلترا في ظروف واحدة مع الأطفال الإنجليز يتكلم الإنجليزية كما يتكلمها أبناؤها ، وإذا ربى طفل إنجليزي في قبيلة زنجية أفريقية كما يربى أبناؤها تكلم لغتهم تكلمهم أيادها ، وما درى صوتا أو كلمة من الإنجليزية ما لم يتح له تعلمها كما يتعلمها أي أجنبي منها .

(ج) اللغات المتخلفة : ٤

الحديث عن اللغة والجنس من الحديث عن « اللغات المتخلفة » بسيل . فمن

- (١) فنندريس : اللغة العربية عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ص ٢٩٨ من هوبنتي
D. Whitney : La vie du Langage, P. 231 (trad. de l'anglais), 3^e édit., Paris 1880
(٢) Dolichocephalie (= long-headed)
(٣) Brachycephalie (= round-headed)
(٤) انظر Margaret Schlauch : The Gift of Tongues, pp. 285 - 287.

اللغويين من يصف بعض اللغات بالقصور في هذا الجانب أو ذاك ، ولهذا السبب أو لسواه ، عن الوفاء بحاجات المدنية الحديثة ، وعن المشاركة في أحداث العصر واتجاهاته وروحه ، وعن استيعاب العلم والفلسفة والفن . ومنهم من لا يقنع بهذا بل يتطرف فيرى أن أمثال هذه اللغات لن يقدر لها ، بطبيعة بيئتها ، أن تسمى إلى رتبة اللغات « الراقية » فتصلح لما تصلح له . نعم إن من المسلم به أن بعض اللغات في أيامنا هذه بعيدة عن التيارات الكبرى للأحداث ، وأقل قدرة من سواها على مجاراة مدنية العصر القائمة على الصناعة والآلات : فقد تستعمل هذه اللغات مفردات لا توائم حاجات العصر وروحه ؛ أو قد لا يكون فيها أسماء عامة بسيطة مثل « شجرة » أو « منزل » أو « خشب » ، هذه الأسماء العامة التي لا يتأتى بدونها تصور الشجرة العامة المجردة وما إليها ؛ وقد يكون نظم syntax هذه اللغات فارط التدقيق بحيث لا يحتاج إلى هذا التدقيق ؛ وقد تستعمل تركيبات معقدة ومكررة ومعوقة للتعبير عن علاقة بسيطة ؛ ومن المسلم به أن النظم قد يؤدي إلى صورة خاصة في التفكير وقد يؤثر في طرق الاستدلال .

ولكن القول بوجود لغات متخلفة شيء والقول بأن هذه اللغات لن يتاح لها أن تعبر عما قد تعبر عنه اللغات الراقية شيء آخر . فهذه اللغات على هذه الصفة لأنها مرت بطروف تاريخية خاصة ، ولكنها في الوقت نفسه ليست ثابتة static فهي كأي لغة متحركة dynamic متطورة ، إنها متغيرة والتغير الذي يصيبها دائم الحدوث وإن اختلفت سرعة وطبيعة وعمقا وفق ما يصيب الجماعة المتكلمة بها من التغيرات الحضارية . إن ما ينقص هذه اللغات من مفردات من أيسر ما يمكن اضافته ؛ ونظمها المعقد قد ييسر ؛ وبنية جملها قد تتغير مع مرور الأيام ؛ وما

= وفندريس : اللغة ص ٢٩٨ - ٣٠٢

(١) أن اللغة تستطيع في بعض الأحيان أن تعادل من العقلية وتنظمها ، فسادا وضع الفعل في مكان بعينه دائما ، يمكن أن تؤدي إلى صورة خاصة في التفكير وأن يكون لها أثر في طرق الاستدلال . والتفكير الفرنسي أو الألماني أو الإنجليزي خاضع للغة إلى حد ما . فإن اللغة إذا كانت مرتبة خفيفة مشتتة على الحد الأدنى من القواعد النحوية ، سمحت للفكرة بالظهور في وضوح تام واتاحت لها حرية الحركة ، وعلى العكس من ذلك تخنق الفكرة من الضيق الذي يصيبها من لغة جامدة ثقيلة . ولكن عقلية المتكلمين تنصرف لاعتاد أي شكل من أشكال اللغة . « (فندريس : اللغة ص ٣٠٢)

في هذه اللغات من تميزات كثيرة لا طائل من ورائها قد تطرح عند ما تنقطع الحاجة إليها ، والعجز عن التعبير عن المجردات يسكن التغلب عليه . ان اللغات « المتخلفة » قادرة ، عندما تواتيها الظروف المناسبة ، على التكيف السريع ، مصطنعة ما في مواردها نفسها من امكانيات ، لتفي بحاجات المدنية الحديثة ، ولتنهض الى تجريدات الفلسفة الأوروبية المعاصرة . ويحكى فرانز بواس Franz Bons ان الطلبة الهنود الأمريكيين أمكن تعريفهم بالمثل العليا الأفلاطونية ولو أن لغتهم خالية من الأسماء العامة التي تستعمل دون « مغير » ؛ فقد كان من اليسير تعليمهم أن يعزلوا كلمة « بيت » من تعبيرات تعني « ذلك البيت هناك » ، أو « بيتي القائم هنا » و « البيت المصنوع من الخشب » ؛ وما من شك في أن هذا شاق عليهم إذ تعودوا على أن يكون لكل اسم « مغير » modifier ، ولكنهم عندما عثروا على أن يحسوا بالحاجة العقلية الى الاسم « بيت » المجرد من المغير فقد قبلوا الاستعمال ، وساعدوا بهذا على دفع لغتهم الى الأمام .

الفلسفة والقومية

(٤)

ان الوظيفة التي تؤديها اللغة فيما يتعلق بالقومية وظيفية على جانب كبير من الأهمية . فكل أمة تعتز بلغتها ، وتريد لها الحياة ، وتبدو أهمية هذه الوظيفة في ألوان من الصراع الذي ينشب بين الأمم . فبعض الأمم المستعمرة تفرض على الأمم المحتلة أن تكون لغاتها - أي لغات الغاصبين - هي لغة التعليم في المدارس وهي اللغة الرسمية في المخابرات الحكومية وفي المحاكم وفي سائر الأمور الرسمية . ومن أبرز الأمثلة على هذا فرض الإيطالية في ليبيا ، والفرنسية في تونس ، والانجليزية الى حد ما في مصر ، ولكن يلاحظ أن هذه الأمم تحتفظ بلغتها القومية في البيوت ، ومن أفرادها من يعمل على تعليم صغارها اللغة القومية سرا كما كان الحال في ليبيا أثناء الاستعمار الإيطالي . ومن الأمثلة الرائعة على هذا احتفاظ البولنديين بلغتهم البولندية لغة قومية بينما كانت بلادهم مقسمة على ثلاث امبراطوريات في القرن الثامن عشر . وعندما ثور الأمم المحتلة التي فرض عليها المستعمرون لغاتهم مطالبة بالاستقلال السياسي يكون من أهم ما تطالب به استعمال لغاتها هي في الأمور الرسمية وفي التعليم . ان العلاقة بين اللغة وبين اعتزاز الجماعة بقوميتها وتثبيت

هذه القومية وحياتها علاقة خطيرة الشأن ، حتى أنه لمن الممكن بحث لغة طال موتها ، فإسرائيل في العصر الحاضر قد رأت أن من عوامل تجصيع اليهود مختلفي الألسنة بحث اللغة العبرية .

ومن مظاهر اعتزاز الأمم بلغاتها القومية أن بعضها قد تنطرف وطنيته أحيانا فيتخذ مواقف عدائية نحو ما في لغتها من كلمات دخيلة ، وقد تمتد هذه المواقف العدائية اذا نشب صراع بينها وبين أصحاب الكلم الدخيل سواء اتخذ هذا الصراع شكل الحرب ، أو التنافس الاقتصادي أو غير ذلك . وهذه المواقف العدائية تجاه الدخيل قد لا تقتصر على كرهه ، أو محاولة التقليل من استعماله ، بل لقد يمتد الى التظاهر الواعي للغة القومية منه . ومن أبرز الأمثلة على هذا ما حدث في اللغة الألمانية في القرن العشرين ؛ فعندما أثبتت الامبراطورية الألمانية دورها في النشون الدولية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حدث تظهير منظم لكلمات فرنسية دخيلة كان الزمان قد طال على قبول الألمانية لها ، فحلت

كلمة Spielhaus الألمانية محل كلمة Theater و Fernsprecher محل كلمة Abort و Fahrkarte محل Billet وكلمة Toilette الى غير ذلك من الكلمات .^١

وربما كان الاعتزاز بالعربية التي « وسعت كتاب الله » هو الذي دفع كثيرا من المصريين أفرادا وهيئات في أوائل القرن العشرين خاصة ، الى النفور من كثير من الدخيل الأوروبي ، والى وضع كلمات عربية محل محلها قدر لبعضها أن يسدور على الألسنة والأقلام ، وقدر لبعضها أن يموت .

ولكن من الأمم ما لا تتخذ هذا الموقف العدائي نحو ما في لغتها من دخيل لأسباب خاصة بها ؛ وأقرب مثال على ذلك المتكلمون بالانجليزية . وذلك لأن اللغة الانجليزية بطبيعة تكونها وتطورها كثيرة الكلمات الدخيلة المستعارة من لغات كثيرة مختلفة قديمة ووسيلة وحديثة ، فاحساس المتكلمين بها نحو الاضافات الكثيرة التي تضاف اليها عن طريق الأخذ المباشر من لغات أخرى لا يعدو الغضب الرقيق .

Margaret Schlauch : The Gift of Tongues : pp. 282-283

(١) انظر

اللغة والحياة السياسية

ان استعمال اللغة في جوانب النشاط السياسي المختلفة والسياسة بوجه من وجوه الحياة الاجتماعية - معصوج الى فضل دراسة من كلتا الناحيتين الوصفية والتاريخية . ودراسة هذه الوظيفة من وظائف الكلام من شأنها أن توقفنا على حقائق عن اللغة لا تظهرها سواها من الوظائف ، أو هي لا تظهرها بنفس القوة والوضوح .

(١) ومن عناصر دراسة لغة السياسة ، دراسة المفردات والتعبيرات التي يصفونها كل نظام من الأنظمة السياسية المختلفة دعاية لنفسه ، وتثبيتا لحكمه ، وفي تعامله مع نظام آخر يخالفه . فوسائل الاقتناع الكلامية مثلا تختلف في النظام الفاشستي الهتلري أو الموسوليني عنها في نظام ديمقراطي ، وهي تختلف في هؤلاء جميعا عنها في النظام الشيوعي الروسي بوجه عام ، كما أنها في النظام الأخير تختلف بعض الشيء زمن لينين عنها زمن ستالين وعنها بعد ستالين . ولكن هذه الوسائل ، على اختلافها باختلاف الأنظمة السياسية ، وعقليات الشعوب ، والوضع الحضاري للأمة التي يوجه إليها الكلام ، وبغير ذلك ، قد تشترك في طائفة من السمات العامة .

(٢) ومن ذلك دراسة لفظة الانتخاب : فتدرس اللغة المستعملة في الحملات الانتخابية تحريضا على انتخاب مرشح وتغفيرا من انتخاب سواه ، مع بيان اختلافها باختلاف طبقة الناخبين والمرشحين ، واللغة المتصلة بالتقسيم الإداري للدوائر الانتخابية ، وبإعطاء الأصوات و « فرزها » وإعلان نتيجة الانتخاب ، ولغة القوانين التي تصدرها الدولة فيما يتعلق بهذا الموضوع ، ولغة الصحف والمجلات والإذاعة في هذا الشأن ، وتطبيقات الجماهير على كل أولئك ، وما سوى ذلك من جوانب استعمال الكلام الانتخابي . كل هذا يدرس وصفيا وتاريخيا في اللغة الواحدة . ولو درس في العربية المستعملة في مصر منذ أول عهدها بالحياة الانتخابية حتى أيامنا لا تضح لنا كيف ماتت كلمات ، وحيث أخرى ، وتبدلت دلالات ثالثة ، ولظهر لنا كيف تغيرت وسائل الاقتناع تنميا مع ازدياد الوعي الانتخابي للجمهور المصري نتيجة لما خاضه من تجارب ، ولتقدمه الحضاري بوجه عام .

(٣) ودراسة لغة الراسيم التي يصدرها رئيس الدولة في الشؤون السياسية، كتكليف وزارة بالحكم، أو إقالة وزارة، أو افتتاح البرلمان أو تأجيله أو تعطيله على جانب من الأهمية . ولو نظرنا مثلا في لغة مرسوم إقالة وزارة مصطفى النحاس (باشا) من الحكم سنة ١٩٣٧ ، وفي لغة مرسوم تكليف الوزارة التي وليته في الحكم ، ثم في لغة مرسوم تكليف مصطفى النحاس بالحكم مرة أخرى بعد ذلك ، وربطنا كل ذلك بطروقه لظهر لنا كثير من الحقائق عن الوظيفة التي يمكن أن تؤديها اللغة . كما أن دراسة لغة « خطاب نهرو » تظهر لونا من ألوان استعمال اللغة في الميدان السياسي .

(٤) وتحليل المفردات والتعبيرات المستعملة في الحروب تهيدا لها ، وأثناءها ، وبسببها من شأنه أن يقدم لنا معلومات كثيرة عن حقيقة اللغة ووظيفتها في الحرب العالمية الثانية اتخذت كلمة « الديمقراطية » لونا جديدا ، وتعبيرت دلالة « الحلفاء » فبينما كانت تتضمن في نظر « الغربيين » بغضا للروس لأنهم لم يكونوا « حلفاء » من قبل ، أصبحت أثناء الحرب الثانية تعني - من جملة ما تعنيه - مشاركة الروس في التخلص من عدو مشترك . كما أن عبارتي « العالم الحر » و « الأمم الحرة » كانتا أثناء الحرب تدلان على جملة الشعوب المعادية لألمانيا واليابان وإيطاليا ولكن بعد أن اشتدت « حرب الأعصاب » بين « الكتلة الشرقية » و « الكتلة الغربية » بعد انتهاء الحرب أخذت هاتان العبارتان تطويان على المعادة للكتلة الشرقية . كما أن الكلمات الانجليزية المقابلة لـ « العرق ، والدم والدموع » التي وردت في خطاب لونستون تشرشل ، أثناء الحرب ترمز عند الانجليز وعند كثير من حلفائهم الى وجوب موالة الجهود ، والدأب ، والصبر ، والتماسك لأحراز النصر .

(٥) وتذكر لغة الحرب بلغة « السلام » والدعوة اليه ، والتعذير من الانسحاق الى الحرب .

(٦) وان تحليل «التعبيرات الدلالية» التي تصاحب الثورات والانقلابات لأمر على جانب كبير من الأهمية والطرافة ، فالحركات الثورية ، كالثورة الفرنسية ، والثورة الشيوعية، والثورة المصرية سنة ١٩١٩ تنعكس في اللغة قيمها ومعنوياتها والدفع الذي

تحدثه * ويبرز ذلك ، أظهر ما يبرز ، في أنها تميت كثيرا من الكلم اذ تميت أو تريد أن تميت كثيرا من التقاليد والأفكار والعادات ؛ وفي أنها تحيي وتخلق كثيرا من الكلم اذ كانت بطبيعتها الثورية تحيي وتخلق وتريد ان تحيي وتخلق كثيرا من القيم وطرق الحياة وفهمها ؛ وفي انها تغير دلالات كثير من الكلم اذ كانت بطبيعتها ملحقه التغيير في كلا الميدانين الروحي والمادى .

ولو درسنا أثر التاريخ الثوري لمصر الحديثة في اللغة لانتصحت لنا حقائق كثيرة فالثورة العربية التي كانت تتضمن ، في جملة ما تتضمنه ، احياء القومية المصرية أضافت الى كثير من الكلمات معاني الهزة والسخرية ، والى غيرها كـ « مصر » و « المصري » و « افلاح » و « الفلاحون » معاني الاعتزاز والفخر .

اما ثورة سنة ١٩١٩ فمن المبارات التي تذكر بها « الهلال مع الصليب » رمزا الى الأخوة والتماصك بين المصريين مسلمين وقباطا ، ودعوة الى احباط التدخل الأجنبي للتفريق بينهما ؛ ومن ذلك اشارة المسلمين الى الاقباط بقولهم « اخواننا الاقباط » . وما يلاحظ أن كثيرا من مواليد بعد الثورة قد سموا : « سعد زغلول » أو « سعد » و « صفيه » « أم المصريين » . وما من شك في أن لغة الأغاني والأناشيد المصرية قد غيرها تغييرا كبيرا ثورة سنة ١٩١٩ ؛ وربما ساع لنا القول بأن النشأة الحقيقية للأناشيد المصرية الوطنية مرتبطة بثورة ١٩١٩ . وقد غيرت هذه الثورة من أسلوب الصحافة خاصة ومن أسلوب التعبير الكتابي والكلامى عامة ، فأخذ يخلص من كثير من الزخرف والزينة والقيود التي لا طائل من ورائها ويسلس ويستقيم ، فان ما أحدثته الثورة من تنشيط وتحريك ، وما رفعتك عن الناس من خمول ، وما ألجأت اليه من سرعة في الفعل قد انعكس صداه في اللغة وان ما بين أيدينا من حقائق عن ثورة سنة ١٩١٩ يدل على أن أثرها في العاميات العربية وفي العربية الفصحى في مصر وفي سائر الأقطار العربية أثر خطير ينتظر من يكشف عنه في تفصيله وجملة ، ومن يقومه التقويم الصحيح .

واما ثورة الجيش المصرى سنة ١٩٥٢ فلها كذلك ، شأن كل ثورة ، آثارها في اللغة . فما أحدثته هذه الثورة من إلغاء الألقاب قد حكم بالموت على كثير من الكلمات والعبارات من لغة الكتابة بوجه خاص . فلم تعد تستعمل ، بالنسبة الى

المصريين ، كلمات مثل « حضرة » و « أفندى » و « بك » و « باشا » ، و « صاحب العزة » و « صاحب السعادة » و « صاحب المعالي » و « صاحب الرقعة » و « صاحبة المعصية » و « البرنس » و « الأمير » و « الأميرة » و « سمو الأمير » و « سمو الأميرة » ، و « الملك » و « صاحب الجلالة » و « وجلالة الملك » و « الذات الملكية » و « الملكة » و « صاحبة الجلالة » . . . و « الملكة الوالدة » . . . الخ كما لم تعد تستعمل تصرفات كثير من هذه الكلمات والعبارات في التأنيث والتثنية والخطاب والاشارة . وما من شك في أن كثيرا من هذه الألقاب قد استمر في لغة الأحاديث الخاصة بين طوائف من الناس ، فكثير من الأحياء من أصحاب هذه الألقاب ظلوا يخاطبون بألقابهم وبما يتصل بها من صفات ، اما لاصرارهم على أن يخاطبهم أتباعهم والمخاطبون لهم بهذه الألقاب ، واما تأديبا من المتكلمين خشية أن يشعروهم بأن منزلتهم قد عراها النقصان ، واما لهذين معا ، أو لغير ذلك من الأسباب . والروايات كثيرة على غضب كثير من حملة هذه الألقاب أو استيائهم — في أوائل العهد بإلغاء الألقاب خاصة — عندما تخوج الاشارة في الكتابة الى أحد من حملة الألقاب يحدث ، أول الأمر ، عندما تخوج الاشارة في الكتابة الى أحد من حملة الألقاب أن يوضع اللقب بين قوسين ، أو أن يردف اللقب بكلمة « السابق » أو « السابقة » أو « سابقا » ، ثم أخذ الناس يكثفون بذكر الاسم مجردا عن اللقب في الأغلب . ولكن ثورة الجيش ، وقد ألغت الألقاب المشعرة بالفوارق الطبقة الكبيرة ، أوجدت لقبا جديدا هو « السيد » (ومؤش « السيدة ») يطلق على المواطنين المصريين كافة ، وبهذا أعطت هذا اللقب دلالة جديدة لم تكن له . وهذا اللقب في العربية في مصر يختلف عن Mister في الانجليزية ، و Monsieur في الفرنسية و Her في الألمانية فهذه الألقاب تطلق على السواد الأعظم من الانجليز والفرنسيين والألمان أولئك الذين لا يحملون ألقابا مثل Sir و Lord و . . . الخ . وباستعمال « السيد » بهذا المعنى استعملت معه عبارات مثل « سيادتكم » و « سيادة » فلان ، و « سيادته » عند الخطاب والاشارة .^١

(١) تظهر دراسة لقب « السيد » وتصرفاته في العربية دراسة تاريخية ان هذا اللقب ذو تاريخ طويل متطور ، اصطنعه العرب في جاهليتهم واسلامهم واستعملته الأمم التي اتخذت العربية بعد اسلامها ، وبعض الأمم الاسلامية الناطقة بغير العربية ، وهو =

= لا يزال قائما في أيامنا، وأعطى في مصر دلالة جديدة بعد ثورة الجيش سنة ١٩٥٢؛ وقد انتقل هذا اللقب من العربية إلى بعض اللغات الأوروبية . وقد استعمل مؤنثة «السيدة» لقبا، كما استعمل مثناه وجمعه مذكرين ومؤنثين «السيدان - السيدتان - السادة السيدات» .

ورد هذا اللقب في الشعر والنثر وفي القرآن الكريم (والقرآن نفسه قد لقبه أبو اسحق الزجاج بـ «سيد الكلام» ؛ انظر لسان العرب مادة «سود») وفي الحديث الشريف، ولم يكن قاصرا على الفصحى . وتتبع استعمالات هذا اللقب في العصور المختلفة يظهر أنه لم يكن في عصر من العصور ذا دلالة واحدة بل هو في العصر الواحد يدل على أكثر من معنى ؛ ولكن استعمالاته جميعا ينتظمها معنى التعظيم والتشريف والتفضيل والتبجيل ؛ وقد تكون الفضيلة التي يطلق بسببها هذا اللقب سموا في الخلق أو براعة في العقل ، أو شرفا في النسب ، أو كملا في الجسم ، أو امتلاكا لغير هذا من أسباب السلطان والبروز . وما كانت هذه المعاني هي الأساس في إطلاقه اتضح أنه يتأتى إطلاقه على كثير من القوى ، وعلى كثير من الأشخاص والحيوان والأشياء ، وهذا الذي كان .

كان «السيد» يطلق في الجاهلية على «الملك» رئيس القوم ، سواء كان رئيس قبيلة أو رئيس عشيرة أو أدنى من ذلك ، وعلى من يقدمه القوم على أنفسهم ، وعلى من يتكلم باسمهم في أمر من الأمور ، (قال زهير بن أبي سلمى في معلقته مخاطبا هرم بن سنان والحارث بن صوف :

يمننا لنعم السيدان وجدتمنا
وقالت الخنساء من أخيها صخر :

السيد الجحاح وابن السادة الشم الجحاح)

وكان يطلق على غير رئيس القوم ان برزت فيه صفة يعلى مجتمعه من شأنها كالشجاعة الفارطة ، وكالحلم البالغ ، واحتمال أذى الناس ، والأغراق في السخاء ، وبرجاجة العقل ، والتفوق في المال . كما كان يطلق على كبير السن .

ومن أطلق عليه لقب السيد في الجاهلية مولى العبد أي صاحبه لأنه مالكة ، واستمر استعمال السيد في هذا المعنى طوال نظام الرق .

وبين ما أثر من النصوص الجاهلية أن زوج المرأة كان يلقب بسيدها (وجاء في القرآن قوله تعالى « وألقيا سيدها لدى الباب » أي بعلاها) .

وكما كان «السيد» يطلق على الشريف والرفيع والمالك من الأشخاص فلقد كان يطلق من قديم على «السنن» من المعز (قال الشاعر :

سواء عليه شاة عام ذنت له
ليذهبها للضيف أم شاة سيّد

ومنه الحديث : نبي من الضأن خير من السيد من المعز) .

= وكان الحمار الوحشي يسمى سيدها ، وأطلق «السيد» على رئيس الجن :

جن هتفن بليل
يتدبن سيندهننه

وفي القرآن الكريم استعمل السيد بمعنى الزوج (وألقيا سيدها لدى الباب) ، وسمى الله تعالى يحيى سيدها وحسورا أي أنه فاق غيره عفة ونزاهة عن الذنوب أو بمعنى الرئيس والامام في الخير ، أو أمير ذلك من أسباب التقديم . وفي الحديث الشريف أن النبي (صلى الله عليه وسلم) سمي الله - تبارك وتعالى - «السيد» (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : «أنت سيد قرشي؟» فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «السيد الله» فقال : «أنت أفضلها قولا وأعظمها فيها طولا» فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : «أنت أفضلها قولا ولا تستجيز نفسك») . وصفه الله جل ذكره بالسيد معناه أنه مالك الخلق والخلق كلهم عبيده . وأحسب أن وصف الله و «الرب» والمعبود بالسيد أقدم من هذا . وهذا القول من الرسول تواضع وكراهة أن يمدح في وجهه ؛ ولا شك أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يفضل أن يلقب بنبي الله ورسوله لا «بالسيد» هذا الذي كان يسمى به العرب رؤساءهم ، كما ورد في بعض الأحاديث (في لسان العرب مادة «سود» : وقيل في معنى قوله لهم لما قالوا له أنت سيدنا وقال قولوا بقلوبكم ؛ أي ادعوني نبيا ورسولا كما سماني الله ولا تسموني سيدها كما تسمون رؤساءكم فاني لست كأحدكم من يسودكم في أسباب الدنيا) .

وقد روى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) استعمال السيد في بعض ما كانت تستعمله فيه العرب فقد روى أنه قال للأنصار « قوموا إلى سيدكم » يقصد سعد بن معاذ ، وأنه سأل الأنصار مرة « من سيدكم » قالوا «الجد بن قيس على أنا نبخله» قال : وإي داء أدوى من البخل ؟ . وروى عن الرسول قوله : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» . ولما كان السيد في الجاهلية لقبا يرفع من أشخاص ويضع من آخرين ، ولما كان الإسلام يدعو إلى التسوية ، وبهدف إلى القضاء على الفرقة فقد روى عن محمد (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : « كل بني آدم سيد : فالرجل سيد أهل بيته ، والمرأة سيده أهل بيتها . » وقال الرسول للحسن بن علي : « أن ابني هذا سيد وإن الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » . كما سمي الرسول على بن أبي طالب «سيد العرب» و «سيد المسلمين» ، ولقب الحسين بن علي بأنه «سيد شباب أهل الجنة» ولقبه هو والحسن بأنهما «سيدا شباب أهل الجنة» وقال الرسول عن فاطمة الزهراء أنها «سيده نساء أمتي» أو «سيده نساء هذه الأمة» أو «سيده نساء العالمين» و «سيده نساء أهل الجنة» . وهذه الأحاديث في علي وزوجته وولديه قد يميل بعض الباحثين إلى الظن بأنها من صنعة الشيعة في عصر متأخر .

كان الصحابة يخاطبون الرسول أحيانا بـ «سيدنا» ويشيرون إليه بـ «سيدي» ، وفي حديث عائشة أن امرأة سألتها عن الخضاب فقالت : كان سيدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يكره ريحه ؛ وهذا اللقب قد يتصرف هنا إلى معنى السيادة تعظيما للرسول أو إلى =

= ملك الزوجية ؛ وقد أطلق هذا اللقب على بعض كبار الصحابة ومن ذلك حديث أم الدرداء « حدثني سيدي أبو الدرداء » و « سيدي » هنا يصدق عليها ما يصدق على « سيدي » في النص السابق. وقد رأينا في الأحاديث النبوية السابقة أن من الصحابة اللذين سمي « سيدي » فاطمة الزهراء .

وفي الشهر العباسي أمثلة تشهد باستعمال « سيدتي » و « سيدي » خطاباً للمحبيب . قال أبو المتاهية :

إلا ما لسيدتي مالها أدلا فأحمل أدلها ؟

وقال البحتري :

سيدي أنت ما تعرضت ظلما فأجازي به ولا خنت عهدا

ومن أشهر الاستعمالات الإسلامية للسيد والسيدة ، وتصرفاتهما في التثنية والجمع ، أطلاقها على العلويين والطلبين . وقد ظهر هذا الاستعمال بشكل مستفيض أبان اضمحلال الدولة العباسية ؛ وهو في هذا شبيه بلقب « الشريف » . والأرجح أن هذا الاستعمال السيد ومتصرفاته كان متأثراً بالأحاديث النبوية التي تلقب كلا من علي ابن أبي طالب والحسن والحسين بالسيد ، والتي تلقب فاطمة بالسيدة ، أن صحت هذه الأحاديث ؛ وقد أوردنا بعضها فيما تقدم . كان العلوي أو الطالب لا يزال بلقب « السيد » أو « السيد الشريف » أو « الشريف السيد » . أحالت مادة Sharif في دائرة المعارف الإسلامية في وصف أفراد من العلويين بلقب سيد على كتاب « عمدة الطالب في أنساب علي بن أبي طالب » لابن مهني طبعة بومباي ١٣١٨ هـ ص ٥١ سطر ١٦ ، ص ٥٢ س ٢ ، ص ٥٤ س ١٠ ، ص ٥٩ س ٢ ، ٦ ، ٩ ، ١٦ ، ص ٦٥ س ١٥ ، ١٧ ص ١١٧ ، ص ١٤٢ س ٧ ، ص ١٤٩ س ٩ ؛ وعلى « تاريخ الإسلام » للذهبي مخطوط في لندن 1721 الذي يضيف هذا اللقب إلى الإمام الثاني عشر علي بن محمد . ٨٥ .

وأحالت هذه المادة نفسها في استعمال اللقبين « السيد الشريف » و « الشريف السيد » على نهاية الأرب للزبيدي طه القاهرة ١٣٤٢ هـ . ص ٢٧٧ سطر ١٢ ، وعلى « العقود اللؤلؤية » للخزرجي Gibb. Mem. Ser. ١٩١٣ م . ص ٢٠٤ .

وقد أطلقت « السيد » كذلك على الصوفي ، والولي ، والجليل من الفقهاء وأطلق جمعها « السادة » أو « السادات » على الجماعة من كل هؤلاء ، ومن ذلك « السادة الصوفية » ، و « السادات الأولياء » (انظر الشرجي : طبقات الخواص ، القاهرة ١٣٢١ هـ ص ٢٩ ، ص ٣١ ، ص ١٩٥ س ٣ - من دائرة المعارف الإسلامية مادة Sharif) و « السادة الأعلام » (ابن حجر الهيتمي : الفتاوى الحديثة ص ١٢٤ س ٤ - من دائرة المعارف الإسلامية مادة Sharif)

وتستعمل « السيد » لقباً في بعض البلاد الإسلامية التي لا تتكلم العربية كإيران وتركيا والهند والملايو .

وبالإضافة إلى « سيد » يستعمل في فارس لقب « مير » (من « أمير ») وكان هذا اللقب شائعاً في تركيا والهند كذلك . أما في مناطق من الملايو فيستعمل بالإضافة إلى « سيد » لقب « جيب » (بمعنى « محب » أي للشيء أو بمعنى « محبوب » أي أي محبوب منه) وهذا اللقب يستعمل كذلك في مناطق من بلاد العرب .

أما « سيدي » ، وبالعامية « سيدي » فهو الآن شائع الاطلاق في البلاد العربية والإسلامية المختلفة على الأولياء والأخيار (ومن ذلك في الاسكندرية : سيدي جابر - سيدي ياقوت العرشي - سيدي أبو العباس . وسمعت في بنغازي سيدي عبدالسلام - سيدي خليفة سيدي غريب . الخ) ومن الواجب تتبع استعماله في هذا المعنى من الناحية التاريخية . ومن الملاحظ أن « سيدي » بهذا المعنى كثير الورد في كتب روائع الأنوار في طبقات الأخبار ، للشعراني ، طه القاهرة ١٣١٥ هـ .

ومن استعمالات « سيدي » الحالية في بعض البلاد العربية إطلاقه على الرؤساء عظماء واحتراماً ؛ وأكثر من هذا شيوعاً إطلاقه على كبار السن والمقام . وفي كثير من البلاد العربية يخاطب رب الأسرة لا سيما من يقومون على خدمته ، وزوجته كذلك في بعض البلاد وفي بعض الأوساط بـ « سيدي » ، كما يشار إليه بنفس اللقب ، بينما تخاطب ربة الأسرة وينحدر عنها ، من خدمها ومن يقل عنها شائناً بـ « سيني » . وقد ذكر لي أستاذي الدكتور طه الحاجري أنه في ريف بني سويف من صعيد مصر لا يخاطب الخادم « سيده » بـ « سيدي » بل يخاطبه بـ « يا عمي » ، أما العم الحقيقي أخو الأب فيخاطب ويتحدث عنه بـ « أبويا » بـ « أبويا على » معناها عمي على .

وفي مصر تستعمل « سيد » مضافة إلى الضمائر المناسبة في الأكثر بمعنى الجد (أبي الأب أو أبي الأم) ويقابل هذا في المؤنث « ست » مضافة إلى الضمائر المناسبة بمعنى الجدة (أم الأب ، أو أم الأم) وسمعت في بنغازي « سيدي » بمعنى عمي أخى أبي .

وفي كثير من البلاد العربية يخاطب السائلون من يروجون « حسنهم » بـ « يا سيدي » (ومن ذلك في مصر : « حسنة يا سيدي » و « شيء يا سيدي ») أن كان السائل رجلاً أو « يا سيني » أن كان امرأة .

وتستعمل في مصر عبارة « سيدي يا سيدي » في أحوال خاصة كالتمريض بحسنة مختالة مزهوة .

ويستعمل في معظم البلاد العربية مختصراً « سيدي » هو « سني » ، ومما هو جدير بالملاحظة أن « سني » في مصر له حالات من الاستعمال ، ولا يجوز أن يعطى محل « سيدي » في بعض الحالات ، فلا يقال « سي ياقوت العرشي » ولا يخاطب الخادم رب الأسرة أو يتحدث عنه ، وخاصة إذا كان رب الأسرة كبير السن بـ « سني أحمد » مثلاً ؛ وأكثر ما يستعمل فيه هذا اللقب احترام الشيوخ خاصة ؛ وقد تحدثت الأم نفسها عن =

== ابتها الشاب : « سى فتحي » وقد تخطبه بهذا اللقب .

أما « السيدتنا » (و « السيدة ») في العامية) فلا يزال كثير الاطلاق على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلى الصحابة (سيدنا محمد - سيدنا أبو بكر - سيدنا عمر - سيدنا عثمان - سيدنا علي) وعلى الأنبياء والرسل والملائكة (سيدنا نوح - سيدنا يوسف - سيدنا موسى - سيدنا جبريل) . وقد لاحظنا أن إطلاق سيدنا على هؤلاء قديم . وفضلا عن هذا الاستعمال فإن « سيدنا » تطلق في ريف مصر على معلم الصبية في الكتاب ، و « السيتنا » وهي مختصرة من « سيدتنا » ، تطلق في مصر على أمثال « خديجة » زوج الرسول ، وعلى أمثال « زينب » و « عائشة » و « نفيسة » ؛ ولكن لا يجوز أن تلقب إحدى هؤلاء بـ « ستي » فلا يقال « ستي زينب » الخ .

وقد شاع في العصر الحديث في كثير من البلاد العربية التمييز بين المتزوجة والبكر - لا سيما في لغة الكتابة - بتلقيب الأولى « السيدة » وتلقيب الثانية « الأنيسة » ، وقد ذكرنا أن تسمية الزوجة بـ « السيدة » تسمية جد قديمة ترجع إلى العصر الجاهلي . أما « ستي » (مختصر سيدة) و « ستي » (مختصر « سيدتي ») و « ستنا » (مختصر « سيدتنا ») فهي كثيرة الاستعمال في كل البلاد العربية ، وقد أشرنا إلى بعض استعمالاتها . ويبدو أنها - أو « ستي » على الأقل - قديمة الاستعمال ، وقد وردت في بيت لأبي العلاء المعري في رسالة الغفران ، قال :

ست أن أعياك امرئ فاحمليني زققونا

وقد أطلق لقب « السيد » و « سيدى » على جماعة من غير المسلمين أشهرهم

البطل المسيحي الأسباني رودريجو دياز Rodrigo Diaz da Vivar الذي لقب بـ « السيد » وغلب هذا اللقب على اسمه . وهو من أشهر أبطال فرسان قشتالة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي . وهو نبيل قشتالي (ولد سنة ١٠٢٦ م أو سنة ١٠٤٠ م) ؛ وقد عاون صاحب قشتالة Sancho II Campeador (من اللاتينية Campeator التي كان العرب يكتبونها « الكتنبيطور » - يلاحظ أن النون في هذا الموضع تنطق ميما وهي بمعنى « مبارز » أو « براز ») عاون رودريجو بخالص نصحه صاحب قشتالة على أن يصبح حاكم مملكة « ليون » León وذلك بأسره أخاه الفونسو . ولكن بعد مقتل صاحب قشتالة تولى أمرها أخوه الأسير الفونسو السادس ، وكان يعتقد على رودريجو فتناءه خارج مملكته . ومن ذلك الوقت أخذ رودريجو يحارب المسلمين أو المسيحيين خدمة لطرف ثالث أو خدمة لنفسه . ثم عرض رودريجو خدماته على أحمد بن سليمان المقتدر صاحب سرقسطة Saragossa فضمه المقتدر إلى جيشه هو وجنوده المرتزقة . وقد مات المقتدر في نفس السنة التي انضم إليه فيها رودريجو وجنوده ؛ وتولى حكم سرقسطة بعده ابنه يوسف المؤمن ، وظل رودريجو في خدمة المؤمن ، وتولى ابن آخر للمقتدر هو المنذر حكم مقاطعات أخرى . =

وقد اقتضى تحول مصر من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري حذف « ملكي » (أو « ملكية » وما إليها) من العبارات التي كانت ترد فيها صفة لها فأصبح يقال : « الجمهورية المصرية » و « القصر الجمهوري » و « الديوان الجمهوري » و « مرسوم جمهوري » و « جيش الجمهورية » و « سلاح الطيران الجمهوري » الخ . وقد نتج عن قضاء ثورة الجيش على الأحزاب التي كانت موجودة قبل قيامها ، وعن تحديدها للملكية الزراعية أن أصبحت بعض كلمات وعبارات تهمة يخاف الناس أن يوصفوا بها مثل « حزبي » ، أو « وفدي » ، أو « اخواني » (من الإخوان المسلمين) ، أو « اقطاعي » ، أو « من كبار الملاك » .

وقد كثر استعمال كلمة « التحرير » مع ثورة الجيش فهناك « هيئة التحرير » و « مديرية التحرير » و « جيش التحرير » . ومن العبارات والكلمات التي كثر استعمالها مع الثورة « الاتحاد والنظام والعمل » و « العزة » و « الكرامة » و « القومية العربية » و « التأمين » (بعد تأمين شركة قناة السويس بصفة خاصة) . واستعملت في مصر عبارات دالة على منظمات لم يكن لها وجود مثل « الحرس الوطني » .

= وما لبثت الحرب أن شبت بين الأخوين وقد تحالف المنذر مع مسيحيين هما ملك أرجون Argon وصاحب برشلونة . وسرعان ما أحرز رودريجو نصرا بينا على أعداء سيده المؤمنين على الرغم من تفوقهم العددي ، وغنم مغنم كبيرة ، وأسر صاحب برشلونة ثم أطلق سراحه متكرما ؛ ولما عاد إلى سرقسطة استقبل استقبالاً باهراً وأخذ عليه المؤمن الهدايا ، وعلا شأنه في نظر المسلمين من جنده فأخذوا من ذلك الوقت يلقبونه بـ « سيدي » و (وهي بالعامية « سيدري ») وقد ترجمت إلى الإسبانية بـ mio Cid (ويلاحظ أن قصيدة El Cantar de mio Cid المشهورة كانت تسمى أصلاً El Cantar de mio Cid) وكثر استعمالها في الإسبانية بهذه الصورة أو بحذف ضمير الملكية وهو mio (الكلام عن رودريجو مأخوذ عن مادة Sid دائرة المعارف الإسلامية) . ومن الإسبانية انتقلت كلمة « سيد » إلى غيرها من اللغات الأوروبية .

ومن الملاحظ أن « السيد » كان يطلق في إسبانيا الإسلامية على المسلمين ، ومن ذلك « ابن السيد البطليوسي » العالم المشهور ؛ والكلمة بهذه الصورة ، أي بالالف واللام وبكسر السين ، لا تستعمل في بلاد عربية شرقية كمصر مثلاً ، وهي لا تزال تسمع في مراكش .

وكمما يحدث في كل الثورات والانقلابات فقد طرأ تغير على أسماء الأعلام كأسماء الشوارع والمحلات والأماكن والأشخاص ، فغيرت أسماء شوارع كثيرة كانت معروفة بأسماء أجنبية أو بأسماء مصريين اعتبروا أعداء للشعب كاسرة محمد علي بأسماء تتلاءم والوضع الجديد كـ «طريق الجيش» و «طريق ٢٦ يوليو» و «ميدان التحرير» ؛ وأصبحنا نطالع على واجهات بعض المحلات والمنشآت «مطعم الجمهورية» «كازينو التحرير» ، «قهوة النصر» ، «سينما الجلاء» .

واذ كانت مصر لا تتعاون مع روسيا أيام الملكية فقد كان يحيط بكلمات مثل «روسيا» و «روسى» و «سوفييت» و «سوفييتى» و «الشيوعية» و «شيوعى» و «الماركسية» و «ماركسى» شئ من الخوف والغموض، ولكن هذا قد زال بعد ما قام من تعاون بين الدولتين حديثاً .

(٧) ومن عناصر دراسة لغة السياسة ، دراسة اللغة التى تستعملها الدول المتحالفة أو المتجاورة أو التى تربط بينها روابط أخرى غير التحالف والتجاور أو فضلاً عن أحدهما أو كليهما ، فى حديثها بعضها عن بعض ، وفى الإشارة الى ما بينها من صلات . ومن ذلك اللغة المستعملة فى مصر عن السودان ، وفى السودان عن مصر ، واللغة المستعملة فى العلاقات بين الدول العربية والإسلامية . فنحن فى مصر نشير الى السودان بـ «جنوب الوادى» و «الأخ الشقيق» ، والى السودانين بـ «أخواننا السودانيين» ، ويصفون مصر فى السودان بقولهم «شمال الوادى» . ومن العبارات ذات الأثر فى الشعوب العربية والإسلامية «الرابطة الإسلامية» و «الجامعة الإسلامية» و «الجامعة العربية» و «العروبة» و «الأخوة فى العروبة» و «القومية العربية» و «الدفاع عن العروبة» و «فلسطين الشاهدة» و «وحدة اللغة» و «وحدة التاريخ» و «التاريخ المشترك» و «المؤتمر الإسلامى» ؛ وإن لكل من هذه العبارات تاريخه الذى يجب أن يبين .

(٨) ومما يدخل فى لغة السياسة لغة البيانات السياسية التى تصدرها دولة باسمها ، وتلك التى تصدر بالاشتراك بين دولتين أو أكثر ؛ ولغة الاتفاقات الدولية ؛ ولغة قطع العلاقات الدبلوماسية بين دولتين ، أو لغة إعادة هذه العلاقات ؛ ولغة إنشاء علاقات دبلوماسية بين دولتين لم تكن هذه العلاقات قائمة بينها ؛ ولغة طلب إبعاد

بعض المثليين الدبلوماسيين ؛ ولغة الاعتذارات الدولية . . الخ .

(٩) كما أن للمصطلحات والاتفاقات الدولية ، حرية وسياسة واقتصادية وثقافية وللصلح ولعدم الاعتداء لغتها الخاصة بها . وهذه اللغة يكثر فيها أمثال «الصداقة» و «المودة» و «الأخوة» و «التحالف» و «المصلحة المشتركة» و «المصلحة المتبادلة» و «تبادل المنافع» و «العدو المشترك» و «تنمية الموارد» و «المساعدة على النهوض» و «إقرار السلام» و «توسيع الاقتصاد» و «العدو المشترك» . الخ . وهذه الكلمات والعبارات ، كما هى الصفة الغالبة على معظم المصطلحات السياسية تغنى الأفكار الحقيقية ، أو هى تدل عليها بطريق آخر ، طريق المجاز ؛ ولذلك قيل أنه ربما لا يبرر أى قسم من أقسام الكلام الإنسانى قول من يقول أن الوظيفة الأساسية للغة هى «إخفاء» الفكر لا «إظهاره» كما يبرره استعمال الكلام فى المجال السياسى .

(١٠) وإن مخاطبة الجماهير للتأثير السياسى تنتظر أن تدرس الدرس العلمى الفصل . ودور «البلاغة» أو الفن الكلامى فى هذا المجال لا يقل عن دور الفيلسوف التى يلجأ إليها الخطباء . إن دراسة لغة كيكرو (ثيرون) لا سيما فى خطبه الكتليلية دفاعاً عن شرفه ومجده السياسى ، وهجوماً على أعدائه وأعوانهم ، وفضحاً لمؤامرتهم وخبثهم لتظهر كيف أمكن للغة فى استعمال خاص لها أن تحدث فى الجمهور تلك التأثيرات التى تركتها تلك الخطب فى نفوس مستمعيها . وخطب الحجاج بن يوسف الثقفى كانت آلة إرهاب ووسيلة ردع وإخماد . وخطب مصطفى كامل وسعد زغلول كانت مثيرة للشعور القومى من رقدته ، وموقظة للنهضة المصرية ، ودافعة بها قدماً .

ومن السمات العامة فى مخاطبة الجماهير للتأثير السياسى استعمال الكلمات التقليدية الغامضة المعنى ، والكلمات ذات الرنين والطين ، وتلوين الكلام بلون دينى وذكر المقدسات ، والإشارة الى الفضائل كالشرف والتضحية والإقدام ، وتنجيد المواقف المشهورة فى تاريخ الأمة ، واقتناص العبارات التى يمكن ثبوتها فى الأذهان

(١) انظر Margaret Schlauch, op. cit., p. 290 والقائل بأن وظيفة اللغة هى إخفاء الأفكار هو تاليران Talleyrand الفرنسى .

الفئة والحياسة الاقتصادية

(١) ان اللغة المستعملة في الجوانب المختلفة والمستويات المختلفة للحياة الاقتصادية تقدم للباحث اللغوي مادة خصبة يؤدي تحليلها الى نتائج قيمة. وهذه المادة يستقيها من أبسط صور النشاط الاقتصادي - كالبيع والشراء في أبسط صورهما وأضيق حدودهما - الى أشدها تعقيدا ، وأوسعها نطاقا كاعمال الشركات الكبرى ، وأعمال المصارف ، وأسواق الأوراق المالية ، والنظريات الاقتصادية . وسيلاحظ أن هذه المادة تتفاوت بتفاوت طبقات المتعاملين ، وبالموضع الحضارى للمجتمع ، وبسوى ذلك من أمور ، وهذا التفاوت ، يتبدى في كل جانب من جوانب النشاط الاقتصادي .

(١) **قطريقة العدد** وما في اللغة أو اللهجة من أعداد ، لا يزالان عند بعض القبائل في مرحلة بدائية ساذجة ، وهما يبلغان عند أعظم الأمم حضارة عالية من التفصيل والتعقيد ، وهذان يختلفان عند أصحاب اللغة الواحدة حسب حفظ المتكلم من الثقافة .

(٢) **ولفة « المساومة »** تقدم مادة طريفة لدارس اللغة ، وسيلاحظ أن المساومة مرتبطة بالبداءة أو بالوان من البداءة ، وأنها ثقل أو تكاد تتلبور في إيماءات ، أو كلمات شديدة الإيجاز ، أو أنواع من الاستفسار في الأمم المنحضرة التي تحيا حياة معتدلة . وسيلاحظ انه في معظم الأحوال تكون « المساومة » عنصرأ أساسيا من عملية البيع والشراء ، ويكون المشتري والبائع على أهبة للمساومة مقدما ، وأن الأمالة فيها تكون أحيانا نوعا من الدسوق في علاقات عن طريق الكلام ، ولونا من التسرية عن النفس ومن ترجية الوقت . وان تصنيف لغة المساومة حسب طبقات البائعين ، وطبقات المشترين ، وحسب مزجة هؤلاء ، وأولئك وطبقاتهم ، وحسب السلة موضوع البيع والشراء لأمر واجب على الباحث اللغوي .

(٣) و « **الزيادة** » لها لغتها الخاصة بها ودراستها تظهرنا على وظائف اللغة فريدة .

ودوراتها على الألسنة والأفلام ، واقتباس المشهور المحفوظ من مؤثر الكلام . وقد اوحظنا في استعمال الانجليزية الحديثة في هذا المجال أن الخطباء يلجأون الى ضائير قديمة مثل thee and thou ، والى نهايات أفعال طال العهد على أفعالها (giveth) ، والى تركيبات لم تعد مفهومة هذه الايام مثل ! Wee worth the day ! ، والى عبارات من الكتاب المقدس وأنهم يتحدثون عن الدفاع عن « أبواب » gates المدينة أو « أسوارها » walls مع أنه لم يعد شئ من ذلك قائما ، وذلك عندما يقصدون الى التأثير في الشعور أكثر من التأثير في العقل .

(٤) ودراسة حيل البائعين والمشتريين والوسطاء ، وألوان مفاظتهم وخداعهم وأفانين غشهم كما تبدو في تسييراتهم اللغوية موضوع له أهميته .

(٥) أمّا « الاعلان » فلغته مجال فسيح للباحث اللغوي . ودراسته في صورته المختلفة ، من أبسطها وأشدها سداجة كنداءات البائعين الى أكثرها تعقيدا وفنية ، تظهر استعمالات للكلام لتحقيق غايات معينة من أهمها جذب الانتباه وحصره في موضوع بعينه ، والتشويق والترغيب ، للحمل على التملك والاقتناء . ان لغة الاعلان تخاطب فينا غرائز وحواس تختلف باختلاف الموضوع المعلن عنه ، فكلام الاعلان عن مأكول أو مشروب يوجه الى حواس غير تلك التي يتجه اليها كلام اعلان عن سيارة أو آخر من دواء ، وهو يثير غريزة غير تلك التي يثيرها هذا أو ذاك . وسيلاحظ في لغة الاعلان اختلافها باختلاف الوضع الحضاري للأمة : فننداءات البائعين الجائلين في الجماعات البدوية والقرية منها يكثر فيها اللجوء الى المجاز والتشبيه والى السجع وغيره من ضروب الترصيع ويبرز فيها على الصلة الأمثلة في المناداة ، والتغنى والتلذذ بالكلام . أما المجتمعات التي قطعت من المدنية شوطا كبيرا وتمقّدت أمورها ولم يعد لها من الوقت ما تضيّعه في النداء وفي الاستماع اليه ، وقل فيها دور البائعين الجائلين ، فننداءات هؤلاء فيها تقتصر على أوجز عبارة وأدلها .

ثم ان نداءات البائعين تختلف باختلاف حظ الجماعة وحظ البائعين أنفسهم من الذكاء والحيوية : فالجماعات المولعة بالكلام وبـ « القصاحة » والفكاهة نجد فيها أمثلة رائعة على المناداة على السلع ، أما تلك المعروفة بالميل الى الاقتصاد في الكلام ، والى الانقواء على النفس والى التزمّت والتوقر ، والى النفور من الصراخ والضمجيج فهي قليلة الحظ من الابتكار في هذا المجال .

ومن النداءات المسموعة في الاسكندرية ، بالعامية ، والتي يتضح فيها اللجوء الى التشبيه والمجاز ، والوصف بالجودة ومما أشبه بالنزل ، المناداة على السمك البلطي : « يا غريم السلاطة يا بلططي » ، وعلى العشب : « يا بيض اليمام يا عنب » ، وعلى البلح « الأمهات » الذي يسيل شهوا به « يا مين يعجيب الأكاجير ! » وعلى الفول المدمس : « اللوز ! » وبـ « الزغليل ! » . ومن

الملاحظ أن من البائعين من يخلق نداءات جديدة ، ولا يكتفي بترداد المحفوظ المتوارث منها ، ومن ذلك أني سمعت في الاسكندرية بائع « شمام » ينادى على سلته وهو يحلق في حسنة مارة أمامه ويعرض بها بقوله : « مين برّه حليو ومن جوّه شهّد ! ومن النداءات ما يكتفي بذكر اسم السلعة ومن ذلك في مصر « حليب » ، أو بذكرها مسندة الى البلد الذي ينتجها مثل « أسيوطي يا بلّح » و « فيثومي يا عنب » ، أو كذلك مضافا اليه وصفها بالجودة مثل « الكتاكيت الفيثومي عال » . وقد لاحظت أن أكثر المنادين على السمك في مدينة بنغازي بليبيا يكتفون بذكر الاسم مكررا سريعا « حوت حوت ! بوري بوري ! »

وكثير من النداءات على السلع في مصر يخاطب العاطفة الدينية فيتردد فيها الصلاة على النبي والتغنى ببركته مثل « صلاة النبي عليك يا عنب » و « صلاة النبي أحسن » و « صلكي على النبي » و « صلي على المصطفى » و « صلي على الزين » و « النبي حارسك يا مسنمين » . وعبارة « يا سلام عليك يا » مردوفة باسم السلعة طريقة مألوفة من النداء في مصر .

أما الاعلان المسموع عن طريق الراديو ، في بعض الأمم فهو لا يسف الى طريقة البائعين الجائلين ، ولكنه في أغلب الأحيان لا يكون جادا كل الجد ، انما يعتمد أكثر ما يعتمد على العرض الرزين المشوّق معا ، وقد يتخذ صورة حوار بين اثنين أو أكثر ، وقد تصحبه موسيقى ، وقد يظهر كله أو جانب منه في صورة أغنية أو « مونولوج » .

أما تلك الاعلانات المكتوبة على واجهات المحلات ، أو المطبوعة في أوراق خاصة توزع على الجمهور أو على أدوات معينة كالتقويمات ، أو في الصحف والمجلات ، وتلك التي تشاهد في السينما والتلفزيون فهي تشترك في صفات لما كانت جميعا تعتمد على الكتابة وينفرد كل منها بصفات حسب طبيعته المتميزة . ولغة الاعلان بكل طريقة من هذه يجب أن تدرس أولا على حدة .

ان اللغة المكتوبة تخاطب العين وهي لذلك تعتمد على الخط واللون والرسم والتصوير والزخرفة والضوء ، ويجمع توجيه الخطاب الى العين والأذن معا في اعلانات السينما والتلفزيون .

ومن الملاحظ أن الاعلانات المكتوبة على واجهات المحلات تختلف باختلاف الأحياء في المدينة الواحدة ، وباختلاف مستوى المحل والمتردد على عليه ، والمتطلع الى واجهات المحلات في حي سيدنا الحسين بالقاهرة يجد مكتوبا على الكثير منها اعلان متصل بالجو الديني لهذا الحي ومن ذلك « كئل كبدك وكلاوى زين » ، وصلى على سيدنا الحسين « و « كئل كبدك وكلاوى زين واقرا الفاتحة لسيدينا الحسين » . وهذه العبارات المستعملة في حي الحسين لا تستعمل في محلات شارع فراد وميدان التحرير . فالأصناف « الراقية » تلجأ الى اعلانات فيها شيء من الجدد والوقار ، ولكن هذا لا يحول دون استعمال الكلمات والعبارات الجذابة ، والغريبة أحيانا ، ومن ذلك تسمية محل : « من غير اسم » .

وثمة طبقات من المحلات والبيئات تلزم الجدد في اعلاناتها ، ومن ذلك الصيدليات ، أما لأنه لا يجوز لها أن تظهر صفة التنافس ، وأما السوى ذلك من الأسباب . والاعلانات في الصحف والمجلات والسينما والتلفزيون يكون الكلام جزءا منها ولا يكون كل شيء ، انه عنصر من كل متكامل — أو يجب أن يكون كذلك — فالرسم والصور والألوان وتنسيقها ، وتنسيق ذلك مع الكتابة له دلالاته .

والاعلان من طريق السينما والتلفزيون امكانياته الخاصة اذ يجتمع فيه الكلام المسوع ، والتصوير المنقور ، وهذا يستلزم ما يمكن استغلاله من الفن الكلامي بالإضافة الى ما يمكن استغلاله من التصوير والتشيل والغناء والموسيقى والرقص .

ومن أول ما يلاحظ في لغة الاعلان المكتوب أنه يكثر فيه استعمال الحروف الكتابية وعلامات النقط والترقيم استعمالا مخالفا للماألوف في الكتابة العادية . فالكلمة أو العبارة قد تكتب — في العربية مثلا — مقطعة الحروف حرفا حرفا لا موصولة الحروف ، وقد تكتب بصورة تختلف عن صورتها العادية اما ملاءمة للمادة التي تكتب بها خشبا أو حجرا أو معدنا أو غير ذلك ، واما مراعاة للموضوع المعلن عنه ، أو لهذين مما « أما علامات النقط والترقيم فقد اكتسبت في لغة الاعلان دلالات جديدة : فقد يبدأ الاعلان بعلامة استفهام ليس قبلها كلام ، أو بعلامة تعجب ، أو بهما معا ، أو بمجموعة من النقط الأفقية ، أو بمجموعة من النقط الأفقية تعقبها علامة استفهام أو علامة تعجب . ومن الملاحظ أن علامات الاستفهام

والتعجب كثيرا ما تضاعف متوالية في الاعلانات المكتوبة .

ولا شك في أن الاعلان — أيا كانت صورته — يراعى فيه تناسبته الموضوع المعلن عنه ، والأمثلة كثيرة على أن عدم التوفيق في اختيار الاسم أو الاعلان يؤدي الى الفشل والكساد ، بينما يؤدي التوفيق فيه الى الشهرة والاقبال .

(٦) ان دراسة اللغة المستعملة في توجه النشاط الاقتصادي ممتوجة كذلك الى دراسة ألوان من الكلمات والتعبيرات تمتاز بالجفاف بالقياس الى ما قدمنا الكلام عنه . فلا بد من حصر جميع المصطلحات الخاصة بكل وجه من وجوه هذا النشاط وتقويم التقويم الصحيح ؛ ويدخل في ذلك مصطلحات التعاقد والاستثمار والشحن والتأمين ، ومصطلحات المراسلات ، ومصطلحات التسجيل في الدفاتر ، والمصطلحات المستعملة في « الفواتير » وفي الشهادات الخاصة بجودة السلع وسلامتها ووزنها ، ومصطلحات التقاضي حال الخلاف . وما من شك في أن دراسة مصطلحات النظريات الاقتصادية نفسها من ألزم الأمور وأهمها .

(ب) ولغة كل من الحيوانين الزراعية والصناعية تمثل ألوانا من العلاقات بين اللغة والمجتمع بعضها يتمثل في استعمال اللغة في غير هذين المجالين ، وبعضها يتضح فيها أجلى مما يتضح في سواهما .

(١) من المعروف أن لكل من هذين البيئتين ، بل لكل فرع من فروعها مفرداته الخاصة ، وأن من هذه المفردات ما لا يتملحه ولا يعرف مدلوله الا أصحاب هذين النشاطين وبعض من يقدر له الاتصال بهن في شئونهما ، وان كانت هذه الظاهرة تحتاج الى من يدرسها دراسة مفصلة مستوعبة . ولكن الأمر أبعد من هذا وأعق ؛ فالغالب أن الكلام الذي يستعمله كل من أصحاب هذين النشاطين — بما فيه من تركيبات خاصة واستعارات وتشبيهات وأمثال ، بل بما فيه من طريقة نطق الكلمات ولو كانت من مفردات اللغة المشتركة الشائعة — **دال على صله وعلى طبقة**

(١) اورد الأستاذ على عبد الواحد واق في هامش من ١٥١ من كتابه « اللغة والمجتمع » الطبعة الثانية من ردة ومنشعة نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه (١٩٥١) بعض مفردات خاصة بالصيدان والبحارة المصريين نقل بعضها من مقال للأستاذ ابراهيم محمد الفحام وسجل بعضها بنفسه من لغة بحارة رشيد .

الاجتماعية ، وان اختلفت الدلالة نسبة باختلاف الأفراد والظروف والعصور .

(٢) ومن شواهد اختلاف لغة اصحاب الحرفة الواحدة باختلاف العصور أنه عندما تكون الحرف والصناعات وقفا على أمر معينة يتوارثونها فان لهجاتهم تكون أشد تميزا لهم منها عندما يسمح المجتمع لمن يشاء بالاشتغال بالحرفة أو الصناعة التي يختارها . وهكذا اذا قارنا بين كلام أصحاب حرفة معينة في القرن التاسع عشر في مصر بكلام المشتغلين بهذه الحرفة نفسها في مصر اليوم فانا سنجد فروقا مردها الى هذا السبب نفسه فضلا عن تلك الراجعة الى التطور التاريخي العام .

(٣) والأمثال التي يستعملها الزراع والصناع ، بل كل فئة من فئات الزراع ومن فئات الصناع ، من أطرف الموضوعات الجديرة بالدراسة . ومن هذه الأمثال ما يستفيض فيصبح جزءا من « اللغة العامة » تستعملها الجماعة على اختلاف طبقاتها ، ومنه ما يظل محصورا في بيئته لشدة لصوقه بها أو لغير ذلك من الأسباب . وهذه الأمثال ، كسواها ، تنتم بمسبب المحافظة والتوارث ، الا أنه مما لا شك فيه أن التغيرات الكبيرة التي تصيب هاتين الطبقتين ، كالتوسع في استعمال الآلات في الزراعة ، وكالاتقلاب الصناعي ، لها آثارها في استحداث أمثال جديدة وفي لهجتهم الخاصة على وجه العموم . ومن واجب الباحث اللغوي أن يربط كلا بأصله ومسببه .

(٤) ومن الملاحظ أن لسلك من الزراع والصناع ، كالنجار ، رموزهم الكلامية الخاصة بهم التي ينحصر فهم مدلولاتها فيهم وفيمن يتصل بهم ، كما أن لهم تعبيرات كلامية تستهدف التهمك على غيرهم من سائر الطبقات الاجتماعية . وهذه الرموز والتعابير قد تكون من وضع أفراد منهم ، وقد تكون مأخوذة من لغات أجنبية ، وقد تكون استعمالا خاصا لكلمات وتعابير من كلمات اللغة العامة وتعابيراتها .

(٥) ومن أهم ما يجدر بدراسي اللغة الالتفات اليه ، والعناية به ، أن الكلام في كثير من وجوه النشاط الزراعي والصناعي يكون جزءا من العمل : فحديث الفلاح الى بهيمته وآلته ، وغناؤه عند الحرث والري والحصد ، وكلام الحداد عند الطرق والنفخ في الكور ، وغناء « الفعلة » الذي يقوده رئيس لهم ، كل ذلك وأمثاله جزء من العمل معين على اتمامه . ومن الواجب أن يجمع كل صنف من صنوف هذا

النشاط اللغوي — في كل لغة — وأن يفسر موصولا بالظروف التي يستعمل فيها ، وبالوظيفة التي يؤديها .

(٦) والصناعات والحرف من أهم أبواب الاحتفاظ بالكلم القديم ، كما أنها من أهم أبواب دخول الكلم الحديث أجنيا كان أو أصيلا . فمن الملاحظ أن الجماعة التي تتغلب على لغتها لغة أخرى تحتفظ ، بعد سيادة اللغة الطارئة ، بكثير من مفردات اللغة الأولى ، ومنها ما يتعلق بالحرف والصناعة والزراعة ، وخاصة اذا كان أصحاب اللغة المتغلبة أدنى شأنا في هذه الأمور . فالعامية المصرية قد احتفظت بكثير من الكلمات القبطية المتعلقة بالزراعة (كأسماء الشهور ، والمواسم الزراعية ، وأسماء بعض الآلات الزراعية) وبالصناعة ، والعامية العراقية استبقت كثيرا من الكلمات البابلية والآشورية ، والفارسية المتعلقة بهذه الموضوعات .

(٧) والصناعات وفنون الزراعة التي تأخذها جماعة عن أخرى تنتقل معها ، في الأغلب ، أساؤها الموضوعية لها في لغة المأخوذ عنهم ، كما أنها تكون مثيرا الى وضع كلمات جديدة . وهكذا فالإقلاب الصناعي الحديث الذي كانت أوروبا مهدا له ، وتأثر به معظم أمم العالم ، نقل معه الى كثير من اللغات كلمات من لغات أوروبية مختلفة . واذا نظرنا الى العربية في مصر ، عاميها وفصيحتها ، وجدنا فيها كثيرا من الكلمات الفرنسية والانجليزية والاطالية والالمانية واليونانية ، وغيرها ، المتصلة بالهندسة والميكانيكا والآلات الصناعية الحديثة المأخوذة عن الغرب (مثل : ديزل — تئك — دريكسيون — ستيرن — جير — بستن الخ) . كما أن هذا التأثير بالتطور الصناعي الحديث دعا الى تغيير مدلولات كثير من الكلمات العربية ، والى اشتقاق كلمات جديدة من أصول عربية خالصة . ولما اتخذت مصر الزى الأوروبي الحديث سرت في لغة الغياطين المصريين كلمات غريبة أكثرها من الايطالية (مثل : مزور — فودرة — فرساليا — سكوندو بروقه الخ) .

اللفة والحياة الدينية

(١) الدين مجال نستعمل فيه اللفة بما لا تستعمل في سواه فالدين وثنا كان أو سماويا ، موحدا أو معددا ، قديما أو حديثا له بطبيعته أسلوبه المتفرد المستقل . فالعلاقة التي يقيمها الدين بين الفرد وبين قوة عليا في يدها مصائر وأقدار ، ويجب لها القربى والخشوع : ولها آياتها وأحكامها ، وأقوالها وأعمالها ، وعقابها ونوابها ، ويضفي الايمان بها على النفس سكونا وصفاء ، وبهها قوة ومضاء ، ويدفعها في حالات الى التضحية بالنفس والمال والولد راضية مستبشرة ، هذه العلاقة لها لغتها ، لا في الكلام المضاف الى المعبود وحده ، بل في كل كلام متعلق بأى شأن من شئونها .

والكلام « المقدس » عند كل جماعة نموذج رائع من نماذج البيان ، وهو بالقياس الى الروائع الأدبية الماثورة عن أى جماعة في العصر الذى يشهد الكلام المقدس من أروعها أو هو أروعها على الإطلاق .

(٢) ومن أهم ما يلاحظ على لغة الدين استعمالها لكثير من الكلم الفاضل الخفى ، ومنه كلمات وعبارات مخلوقة غير مستعملة في اللغة العامة (وذلك كاستعمال الحروف المقطعة في أوائل بعض السور القرآنية : يس - طسم - الم - الر - كيعص الخ مما لا يعرف معناه على الحقيقة ، وأوله المفسرون والدارسون قديما وحديثا تأويلات كثيرة) . ومن ذلك استعمال كلمات قديمة ، واستعمال كلمات من لغات أجنبية ، وذلك كما تستعمل العربية في لغة السحر والكهانة والتنجيم كلمات من أصول سريانية . والمطلع على الشعر الدينى لامية بن ابي الصلت الثقفى الجاهلى يجد عشرات من المفردات لا يجدها عند سواه من شعراء العصر الذين لم يقولوا فيها قال ١ .

(١) أتيج لى دراسة الغريب في شعر امية بن ابي الصلت من حيث تأثيره في موسيقى الشعر في رسالتى التى حصلت بها على درجة الماجستير : (وموضوعها : الصناعة الشعرية في العصر الجاهلى من حيث الموسيقى وبشبه القصيدة) ، ولما كانت هذه

الرسالة لم تنشر بعد فانا أنقل عنها فيما يلى ما كتبه في هذا الموضوع سنة ١٩٤٧ : قلت :

« المفعول في الايقاع الشعري على اصوات الكلمات وطريقة نظمها ، واللف الاذان الكلمات يفقدها كثيرا من قيمها الصوتية ، ومن هنا كان الشاعر في حاجة الى منبع متجدد يستقى منه أصواتا خلاصة ، وانه يقع على هذا المنبع في غريب المفردات . وقد تكون الغرابة نتيجة الجودة ، او الندرة ، او ان الكلمة اجنبية ، او محلية ، او صعبة ، او مركبة ، او غير مالوفة الاشتقاق . وخير مثال في الشعر الجاهلى لاصطناع الغريب هو امية بن ابي الصلت الثقفى .

امية شاعر حكيم كان عالما بالحنيفية ، واتصل بأهل الكنائس من اليهود والنصارى ، وقرأ الكتب الدينية القديمة ، فكره الاوثان ، واصبح موحدا يذكر الآخرة والحساب والنواب والعقاب . وكان يطمع ان يكون هو ذلك النسي المنتظر فلما لم يكنه اغتباط وتأسف واشتد حسده للرسول وناصبه العدا ، ولذا قال فيه الرسول : « ان كاد امية ليسلم » وقال : « آمن شعره وكفر قلبه » .

ان شعر امية الدينى صادر عن ثقافة حنيفية يهودية نصرانية ، وهى ليست ثقافة سطحية ، فانه - كما تقول الروايات - كان يقرأ الكتب القديمة ويتمتعها ، فكان يعلم من الموضوعات الدينية وعنما ما لا يعلمه غيره من شعراء عصره . كان امية كثير الايراد للقصص الدينى ، ولم يكن بعض هذا القصص منتشرا بين العرب كما ينضح مما قاله ابن قتيبة في الشعر والشعراء (ص ١٧٦ - ١٧٧ تصحيح مصطفى السقا - ط . المعاهد مصر (الناقبة) ١٩٣٢ م) « وأنى بالفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، وكان يأخذها من الكتب ، منها قوله : (وخان امانة الديك الغراب) . وزعم ان الديك كان نديما للغراب فرهنه على الخمر وغدو به ، وتركه عند الخمار ، فجعله الخمار حارسا . وقوله في الشمس :

ليست بطالعة لهم في رسلها الا معذبة والا تجلسد

وقوله :

غيم وظلماء وفضل سحابة ايام كفن واستتراد الهدم
يسفى القرار لاسمه ليجنبا فبنا عليه (علمها) في قفاه (قفاها) يهد
فيزال بدليح ما مضى بجنازة منها وما اختلف الجديد المسند

وواضح انه لا غرابة في الفاظ (وخان امانة الديك الغراب) وسائر الشواهد ولكن القصص هو الغريب .

ولما كان لكل جانب من جوانب الثقافة الفاظ موقوفة عليه ، وعبارات خاصة به ،

= فانا نجد في شعر أمية الديني الفاظا غير مألوفة عند غير من الشعراء كان يحسن بفراستها الأقدمون ، وتناقلوا أمرها فيما بينهم .

وربما كان بعض هذه الألفاظ غير عربي الأصل اخذها عن الحبشية والسيرانية والعبرية .

وتأثير أمية عن هذه الطريق يشبه تأثير الساحر والكاهن ؛ فكلاهما يورد كلمات وصيغا غير مألوفة يضطرب بها السمع واللب ، فيخضع النفس لسيطرته ، ويتركها مبهورة معلقة ، ليسهل عليه توجيهها كيف شاء ؛ وقد يقتضي الأمر اختراع كلمات وتصريفات جديدة للوصول عن طريق موسيقاها الى السيطرة على النفوس .

واذا كان الكثير من المنسوب الى أمية غير صحيح النسبة اليه ، الا ان القدماء أنفسهم لاحظوا غرابة قاموسه الشعري ؛ فإبرادنا لشواهد من شعره تبينا لهذه الغرابة لا يجوز أن يرد استنادا الى كثرة المتحول من شعره ، فالذي يهمنا ان الاغراب اللفظي عند أمية قائم مقرر - ولذا استقطب علماء اللغة من الاستشهاد والاحتجاج بلفظه على الكتاب - سواء كان ما نستشهد به من شعره صحيحا أو متحولا .

ولا يقتصر الأمر عند أمية على استعمال الفاظ غريبة عن العربية ، بل ان بعض الألفاظ العربية التي يستعملها ليست شائعة الاستعمال عند غيره من الجاهليين الذين وصلنا أشعارهم . قال ابن قتيبة (ص ١٧٦ - ١٧٧) :

« واتي بالفاظ كثيرة لا تعرفها العرب وكان يأخذها من الكتب منها قوله . . . ومنها قوله -

قمر وساهور يسيل ويشند

وزعم أهل الكتاب ان الساهور غلاف القمر يدخل فيه اذا انكشف . وكان يسمى السموات صاقورة وحاقورة ، ويقول (وأبدت القورورا) يريد الثمر . وعلماؤنا لا يرون شعره حجة على الكتاب . »

ونحن نورد فيما يلي ثبنا بالغريب في شعر أمية مرتبا على حروف المعجم :

الأرخ - الأطوم (ديوان أمية بن أبي الصلت جمع بشير يموت - بروت - ط .
الوطنية ١٩٣٤ ص ٥٥) - أمط (ديوان ص ٤٦) - بداح (ص ٢٦) - بديد (ص ٢٦) -
البيقورا (ص ٢٦) - تغنا (ص ٦٢) - تلمد (ص ٢٤) - الثالث (ص ١٨) و « فاط » (ص ٢٦) -
الثلل (ص ٤٧) - الجلاحمة (ص ٢١) - حاقورة (ص ٢٤) - حرمه (ص ٢٦) - حرجل
(ص ٤٦) - الحش (ص ٥٧) - يخرمسي (ص ٥٥) - مديسورا (ص ٣٦) - دسغانا
(ص ٦٢) - دعة (ص ٤٠) - « ذقطنا » و « ذقطنا » (ص ٦٣) - رح رجارح (ص ٢١) -
ردوم (ص ٤٥) - سامور (ص ٢٥) - السراطمة (ص ٢١) - السرافيل (ص ٢٥) =

(٣) ان دراسة كلام المصنوع موضوع غاية في الأهمية فما فيه من الأمر المستعلى ، ومن انتهى المنتشر ، ومن الايجاز المتقصد اثباتا للقوة والاستعلاء ؛ وما فيه من أناليب الترغيب والترهيب ، والحجاج والتبيين ، وما سوى ذلك ؛ كل أولئك يتخذ صورة خاصة تشمر السامع (أو القارئ) أنه في مجال الدين لا في سواه .

(٤) وليس ثمة لغة دينية لا تبرع في استغلال الامكانيات الصوتية للغة التي توضع بها ، كتناج الأصوات ، والسجع ، والقواصل ، وتنفيع الكلام بحيث تحدث الأثر المطلوب اذ كان التأثير الصوتي من أهم المداخل الى النفس البشرية ؛ والأصل في الكثر من الكلام الديني أن يرتل وينشد موقعا منشا ، مصحوبا بموسيقى أو غير مصحوب ، ومصحوبا بموسيقى ورقص عند بعض الجماعات . وكثيرا ما ينتج عن الرغبة في تحقيق أثر موسيقى معين أن تغيّر الكلمات عن صورتها المألوفة .

ودارس شعر عمر بن الفاروق الصوفي (٥٧٦ - ٦٣٢ هـ) يجد من الشاعر حرصا على أحداث آثار موسيقية غير تلك التي يحققها الوزن والقافية . وقد يبالغ

= سفورا (ص ٣٦) - السلاطح (ص ٢١) - السليطط (ص ٣٣) - سنفة (ص ٣٥) - شحيطا (ص ٥٠) - الشيزي (ص ٢٧) - صئانا (ص ٦٢) - صاقورة (ص ٢٤) - صلطنا (ص ٤٧) - الصواقي (ص ٢٥) - طخورا (ص ٢٦) - الطرط (ص ٢٦) - عنكال (ص ٥٠) - أملاط (ص ١٩) - عناص (ص ٢٤) - الفراريس (ص ٤٨) - فسيطا (ص ٢٦) - فوفة (ص ٣٦) - الفومان (ص ٤٨) - الترق (ص ١٩) - الكتاب (ص ١٨) - تكر (ص ٢٥) - الملاولة (ص ٢١) - نوخها (ص ٢٣) . «

(عن : محمود السمران : الصناعة الشعرية في العصر الجاهلي من حيث الموسيقى وبنية القصيدة ص ١٢٨ - ١٣٢) نسخة على الآلة الكاتبة محفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية . وقد اكتفينا هنا بذكر الكلمات الغريبة ولكننا في الأصل أوردنا بعد كل كلمة النص الشعري الذي وردت فيه ، وأشرنا الى موضعها من ديوان أمية في الهامش لا بعد الكلمة مباشرة .

(١) ومن ذلك ورود « يحضرون » و « أرجعون » بدلا من « يحضروني » و « أرجعوني » في قوله تعالى : « وقل رب أعوذ بك من هزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون . حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب أرجعوني » . « المؤمنون آيات ٩٧ - ٩٩ » . ومنه ورود « أطيعون » بدلا من « أطيعوني » في قوله تعالى حكاية لقول نوح لقومه : « قال يا قوم اني لكم نذير مبين . ان اعبدوا الله واتقوه وأطيعون » (نوح ٢ - ٣) .

ابن الفارض في ذلك أحيانا الى درجة الاملال والانتقال ؛ وقد تكون صنعتها الموسيقية ، في جملتها ، صنعة لفظية سطحية صارخة ، فهو يكثر من الجناس ، ومن الكلمات المتوازنة وليس بينها جناس ، ومن تقطيع البيت أقساما متوازنة ، كما يلجأ الى التصريح في أواسط القصيدة في بيت أو في بيتين متتاليين أو في مجموعة متتابعة من الأبيات ، وإلى التكرار ، وإلى غير هذا من وسائل اللعب بالكلمات . ولكن له أحيانا رقت صنعتها الموسيقية ودقت فحس إيقاعها في الأذن ؛ ومن ذلك قوله :-

زِدْنِي بفرط الحب فيك تحيرا
وإذا سألتك أن أراك حقيقا
يا قلب أنت وعدتني في جهنم
أن الغرام هو الحياة فمئت به
قل للذين تقدموا قبلي ، ومن
«عنى خذوا ، وبى اقتدوا ، ولئى اسمعوا»
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا
وأبشاح طرفي نظرة أمثلتها
فقد هشت بين جماله وجلاله
فأدر لحاظك في محاسن وجهه
لو أن كل الحسن يكمل صورة

ان دراسة موسيقى الكلام الديني في كل من موضوعاته المختلفة ، وفي كل لغة على حدها ، موضوع خصب قيم .

(١) «ديوان ابن الفارض» نشر وطبع البابي الحلبي بمصر : الطبعة الاولى سنة ١٩٥٣ ص ٦١ - ٦٢ . ومن ذلك قوله (ص ٦٥ - ٦٦) :

انتم قروضي وتغلبني
يا قلوبتي في صلاتي
جمالكم نصب عيني
وميركم في ضميري
أنت في الحى نارا
قلت امكثوا فلعلني
دنوت منها فكانت
تودبت منها كفاحا
صارت جبالى دكا
ولاح سر خفي

انتم حديني وتغلبني
إذا وثقت أصلي
اليه وجهت كلتي
والقلب طور التجلي
لبلا فتشترت اعلى
اجيد هداى لعلني
نار المكنن قبلي
ردوا لىالى وصلى
من هيئة المتجلي
يدريه من كان مثلي

وصرت موسى زمانى
فالوت يمه حيانى
انا الفقير المعنى

هذا صار بغضى كلتي
وفي حياتي قتلتي
رقتوا لىالى وذلي

ومن قول ابن الفارض في تائيته الكبرى المسماة بنظم السلوك (الديوان ص ٨٦) :

سقتني خميا الحب راحة مقلتي
فأوهمت صبغى أن شرب شرابهم
وبالحديق استغنيت عن فدحي ومن
ففى حان سكرى حان شكرى لغتية
وفيها قوله (الديوان ص ٨٧) :

ولو أن ما بى بالجبال وكان طو
هوى عبرة نمئت به وجوى نعمت
نطوفان نوح عند نوحى كادعنى
ولولا زفيرى أغرقتنى ادمعنى
وحزنى ما يعقوب بث اقله
وأخر ما لاقى الألى عشقوا الى الر
فلو سمعت اذن الدليل تاوهي
لأذكره كربي أذى عيش ازمه

رسيئا بها قبل التجلى لذكت
به حرق أدواؤها بي اودت
وايقاد نيران الخليل كلوعتى
ولولا دموعى أحرقتنى زفرتى
وكسل بلى أيوب بعض بليتى
ردى بعض ما لاقيت أول محنتى
لآلام أسقام بجسمى أضرت
بمنطعنى ركب إذا العيس زمت

ففى كل مرئى أراها برؤية
هناك أياها بجلوة خلوتى
وجود شهودى ما حيا غير مثبت
بمشهده للصحو من بعد سكرتى
وذاتى بذاتى إذ تحلت تجللت
وعيشها إذ واحد نحن هيئتي
منادى أجابت من دعائى وليت
قصص حدينا انما هي قصص
وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتى

ومن قوله في تائيته (الديوان ص ١٠١ - ١٠٢) :

جلت في تجليها الوجود لناظري
وأشهدت غيبي إذ بدت فوجدتني
وطاح وجودى في شهودى وبنت من
وما نمت ما شاهدت في محو شاهدى
ففى الصحو بعد المحو لم اك غيرها
فوصفى إذ لم تدع باثنين وصفها
فكان دعيت كنى الحبيب وان آكن
وان نطقك كنت المناجى كذاك ان
فقد رافعت تاء المخاطب بيننا

وانظر من تائيته (الديوان ص ١١٢) الأبيات التي تبدأ بقوله :

وأطوار أوطارى ، وأمن خيفتى

مواطن أفرأحى ، ومربى مآربى
الى قوله :-

بها وجوى بنيك عن كل صبرة
وأحاد عنه وفي نقاه بقائى
طربى وصارف ازمة اللزاء
لى مرتجع وظلاله أفيانى
وردى الروى ، وفي نراه نرائى
لى جنسة ، وعلى صفاه صفائى
وسقى الولى مواطن الآلاء

فقد جمعت أحشائى كل صباية
ومما يمثل صنعة ابن الفارض الموسيقية قوله (الديوان ص ١٢٠) :

أذاد عن عذب الورد بأرضه
وربوعه أربى أجل وربيعه
وجباله لى مربع ورماله
وترابه ندى الذكى ، وماؤه
وشمابه لى جنسة ، وقبابه
حيا الحيا تلك المنازل والربى

(٥) ولغة الدينية أصلها الخاصة في الرمز والجناس ، وكثير من تصويرها لو أخذ على ظاهره القريب لأوقع في الخلط ، أو لم يحدث الأثر المقصود ، وهذا باب من أخطر الأبواب التي يمتنع بها المفسرون والفقهاء ، واعتقاداً على ما في لغة الدين من الرمز والجناس توسع الباطنية وبعض الصوفية في تفسير آيات من القرآن بحيث تلائم مذاهب خاصة ، ومن أوضح الأمثلة على هذا تفسير محيي الدين بن عربي لآيات قرآنية تفسيراً يؤيد مذهبه في « وحدة الوجود » .

(٦) وما تتصف به لغة الدين على وجه العموم أنها محافظة مغلقة في المحافظة ، وأن ما يطرأ عليها من تعديل شيء جد طفيف ، وما يضاف إليها من وقت إلى آخر شيء قليل نادر . ولا نعني بذلك « الكلام » المضاف إلى المعبود فهو بطبيعته مقدس ، تحميه الجماعة أو تحاول أن تحميه من كل تغيير ، وإنما نعني الكلام الديني المستعمل في سائر المجالات الدينية فطبيعة « التقديس » تغلب عليه ولو كان من كلام البشر الذي لا يفترض الدين إبقائه على صورة لفظية واحدة .

ومن تقديس الكلام الديني أن الشعوب الإسلامية التي لا تتكلم العربية كالإيرانيين والهنود والأندونيسيين والإثراك يرددون بعض عبارات دينية باللغة العربية .

وصفة التقديس وما تستتبعه من محافظة هي من أهم العوامل التي دعت الكنيسة القبطية في مصر إلى أن تحتفظ حتى اليوم باللغة القبطية في كثير من طقوسها ومراسمها وعباداتها واحتفالاتها (كمراسم الزواج والممات . . الخ) مع جهل أكثر الأقباط الحاليين باللغة القبطية ، بل مع جهل بعض من يرددون هذه العبارات من رجال الدين بها .

ومن صفة التقديس أن المساس بالكلام الديني مساساً غير لائق في عرف الجماعة يؤدي بفاعله إلى غضب ومقت ومصائب وأضرار ، وبعض ألوان هذا المساس قد يتغاضى عنه ، وينظر إليه على أنه إشارة على طبقة وضعية من الجماعة ، كلفظة الدين الجارية على ألسنة كثير من عامة المصريين « ينعل دينك » (= يلعن دينك) . وربما كانت هذه العبارة في أصلها بقية من العبارات المستعملة أيام تعدد

الاديان في الجماعة ، وربما كان الأصل فيها سب أصحاب دين لأصحاب دين آخر . ومن ذلك عبارة « يا بن الذين آمنوا » وهي عبارة سب في العامية المصرية ترجع لفظها إلى الأصل فيها سب غير المسلمين للمسلمين ، لما كانت « الذين آمنوا » عبارة كثيرة التردد في القرآن والحديث ، وربما يؤدي هذا إلى فرض آخر هو أنها نشأت على ألسنة الأقباط المصريين سباً من ترك دينه منهم إلى الإسلام بعد الفتح العربي لمصر . ولا شك في أن هذه العبارة وأمثالها يجب تعقب استعمالها تاريخياً للوصول إلى أقدم استعمال لها والظروف المحيطة به حتى تفسر التفسير العلمي الصحيح . وهذه العبارة لا تختص الآن بسب أصحاب دين لأصحاب آخر بل يسب بها المسلم أخاه المسلم فقد تسمع في مصر مسلماً يقول لآخر : « اسكت يا بن الذين آمنوا » !!

(٧) ومن جوانب استعمال الكلام في الشؤون الدينية في الإسلام لغة الأذان ، والأدعية ، والصلوات ، وخطب الجمعة ، والأوراد ، والأذكار ، واللغة المستعملة في الحج في مراحل المختلفة ، كلفة السعي بين الصفا والمروة ولغة الطواف ولغة الرجم ، ولغة الدعاء .

ومن ذلك اللغة المتصلة بالموت كالصلاة على الميت ، والكلام الذي يقال أثناء تشييع الجنائز ، وما يقال عند دفنه ، وبعده ، وفي التعزية وفي الشكر عليها . ومن العبارات المستعملة في مصر في مجال التعزية :

« البقية في حياتك » ، « البقية في دين محمد » ، « البركة فيك » « شكركم الله سفيكم » ، « أعظم الله أجركم » .

واللغة المستعملة في عقد القران ، كقراءة القرآن وكلمة « المأذون » ، وصيغة العقد ، وكلام المهنيين يبرز فيها طابع المحافظة ، والحرص على توريث عبارات بعينها لتأدية وظائف خاصة .

وفي عبارات التهنة في كثير من اللغات لوز ديني ومن ذلك في مصر : (مبروك - مبارك - الله يبارك فيك الخ) .

إن دراسة اللغة المستعملة في كل حال من هذه الأحوال كفيلاً بأن تكشف عن

كثير من الحقائق اللغوية .

(٨) ومن الملاحظ أن كثيراً من العبارات الدينية يعود سبيله إلى السنة الجماعية في أحاديثهم العادية اليومية ، وقد لا يتخلص من بعضها المحدود منهم . وأشهر هذه العبارات يوجد في « الفنيم » فنحن نسمع في مصر بالعامية : والله - والى - وربنا - والى خلكك - والنبي - وحياة النبي - وشيألك النبي - والمتصلي - والمتصلي - والشهيد الشريف - والقرآن - والقرآن الكريم - والكعبة الشريفة والسيدة زينب - وسيدنا الحسين - والشريسي (من أبي العباس المرسى) وسيدى ياقوت العرشي (وهذان الأخيران كثيرا الاستعمال في الاسكندرية) . ونسمع على السنة الأقباط : والعذرا - والصليبي - والمسيح - وستنا مريم ؛ ومن الملاحظ أنهم يتحاشون النطق بهذه الأقسام المسيحية أمام المسلمين ويستعملون في حضرتهم « والله - والله العظيم الخ » .

والقسم بعبارات دينية خاصة هو الذي تستعمل به شهادة الشاهد في التقاضي ؛ ويستعمل بين جماعات كثيرة كوسيلة لفض المنازعات .

ومن الملاحظ أن القسم - والقسم بأساليب خاصة - يكثر على السنة

النساء . وعلى الباحث أن يفرق بين ما يختص به الرجال وما يختص به النساء ، وما يشترك فيه الاثنان على حد سواء أو على خلاف في الدرجة .

ومن العبارات الشائعة على السنة المسلمين المتكلمين بالعربية « لا حول ولا قوة الا بالله » ، و « استغفر الله » و « أعوذ بالله » و « اتكىل على الله » .

ولغة السائلين جلها عبارات دينية وشعار دينية ؛ ومن عباراتهم المشهورة في السؤال : ليك - أعطنا مما أعطاك الله - يا رب يا كريم - يا كريم - حسنة لله - شئ الله يا سيدى - شئ الله يا أسياد . والرد على السائلين عند عدم إعطائهم من عباراته في مصر : علكى الله - ربنا يديك - ربنا يرزقك ؛ وسمعت من ذلك في ليبيا : ربنا ينثوب - ربنا ينثوب - ينثوب .

ومما يكثر استعماله على السنة المصريين لأطفالهن الذكور في ظروف خاصة : اسم

النبي حارسك وصاينك - اسم النبي حارسك ربنا ينحرسك اسم الله عليك - ما شاء الله . ويقولون في ليبيا اغهاراً للاعجاب بطفل : « ربنا ينثوب » .

وقد تنتقل كثير من العبارات الدينية إلى لغة الغزل والتعريض بالنساء ؛ ومن ذلك في العامية المصرية :

يا دين النبي ! - اسم الله ! اسم الله عليك ! - اسم الله عليها ونكتي مشينيتها ! - يا جمال النبي !

وكلام « المخفين » و « المنجمين » يقوم أكثره على عبارات دينية ؛ فالمبخر المصرى يقول وهو يعطر المكان بيظوره :

اللهم صلكى على النبي - انفتحه للنبي الخ .

ومن الملاحظ في أكثر البلاد الاسلامية استهلال كثير من الكتب والخطب والأعمال بعبارة : « بسم الله الرحمن الرحيم » . كما تترتل في افتتاح كثير من الاحتفالات غير الدينية (كالاحتفالات بافتتاح أبنية أو معاهد) آيات من القرآن الكريم .

(٩) ومن جوانب دراسة الكلام الدينى دراسة ما يقوله أصحاب دين عن أصحاب دين آخر ، وخاصة ان كان هؤلاء وأولئك ينتمون إلى نفس الجماعة ، ككلام المسلمين المصريين عن الأقباط ودينهم ، وكلام الأقباط عن المسلمين ودينهم .

ومما يلاحظ أن الأقباط ، لهذه الأيام ، يخرجون في الأغلب من ذكر العبارات الدينية المسيحية على ألسنتهم أمام المسلمين ، ولو كانت من أساليب القسم . كما أنهم يتحاشون بصفة عامة الرد على تحية المسلمين لهم « السلام عليكم » ؛ « وعليكم السلام » لأنها تحية الاسلام ، ويردون قائلين « سعيدة » ، أو « مع السلامة » ، أو « نهارك سعيد » ، أو ما أشبه ذلك من عباراتهم ، بينما يستعمل المسلمون المصريون بعض أساليب التحية التي يصطنعها الأقباط .

(١٠) وما يتصل بدراسة لغة الدين دراسة كلام الصوفية والزهاد والرهبان ، كلامهم الخاص برياضاتهم النفسية وأحوالهم الدينية ، وكلامهم في سائر الشؤون إنما فيها الشؤون الدينية ، ومن المعروف أن للصوفية ، على الخصوص ، رموزاً كلامية قاصرة عليهم .

(١١) ودراسة كلام التنبيين والزنادقة والملاحدة عنصر من أهم عناصر دراسة اللغة الدينية .

(١٢) وللهواسب الدينية — كالاختفالات بمولد الرسول ، ومواليد « الأولياء » ، وعاشوراء ، وليلة القدر ، وشهر رمضان ، والعيدين — كلامها الخاص ، بل إن كلاماً من هذه وأشباهها لينفرد بكلام .

(١٣) وثمة مجال كبير لدراسة لغة الحياة الدينية يتشمل في دراسة الكتابات عن الدين وما يتعلق به ، كدراسة اللغة المستعملة في الفقه ، والحديث ، والتفسير ، وعلم الكلام . ومن واجب الباحث المعقود كذلك أن يبين ما تلجأ إليه الفلسفة الدينية من أساليب الحجاج دفاعاً عن مذهب وهجوماً على آخر ، وإثباتاً لقضايا الدين ، ورداً على المنكرين . . الخ ، وأن يدرس تطور ذلك كله وأشباهه على مر العصور .

الكلام الحرام

(١) لا يخلو مجتمع إنساني من تحريم موضوعات معينة ومن تجنب وتقنين بعض المبادئ والكلمات المتعلقة بهذه الموضوعات . والبحث في هذه العبارات والكلمات التي يتجنبها ويقنعها المتكلمون بلغة من اللغات يتعلّق بأمر منها جميع العبارات والكلمات التي يصطنعونها بديلاً مما يتجنبونه وجميع تلك التي يقنعونها ، وتحليل ذلك كله ، ومحاولة الوصول إلى الأصول البعيدة والقريبة في حياة المجتمع ، هذه الأصول الداعية إلى هذا التجنب وذلك التقنين .

وما تجنب كلمات وتقنين أخرى أمراً قاصراً على من يسمون بالشعوب الوحدانية أو البدائية أو الفطرية بل إنه ماثل في كل المجتمعات أياً كانت درجتها من المدنية . وما من شك في أن كثيراً من دواعي تجنب بعض العبارات والكلمات واختلافها راجع إلى التوراث ، وفي أن الأغلب أن سببها البعيد كان الخوف من بعض القوى غير المنظورة كالأرواح وطائفة من المقدسات عندما كان يظن أنها تنصرف في حياة الناس وأنها قادرة على أن توقع بهم الضرر ، واستمر أثر هذا الخوف القديم قائماً في نفوس أكثر البشر . كما أن الاعتقاد القديم بأن لبعض كلمات اللغة قوة سحرية ذو دخل كبير في هذا الشأن .

ومن التصرف أن يحاول الباحث تفسير جميع ما يتجنبه ويقنع مجتمعات من المجتمعات من كلمات وعبارات بعوامل مستقاة من الحالة الراهنة لهذا المجتمع فلا شك في أن جانباً من هذه العبارات والكلمات المرد في تجنبه وتقنيته إلى عوامل قديمة متوارثة قد لا يكون من اليسير تعقبها وتحديددها على وجه اليقين ، ولكن ما من شك في أن جانباً من هذه العبارات والكلمات المرجع في تحريمه إلى عوامل قائمة في هذه المرحلة من مراحل تطور المجتمع .

ومن الملاحظ أن كثيراً من المجتمعات يشترك في تحريم كلمات وعبارات متعلقة بموضوعات معينة كاللوات ، والأمراض الخطيرة والخبيثة ، والأرواح لا سيما

الشريرة ، وبعض الوظائف الفسيولوجية للجسم الانساني وشيء مما يتصل بها من
اعضاء . فكثير من الشعوب تستعمل عبارات لينة بارعة تجنباً لاستعمال الكلمتين
اليسيتين « يموت » و « يمرض » ، ففي الانجليزية مثلاً يستعمل بدلاً من الكلمة
المقابلة لـ « يموت » كنايةات مثل passing on أو passing away
أو being taken away ١ .

والعربية الفصحى في الوقت الحاضر — وفي اعلانات النعي على وجه الخصوص —
تتجنب كلمة « مات » وتستعمل موضعها « توفي الى رحمة الله » أو « توفاه الله »
أو « أسلم الروح » أو « ذهب الى جوار ربه » الخ ؛ كما أنه يدل فيها على « مات »
بـ « قضى » أو « قضى نحبه » أو « رحمه الله » . وفي العامية المصرية قد أجيب سائلاً
يسألني عن لا يعلم أنه مات بقولي « البقية في حياتك » ، أو « الله يرحمه » .

ويتخرج كثير من الأمهات المصريات من ايراد كلمة « الحصبة » على ألسنتهن
ويستعملن بدلاً منها « المبروكة » ! والسبب من الأمراض التي تكنى عنه كثير من
اللغات بالاشارة الى شدة السعال والبصق وضعف الصدر وغير ذلك .

والخوف من « الجن » و « الأرواح » و « الشياطين » و « العفاريت » غالب
على معظم الشعوب . والمصريون لا سيما النساء يدلون على الجن بـ « الأسياد » ،
كما يدلون عليهم أحياناً بـ « الأخوات » اشارة الى الاعتقاد السائد بأن لكل من
الانس أخاً من الجن ؛ وهم عندما يتوهمون أنهم قد يدوسون أحداً من الجن أو
قد يقتحمون عليه موضعه يقولون مستأذنين « دَسْتَوْرَكُم يَا مَبَارَكِينَ » ؛ كما
يشيرون الى « العفاريت » أحياناً بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » .

إن كثيراً من المجتمعات — أو كثيراً من الأشخاص في كثير من المجتمعات — لا
يزال يخشى ما كان يخشاه كثير من المجتمعات الانسانية القديمة من حلول الشر والضرر
نتيجة للتصريح بكلمات وعبارات تدل على الشر والضرر كالموت والأمراض والشياطين .
ومن مظاهر هذا تلك العبارات التي تطلقها المصريات لو لفظ أمامهن — ولو على
سبيل الحكاية عن غريب — باسم مريض خطير كالسل أو الحصى « الشر بره وبعيد ! »

أو « صَلَّى عَ النَّبِيِّ ! » أو « تَرَفَّ مِنْ يَثْقَكَ ! » أو « اللهم احفظنا ! » .
والعملية الجنسية ، وأعضاء الذكورة والأنوثة ، والحيض ، والتبرز والتبول
يوجد لها في كثير من اللغات كنايةات تقادياً للتصريح بأسمائها ؛ وقد يكون شيء من
ذلك من قبيل التأدب لا قبيل الخوف .

(ب) « اللائق » و « غير اللائق » من الكلام

ويتصل بموضوع « الكلام الحرام » تلك العبارات والكلمات التي يعدها
مجتمع من المجتمعات « غير لائقة » في مجالات خاصة ، والتي يرى في النطق بها
جفوة أو غلظة ، أو سوء أدب ، أو ما هو من ذلك بسبيل .

ومقاييس « اللياقة » و « عدم اللياقة » فيما يتعلق باللغة تختلف باختلاف
العصور ؛ وهي في كل عصر تختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية في المجتمع الواحد ،
وباختلاف اللهجات المحلية ؛ كما يشترك في تحديدها عوامل أخرى كثيرة : فانه
يسوغ بين جماعة من الذكور أو بين جماعة من الاناث النطق بعبارات وكلمات ولا
يسوغ نطقها لو ضم المجلس شخصاً أو أكثر من الجنس الآخر ؛ وبعض ما يتكلمه
الرجل وزوجته حال انفرادهما لا يستعمله أحدهما أو كلاهما في ظروف أخرى ؛ وقد ينصح
الصغار بتجنب عبارات وكلمات لا يكون في تفوه الكبار بها غضاضة ؛ وقد يؤذن
للرجال بنطق ما لو نطقت به النساء لكان غير لائق ، كما يؤذن للنساء بنطق ما لو
نطق به الرجال لعد غير سائق ؛ ويقع فيما يدور بين المريض وطبيبه من حديث
كلمات وعبارات لا يوردها كل منهما على لسانه في مجالات أخر .

إن مقاييس اللياقة وعدم اللياقة في المجتمع الكلامي الواحد متعددة ومعقدة ،
ومما يزيد البحث فيها صعوبة أنها تتداخل أحياناً مع ما ذكرناه من اعتبارات الخوف
الداعية الى التحريم والتقيع .

وهذه المقاييس متطورة بطبيعة الحال ؛ وعلى الباحث أن يستقصى العوامل
الغيرة لها ، وأن يبحث عن آثارها اللغوية . ومن أهم هذه العوامل انتقال المجتمع
من الفصل بين الذكور والاناث الى اباحة الاختلاط بينهم ؛ فكثير مما كان غير لائق
في الحالة الأولى يرى عادياً في الحالة الثانية . والملاحظ أن ما نالته المرأة في

الضمائر والمستويات الاجتماعية

(١) يظهر الكلام المستويات الاجتماعية لأصحاب لغة من اللغات بأكثر من صورة ومن أهم هذه الصور في كثير من اللغات تصرف الضمائر والصيغ « المستندة إلى ضمائر ». واللغات في هذا الشأن متفاوتة فمنها ما لا يفصل ولا يميز في الضمائر كبير تفصيل وتمييز للتعبير عن المستوى الاجتماعي للتكلم والمخاطب والغائب ؛ ومنها ما يميز شيئاً من التمييز في ضمائر الخطاب على وجه الخصوص ؛ ومنها ما يبلغ باستعمال الضمائر درجة كبرى من التفصيل والتمييز والتعقيد فيتنبه كل من ضمير المتكلم والمخاطب والغائب حسب درجة التكلم في السلم الاجتماعي من المخاطب والغائب .

(٢) وبنا قبل أن نشير إلى ما تجرى عليه العربية الفصحى في هذا المجال أن نزيل وهما من الأوهام قد يكون سببه احساس المتكلم بالعربية ودارسها على الطريقة التقليدية بأنها حريضة ، بصفة عامة ، على التمييز بين المذكر والمؤنث ، وعلى ربط كل من هذين بعدد معين « مفرد » ، أو « مثنى » ، أو « جمع » . قد يقن أن الضمائر يراعى فيها هذا اللون من التمييز ، ولكن الاستقراء يظهر أن هذا التمييز لا يتحقق في حالة الضمائر كاملاً ، بينما كما أنه يظهر أن الضمائر إذا نظر إليها باعتبار التكلم والخطاب والغيبة لا تتفق جميعاً في خصائص واحدة بل يتميز كل منها بصفات . وهذا شاهد بخطأ القول بأن لكل لغة « نظاماً » واحداً تسيّر عليه جميع « أقسامها » ، فالحق أننا نجد في كل لغة مجموعة من الأنظمة ، كما قد نجد في النظام الواحد تفرعات كثيرة أو قليلة .

فإذا نظرنا في ضمائر التكلم والصيغ « المستندة إلى ضمائر التكلم » في العربية وجدنا أنه لا تمييز في حالة المفرد بين المذكر والمؤنث (فانه يقال : أنا — كتبت — أكبت — فأكبت — كتابي — لي — اني — اياي الخ في حالتى التذكير والتأنيث) وأنه لا تمييز بين « المثنى » و « الجمع » وفي كل حالة بين ما هو مذكر وما هو مؤنث ، بل هناك مجموعة من الضمائر والصيغ كل منها يستعمل لكل من المثنى

المجتمعات المتحررة المختلطة من استقلال اقتصادى ، وتقدم في التعليم ، وسعة أفق في التفكير قد أسهم في تحرير كلامها ، وفي تخليصه من كثير من الصفات الأثوية ؛ ومن ذلك أن كلمة Legs لا يحمر لها وجه الانجليزية خجلاً كما كان يحدث لجدها في عصر سابق .

والجمع بنوعيهما (نحن - كتبنا - تكتب - فلتكتب - كتابنا - لنا - أنا - إيانا الخ) . ونستطيع أن نقول أن العربية - بهذا الاعتبار - تسوي شيئا من التسوية بين المتكلم والمتكلمة ، كما أنها تلغى بعض الفوارق بين المتكلمين والمتكلمات .

أما في ضمائر الخطاب والصيغ المسندة إلى ضمائر الخطاب فالعربية الفصحى تميز بين المفرد والمثنى والجمع ، وهي تميز في كل من المفرد والجمع بين المذكر والمؤنث ، ولكنها في حالة المثنى المخاطب لا تميز بين مذكر ومؤنث (انظر الجدول التالي) .

أما ضمائر الغياب والصيغ المسندة إلى ضمائر الغياب فإنها تظهر شكلاً آخر يختلف عن ضمائر التكلم وعن ضمائر الخطاب : فهي أولاً تميز بين كل من المفرد والمثنى والجمع ، وهي في حالة المفرد تميز بين ما هو مذكر وما هو مؤنث ، ولكن هذا التمييز في بعض الصيغ يتأني عن طريق تغيرات في بنية الكلمات جرى النحاة العرب على عدم اعتبارها ضمائر وذلك كالتمييز بين المذكر والمؤنث في كتب وكتبك وكتبتم ، وفي يكتب وكتبك ، وفي فليكتب و فليكتبك . أما في حالة الغائبين الاثنين فصورة ما جرى العرف على تسميته بالضمير واحدة لكلا المذكر والمؤنث ، ولكن صور أنواع من الكلمات « المسندة » إلى الغائبين الاثنين يلحقها تغيير للتمييز بين المذكر والمؤنث مثل كتبنا وكتبتم ، ويكتبان ويكتبكن ، وفليكتبنا وفليكتبكن . وفي حالة ضمائر جماعة الغائبين تراعى العربية الفصحى التمييز بين المذكرين والمؤنثين (انظر الجدول التالي) .

ولا يجوز أن يفهم من قولنا أن صورة الضمير قد تكون واحدة بالنسبة للمذكر والمؤنث جميعاً مثل « أنا » ، أو للمثنى جميعاً مثل « هما » ، أن « أنا » للمفرد المذكر تطابق « أنا » التي للمفرد المؤنث من جميع الوجوه وبجميع الاعتبارات فهما وإن كانتا متطابقتين من حيث الصورة إلا أن الأولى متيزة من الثانية من حيث الوظيفية ومن حيث علاقاتها بسائر الكلم في التعبيرات التي تقع فيها ؛ فانه وإن صح لكل من محمد وزينب أن يقول « أنا أعلم » إلا أن محمداً يقول « أنا كريم » وتقول زينب « أنا كريمة » ، وهو يقول « أنا الذي » .

بينما تقول هي « أنا التي » . . . وهكذا .

و « نحن » وإن كانت على هذه الصورة للمثنى والجمع بنوعيهما - وإن كان في بعض التركيبات لا يوجد مميز شكلي يحددها مثل « نحن نعلم » فهي صادقة على المثنى بنوعيه والجمع بنوعيه - إلا أن بعض الاستعمالات تحدد أن « نحن » هنا للاثنتين ، أو لجماعة الذكور أو لجماعة الإناث وذلك مثل « نحن اللذان - نحن اللتان - نحن الذين - نحن اللاتي » . . الخ .

والجدول التالي يبين توزع الضمائر والصيغ المسندة إلى الضمائر في العربية الفصحى حسب التكلم والخطاب والغياب ، وحسب الافراد والتثنية والجمع في كل حالة من هذه وعلى أساس التذكير والتأنيث . ويتضح من هذا الجدول ما أشرنا إليه .

(٣) ونشرع الآن في عرض تخطيط عام لدراسة الضمائر في العربية الفصحى من حيث أظهارها للمستوى الاجتماعي للمتكلمين والمخاطبين والقائمين . ومن أوجب ما على الباحث في هذا الموضوع أن يدرس هذه الدلالة للضمائر في كل عصر على حدة ، وأن يدرسها في كل فن من فنون القول وفي كل وظيفة من الوظائف الكلامية على حدة ؛ وأن يراعي في كل حالة سياق الكلام والوضع الاجتماعي للمتكلم بالنسبة إلى المخاطب والغائب و ... الخ ؛ فمن الخطأ أن نستدل باستعمال الضمير استعمالاً خاصاً في العصر الحديث على أنه « العربية » تذهب هذا المذهب أو ذاك ؛ كما أنه من الخطأ أن نستخلص من دلالة خاصة للضمير نجدها في شعر عصر من العصور أن هذه الدلالة تصدق على الضمير في كل العصور وفي كل وظائف الكلام ، وأنها « لازمة » للأسلوب العربي وقد نفل على هذه الدلالة في المستقبل كذلك .

١ - إن استخلاص الدلالة الاجتماعية للضمائر في العصر الجاهلي تستلزم أن نميز بين أنواع كلامية بيئة الاختلاف فندرس ذلك في الشعر مستقلاً ، وفي الخطب مفردة ، وفي الأمثال على حدها ، وفي كل من اتوصايا والحكم وحده ، وفي الكتابة وحدها على نثرها ، وفي لغة التخاطب العادي إذا صحت لنا نصوص في هذا المجال . وقد يستوجب الأمر تفريعات خاصة بكل قسم من هذه الأقسام . والقراءة السريعة لنصوص العصر الجاهلي تؤدي بنا إلى القول بأن عربية هذا العصر كانت تدل على المستويات الاجتماعية عن طريق الأسلوب العام واختيار الكلمات أما الضمائر والضمير المستندة إلى ضمائر فلم يكن يلحقها تغيير .

(١) أمثلة من الشعر : قول النابغة في مدح النعمان والاعتدال إليه مع إشارة إلى « الوشاة » ولا تنفي في ذلك كله ضمائر التكلم والمخاطب والغائب .

واتك التي تستك منها المسامع	أناي - أبيت الفن - أنك لتني
وذلك من تلقاء ذلك رائع	مقالة أن قد قلت : سوف أناه ،
لقد نطقت بطلا على الأقارع	أعمرى - وما عمرى على بهين
وجوه فرود تبقي من تجادع	أقارع موف ، لا أحسارول غيرها
له من عدو مثل ذلك شافع	أناك أمرو مستبطن لي بغضفة
ولم يأت بالحق الذي هو ناصع	أناك بقول حبلل النسيج كاذب
ولو كليت في ساعدي الجوامع	أناك بقول لم أكن لأفصوله

التكلم					
المفرد		المتن		الجمع	
المذكر	المؤنث	المذكر	المؤنث	المذكر	المؤنث
أنا	أنا	نحن	نحن	أنا	أنا
كتب	كتب	كتبنا	كتبنا	كتب	كتب
أكتب	أكتب	أكتب	أكتب	أكتب	أكتب
فلا كتب	فلا كتب	فلا كتب	فلا كتب	فلا كتب	فلا كتب
كتابي	كتابي	كتابنا	كتابنا	كتابي	كتابي
لي	لي	لنا	لنا	لي	لي
أني	أني	أنا	أنا	أني	أني
أيك	أيك	أيانا	أيانا	أيك	أيك
الخ ...	الخ ...	الخ ...	الخ ...	الخ ...	الخ ...

الغياب					
المفرد		المتن		الجمع	
المذكر	المؤنث	المذكر	المؤنث	المذكر	المؤنث
هو	هي	هو	هي	هم	هن
كتب	كتب	كتبنا	كتبنا	كتبوا	كتبوا
يكتب	يكتب	يكتبنا	يكتبنا	يكتبون	يكتبون
فليكتب	فليكتب	فليكتبنا	فليكتبنا	فليكتبوا	فليكتبوا
كتابه	كتابه	كتابنا	كتابنا	كتابهم	كتابهم
له	له	لها	لها	لهم	لهم
أله	أله	ألهما	ألهما	ألهم	ألهن
أياه	أياه	أياهما	أياهما	أياهم	أياهن
الخ ...	الخ ...	الخ ...	الخ ...	الخ ...	الخ ...

وفي آخر القصيدة :

أتوعد عبدا لم يخنك أمارة
وأنت ربيع ينعش الناس سيبه
أبى الله إلا عدله ووفاءه
وتستقى إذا ما شئت غير مضرد
ويترك جسد ظالم وهو ضالع
وسيف "عمرته" المنية قاطع
فلا النكر معروف ولا العرف ضائع
بزوراء ، في حافات المسك كاسع

ومن أبيات لدريد بن الصمة وفيها حديث عن قومه وموقفه منهم وموقفهم منه ومن أخيه وأمه ، وروثه لأخيه ، ولا تغيير فيها للضمائر أو للصيغ المسندة إلى الضمائر لظهور هذه المستويات المختلفة :

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى
وهل أنا إلا من غزية ؟ أن غوت
دعاني أخی ، والخيل بيني وبينه
أخ أرسعتني أمه من لبانها
نجبت إليه ، والرحاح تنوشه
وكننت كذات البو ريمت فأقبلت
فطاعنت عنه الخيل حتى تنهت
قتال امرئ أسى أخاه بنفسه
تنادوا فقالوا : أردت الخيل نارسا
فإن يك عبد الله خلى مكانه
ومن مخاطبة عظيمين قول زهير :

يبيتا لنعم السيدان وجدتما
تداركتما عيسا وذبيان بعدما
وقد قلتما أن تدرك السلم واسعا
فأصبح يجري فيهم من تلادكم
على كل حال من سحيل ومبرم
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
بمال ومعروف من الأمر نسلم
مغاثم شتى من أفال التزتم

ولا نظن أن الضمير في « تلادكم » المقصد منه تعظيم هذين السيدين إنما الأقرب إشارة إلى العشرة .

ومن الحديث عن صاحبة ومخاطبتها قول عنزة :

بكرت تخوفني الخوف كما أنني
أصبحت من غرض الخوف بمعزل

تأجبتها أن المنية منهيل
لا بد أن أسقى بكأس المنهيل
فأقنى حياءك لا أبالك وأعلمي
أنى امرؤ ساموت أن لم أقتل

والضمائر والصيغ المسندة إلى ضمائر في الخطاب والأمثال والحكم والوصايا لا تظهر تغييرا بتغير المستويات الاجتماعية : لاحظ الضمائر في خطبة قس بن ساعدة الأيادي المشهورة (أيها الناس ! اسمعوا وعوا ، أنه من عاش مات ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . . الخ) وفي حكمه : (. . . ولا تشاور مشغولا وإن كان حازما ، ولا جالما وإن كان فهما ، ولا مدعورا وإن كان ناصحا) .

ومن خطبة منسوبة إلى عمرو بن سعد يكرم الزبيدي يقال أنه ألهاها أمام كسرى أو شروان يخاطبه فيها : (. . . فاجتهد طاعتنا بلفظك ، واكظم بادرنا بحلمك ، وابن لنا كفك يكن لك قيادتنا . فانا أناس لم يورثش صفاتنا قيراع مناقير من أراد لنا فضما ، ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضمنا) .

ومن الأمثال الجاهلية :

(أن كنت ريحا فقد لاقيت اصبارا) و (ذكرني فوكر حماري أهلي)

و (تحششا لقمان من غير شبع) يضرب لمن يدعى ما ليس بملك . وفي لغة الوصايا المنسوبة إلى الجاهلية من والد إلى بنيه ، أو ابنة أو من والدة إلى ابنتها أو ابنتها لا تتغير الضمائر والصيغ المسندة إلى ضمائر ومن ذلك الوصية المنسوبة إلى زهير بن جناب الكلبى بوصى فيها أبناءه (يا بني قد كبرت سنن ، وبلغت حارسا من دهرى ، فأحكممني التجارب ، والأمور تجربة واختبار . فأحفظوا عني ما أقول وعود ، إياكم والخور عند المصائب والتواكل عند النوائب . . . الخ)

ب — أما في صدر الاسلام فسجد أن من الواجب دراسة استعمال الضمائر والصيغ المسندة الى ضمائر في القرآن وحده وفي الأحاديث النبوية وحدها ، وفي خطاب كل من المؤمنين والكافرين للرسول ، وفي رسائل النبي والخلفاء الى الملوك والأمراء والعمال وحدها ، فضلا عن دراستها في فنون القول الأخرى من شعر ونثر.

وفي لغة القرآن نميز بين المواضع التي يتكلم فيها الله تعالى باسمه من تلك التي يتحدث فيها عن نفسه بضمير الغيبة ، كما نفرد خطابه للرسول من خطابه المؤمنين ومن خطابه الكفار ، ومن حديثه عن أولئك جميعا ، وتفصل خطاب المؤمنين لله ، من خطاب الكفار له ، ومن خطابات الرسول اياه .

وسنلاحظ في تكلم الله جل وعلا باسمه أنه يستعمل أحيانا ضمير المتكلم المفرد وأحيانا ضمير جماعة المتكلمين ، ومن الواجب ربط كل ذلك بظروفه وتفسير الاختلاف في استعمال الضمير والاستعانة بما كتبه المفسرون وعلماء البلاغة في هذا الشأن : ومن تكلم الله جل وعز باسمه بضمير الجمع قوله تعالى : (ان الينا اياهم ثم ان علينا حسابهم . «سورة الغاشية») وقوله : (لقد خلقنا الانسان في كبد . «سورة البلد») وقوله : (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهدينا له النجدين . «سورة البلد») وفي نفس السورة : والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة ١ .

(١) ومن ذلك :

(انا أنزلناه في ليلة القدر)

(انا اعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شئت لك هو الأبر)

وفي سورة المطففين (اذا تنلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين)

وفي سورة التين : (لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين) .

وفي سورة النبا : (ألم نجعل الأرض مهادا والجيال اوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات الفاها) وفي نفس السورة (انهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذبا . وكل شيء احصيناه كتابا فذوقوا نلن نزيدكم الا عذابا) وفي السورة نفسها (انا أنذرناكم عذابا قريبا) .

ومن تكلم الله عز وجل باسمه بصيغة المفرد قوله تعالى في سورة الفجر (يايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) . وفي سورة الليل آيات يستعمل فيها ضمير جماعة المتكلمين وفي آخرها آية يستعمل فيها ضمير المفرد المتكلم :

(فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسيره ليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسيره للعسرى وما يغنى عنه ماله اذا تردى . ان علينا للهدى وان لنا للآخرة والأولى . فأندرتكم نارا تلتظى لا يصلاها الا الأشقي الذي كذب وتولى . . .) .

وفي سورة الأعلى يتكلم الله بضمير جماعة المتكلمين ثم يشير الى ذاته بضمير المفرد الغائب لا بضمير الغائبين ثم يعود الى الكلام بضمير جماعة المتكلمين (سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله انه يعلم الجهر وما يخفى ، ونيسرك ليسرى) .

والله تعالى يشير الى ذاته في القرآن مصطنعا ضمير المفرد الغائب ومسنندا الصيغ الى المفرد الغائب ولا نجد آية من الآيات يشير فيها الله الى ذاته بضمير جماعة الغائبين أو بساند الصيغة الى جماعة الغائبين ومن ذلك ما ورد في الآية السابقة وما نجده في هذه الآيات من سورة عبس : (قتل الانسان ما أكفره ، من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسه ، ثم أماته فأقبره ، ثم اذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره ١) وان كنا نلاحظ أنه بعد هذه الآيات مباشرة أخذ الله في التكلم باسمه بضمير جماعة المتكلمين : (فلينظر الانسان الى طعامه انا صبينا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شققا ، فأنبئنا فيها حبا وعنبا . الخ) .

نرى من هذا أن الله يتكلم باسمه مصطنعا ضمير جماعة المتكلمين مرة ، ومصطنعا ضمير المتكلم المفرد مرة ، ولكن التعظيم واعلاء الشأن لم يثلا مرة في

(١) ومن الأمثلة الشبيهة بهذا قوله تعالى : (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) وقوله تعالى (لا يلاف قريش ايلانهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) و (سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أخوى . «سورة الأعلى») . و (انه هو يدي ويعيد ، وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعلم لما يريد . «سورة البروج»)

القرآن ، ولا في غير القرآن ، باستعمال ضمير المتكلمين الاثنين ؛ وقد يعترض على هذا بأن ضمير المتكلمين يطابق في الصورة ضمير المتكلمين الاثنين والرد على هذا أن بعض السياقات تحدد أن المقصود بالضمير هو ضمير جماعة المتكلمين كما يتضح ذلك من قوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لعاقبون » . كما أننا نرى مما تقدم أن القرآن لا يستعمل ضمير جماعة الغائبين أو الصيغ المسندة الى جماعة الغائبين عند الإشارة الى الله جل شأنه ، ولا ضمير الغائبين الاثنين أو الصيغ المسندة الى الغائبين .

أما خطاب المؤمنين لله ودعائهم إياه فنجد أن القرآن يستعمل فيه ضمير المخاطب المفرد ومن أشهر الأمثلة على ذلك فاتحة الكتاب (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين)^١ ومن ذلك قوله تعالى « وما تنقم منا إلا أن آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوبتنا مسلمين » (الأعراف آية ١٢٦ - قصة موسى وفرعون والخطاب في « تنقم » لفرعون)

وأما خطاب الله للمؤمنين وحديثه عن وجل عنهم فهو مماثل خطابهم إياه لا يستعمل فيها إلا الضمائر العادية كذلك . ومن أمثلة خطاب الله للمؤمنين وحديثه عنهم قوله تعالى في سورة الأنفال (آيات ١٥ - ١٧) :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم . » وقوله تعالى في الأنفال آية ٧٢ : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آثروا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم في الدين فمليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم

(١) تجددت شعراية بن أبي الصلت الثقفي بيتاً يدعو فيه الله بضمير المخاطب المفرد لك الحمد والنعماء والملك ربنا فلا شيء أعلى منك مجدداً ومجدداً

ميثاق والله بما تعملون بصير » .

ومن حديث الله عن المؤمنين : (لا يسمعون فيها لغواً ولا كيداً أبداً » سورة النبأ ») .

وننتقل الآن الى الضمائر والصيغ المسندة الى ضمائر التي يستعملها القرآن في الكلام عن العلاقة بين الله عز وجل وبين الكفار .

أما خطاب الكفار لله فنستعمل فيه صيغة المفرد في الأغلب وصيغة الجمع أحياناً . وأمثلة هذا النوع قليلة في القرآن ومنها :

« وأندر الناس يوم يأتهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل قريب نجيب دعوتك وتب الرسل » أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . » (إبراهيم آية ٤٤) ومنها : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا فعمل صالحاً انا موقنون ، » (السجدة آية ١٢) . ومنها قوله تعالى « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون » (المؤمنون آية ٩٩) .

وأما خطاب الله للكفار فأما لته في القرآن كثيرة نكتفي منها بقوله تعالى : « فذوقوا فلن نزيدكم الا عذاباً (سورة النبأ آية ٣٠) » وهذا الخطاب تستعمل فيه الضمائر والصيغ العادية .

وحديث الكفار عن الله يشمله قوله تعالى :

« وإن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعملون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يفضل به كثيراً ويؤذي به كثيراً وما يفضل به الا الفاسقين ، » (البقرة آية ٢٦) . « أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحبني هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه . . . فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير » (البقرة آية ٢٥٩)

(١) ومن أمثلة هذا النوع : « وقال الذين كفروا ربنا إنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » (فصلت آية ٢٩) و : « . . . ويوم يناديهم ابن شركتي قالوا اذتلك ما منا شهيد » (فصلت آية ٤٧) « وقالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين . ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون » (المؤمنون ١٠٦ - ١٠٧) .

وفي الحديث عن عاد وثمود قال تعالى : « اذ جاءتهم الرسل من بين ايديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله قالو لو شاء ربنا لانزل ملائكة فانا بما ارسلتم به كافرون » (فصلت آية ١٤) .

اما حديث الله عن الكفار فمن امثله :

« ان جهنم كانت مرصدا للظالمين ما بالاشين فيها احقابا . لا يفوقون فيها بردا ولا شربا الا حميما وغساقا جزاءا وفاقا انهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذبا » . (سورة النبا) .

ومن رواية القرآن لكلام الكفار قوله تعالى :

« يوم ينظر المرء ما قدمت يده ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا » (النبا) .
وقوله تعالى رواية لكلام الكفار (يقولون اتنا لردودون في العافرة اذا كنا عظاما نعرة . قالوا تلك اذن كرة خاسرة » (النازعات) .

والقرآن عندما يخاطب الرسول يخاطبه بصيغة المفرد ومن ذلك : « يس »
والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم)
و « والضحي والليل اذا سجي ما ودعك ربك وما قلا ولآخره خير لك من الاولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك . . . الخ » .

ومن خطاب الله لرسوله وطلبه اليه أن يقول كلاما : « قل يا ايها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين » .

والقرآن عند ما يتحدث عن الرسول فهو يتحدث عنه بصيغة المفرد « والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى » وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى . . . الخ » و « عسى وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنبه الذكرى » . (سورة عبس) .

ح - واذا انتقلنا الى الحديث النبوي وجدنا أن الرسول يتكلم بصيغة المفرد دون تغيير ، ويخاطب المؤمنين والكفار على حد سواء مستعملا الضمائر العادية ، كما أن كلام الناس من مشركين ومؤمنين للرسول لا يظهر فيه استعمالات خاصة للضمير أو للصيغ المستندة الى ضمائر .

ومن حديث الرسول (صلعم) عن نفسه :

« ان الرائد لا يكذب أهله » والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم . والله الذي لا اله الا هو انى لرسول الله اليكم

حقا الى الناس كافة وانكم لأول من أئذ بين يدي عذاب شديد » .

والناس على اختلاف طبقاتهم كانوا عندما يخاطبون الرسول يخاطبونه مستعملين صيغة المخاطب المفرد ، واذا تحدثوا عنه تحدثوا بصيغة الغائب المفرد : ولا يستعملون في جميع ذلك صيغ تكلم خاصة بهذا السياق . والأمثلة الثرية على هذا كثيرة في كتب الحديث ، ومن الأمثلة الشعرية قول قتيلة أخت النضر بن الحارث :

أحمد ولدتك خير نجية في نومها والقوم فحل معرق
ما كان شركك لو مئت وربا من التي وهو المقيظ المحقق
فالنضر أقرب من قتلتي قرابة وأحقهم ان كان عتقا يعق
لو كنت قابل فدية لعديتسه أعز ما يعلى به من ينفق ٢

ومن الحديث عن الرسول قول كعب بن زهير

أتيت رسول الله اذ جاء بالهدى

وتلو كتابا كالمجرة نثيرا

وقول حسان بن ثابت يخاطب أبا سفيان من سادات قريش ويتحدث عن الرسول :-

هجو محمد فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء
فمن يهجو رسول الله منك ويمدحه وينصره سواء
ع - واذا نظرنا في كلام الخلفاء الراشدين ، عن أنفسهم وفي

(١) وفي خطبة الرسول الجامعة في حجة الوداع أمثلة كثيرة على حديثه عن نفسه بصيغة المفرد : (. . . وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، واحتكم على طاعته ، واستفتحكم بالذي هو خير) اما بعد اسمعوا مني ايها لكم فاني لا أدري لعل لا التاكم بعد عامي هذا في موقفى هذا

(٢) ومن ذلك قول كعب بن زهير :-

مهلا هداك الذي أهلك ناقلة الـ قرآن فيها موايعظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وان كثرث في الاتساويل

خطاب الناس على اختلافهم اياهم ، وفي حديثهم عنهم لم نجد استعمالات خاصة للضمائر .

هـ - ان دراسة « الكتاب الديوانية » من أقدم عصورها كفيلا بأن تبين لنا الزمن الذي بسدى فيه باستعمال ضمير المتكلمين للمتكلم الواحد في الرسائل عندما تصدر الرسالة باسم خليفة ، او باسم امير أو وزير الى من هو أدنى منه كما أنها كفيلا باظهار ما صجب ذلك من اكنار في القاب التحديد والتفخيم ، ومدى تأثير العرب في ذلك بما كان من هذا لدى الأمم الأخرى ان كان ثمة تأثير .

(١) قال ابو بكر يوم بويج : « أما بعد فاني وليت عليكم ولست بخيركم . . . وان اقوام عندى الضعيف حتى أخذ له الحق ، وان اضعفكم عندى القوي حتى أخذ منه الحق . أيها الناس انما أنا متبع ولست بمبتدع فاذا رأيتموني على حق فاعينوني ، وان رأيتموني على باطل فردوني . اطيعوني ما أطعت الله ليحكم فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم » أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم . »

ومن خطبة عمر بن الخطاب اذ ولي الخلافة : « أيها الناس اني داع فامتنوا . اللهم اني غلظ قلبي لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقني الغلظة والشدّة على أعدائك وأهل الدخارة والنفاق من غير ظلم عنى لهم ولا اعتداء عليهم . . . »

ومن خطبة عثمان بن عفان عقب أن بويج : « أما بعد فاني قد حملت وقد قبلت . ألا واني نسع ولست بمبتدع ، ألا وان لكم على بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثا . . . »

ومن خطبة علي بن ابي طالب بعد التحكيم : « . . . وقد كنت امرتكم في هذه الحكومة أسرى ، ونحلت لكم مخزون رأيي لو كان يطاع لقصير أمر فأيتم على ابناء المخالفين الحفافة والمنايدين العصاة حتى أرتاب الناصح بتصحجه ، وضمن الرئد بقدرحه ، فكنت واياكم كما قال أخو هو اذن . »

امرتكم امرى بمتخرج اللوى فلم تستبينوا النصح الا ضحى الفد . ومن الأمثلة الشعرية على عدم استعمال ضمائر خاصة عند خطاب الخلفاء الراشدين قول الحطيئة المشهور يخاطب عمر .

ماذا تقول لأفراخ بسدى مرج	رغب الحواصل لا ماء ولا شجر
التيبت كاسهم في قعر مظلمة	فاعدل عليك سلام الله يا عمر
انت الامام الذي من بعد صاحبه	التي اليك مقاليد الورى البشر
لم يؤثروك بها اذ قدموك لها	لكن لا تقسوم كانت بك الأثر
فاحزن على ضيعة الرمل مسكنهم	بين الأباطح تقشاهم ببا القرر
اهلى نساؤك كم بينى وبينهم	من عرض داوية يعنى بها الخبر

و - انا في العصر الحديث نجد خطاب الملوك والسادة وما يصدر عنهم يختلف عما كان عليه الأمر أيام الجاهلية وصدر الاسلام فتحن المصريين كنا نشير الى الملك أيام الملكية « مولانا » و « مولانا صاحب الجلالة » .

والمراسيم التي تصدر باسمه كانت تبدأ بمثل « نحن فؤاد الأول ملك . . . » رسنا بما هو آت . . . »

ولم يكن يسوغ في مخاطبة رسمية مخاطبته باسمه بل يقال « يا صاحب الجلالة ، « مولانا الملك المعظم » ، « جلالتك » ، « ذاتكم الملكية الكريمة » الخ . ولكن لشعر لغته الخاصة فالشاعر يباح له أن يخاطبه باسمه وأن يشير الى اسمه مجرداً من كل لقب أو مقرونة باللقاب ، كما يباح له أن يخاطبه بضمير المفرد ، ولذلك فقد أمرنا الى وجوب دراسة لغة الشعر دون الخلط بينها وبين لغة النثر .

ولكن اللغة العربية وان كثر فيها حديثاً استعمال ضمير الجمع عند مخاطبة شخص عظيم أو عندما يكون المتكلم شخصاً عظيماً الا أنها لا تغير من ضمير المتكلم الذي يخاطب العظيم بياناً لأنه أقل منه شأنًا أو لأنه نداء له ؛ كما أن العربية لا

(١) ومن ذلك في شعر شوقي : (الشوقيات - مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٥٢ - طبعة ثانية مكملّة نفس المطبعة سنة ١٩٥١) .

العلم والملكت الرفيع كلاهما لك يا « فؤاد » جلاله ومقامه (ديوان - ٤ ص ١٠) و « فؤاد » حليفت جيد النيل ماثرة حذوت في صوغها آياتك الشجيا (ديوان - ١ ص ٨٤)

ومن مخاطبة شوقي للملك نؤاد بكنيته ، وهي طريقة من خطاب الملوك لم تكن اذ ذاك تستعمل في غير الشعر . انظر « أبا الفاروق » غزلك هل ترى بالسفرس الانعممة ونمساء

و : « أبا الفاروق » أقبلنا صفوفا وأنت من الصفوف هو الامام (ديوان - ٤ ص ٥٠) ومن امثلة مخاطبة شوقي للملك فؤاد معظما ومفضما قوله من بيتين أرسلهما في برقية بميلاد (الأميرة) فتحية :

مولاي ! ان الشمس في عليائها أنشأ ، وكل الطيبات بنات وقوله في مطلع قصيدة يهني بها الدكتور على ابراهيم بمناسبة الانعام عليه برتبة الباشوية سنة ١٩٣٠ :

يسد الملك الملوى الكريم على العلم هزئت اخاه الادب (ديوان - ٤ ص ٧٥) -

تستعمل ضمير الجمع العائب عند الإشارة إلى شخص ذي جاه .

وما هو جدير بالملاحظة أنه يكثر في لغة التأليف سواء كان المؤلف كتاباً علمياً أو أدبياً ، أو مقالة أن يتكلم المؤلفون مصطنعين ضمير جماعة المتكلمين (ونحن نرى - قلنا - أشرنا . . . الخ) ولكن استعمال هذه الصيغة غير لازم فهم يستعملون إلى جوارها صيغة المتكلم المفرد ؛ والدراسة التاريخية لاستعمال هذه الصيغة كفيلة بأن تضع أيدينا على النصوص الأولى التي استعملت فيها .

(٤) وإذا تركنا العربية إلى بعض اللغات الأوروبية الحديثة وجدنا صوراً أخرى من العلاقة بين الضمائر وبين المستويات الاجتماعية .

أ - فالإنجليزية تستعمل ضمير واحد هو You عند خطاب أي إنسانياً كانت منزلته من المتكلم ، وهذا الضمير هو نفسه الذي يستعمل عند خطاب أكثر من شخص ، كما أن هو الذي يخاطب به المذكر والمؤنث على حد سواء . وبينما الخطاب في الإنجليزية لا يراعى فيه التفريق بين الواحد وما يزيد عن الواحد ولا بين المذكر والمؤنث ، فإن التكلم له ضميران أحدهما للواحد أو الواحدة (I) والثاني لما يزيد عن الواحد مذكر أو مؤنثاً أو غيرهما (We) ، وبالعقبة يفرق فيها كذلك بين المفرد وما يزيد عن المفرد وهي في حالة المفرد تخصص ضميراً لكل من العاقل والعاقل وما لا يعقل I - She - He . أما في حالة الجمع فهي تستعمل ضميراً واحداً هو They

ومعروف أن لهذه الضمائر في الإنجليزية تصرفات حسب موقعها من الجملة وللدلالة على الملكية وإن كانت الإنجليزية لا تستعمل في الخطاب عادة إلا ضميراً واحداً هو You وبذلك يمكن القول ، كما ترى مرجيت شلاوش بأنها في هذه الناحية « لا تطبق فيها » ، إلا أنها تستعمل لخطاب المفرد أحياناً قليلة ضميراً خاصاً هو (thou) وذلك في الخطاب الجدي - كالكلام الديني وألوان من الخطابة والشعر أحياناً . إن الإنجليزية تعبر عن منزلة المخاطب من المتكلم عن طريق الأسلوب العام وانتقاء الكلمات ، ولا يزال يستعمل فيها - وإن كان فيهما مضي أكثر شيوعاً - أسماء مجردة تذكر بعد ضمير الملكية المخاطب (your) عند خطاب الملوك

The Gift of Tongues, p. 270 .

(١)

والأمراء والأميرات وحملات الألقاب وحاملاتها وذوى المناصب الرفيعة مثل Your Highness - Your Majesty Your Ladyship - Your Lordship Your Excellency (الخ) ١

ب - أما الفرنسية فمن المعروف أنها في التكلم لا تميز إلا بين الواحد وما يزيد عن الواحد دون تفريق يقوم على أساس التذكير والتأنيث (Nous - Je) وهذا النوع من التمييز هو الذي تراعيه في الخطاب (Vous - Tu) ولكنها في الغياب تضيف إلى هذا التمييز التفريق القائم على أساس التذكير والتأنيث فللواحد والواحدة Elle - Il ولما يزيد عن الواحد مذكراً Ils وما يزيد عن الواحدة Elles . والفرنسي عند ما يخاطب شخصاً لا يألوه وإن كان في مستواه الاجتماعي أو شخصاً يعلوه في السلم الاجتماعي يخاطبه بضمير الجمع vous ، أما في خطاب أصدقائه ومن لا كلفة بينه وبينهم فهو يستعمل ضمير المفرد Tu

ج - والألمانية أشد من الإنجليزية والفرنسية تدقيقاً وتمييزاً في ضمائر الخطاب للتعبير عن منزلة المتكلم من المخاطب : فالألماني في خطاب طفلاً أو صديقاً حياً أو شخصاً يحسن نحوه زراية واحتقاراً يقول "du" ، وقد يبدو غريباً استعمال ضمير واحد في خطاب الصديق وفي خطاب من يحسن التكلم نحوه زراية ، ولكن هذا هو الذي تسير عليه الألمانية ؛ والألماني إذا يخاطب غريباً عنه يعبر عما بينهما من بعد باستعماله الضمير Sie (وهذه الكلمة مطابقة شكلاً وأصلاً للضمير الذي يعني « هم » they) ؛ أما إذا أراد اظهار الاحترام والطاعة فهو يوجه الكلام إلى المخاطب مستعملاً اسماً غائباً (فيقول مثلاً ما يقابل : هل فرغ السيد من احتساء قهوته ؟) .

(٥) ولكن هذا التفصيل في الضمائر الذي نجده في الألمانية وسائر اللغات

(١) ترى مرجيت شلاوش أن الضمير الذي يمكن أن يحل محل هذه الأسماء المجردة (مثل Excellency وما إليها) في اللغات التي تميز بين الجنس هو ضمير المفرد المؤنث She (هي) ؛ وأن الكلمة الأسبانية المعاصرة المقابلة لـ "You" مأخوذة من اسم مؤنث مرتبط بالبهذب الذي يراعى في دوائر البلاط والأوساط الراقية فـ "usted" الأسبانية مختصرة من "vuestra merced" التي تقابل في الإنجليزية "Your graciousness" أو "Your mercy"

(٢) انظر المرجع السابق .

الأوروبية ، وفي العربية لا يقاس الى ما يوجد في بعض لغات الشرق الأقصى كاللغة اليابانية والكورية ولغة الملايو . وهذه اللغات نفسها لا تتفق في صورة واحدة أو متقاربة في تعبيرها عن المستويات الاجتماعية إنما يتمثل في كل منها لون خاص به .

أ - فالإباني عندما يشير الى فرد من أفراد الطبقة العليا يمنعه تأدبه من أن يستعمل صيغة المبني للمعلوم البسيطة فهذه الصيغة تشعر أن أفراد الطبقة العليا مضطرون الى أن يؤديوا الأعمال بأنفسهم ، ولهذا فهو يختار الـ *causative voice* معطيا إياهم بهذا دور الأشخاص الذي يعملون بواسطة عن طريق الأمر ، أو هو يختار صيغة المبني للمجهول كما لو كان الحدث يقع من تلقاء ذاتها .

ب - أما اللغة الكورية فهي تعبر بالصيغة الفعلية عما إذا كان المتكلم شخصاً رفيع المقام يخاطب شخصاً أدنى منه ، أو شخصاً أدنى يخاطب من هو أعلى منه ، أو شخصاً يكلم قريباً (= مساوياً) له ، كما أن هذه اللغة تعبر بصيغة الفعل في الوقت نفسه عما إذا كان هذا الخطاب يحدث باحترام نسبي ، أو باحتقار ، أو بطريقة معايدة لا احترام فيها ولا احتقار .

ج - وأما المتكلم بلغة الملايو فعليه أن يحدد أولاً بعد المخاطب منه في السلم الاجتماعي لأنه حسب هذا التحديد لا يغير ضمير المخاطب ليس إلا بل يغير ضمير المتكلم كذلك رسائر الضمائر . وقد رتب مرجريت شلاوش^٢ عدد الصيغ التي على المتكلم بلغة الملايو أن يختار من بينها حسب المراكز الاجتماعية للأشخاص الثلاثة الذين يحتاج الى أن يعبر عنهم ، ونحن نقل عنها هذا الجدول فيما يلي :

- (١) المرجع السابق p. 271
(٢) المرجع السابق pp. 271 - 272
(٣) المرجع السابق pp. 270 - 271

(٤) راجع ما يتعلق بالضمير في الفصل الذي كتبه يسر من بعنوان Person في كتابه *The Philosophy of Grammar* (p.p. 212 - 225) وانظر بصفة خاصة الى كلامه عن « الشخص الرابع » . وراجع الفصول التي كتبها المؤلف نفسه عن الشخص والضمائر في كتابه : *Essentials of English Grammar*, p.p. 146 - 196

النسخ المتكلم	أنا ، نحن	انت ، أنتما ، أنتم ، أنتم	هو ، هي ، هما ، هن ، هم
ولاح يكلم فلاحاً آخر	kita ; aku الجمع	engkau	dia , ia
شخص أعلى يكلم شخصاً أدنى باستعمال	kita ; aku الجمع	engkau	dia , ia
شخص أعلى يكلم شخصاً أدنى بطريقة عادية	kita ; sahaya الجمع	awak, kamu	dia , ia
شخص عال يخاطب أقرانه بركة	(tuan) hamba	(hamba) tuan	(hamba) tuan
جميع الطبقات في خطابهم الأوروبيين	kita ; sahaya	tuan	tuan
شخص من الطبقة التي تقل من طبقة النبلاء مباشرة يخاطب قريباً له	kami	tuan , encle'	tuan , encle'
رجل مامي لرئيسه	(dato') hamba (dato') sahaya	dato'	dato'
}} رجل على لراجا }} راجا لرجا آخر أعظم منه	patek	engkau , téngku	engkau raja , téngku
دعية للسلطان	patek	tuan-ku	tuan-ku , yam-tuan
اللغة الأدبية	patek	sahabat beta	الاسم واللقب

ملاحظة : الصوت الممثل في الجدول بالشرف e مثلثة المؤلفة في الأصل بالحروف e ونوقه ما يشبه رقم ٧ . ونظراً لتعدد هذا الحرف عندنا فقد عدلنا عنه الى الشكل المستعمل في الجدول .

التطور اللغوي وصلته بالاجتماع

نتحدث الآن عن جوانب من تطور اللغة واللغات مبينين ما بين هذا التطور والعوامل الاجتماعية من صلات ؛ فنعرف بما يحدث من استمرار لغة على الألسن وانقطاع أخرى ، ومن ظهور « لغة عامة »^١ عن لهجة أو مجموعة من اللهجات (وهو يعرف بالتوحد اللغوي) ، ومن احتكاك بين لغات ولهجات يحدث آثاراً فيها مع بقائها جميعاً على الألسنة .

بقاء اللغات وموتها

(١)

نوصف لغات بأنها « حية » وأخرى بأنها « ميتة » . والحق أن هذه الحياة وذاك الموت نسيان يقاسان باستمرار استعمال هذه اللغات ، أو بانقطاع دورها على الألسن . إن أية لغة من اللغات هي نظام معين من النظم الاجتماعية ، وهي بهذا الاعتبار خاضعة لتطور مشروط بتطور الجماعة التي تتكلمها ؛ وأية لغة باعتبارها نظاماً من العلامات التعسفية المتواضع عليها لا يقوم لها وجود إلا إذا استعملتها جماعة من الجماعات .

وأشهر ما يساق من الأمثلة على « موت » اللغات هو اللغة اللاتينية . ولكن اللاتينية لم تمت في الحقيقة ، إنها لم تمت من الناحية التاريخية ، بل أصابها تغيرات عميقة أنتجت أشكالاً حديثة لها أبرزها البرتغالية^٢ ، والقشتالية^٣ ، ولغة قطالونيا^٤ ، ولغة بروغانس^٥ ، والفرنسية ، والإيطالية ولغة رومانيا^٦ ، والإسبانية . وقد بلغ من شدة هذه التغيرات وعمقها أننا نحس إذا نظرنا إلى الأشكال الحديثة

Common Language (١)

(٢) انظر في هذا :

Jean Perrot : La Linguistique ; pp. 123 - 124

Jespersen : Mankind ; pp. 44 - 45

Portuguese (٣)

Castilian (٤)

Catalonian (٥)

Provençal (٦)

Roumanian (٧)

لاتينية بأنها لغات مختلفة .

ومن اللغات التي توقفت الناس عن استعمالها اللغة الغاليتا التي أخذت تزول شيئاً فشيئاً إلى أن حلت محلها اللاتينية ؛ ومنها لغة كورنوال^٢ ، وهي لغة كلتية الأصل كان يتكلمها أهل الجزر البريطانية إلى أن حلت محلها اللغة الانجليزية . ومن ذلك اللغة القبطية في مصر ، والبربرية في أقطار كثيرة من شمال أفريقيا ، فقد حل محل هاتين اللغتين لغة العرب الفاتحين .

واللغة الهندوأوروبية العامة انبثقت عنها عدد كبير من اللغات ، وكذلك الشأن في اللغة السامية العامة ، وفي اللغة الأسكندنافية العامة التي انبثقت عنها الأيسلندية^٣ ، واللغة النوروية^٤ ، والنرويجية ، والسويدية ، والدانمركية . واللغة الجرمانية الغربية العامة ظهر عنها الانجليزية ، والألمانية ، والهولندية .

(ب) التوحيد اللغوي

(١) في حياة اللغة ميلان متعارضان : أحدهما نحو التقسم إلى لغات ولهجات ، والثاني نحو الوحدة المتزايدة الاتساع . وكلا التقسم والتوحيد اللغويين فعل أحداث تؤثر في الجماعات . ويرى بعض اللغويين أن الاتجاه نحو التقسم أقوى من الاتجاه نحو التوحيد ، وأن الاتجاه الأول هو عملية التطور الطبيعية للغة ، ومن هؤلاء اللغويين « ويلد »^٦ الذي يقرر أن اتجاه اللغة هو نحو « التنوع اللانهائي »^٧ وهؤلاء اللغويون يستشهدون على رأيهم بأدلة كثيرة من بينها أنه ما ظهرت لغة عامة إلا تقسمت في لغات كثيرة .

Gaulish (١)

Cornish (٢)

Icelandic (٣)

Fœrie (٤)

(٥) فيما يتعلق بتصنيف اللغات وتطورها راجع ما كتبه أنطوان ميه بعنوان :

Introduction A La Classification Des Langues (Linguistique Historique Et Linguistique Générale, Tome II, pp. 53 - 69)

Le Développement Des langues (op. cit., pp. 70 - 83)

وراجع ما كتبه في الجزء الأول من نفس الكتاب بعنوان :

Convergence des Développements Linguistiques (pp. 61 - 75)

H.C. Wyld (٦)

ولكن «يسپرسن» يرى أن هناك قوى لا يجوز التغافل عنها تعمل في الاتجاه المضاد ، وأن « هذه القوى الموحدة كانت في العصور التاريخية أقوى في حقيقة الأمر من القوى المقسمة » ، وانها لذلك في الوقت الحاضر على وجه الخصوص ، وستكون كذلك يقينا في المستقبل^(١) . وما يستشهد به يسپرسن أن عدد اللغات الآن ، وإن كان أكثر منه في بعض العصور الماضية ، إلا أن عدد المتكلمين بلغة من اللغات المنبثقة عن لغة عامة — في عصرنا المزدحم بالسكان ازدحاما لم يعرف من قبل — هو في معظم الحالات أكثر أضخافا مضاعفة من مجموع الذين كانوا يتكلمون تلك اللغة العامة . ومن أمثله على هذا أن عدد من كانوا يتكلمون الجرمانية الغربية العامة ضئيل جداً بالقياس الى المائة والخمسين مليوناً الذين يتكلمون الآن الانجليزية ، والخمسة والسبعين مليوناً الذين يتكلمون الآن الألمانية ، والمئتين مليوناً الذين يتكلمون الآن الهولندية^(٢) . ثم يعود يسپرسن فيحترز بعض الاحتراز مقررًا أنه أيا ما كان الحال فالواقع أن الميل جد قوى نحو أن يكون عدد المتكلمين بلغة واحدة ونفس اللغة أكبر بكثير منه في أى زمن مضى^(٣) .

(٢) أما العوامل المعينة على ظهور لغة عامة وعلى نشرها فكثيرة معقدة متشابكة . وذلك لأن الحياة الاجتماعية تقوم على العمل المشترك لقوى كثيرة مختلفة . وهذه العوامل تختلف طبيعة وقوة ودرجة ، فقد تكون سياسية ، أو اقتصادية ، أو قومية ، أو أدبية ، أو غير ذلك .

ودراسة ظهور اللغات العامة التي تكونت في العصور التاريخية تبين أنه لم يحدث في حالة من الأحوال أن كان ظهور اللغة المشتركة أو العامة راجعاً الى عامل فرد ، وانها لتبين كذلك أنه من العسير في كثير من الأحوال معرفة أى العوامل كان أقوى أثراً في تكوين اللغة العامة أو في اداعتها .

ولذلك فسنعرض فيما يلي أهم العوامل ذات الأثر في تكوين اللغات العامة ونشرها ، دون أن يعنى هذا بالضرورة أن هذه العوامل لا بد من توفرها في كل حالة .

أ - يستند التوحيد اللغوي دائماً على الاتصال والاختلاط وعلى الاشتراك في الحياة . والاتصال الفعال في توحيد اللغة قد ينشأ عن حرب تسبب اختلاط سكان بشعرون الى أماكن مختلفة ذات لهجات مختلفة ، وقد ينشأ من عقد الأسواق الرسمية ، وعن المصاهرة بين أصحاب اللهجات المختلفة ، هذه المصاهرة التي يدعو الي قيامها ظواهر اجتماعية ونفسية . وللمدين دوره الهام في قيام اللغات العامة ، فالأعياد والاجتماعات الدينية الكبرى تؤلف بين الناس قاصيهم ودانيهم ، ومن ذلك أثر اجتماع عرب الجاهلية في مكة خاصة في ظهور اللغة العربية المشتركة ، وما كان لمعبدى دلفى^(١) وأوليمبيا^(٢) في اليونان — وكانا مزار جميع الهيلينيين — وللألعاب الأولمبية عند اليونان التي كان لها دلالة دينية . وللكنيسة دورها الهام في توحيد اللغة في كثير من البلدان ، وإن كانت أحياناً معرقلاً للتوحيد اللغوي عندما تحتفظ بلغة قديمة .

ب - أما الأدب لا سيما الشعري فمن أكبر القوى العاملة على تكوين اللغات العامة واستفاضتها . فالرواة والقصاص والمنشدون والمغنون كانوا ينتقلون بأديهم من قبيلة الى قبيلة ومن بلاط ملك أو أمير الى بلاط غيره ، ولقد كانوا مضطرين في كثير من الأحوال الى أن يستعملوا نوعاً من الكلام العام يفهم جوهره أصحاب اللهجات المختلفة الذين يعرضون عليهم أديهم ، وكثيراً ما كانوا يعتمدون الى أن يسقطوا من كلامهم ما قد يستعصى على الإدراك من عناصر لهجتهم المحلية ، وهكذا تتكون لغة أدبية عامة . ولقد وجدت في أيرلندا في العصور الوسطى لغة عامة من هذا النوع كان أعظم عامل في ظهورها راجعاً الى تأثير القصص^(٣) وهكذا كان الإنسان في لغة الأدب اليوناني القديم : نشأت كل فنون الأدب اليوناني — ما عدا المأساة — في المستعمرات اليونانية فيما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد ، ولقد كان بين هذه المستعمرات تبادل قوى . ولغة هذه الآثار الأدبية لا تنطبق لغة بلادة خاصة فهذه الآثار الأدبية لم تكن موجهة الى بلدة واحدة بل الى مجموعة من البلدان ، وإلى اليونان كلها في واقع الأمر . نعم إن كل فن من فنون

Delphi	(١)
Olympia	(٢)
Saga-Men	(٣)

Jespersen : Mankind	(١)
"	(٢)

الأدب اليوناني كانت لغته الخاصة مصطلبة بلغة ذلك الاقليم الذي ظهر فيه لأول مرة، ولكن مثقفي اليونان في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد كانوا يفهمون النصوص الأدبية اليونانية وان كانت مؤلفة بلهجات جد نائية .

وان أثر الأدب في تكوين اللغات العامة وانتشارها يصحبه ظروف اجتماعية خاصة سياسية واقتصادية وغيرها . أما القول بأن لغة عامة قد كونها أديب واحد فهو قول غير صحيح . ومن ذلك الاعتقاد الذي كان سائداً أن الايطالية قد كونها دانتى^١ ، والانجليزية كونها تشوسر^٢ ، والألمانية كونها لوتزر^٣ ، والدانيمركية كونها كريسترن يدرسن^٤ . فقد أظهر البحث أن كل لغة من هذه كانت مكونة قبل أن يخط هؤلاء حرفاً . ولكن أهمية هؤلاء الأعلام أنهم دفعوا ما كان متحركاً من قبل فقد اعتبروا نسيج أدبية ، وأخذ يقلد لغتهم أناس ما كانوا لولاهم ليتكلموا أو يكتبوا اللغة العامة .

حـ أما الحالة السياسية فذات أهمية قصوى فيما يتعلق بالعمل على التوحيد اللغوي أو على عرقته . فإذا قدر لولايات كل منها مستقل ولكل لهجته أن تتحد تحت حكم واحد كانت الفرصة مواتية لظهور لغة عامة : فالحكومة الواحدة مضطرة الى أن تخاطب سكان البلاد أجمعين على اختلاف لهجاتهم ؛ كما أن مقرر الحكم من شأنه أن يستهوى الطامحين من مختلف الولايات ، وهؤلاء سيجدون أنفسهم مضطرين الى التلجى عن كثير من خصائص لهجتهم المحلية . وقد لوحظ أنه حيث تكون الحكومة مركزية الى حد كبير تنتشر اللغة العامة ، وذلك شأن الامبراطورية الرومانية القديمة بلغتها اللاتينية الرسمية .

أما ألمانيا التي ظلت قروناً ولايات مستقلة سياسياً وبدون عاصمة فهي مثل على عرقلة الحالة السياسية لظهور لغة عامة . فقد حدث حتى بعد ظهور اللغة الألمانية العامة — التي كان يعمل على ظهورها من قبل اتحاد ألمانيا ، قوى أخرى موحدة — أن اللغة العامية التي يتكلمها متعلمو الألمان حتى في أيامنا هذه أكثر تلونا باللهجات

Dante	(١)
Chaucer	(٢)
Luther	(٣)
Christiern Pedersen	(٤)

المحلية إذا قيسمت بعاميات المتعلمين في معظم البلاد الأوروبية الأخرى . ومن العوامل ذات الأثر في ظهور اللغة الألمانية « لغة المحاكم »^١ السكسونية التي كانت تقلدها محاكم أخرى بما فيها محاكم النمسا^٢ التي أصبحت شبه لغة كتابية عامة رسمية .

ثم كانت ترجمة لوتزر للكتاب المقدس ، هذه الترجمة التي كانت كبيرة الأثر حتى في البلاد الكاثوليكية ، بأسلوبها الحي الجديد الطبيعي ، واختيارها للتعبيرات التي لم تكن ملكاً خالصاً لأقليم ألماني بعينه . ولم يقتصر الأمر على لغة الكتابة فقد كانت ثمة عوامل تعين على نشر لغة الكلام العامة . ومن ذلك أن لغة الكلام الألمانية العامة قد أدخلتها في المناطق الشرقية من ألمانيا طبقة عليا من طبقات المجتمع ، وكانت السلاوية^٣ لغة الكلام في هذه الأقاليم من قبل . وكانت هذه الطبقة العليا تتكلم الألمانية بصورة بالغة الدقة ، إذ كانوا يحسون أن عليهم أن يتكلموا « كلاماً صحيحاً » وألا يرسلوا أنفسهم على مسجيتها شأنهم في بلد صغير في سكسونيا ، أو نورينجيا أو بافاريا .

دـ ومن أهم العوامل المساعدة على تكوين لغة عامة وانتشارها في المجتمعات الحديثة ، الخدمة العسكرية ، والمدارس والمعاهد والجامعات فهي تتيح الاتصال بين أشخاص من أقاليم مختلفة ذوى لهجات مختلفة ، وهكذا ينفع المجال لظهور كلام مشترك .

هـ أما السينما والاذاعة والصحافة فهي من أكبر وسائل نشر اللغة العامة في العصر الحديث ، فكلما المنطوق والكتوب يوجه الى أصحاب اللهجات المختلفة ، فينه من حدة الاختلافات المحلية في اللغة .

وـ وظهور المدن الكبيرة قديماً وحديثاً — وقيامها راجع الى ظروف اجتماعية خاصة — خطير الأثر في توحيد اللغة .

Chancery-Language	(١)
Austria	(٢)
Slavonic	(٣)
Saxony	(٤)
Thuringia	(٥)
Bavaria	(٦)

فالدور الذي قامت به أثينا وروما قديماً في تكوين اليونانية واللاتينية وإذا دعاهما دور عظيم ولو لم تكن الاعتبارات السياسية وغير السياسية التي شاركت في ظهور هاتين اللغتين فقد كانتا ستقومان بهذا الدور . ذلك لأن المدن تجذب جماعات من الناس من أقاليم متفاوتة متباعدة فضلاً عن اجتذابها أناساً من ضواحيها المتاخمة لها . وينتج عن اختلاط هؤلاء المهاجرين بعضهم ببعض ، وعن اختلاطهم بالسكان الأصليين أن تصقل لغة الجميع ، وأن ينتهي الأمر بأن يتكلم سكان المدينة الكبرى بطريقة لا تختلف من موقعها الجغرافي ، فالكلام العام المشترك لأثينا لم يكن أتيكياً ، خالصاً ، والكلام العام لروما لم يكن كلام سكان روما الأصليين ، والكلام العام للندن وباريس في العصر الحديث ما هو بلندي أو باريسى خالص . إن هذه اللغات العامة ظهرت في أثينا وروما ولندن وباريس ولكنها لم تظهر بفضل أثينيين ورومانيين ، ولندينين وباريسيين .

(ح) آثار الاحتكاك بين اللغات واللهجات :

(١) تحدث أحياناً اتصالات بين اللغات واللهجات نتيجة للاتصال بين الجماعات الناطقة بها دون أن ينشأ عن ذلك حلول لغة محل أخرى ، وهذه الاتصالات لها آثارها اللغوية في اللغات التي يحتك بعضها ببعض ، وقد تكون هذه الآثار أقوى ظهوراً في أحدها . ومن ذلك كثرة الكلمات العربية في اللغة الإسبانية نتيجة لفتح العرب إسبانيا وإقامتهم بها قروناً . ومنه ما في العربية الفصحى منذ الجاهلية من كلمات حبشية ورومية وفارسية وهندية وسواها لما كان من اتصالات مختلفة الوسائل بين العرب وبين أصحاب تلك اللغات . والدخيل الفارسي قد ازداد في العربية بعد الإسلام خاصة ثمرة لازدياد الاحتكاك بين العرب والفرس . والفارسية نفسها أخذت من العربية بعد الإسلام وكان من أظهر ما استعارته مصطلحات عربية علمية ودينية . وكثر الدخيل اليوناني في العربية لما نقل العرب إلى لغتهم فلسفة اليونان وعلومهم . وفي العاميات العربية الحديثة كلمات تركية دخلتها بعد أن آلت الخلافة

Attie

(١)

(٢) انظر فيما يتعلق بالعوامل المعينة على التوحد اللغوي :

Jespersen, Mankind... : pp. 46 - 86

وراجع ما كتبه أنطوان ميه بعنوان :

Différenciation Et Unification Dans Les Langues (Linguistique Historique Et Linguistique Générale, pp. 110 - 129)

الإسلامية إلى العثمانيين واستمرت فيهم قروناً . كما أن فيها كلمات أوروبية مختلفة الأصول ، وإن غلب أصلها هنا وآخر هناك ، نتيجة الاستعمار الأوروبي للعالم العربي الحديث . وليسوى ذلك من الأسباب ، فتكثر في العراق ومصر كلمات إنجليزية الأصل ، وفي سوريا ولبنان وتونس والجزائر كلمات فرنسية ، وفي ليبيا كلمات إيطالية ، وفي أنحاء من مراكش كلمات إسبانية . وقد أخذت العامية المصرية في السنوات الأخيرة - ولا تزال - تؤثر في سائر العاميات العربية على تفاوت في الدرجة لمكانة مصر حديثاً من العالم العربي : ووسائل نشر المصرية في سائر الأقطار العربية من أهدمها الأفلام السينمائية المصرية وأكثرها بالعامية ، والأفلام المصرية تكاد أن تكون الأفلام العربية الوحيدة التي تعرض في كثير من البلدان العربية خلف الفن السينمائي في هذه البلاد أو لعدم قيامه أصلاً ، ومن وسائل نشر العامية المصرية ما في الأذاعة والصحافة المصريتين من قصص وتمثيلات وأغان ومقالات بالعامية ، ومعروف أن لهاتين الوسيطتين أثراً فائقاً في سائر الأقطار العربية . وثمة وسائل أخرى لا تنشر العامية المصرية منها كثرة الواقفين على مصر من البلاد العربية لتلقى العلم في مدارسها ومعاهدها وجامعاتها ، وللزيارة والانتظار والإقامة ، ومنها البعثات التعليمية المصرية وأهمها في بلاد العرب السعودية ، والكويت ، واليمن ، والعراق ، والسودان ، وليبيا . ولقد نتج عن انتشار العامية المصرية في سائر الأقطار العربية أن صار أهل هذه البلاد ، لا سيما المثقفون منهم وسكان المدن الكبيرة ، أفضل فهماً للعامية المصرية من المصريين لعاميات البلاد العربية الأخرى .

وفي المجتمع الحديث الذي كثر فيه الاتصال بين الأمم وسهل ، نتيجة للاقتلاب الصناعي ، والمخترعات الحديثة وسرعة المواصلات وازديادها وليسوى ذلك من العوامل ، نجد كلمات مشتركة بين كثير من اللغات الأوروبية أصلها إيطالي أو ألماني أو إنجليزي مثلاً ، فانتشرت في هذه اللغات أسماء لوحدات كهربائية مأخوذة من أسماء مخترعيها مثل Ampère - Volt - Ohm بل نجد كثيراً من الكلمات الأوروبية تنتشر في لغات غير أوروبية كأسماء بعض المخترعات

والآلات مثل راديو - تليفون - تليفزيون - سينما - فيلم - بيانو الخ.

(٢) ان كثرة المفردات الدخيلة نتيجة لما يحدث بين اللغات واللهجات من احتكاك أمر معروف مقرر من قديم وربما كان أبرز وأكثر ما ينشأ عن هذا الاحتكاك، ولكن النظر الى الآثار الناتجة عن الاحتكاك بين اللغات واللهجات قد تغير في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، وفي ضوء علم اللغة الجغرافي ونظرية الموجات اللغوية بصفة خاصة . ومن أهم ما أخذ المحدثون من اللغويين في الحوض فيه فيما ينطلق بهذا الموضوع هو **امكان تأثير الاتصالات بين لغات الجماعة التي يتحدث بعضها ببعض في بنية اللغات .**

فمن العلماء من يرى أنه حيث تظهر في لغات متجاورة من الناحية الجغرافية سمات مشتركة لا يفسرها اشتراك هذه اللغات في أصل لغوي واحد فمرد ذلك الى تأثير بنية لغة منها في سائرهما ، ومن ذلك أن الصوتين الصائتين *eu, u* (الفرنسية) ودرجات مختلفة منهما تستعمل في مساحة تشمل الفرنسية، ولغات من المجموعة الجرمانية الغربية هي الألمانية ، والفلمنكية والهولندية . ومن الأمثلة التي يستشهد بها على تأثير النظام النحوي للغة في النظام النحوي لأخرى أو أكثر نتيجة للاتصال بينهما أنه في شبه جزيرة البلقان تظهر في اليونانية والبلاغارية ولغة رومانيا والألبانية سمات مشتركة تميز كلا من هذه اللغات من سائر لغات عائلتها، ومن ذلك استعمال الفعل الذي يعنى «يريد» لتكوين فعل دال على المستقبل (فنى اليونانية مثلا تستعمل عبارة *thélô hina* و *thélô* معناه «أنا أريد» ، وذلك كما في الفرنسية العامة أو المحلية *il ne veut pas pleuvoir* بمعنى

il ne va pas pleuvoir () ومن أمثلة الخصائص المشتركة بين اللغات المتجاورة غير المنتهية الى أصل لغوي واحد ، ما يلاحظ في معظم لغات الشرق الأقصى من التوسع في استعمال النغمات استعمالاً وظيفياً للتفريق بين المعاني ، ومن أن التمييز بين الاسم والفعل في هذه اللغات تمييز جد ضئيل . وهكذا أخذ اللغويون يتحدثون عن وجود «أخلاف» أو «اتحادات» بين اللغات فبدت أهمية

(١) راجع فيما يتعلق بالدخيل وأقسامه وكيفية دراسته الفصول الآتية التي كتبها ليونارد بلومفيلد في كتابه

- Language
1) Cultural Borrowing (pp. 444 - 460)
2) Intimate Borrowing (pp. 461 - 475)
3) Dialect Borrowing (pp. 476 - 495)

التصور الخاص بالشمابة (= التقارب = التصاهر) *affinité* بين اللغات الى جانب التصور الخاص بالأبوة بين اللغات .

ولكن بعض اللغويين يميلون الى القول بأن الآثار الناتجة عن الاحتكاك بين اللغات غير المشتركة في الأصل آثار محدودة لا سيما فيما يتعلق بالبنية اللغوية . فهم يلاحظون أنه أيا ما كان أخذ لغة من أخرى غير مشتركة معها في الأصل فإنا كلنا هاتين اللغتين يظل واضح العلاقة بأصلها ، فمن اليسير أن نميز لغة سلافية من أخرى جرمانية . ويضيفون الى هذا أن نسبة الصفات المشتركة بين اللغات غير المنتهية الى أصل واحد الى ما حدث بينها من اتصالات ، أى الى تأثير بنية لغة في بنية غيرها ، قد يكون أخذاً بالظاهر ، وربما كان التفسير الحقيقي أن هذه الصفات ظهرت في اللغة التي يفترض تأثرها بسواها نتيجة للتطور الخاص بها - هذا التطور الذي ينتج عن العمل المشترك لعوامل كثيرة تكون وحدانية - دون أن يكون لاتصالها بغيرها أثر في ذلك ، أى أن هذه الصفات كانت ستظهر لو لم يكن هذا الاتصال .

Jean Perrot : La Linguistique pp. 124 - 125 .

Le Problème De La Parenté Des Langues

Les Parentés De Langues

في كتاب أنطوان ميه :
Linguistique Historique Et Linguistique Générale, pp. 76 - 101; pp. 102 - 109.

وراجع ما كتبه ميه في الجزء الثاني من نفس الكتاب

- 1) Le Vocabulaire Dans La Question des Parentés de Langue, pp. 44-46.
2) Sur Le Degré De Précision Qu'Admet La Définition De La Parenté Linguistique, pp. 47 - 52.
Jean Perrot : op. cit.

ب - المصادر الفرنسية

- 1) Dauzat, Albert :
La Géographie Linguistique.
Paris, 1922.
- 2) De Saussure, Ferdinand :
Cours de Linguistique Générale.
Paris — Lausanne 1916 ;
Quatrième édition, Payot, Paris, 1949.
- 3) Descœudres, A. :
Le Développement de l'enfant, de deux à sept ans ; Delachaux &
Niestlé, Neuchatel & Paris, 1946.
- 4) Grégoire, A. :
L'Apprentissage du Langage, les deux premières années ;
Alcan, Paris, 1937.
- 5) Grégoire, A. :
L'Apprentissage du Langage, la 3^{ème} année et les années suivantes ;
Alcan, Paris, 1947.
- 6) Guillaume, P. :
L'Imitation chez l'Enfant ;
Presses Universitaires de France, Paris, 1950.
- 7) Meillet, Antoine :
Linguistique Historique Et Linguistique Générale.
(Collection Linguistique Publiée Par La Société De Linguistique De
Paris — VIII) Tome I, 1921, nouv. tirage,
Paris, Edouard Champion, 1948.
- 8) Meillet, Antoine :
Linguistique Historique Et Linguistique Générale. Tome II ;
1938, Nouvean Tirage, Paris, Librairie C. Klincksieck 1952.
(Collection Linguistique Publiée Par La Société De Linguistique De
Paris).
- 9) Perrot, Jean :
La Linguistique.
Ire édition, Presses Universitaires De France, Paris 1953 (Que
Sais-Je? 570).

- 20) Malinowski, Bronislaw :
Supplement to : The Meaning of Meaning, by C.K. Ogden and
I.A. Richards.
- 21) McCarthy, D. :
The Language Development of the Pre-School Child.
University of Minnesota Press, U.S.A., 1929.
- 22) Sapir, Edward :
Language, an Introduction to the Study of Speech.
New York, Harcourt, Brace and Company, 1921.
- 23) Schlauch, Margaret :
The Gift of Tongues
London, George Allen and Unwin Ltd., Third Impression 1949.
- 24) Seth & Guthrie :
Speech in Childhood.
Oxford University Press, 1935.
- 25) Shaw, Bernard :
Pygmalion.
Penguin ed., 1949
- 26) Shirley, Mary :
The first two years, a study of twenty five babies.
The University of Minnesota Press, U.S.A., 1933.
- 27) Sommerfelt, Alf :
Recent Trends in General Linguistics ; "Diogenes", Number 1,
English Edition p.p. 64-70 (A quarterly publication of the Interna-
tional Council for Philosophy and Humanistic Studies, Unesco.)
- 28) Stein, L. :
The Infancy of Speech and the Speech of Infancy ; Methuen & Co.,
London, 1949.
- 29) Stern, W. :
Psychology of early child hood up to the sixth year of age ; G. Allen
& Unwin Ltd., London, 1924.
- 30) Sturtevant, E.H. :
Introduction to Linguistic Science.
- 31) Sweet, Henry :
A New English Grammar
Oxford, 1892-98.

- 10) Piaget, J. :
Le Langage et la Pensée chez l'Enfant ; Delachaux & Niestlé,
Neuchatel & Paris 1923.
- 11) Warburg, Walter V. :
Problèmes Et Méthodes De La Linguistique.
Traduit de l'allemand par Pierre Maillard.
1re édition, Presses Universitaires De France, Paris, 1946.

٥ - المصادر العربية

(١) ابن منظور الأفریقی (جمال الدين بن مكرم)
لسان العرب
المطبعة الأميرية - بولاق - مصر

(٢) أحمد شوقي :

الشوقيات

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

الجزء الأول ١٩٥٣ - الجزء الرابع طبعة ثانية مكمل ١٩٥١ .

(٣) أمية بن أبي الصلت الثقفي :

ديوان أمية بن أبي الصلت .

جمع بشير يموت ، بيروت ، المطبعة الوطنية سنة ١٩٣٤

(٤) تمام حسان :

مناهج البحث في اللغة

ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية - مطبعة الرسالة - القاهرة ١٩٥٥

(٥) صالح الشماخ :-

اللغة عند الطفل من الميلاد الى السادسة

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف ، مصر سنة ١٩٥٥ وهو ضمن سلسلة « منشورات

جامعة علم النفس التكاملي » - وهو الرسالة التي نال بها صاحبها درجة

الماجستير ، قسم الفلسفة كلية الآداب ، جامعة القاهرة

(٦) عبد الرحمن أيوب (دكتور) :

اللغة بين الفرد والمجتمع

وهو تعريب بتصريف لكتاب أوتو يسيرس Mankind, Nation...etc.

ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية - مطبعة لجنة البيان العربي -

القاهرة ١٩٥٤

(٧) علي عبد الواحد وافي (دكتور) :

علم اللغة

الطبعة الثانية - مزيده ومنقحة - القاهرة ١٩٤٤ الناشر مكتبة النهضة

المصرية - مطبعة الاعتماد بمصر

(٨) علي عبد الواحد وافي (دكتور) :

نشأة اللغة عند الانسان والطفل

الطبعة الأولى - الناشر دار الفكر العربي مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٧

(٩) عمر بن الفارض :

ديوان ابن الفارض

نشر وطبع البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٣

(١٠) فندريس ، ج :

اللغة

تعريب الأستاذين عبد الحميد الدواخلي وعبد القصاص لكتاب :

Vendryes, J : Le Langage, Introduction Linguistique à l'Histoire,

(1ère ed., Paris 1923).

نشر مكتبة الأنجلو المصرية ، طبع مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٥٥

(١١) محمود السمران (دكتور) :

الصناعة الشعرية في العصر الجاهلي من حيث الموسيقى وبنية القصيدة .

رسالة ماجستير قدمت الى كلية الآداب بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٤٧ مكتوبة

على الآلة الكاتبة ومحفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية .

معجم المصطلحات

(A)

Activity	نشاط
Human Activity	النشاط الانساني
Action	فعل (عمل)
Reflex Action	عمل (فعل) انعكاسي
Social Action	العمل (الفعل) الاجتماعي
Voluntary Action	عمل (فعل) ارادي
Alphabet	الأبجدية ؛ الألف باء
Analogy	القياس
Linguistic Analogy	القياس اللغوي
Anthropology	الأنثروبولوجيا
Social Anthropology	الأنثروبولوجيا الاجتماعية
Aphasia	أفازيا (الحبسة العقلية)
Autonomy of Linguistics	استقلال علم اللغة

(B)

Babbling (Cooing ; Crowing)	الباباة
Behaviour	سلوك
Human Behaviour	السلوك الانساني
Choric Behaviour	السلوك الجماعي
Linguistic Behaviour	السلوك اللغوي
Speech Behaviour	السلوك الكلامي
Biology	علم الأحياء (البيولوجيا)
Biological	بيولوجي
Brachycephalic (=round-headed)	مستدير الرأس

(C)

Clinical	كلينيكي
Communication	توصيل (اتصال)

Communion	تشارك
Comparative	مقارن
Comparative Method	المنهج المقارن
Comparative Study	الدراسة المقارنة
Concept	تصور
Conscious	واع
Consciousness	وعي
Consonant	صامت (صوت) ؛ الجمع صوامت أو صامتة
Labial Consonant	صامت شفوي
Cooing (Babbling)	الباباة (انظر)
Crawling	الحبو
Crowing (Babbling)	الباباة (انظر)

(D)

Deaf-Mutes	الصم البكم
Descriptive	وصفي
Descriptive Study	الدراسة الوصفية
Descriptive Method	المنهج الوصفي
Desire	رغبة
Development	نمو - تطور
Diacronic (Diachronistic)	حركي ؛ متحرك
Dialect	لهجة
Class-Dialect	لهجة طائفية ؛ لهجة طبقية
Dialect-Splitting	تقسيم لغة في لهجات
Dolichocephalic (=long-headed)	مستطيل الرأس
Dual	مثنى
Dynamic (see: Historical; Diacronic)	تطوري

(E)

Emotion	انفعال
---------	--------

Individualist	متفرد
Infrastructure	البنية السفلى
Institution	نظام (من النظم الاجتماعية)
Intellectual	عقلي (ذهنى)
Integration	تكامل
Integrative Method	المنهج التكاملى

(L)

Language	اللغة
Language Disorders	الاضطرابات الكلامية
Common Language	اللغة العامة ؛ اللغة المشتركة
Dead Language	لغة ميتة
Little Language	اللغة الصغيرة
Living Language	لغة حية
Secret Language	اللغة (اللهجة) السرية ؛ الكلام السرى ؛ « لغة (كلام) اخارجين على سلطة المجتمع »
Undeveloped Language	لغة متخلعة
Linguist	نالم لغوى
Linguistic	لغوى (صفة)
Linguistic Change	التغير اللغوى
Linguistic Development	التطور اللغوى
Linguistic Family	العائلة اللغوية
Linguistic Parenthood	الأبوة بين اللغات

General Linguistics	علم اللغة العام
Logic	منطق
Logical	منطقى
Logical Instrument	أداة منطقية
Logician	عالم من علماء المنطق (الجمع : مناطقة)

Emotional	انفعالى
Endocrine Organs	الغدد الصم (الغدد المفرزة للهرمونات)
Experience	تجربة
Expression	تعبير
Facial Expression	التعبير بلامح الوجه
Hand Expression	التعبير اليدوى
Ethnology	اثنولوجيا
Ethnological	اثنولوجى

(F)

Feeling	شعور
Function	وظيفة
Social Function	وظيفة اجتماعية
Functional	وظيفى

(G)

Genetics	علم الوراثة
Gesture	إشارة

(H)

Historical	تاريخى
Historical Method	المنهج التاريخى
Historical Study	الدراسة التاريخية
Homophones	الكلمات المتفقة صوتا المختلفة معنى (أى التى بينها «جناس تام»)

(I)

Idea	فكرة (الجمع : أفكار)
Imitation	التقليد
Imparting	نوصيل (نقل)
Impersonal	غير شخصى
Individual	فرد

(P)

Person	شخص
Personality	شخصية
Philosophical	فلسفى
Phonetics	علم الأصوات اللغوية
Phonetic, Phonetical	صوتى (صوتية)
Phonetician	دالم الأصوات اللغوية
International Phonetic Alphabet	الألفباء الصوتية الدولية
Preposition	الحرف (من أقسام الكلام)
Psychic	نفسى

(B)

Reduplication	التضعيف
Reflection	تأمل

(S)

Screaming	الصياح
Semantics	(علم) الدلالة
Semantic Shifts	التغيرات الدلالية
Sensation	إحساس
Sentiment	عاطفة
Society	مجتمع
Social	اجتماعى
Social Fact	الظاهرة الاجتماعية
Social Relations	العلاقات الاجتماعية
Sound	صوت
Speech	الكلام
Speech Community	الجماعة الكلامية
Speech Defects	(الجماعة ذات اللغة الواحدة) العيوب الكلامية

(M)

Mathematics	الرياضة
Mathematical	رياضى
Mathematical Relations	العلاقات الرياضية
Meaning	المعنى
Study of Meaning (see: Semantics)	دراسة المعنى
Mechanical	آلى
Mentality	عقلية
Metaphor	المجاز
Metaphorically	مجازاً ؛ مجازياً
Modifier	مغير
Monologue	مونولوج (الكلام الانفرادى)
Monosyllable	الكلمة أحادية المقطع (= الكلمة المكونة من مقطع واحد)
Mood	هيئة الفعل
Morpheme	عامل الصيغة (= دال النسبة)
Muscle	عضل
Muscular	عضلى
Mutilation	الاختصار أو «القطع»

(N)

Negation	النفى
Nervous System	الجهاز العصبى
Neurology	علم الأعصاب
Nursery stage	مرحلة الهد

(O)

Object	موضوع
--------	-------

Voice	(١) الجهر (٢) صوت الإنسان (الصوت الطبيعي)
Voiced	(صوت) مجهور
Voiceless	(صوت) مهموس
Vowel	صائت (صوت) الجمع «صائنه» أو «صوائت»
Single Vowel	صائت مفرد

Speech-Functions	الوظائف الكلامية
Types Speech-Functions	أنواع الوظائف الكلامية
Speech-Organs	أعضاء النطق
Speech-Sound	الصوت الكلامي
Underworld Speech (Secret Language)	لغة الخارجين على سلطة المجتمع اللغة (اللهجة) السرية أو الكلام السري
Static	ثابت ؛ حال الثبات
Structure	بنية
Linguistic Structure	البنية اللغوية
Social Structure	البنية الاجتماعية
Superstructure	البنية العليا
Stylistics	دراسة (علم) الأسلوب
Syllable	مقطع
Symbol	رمز
Synchronic (Synchronistic)	سكوني ؛ ساكن ؛ استقرار ؛ مستقر ؛ حال الاستقرار
Syntax	نظم

(T)

Taboo	الكلام الحرام
Talking	التكلم (الكلام) ؛ التحدث
Talking to one's self	تحدث الإنسان نفسه ؛ (المنولوج)
Tense	ضمن الفعل
Thought	الفكر
Tone	نغمة
Transmission	نقل

(V)

Verbal Action	الحديث (النص) الكلامي
Non-Verbal Actions	الأحداث غير الكلامية

صواب الخطأ

الواقع في مقال «اللفة والجمع»

صوابه	الخطأ	س	ص
ص ٤٥-٤٢ Comparative a	ص ٦-١ Comparative a a	٢ هامش الأخير	٧٩ ٨٠
في التخلص بدلاً من Schlauch	من التخلص بدلاً Schlauch	٤ من أسفل ٦ من أسفل الأخير	٨٢ ٩١ ٩٢ ١٠١
تمتد	يمتد	٩	١٠٩
مؤنثة	مؤنثة	٢	١١٤
أن الله	الله أنه	٩	١١٥
الأخبار	الأخبار	١٠	١١٧
Schlauch	Schlauch	١ هامش	١٢١
النبي	النبي	١٠	١٢٥
النبي	النبي	١٢	١٢٥
بمسم	بمسم	١٢	١٢٨
المستند	المستند	٤ من أسفل	١٣١
تسقطوا	تسقطوا	٧	١٣٤
الحى	الحى	٦ من أسفل	١٣٤
للتنبؤ	للتنبؤ	١٠	١٣٩
أنه إشارة	إشارة	٣ من أسفل	١٥٠
خطاب	خططاب	٨ ٣ من أسفل	١٥٢
وعنيا وقضيا	وعنيا	الأصل	١٥٢

صواب الخطأ « بنية »

ص	س	الخطأ	صوابه
١٥٤	١٥	فيها	فيهما
١٥٥	٣ هامش	أذا ناك	أذا ناك
١٥٦	٢	قالو	قالوا
١٥٦	٦	جزاء	جزاء
١٥٨	الأخير	الخدم	الخير
١٦٠	٢	وسما	ومما
١٦٢	١٢	لوجبا	لراجبا
١٦٢	٣ من أسفل	بالخروف	بالحرف
١٦٥	٣ من أسفل الأصل	اللغوين	اللغوين
١٦٥	٦ هامش	Languages	Languages
١٦٦	٣	الحاضر	الحاضر
١٧١	١	العشمايين	العشمايين
١٧٧	٧ من أسفل	Nouveau	Nouveau
١٧٧	٦ من أسفل	Publie	Publie
١٨٢	٧ من أسفل	Linguistic	Linguistic
١٨٦	٢	Types of	Types of
١٨٦	٨ من أسفل	(المنولوج)	(المنولوج)

سيرة السنوسي الكبير

نقد المصادر وضرورة إنشاء مجموعة

لحفظ تراث الاستاذ الامام السنوسي

— ١٧٨٧ - ١٨٥٩ م —

— ١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ —

للككتور محمد عبد الهادي شعير

المراد بنقد المصادر هو معرفة طبيعتها بحسب القواعد المنهجية ، وليس المراد بطبيعة الحال تقص المصادر وتجربتها ، وبدل النظر الاول لمصادر التاريخ السنوسي في عهد مؤسسه على أننا لا نزال نحتاج الى الاستكثار من المصادر التي أهملت والى جمعها نصايتها من الضياع . وما أجدرنا — وقد ثبت أن الحركة السنوسية حققت بعض أهدافها دون جدال — أن نكف على جمع تراثها العلمي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني : فنعمل على صيانتها من الضياع . وهذا واجب مفروض على جيلنا لسبيين : أولهما أن كل بيئة مثقفة لا تكون كذلك بحق ولا تستطيع أن تشعر بعزتها الثقافية الا اذا حفظت ماضيها ، والسبب الثاني هو احساسنا أن أجيالنا لا تزال تحس الى اليوم أنها بحاجة الى هدى المؤسس الاول للسنوسية ، ولا يزال هذا الاحساس قائما لدى أهل البلاد جميعا ولدى الفكرين من رجال الإصلاح في أرجاء العروبة كلها .

وحفظ المصادر عمل أساسي من أعمال المؤرخين ، يكاد يكون العمود الفقري للدراسة التاريخية ، ولا شك أن التاريخ اذا ضاعت مصادره يتحول الى قصص لا قيمة له أو الى أخبار مقاربة قد تكون راجحة ولكنها لا تكون دقيقة .

وكذلك تقضي قوانين المناهج العلمية باعتبار المصادر السند الذي يصح بصحته الخبر أو يعتل بعلته .

فالخدمة الكبرى التي يستطيع المؤرخون اسداءها هي أن يحفظوا آثار الماضي ووثائقه وسجلاته للأجيال التالية ، ومن الخطأ الاستهانة بأمر هذا الحفظ لأنه

صواب الخطأ «بقية»

ص	س	الخطأ	صوابه
١٥٤	١٥	فيها	فيهما
١٥٥	٣ هامش	آذ ناك	آذ ناك
١٥٦	٢	قالو	قالوا
١٥٦	٦	جزاء	جزاء
١٥٨	الأخير	الغند	الخبر
١٦٠	٢	وما	ومما
١٦٣	١٢	لرجا	لرجا
١٦٣	٣ من أسفل	بالحروف	بالحرف
١٦٥	٣ من أسفل الأصل	اللغوين	اللغوين
١٦٥	٦ هامش	Languages	Langages
١٦٦	٣	الحاضر	الحاضر
١٧١	١	العثمانيين	العثمانيين
١٧٧	٧ من أسفل	Nouveau	Nouveau
١٧٧	٦ من أسفل	Publité	Publiée
١٨٣	٧ من أسفل	Linguisti	Linguistic
١٨٦	٢	Types	Types of
١٨٦	٨ من أسفل	(المولوج)	(المولوج)

سيرة السنوسي الكبير

نقد المصادر وضرورة انشاء مجموعة

حفظ تراث الاستاذ الامام السنوسي

— ١٧٨٧ - ١٨٥٩ م —

— ١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ —

للدكتور محمد عبد الهادي شعيره

المراد بنقد المصادر هو معرفة طبيعتها بحسب القواعد المنهجية ، وليس المراد بطبيعة الحال تقض المصادر وتجربتها ، وبدل النظر الاول لمصادر التاريخ السنوسي في عهد مؤسسه على أننا لا نزال نحتاج الى الاستكثار من المصادر التي أهملت والى جمعها لصيانتها من الضياع . وما أجدرنا - وقد ثبت أن الحركة السنوسية حققت بعض أهدافها دون جدال - أن نكف على جمع تراثها العلمي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني : فنعمل على صيانتها من الضياع . وهذا واجب مفروض على جيلنا لسببين : أولهما أن كل بيئة مثقفة لا تكون كذلك بحق ولا تستطيع أن تشعر بعزتها الثقافية الا اذا حفظت ماضيها ، والسبب الثاني هو احساسنا أن أجيالنا لا تزال تخلص الى اليوم أنها بحاجة الى هدى المؤسس الاول للسنوسية ، ولا يزال هذا الاحساس قائما لدى أهل البلاد جميعا ولدى المفكرين من رجال الاصلاح في أرجاء العروبة كلها .

وحفظ المصادر عمل أساسي من أعمال المؤرخين ، يكاد يكون العمود الفقري للدراسة التاريخية ، ولا شك أن التاريخ اذا ضاعت مصادره يتحول الى قصص لا قيمة له أو الى أخبار مقاربة قد تكون راجحة ولكنها لا تكون دقيقة .

وكذلك تقضي قوانين المناهج العلمية باعتبار المصادر السند الذي يصح بصحته الخبر أو يعتل بعلمته .

فالخدمة الكبرى التي يستطيع المؤرخون اسداءها هي أن يحفظوا آثار الماضي ووثائقه وسجلاته للأجيال التالية ، ومن الخطأ الاستهانة بأمر هذا الحفظ لأنه

النور الحقيقي الذي يضيء للخلف أجيال السلف ، وكم من عصور ضاعت معالمها أو استظلت بضباب التقريب والشك بسبب تقصير الخلف في الحفظ ، وقد فطن المؤرخون منذ آمام طويلة الى قيمة الحفظ والجمع فأفردوا لهذا الجمع سجلات خاصة جامعة مرتبة ، واعتبروا الجمع الدقيق المستقصى المرتب ترتيبا منهجيا أول مرحلة من مراحل الدراسة المنهجية السليمة .

ولا تقتصر العناية بالمصادر على الاجيال الحديثة والمعاصرة من المؤرخين الغربيين أو الشرقيين فقد كان القدماء يعنون بها ، وخاصة أجدادنا مؤرخي المسلمين ، فقد عنوا عناية خاصة بالأمانيد حتى اعتبروها فرعا من فروع العلم في الحديث والفقه والتاريخ ، وقد قادهم احساسهم بأهمية الوثائق الاصلية خاصة من دون غيرها من المصادر الى أن ينقلوا اليها الشيء الكثير من سجلات الدواوين الحكومية أو من النقوش الأثرية ، فإذا ضاعت أصول سجلات الدواوين والآثار ازدادت أهمية ما نقل المؤرخون منها ، وقد نقل اليها قدماؤنا فعلا كثيرا من الرسائل الديوانية والخطب والاحاديث والنقوش نقلًا دقيقًا في الاغلب فأدوا لنا خدمة علمية لا تقدر بثمن .

ومثل هذا المنهج يجب أن يطبق على سيرة السنوسي الكبير مؤسس الحركة السنوسية تطبيقًا تامًا ، لا للأعتبارات السابقة فقط ، بل لأن الاهمال الشنيع بدأ يطنى على كثير من الاخبار ، ويوشك جيلنا أن يقصر في حق السلف الصالح ، ماعدا بعض استثناء يسير ، ويوشك أن يجهل بعض تاريخه بعد ضياع الشيء الكثير من الوثائق أثناء الحروب الايطالية وأثناء الاحتلال الايطالي وأثناء الحرب العالمية الثانية ، وظروف ليبيا فيها لا تزال معروفة ، وقد عبث الايطاليون ببعض المكاتب العامة والخاصة وعوجل كثير من الناس عن الالتفات الى أوراقهم ، واستولى الايطاليون على وثائق كثيرة لم ينشروا الا القليل منها . ومع ذلك فقد كمر الطليان عن بعض ذنوبهم حين فطنوا في ناحية من النواحي الى أهمية الجمع فسبقوا الى نشر الوثائق السنوسية التركية التي وجدوها في أرشيف طرابلس عندما استولوا على المدينة عام ١٩١١ م فنشروها تحت عنوان

Relatione fra Turchies e Senussi.
Documenti rinvenuti nell'Archivio di Tripoli (Ufficio Politico Militare)
(Apud Evans- Prichard : *The Senussi of Cyrenaica* p. 92)

وذلك في عام ١٩١٢ (انظر أيف . برتشارد ، السنوسيون في برقة) باللغة الانجليزية (ص ٩٢ ، ط . اكسفورد ، ١٩٤٨) ، وكان لأهل ليبيا كذلك حظ يسير من العناية بتاريخ بلادهم مثال ذلك كتاب كتبه المرحوم السيد أحمد الشريف السنوسي (١٢٩٠ - ١٣٥١ هـ = ١٨٧٣ - ١٩٣٢) وهو (السراج الوهاج في رحلة السيد المهدي من الجغبوب الى التاج) وهو كتاب لا يزال مخطوطا ، غير أن بعض المؤرخين (مثل الاستاذ الأشهب والدكتور فؤاد شكرى وشكيب ارسلان) قد استغلوا هذا المخطوط جميعا ، ولم يقل لنا واحد منهم أين يوجد هذا المخطوط ، والمؤرخ الثاني الذي نشر الوثائق هو الاستاذ الأشهب وقد تضمن كتابه « برقة العربية أمس واليوم » ط . القاهرة ١٩٤٥ بعض الوثائق الخاصة بنصها أو بملخصها ، وحوى كتابه « المهدي السنوسي ط . طرابلس ١٩٥٢ » عددا من الوثائق الخاصة بالاستاذ الامام السيد محمد بن علي السنوسي وجعلها على شكل ملحق في آخر كتابه ، وهي عبارة عن ثمانية وثائق (من ص ١٤٧ - ١٥٤) ، وقد حرص مشكورا على أن يعطينا صورا جزئية لهذه الوثائق القيمة ، وكذلك درس الدكتور فؤاد شكرى هذا العصر السنوسي ومنه عصر الاستاذ الامام الكبير واستغل أكثر هذه الوثائق ومصادر أخرى قيمة منها ما هو شفوي ، ولنلاحظ دون غمط لحقه ولقيمة الروايات المنقولة عن المعاصرين ولشخصية أصحاب هذه الروايات أن الوثائق أوثق المصادر وأجدرها بحفظ الماضي ، وقد علمنا أن الدكتور فؤاد شكرى بدأ ينشر وثائق خاصة بالأسرة السنوسية ، ولكننا لم نطلع بعد على الجزء الأول الذي ظهر منذ وقت قريب . وقد تعرض لتاريخ هذا العصر آخرون غير شكرى والأشهب (مثل الاستاذ مصطفى بعيو وشكيب ارسلان والاستاذ الشنيطي) لكنهم صرفوا عنايتهم خاصة الى تصوير العصر لا الى البحث عن المصادر .

على أي حال نستطيع أن نقرر أن المصادر كثيرة بأيدي الأسرات القديمة التي اتصلت بالأسرة السنوسية خاصة ،^١ وأنه لم يتهيا الى الآن جمع ما بأيديهم وما بأيدي غيرهم من الناس .

(١) مثال ذلك ما جاء في باب المصادر من كتاب الاستاذ الأشهب « المهدي السنوسي » مجلدا تحت عنوان « مخطوطات متنوعة للسيد أحمد الشريف وبعض كبار الاخوان السنوسيين (مخطوطا) » .

ويقتضى الجمع تضافر الجهود بطبيعة الحال ، ويحسن أن تبقى اللجنة العليا التي الفت لاهياء الذكرى المثوية قائمة بعد الاحتفال حتى تتم مهمة الجمع العلمي بعد أن فرغت من مراسيم الاحتفال ولتتم في نظر العلم أيضا مهمة احياء الذكرى المثوية ومن الممكن ان تقوم الجامعة بنصيب في ذلك أيضا ، والامكانيات كثيرة غير أن المهم هو الاتجاه الى هذه المهمة .

والمؤرخون يتحرون في مثل هذا الجمع التفريق بين المصادر المباشرة من ناحية وبين المصادر غير المباشرة التي هي من قبيل الدراسات الوصفية؛ والمصادر المباشرة وحدها هي المقصودة بهذه الدعوة أو بهذا المقال ، لأنها الأساس لكل دراسة تأتي بعد ذلك ولأن من حق السنوسية على « الوطن الشرقي »^١ أى على مصر بحسب تعبير السيد المهدي ابن الامام ، وعلى (الوطن الغربي) قياسا على التسمية الاولى، وعلى الاوطان الشرقية والغربية من اوطان العروبة والاسلام . من حقها أن يؤسس تاريخها على أصول منهجية سليمة .

ومع ذلك فقد تجمع بعض الكتب التاريخية بين ايراد المصادر المباشرة وبين الدراسة وهذا هو ما فعله الاستاذ الأشهب في كتابه « برقة العربية » و « المهدي السنوسي » ، وهذا هو ما فعله أيضا الاستاذ الدكتور فؤاد شكرى في كتابه « السنوسية دين ودولة » وفي كتابه الذي ينشره الآن بوثائق الأسرة .

والأفضل في المرحلة التي بلغتها دراسة العصر السنوسي الآن هو افراد مجموعة خاصة للمصادر المباشرة لتكون الدراسة فيما بعد أيسر وأسهل .

والجمع محتاج الى ترتيب ، والعادة المتبعة هي أن ترتب الاخبار المجموعة بحسب درجة الوثوق ، وبحسب الموضوع ، وبحسب التعاقب الزمني . ولا بأس من الشرح :

أما من حيث درجة الوثوق فمؤلفات الامام تأتي في الدرجة الاولى ، ثم يوازها

(١) انظر الاشهب « المهدي السنوسي » ص ٥٨ نقلا عن رسالة من رسائل المهدي .

وقد يليها في الدرجة الوثائق سواء كانت صادرة عن الامام أو عن الاخوان أو واردة أو كانت متداولة مع ممثلي السلطان العثماني أو مع الدول الاجنبية أو العربية ، ويأتي بعد ذلك أو مع ذلك النقوش سواء كانت تأسيسية أو تبريكية ، ثم يأتي في المرحلة الثانية بعد هذا كله ما كتبه المعاصرون أو من يكادون يشبهونهم من أهل البلاد أو من الاجانب باعتبارهم شهود عيان أو ناقلين مباشرة عن شهود العيان .

أما الترتيب من حيث الموضوع فإن المادة المجموعة تبوب بحسب المواضيع التي تثيرها .

أما الترتيب الزمني فترتيب عام يطبق على الوثائق وعلى مصادر شهود العيان وعلى الترتيب الموضوعي على حد سواء .

والجمع بعد ذلك عملية شاقة يتوقف نجاحها على الظروف بالنسبة للوثائق التي توجد لدى الافراد . أما وثائق الدول التي اتصلت بالسنوسية فالأغلب أن تكون محفوظة وأن تكون الدول قد نشرتها على عادة الدول في النشر ، فيكفي الرجوع الى المنشور أو الى أرشيف وزارات الخارجية باذن خاص . أما بالنسبة للأفراد فهم اذا وجدوا تشجيعا وتقديرا تطوعوا بما عندهم عن رضى وتبرعوا به . وهؤلاء الأفراد هم أسرات الاخوان وأفراد الأسرة السنوسية نفسها ، وكذلك يجب الاهتمام بالآثار المادية التي بقيت من هذا العصر مثل الزوايا وتصميمها وصورها كما يجب الاهتمام بما يكون قد بقي من الآثار الشخصية التي تركها الامام والاخوان ، وهكذا .

وأخر مرحلة في عملية الجمع هي نشر المصادر المجموعة بأواعها ، ونشر كتب الامام وكتب الاخوان وكتب أفراد الأسرة وكتب من عاصروا السنوسية في عصرها الاول . تحت اسم مجموعة الوثائق والمصادر الخاصة بتاريخ السنوسية .

ونحن نتساءل عادة في حياتنا اليومية عن نتيجة الشيء قبل أن تقدم عليه . فماذا تكون نتيجة الجمع ؟ هل يغير الجمع ما نعلمه عن السنوسية ؟ وأنا اعتقد أن الجمع سوف لا يقلب ما نعرفه رأسا على عقب ، وسوف لا يغير منه الا أيسر اليسير ، والواقع

أن بين أيدينا كتباً مؤلفة في تاريخ السنوسية جيدة الطبع كاملة الصورة كثيرة الاخبار ، وفيها ما يكفي للتعريف بالسنوسية ، وأهم هذه الكتب بالنسبة للعصر الأول ثلاثة ، كتاب الاشهب ، وكتاب فؤاد شكرى ، وكتاب بريشارد . اذن فما فائدة الجمع ؟

الجمع يفيد في تدعيم ما هو متعارف الآن عن طريق النقل والوثائق اليسيرة ، وهو يفيد في عدم تعريض المعروف الآن الى الشك والغموض بعد تراخى الاجيال على أساس أنه من أقوال شهود العيان ، وشهود العيان يتعرضون للجرح والتعديل ، فان أدى الجمع الى تدعيم المتعارف فقط فقد أدى المقصود منه كاملاً . والجمع في آخر الأمر دين يجب أدائه للسلف ارضاء للكرامة الثقافية في مجتمع حريص على أن يثبت عزته الثقافية وحرصه على اتباع هدى الآباء الصالحين .

ومع ذلك فان الجمع المرتب حري فيما نعتقد بأن يجدد الموضوع وأن يجنب المؤلفين في المستقبل كثيراً من المشقة ، لاننا نرى الكتب الموجودة ينقل بعضها عن بعض وتجد بعضها غير مطلع على كل الاخبار ، فتجد في بعض الكتب مالا تجد في البعض الآخر ، وتجد التضارب قائماً في كثير من المسائل حتى فيما لا يجب التضارب فيه مع قرب العهد ووجود الأحفاد على رأس الدولة وسعة مجال البحث . وخير دليل على فائدة الجمع يظهر حين تجد بعض المؤلفين يعتمد على الرواية من شاهد عيان مع وجود الوثائق الرسمية الدقيقة . وستزول أكثر هذه النقائص حين يتم الجمع .

ولم يفت أوان الجمع بعد ، فلا تزال الزوايا قائمة وخاصة الزوايا القائمة في دواخل البلاد ، ولا زال في استطاعتنا أن نستعين بشيوخ الزوايا وأن نزور الزوايا نفسها ، ولا يزال البيت السنوسى قائماً ، وكذلك أسر كبار الاخوان ، وليس على المؤرخ الذي يبتغي الجمع الا أن يتفرغ له ، وأن ينظمه ، وأن يرتحل بنفسه ، خصوصاً اذا كان على صلة شخصية بالاسرات والبيوتات القديمة التي عاصرت الأستاذ الامام الكبير ، وقد يحتاج المؤرخ كذلك ، بل هو محتاج حتماً ، الى الارتحال حيث يوجد أرشيف وزارات الخارجية التي اتصلت بلادها بليبيا . وهذا الارشيف لا يفتح عادة للباحثين بالنسبة للتاريخ القريب ، أما عصر الأستاذ الامام الكبير فعصر يستطيع الباحث أن يطلع على أرشيفه في وزارات الخارجية لبعده

فان وثائق القرن الماضي الرسمية قد نشرتها وزارات الخارجية الا النادر .

والجمع يتطلب نفقات كبيرة ، فهل يساوى ما نجعله كل ما يمكن أن ننقحه ؟ هل يساوى هذا شيئاً ونحن نعلم أنه لا شيء أكذب من التاريخ ، ولا شيء أصدق من التاريخ في آن واحد ؟ نعم ، نحن نعلم أن التاريخ لا ينصف المغلوبين مثلاً ، اللهم الا بذكر ما أظهروا من بطولة ، ونحن نعلم أن نظرة التاريخ تتغير بتغير العصور بالنسبة لحدث معين أو عصر معين وهكذا ، ومع ذلك فالبحث في ذاته غذاء عقلى يتمتع به الباحثون ويميش عليه كثير من القراء ، ويترتب عليه خلق عزة ثقافية واتجاه عقلى خاص مهذب ، وكل هذا على فرض أن البحث لن يصل الى شيء كثير . ومع ذلك فان انقاذ بضع عشرات من الوثائق قد يخلق ضوءاً خالداً على الزمان يستضيء به التاريخ السنوسى ، وخاصة عصر الأستاذ الامام المؤسس الجليل صاحب الغرس الأول . وانقاذ بضع عشرات من الوثائق يساوى في نظرنا نحن المؤرخين شيئاً كثيراً لا يقدر بمال .

ويتحتم علينا بحسب ما اقترحنا أن نضع تبويماً مبدئياً للأخبار والمصادر والوثائق على أن يكون من الممكن عند تمام الجمع ادخال التعديلات عليه ، وأتوقع أن يكون التعديل على التبويب المقترح المبين في هذا البحث شاملاً بقدر ما غندى من الأمل في الحصول على المزيد من الوثائق . والتبويب الذى تقترحه مبنى على ما طالعناه من المصادر :-

(١) مؤلفات الامام الاول ، ومؤلفات رجال الاسرة والاخوان ، والأدب المتصل بأصل السنوسية .

(٢) الوثائق الخاصة بالزوايا - التوجيه الدينى - والتنظيم العام .

(٣) الوثائق العامة الدبلوماسية .

(٤) نظام المجاهدين .

(٥) مكتبة الجنوب ومعهداها .

(٦) المراجع الهامة .

المؤلفات

كتب الإمام المطبوعة

(١) المسائل العشر المسمى بغية المقاصد و (في) خلاصة المراد
ويشار إليه باسم « البغية »

كتبه عن المؤلف مولاه عبد الملك بن احمد بن الشفيح العباسي و انتهى منه
يوم الجمعة المبارك ١٩ جمادى الاولى ١٢٦٤ •

وطبع باذن الحفيد (الملك الحالي) عام ١٣٥٣ هـ مطبعة المعاهد بجوار قسم
الجمالية بالقاهرة ادارة محمد عبد اللطيف حجازي - في ١٩٣ صفحة
وصححه باذن الحفيد ، عبد النبي سعيد الحسيني •

ونظن هذا الكتاب غير كتاب: بغية السؤل في الاجتهاد والعمل باحاديث الرسول

(٢) السلسيل المعين في الطرائق الاربعين •

من نسخ عبده محمد يحيى بن المرحوم السيد محمد على بن احمد بن عيسى
الوفائي ، وكان تمام نسخه في ٢٠ جمادى الاولى ١٣٤٥ هـ
وطبع بهامش الكتاب السابق في نفس المطبعة وفي نفس التاريخ - بهامش
١٩٣ صفحة . وتوجد نسخة مخطوطة من الكتاب لدى المستشرق ما سينيون

(٣) ايقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن

ويشار اليه أحيانا باسم « الايقاظ » فقط •

طبع باذن الحفيد في نفس المطبعة في ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م - في ١٥٣ صفحة،
وقد طبع أيضا بالمطبعة الثعالبية بالجزائر عام ١٣٣٢ ، وتوجد هذه الطبعة
بدار الكتب المصرية : الخزائن التيمورية رقم ٢١١ أصول •

(٤) شفاء الصدر بأرى المسائل العشر

طبع باذن الحفيد بالمطبعة المحمودية التجارية بالقاهرة ١٣٦٠ هـ ١٩٤١ م في
٧٥ صفحة •

(والأرى هو العسل)

(٥) الدرر السنوية في أخبار السلالة الادريسية •

طبع على نفقة الحفيد ١٣٤٩ هـ بمطبعة الشباب بمصر •
عن نسخة كتبها محمد بن أحمد بن أبي القاسم التواتي ، وكان تمام نسخة يوم
الجمعة رابع ذى الحجة ١٢٩٣ هـ
وقام على تصحيحه محمد حبيب الله بن الشيخ سيدى عبد الله بن مايأبى الحكنى
نسبا الشنقيطى اقليما المدنى مهاجرا •

ملاحظة :-

قد رأيت هذه الكتب بنفسى بفضل كرم صديق فاضل من علماء ليبيا •

(٦) المسلسلات العشر (٥)

ويرد عنوانه أيضا ، المسلسلات العشرة في الاحاديث النبوية •
وهو مطبوع أيضا كالخمسة السابقة لكنى لم أجده ولا أعرف سنة طبعه ، ولم
يرد فى الابحاث الخاصة التى اطلعت عليها ذكر لسنة طبعه •

اسم عام يطلق بصيغة المثني هذه على كتاب مطول ، وعلى مختصره بحسب ما ورد في صدر كتاب « السلسيل ص ٣ ، وقد أشرنا آنفا الى السلسيل . . (أ) الكتاب المطول هو : -

الشموس الشارقة ويشار اليه أيضا باسم ، الشموس الشارقة في أسماء مشايخ المغاربة والمشاركة ، ويشار اليه أيضا ، باسم الشموس الشارقة فيما لنا من اسانيد المغاربة والمشاركة .

(ب) الكتاب المختصر هو : -

البدور السافرة ، بحسب ما ورد في صدر كتاب « السلسيل ص ٢ » ولم يذكر هذا الكتاب أحد من المؤلفين المحدثين وقد أورد صاحب هدية العارفين ذكرا لهذا الكتاب . وسيرد ذكر كتاب هدية العارفين وما سجل من كتب الامام .

(ج) ويتصل بهذين الكتابين كتاب آخر في نفس الموضوع ورد ذكره في كلام المؤلف في صدر السلسيل ، طرائف منتخبة من الشموس الشارقة ومختصرها . . . لتكون قريبة المنال غير مطاطلة النوال . . .

(٣) المنهل الرائق في اسانيد العلوم وأصول الطرائق .

وقد قال الأشهب (السنوسي الكبير ، ص ٨١) انه مطبوع ولكني لم أراه وأرجح انه لم يطبع .

(٤) عجالة في أول من ألف في فن الحديث تصلح لان تكون مقدمة للموطا .

وقد قيل انه طبع (الأشهب ، السنوسي الكبير ، ص ٨١)

(٥) مفاتيح الايد من مرويات ابي زيد .

وقد ورد ذكر هذا الكتاب في مراسلات رآها الأشهب (السنوسي الكبير ، ص ٨٢) .

(٦) رسالة جامعة من افعال السنن وأقوالهم (نظم) .

وقد ذكر الأشهب (السنوسي الكبير ، ص ٨٢) انها توجد الآن بمكتبة جلالة الملك الادريس .

ملاحظة :

لم يصف أحد هذه المخطوطات ، ولا عرفنا بها أحد تعريفا علميا ، الا أن بعض

المؤلفين أشار إليها ، وخاصة قائمة وردت في آخر كتاب الايقاظ المطبوع بمصر ولا شك ان حفيد الامام وهو الملك الحالي هو الذي وضعها ، وقد أشارت هذه القائمة الى الكتب رقم ٤ ، ٣ ، ٢/١ - أ أما ٢/١ - ب فقد أخذناه عن نص كتاب السلسيل ، أما الكتاب رقم ٦ فقد قلنا اسمه من عند الاستاذ الأشهب من كتاب « برقة ص ١٨٠ » .

كتب غير مطبوعة محفوظة بمكتبة جلالة الادريس

١ - هداية الوسيطة في اتباع صاحب الوسيطة .

٢ - طواعن الاسنة في طاعنى أهل السنة .

٣ - رسالة في مسألتى القبض والتقليد ، وقد اقتبس الاشهب فقرات منها (السنوسي الكبير ، ص ٧٣) .

٤ - رسالة السلوك .

٥ - شذور الذهب في محض محقق النسب .

(انظر عن ذلك ص ٨٣ من « السنوسي الكبير » تأليف الاشهب)

وعلى هذا يكون مجموع المعروف من الكتب الى الآن مطبوعا وغير مطبوع ستة وسبعة وخمسة والكل ثمانية عشر كتابا ، وسنرى بعد ذلك مجموعة أخرى .

كتب أخرى مجهولة

ينسب الى الامام بحسب ما أورده الاستاذ الاشهب في كتاب « برقة . . . » أكثر من اربعين كتابا ، وهو قول نبيل كل الميل الى تصديقه ، لانه قول تدل الظروف على جواز صحته ، فالامام كما نعلم ليس صاحب طريقه فقط ، ولا داعيا فقط ، ولا مصلحا فقط ، بل هو الى جانب ذلك صاحب مذهب فقهي متكامل على أساس المالكية ، وهو أيضا منشىء نظام تعليمي كامل ، فهو الذى أسس معهد الجفوب وزوده بمكتبة عظيمة ، وزوده كذلك بمناهج دراسية قيمة ، نرجو أن يتاح لنا مقارنتها بالمناهج الازهرية في وقتها ، ومثل هذا القدر من المؤلفات ينسب الى أحد أجداد المؤلف ، ونشير هنا الى الشريف / محمد بن محمد يوسف السنوسي (المتوفى في ٨٩٥ هـ . ومشهده بتلمسان بالجزائر) .

وقد حدثني الأستاذ الأشهب أنه رأى بنفسه في صدر شبابه نحو مائة كتاب كلها للامام وكانت في مكتبة لبعض أهله ، وقد ضاعت هذه المكتبة •

وحدثني الاستاذ الاشهب أيضا أن من هذه الكتب كتباً في المساحة وغير ذلك من العلوم وقد اطلعنا على فهرس اسماعيل باشا البغدادي الذي طبعته وزارة المعارف التركية فوجدناه ينسب فعلاً للامام عدداً كبيراً من الكتب ، ووجدنا ما قاله الاستاذ الاشهب صحيحاً مع أن الاستاذ الاشهب لم يكن اطلع على الفهرس المذكور حين حدثني هذا الحديث • والحق مع ذلك أن قوله نحو مائة كتاب قد لا يعنى نفس الرقم بالضبط •

وسنورد هنا اسماء الكتب المنسوبة للامام الواردة في هذا الفهرس •

ويدل تصفح بعض الكتب المطبوعة على سعة اطلاع وأسلوب عربي قويم متين مبين ، وعلى فضول عقلي لا يتهاى مثله الا مثله من أئمة الدين ، وبالكتب اشارات وأخبار كثيرة تنفع في تاريخ الطرق وفي تاريخ الفقه وفي تتبع الحركات الدينية والسياسية الاسلامية وفي معرفة شخصية الامام نفسه من حيث هو امام

والكتب الآتية منقولة عن : اسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين ، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، طبع وكالة المعارف الزكية ، استانبول ١٩٥١ ، في مجلدين : ١ - الأجنة الدانية القطاف بمفاخر السادة الأشراف ، وهي منظومة أولها :

ان المودة في القربى هي الأمل
يجزى به ويفوق الاجر والعمل

(مطبوع رقم ٣٩٤٧ تاريخ بدار الكتب المصرية) •

ولم يذكر هذا الكتاب في كتاب هدية العارفين الذي نقل عنه هنا ، وباقي الكتب الآتية منقولة عن الهداية •

٢ - ازاحة الأكنة في العمل بالكتاب والسنة •

٣ - اشراق الشمس (هكذا) السنة اليقينية على تراكم غياهب اعتراضات الأربعينية •

٤ - الأصولية في العمل بالكتاب والسنة •

٥ - تحف المحاضرة في آداب التفهم والتفهيم والمناظرة •

٦ - تحف المنيفة (هكذا) المشتتة على زبدة ما الجهابذة (هكذا) بعض محقق مذهب الامام أبي حنيفة •

٧ - التحفة الشريفة في أوائل مشاهير الامهات الحديثة •

٨ - رسالة الفلاح في الفتح والنجاح •

٩ - رسائل في ختم كتب السنة ومسند الامام مالك والشافعي وشرح البسلة في اثني عشر علم (هكذا) وغير ذلك •

١٠ - ربحانة الجوب في عمل السطوح والجيوب •

١١ - سيف النصر والتوفيق وغاية السلوك والتحقيق •

١٢ - كتاب عصمة الرسل •

١٣ - فحم الاكباد في مواد الاجتهاد •

١٤ - قرة عين أهل الصفا في صلوات المصطفى •

١٥ - لوايح الخذلان على من لا يعمل بالقرآن •

١٦ - مجموع مسانيد الامام أبي حنيفة •

١٧ - مختصر المواهب البارية •

١٨ - مفتاح الجفر الكبير •

١٩ - منظومة السلوك الى ملك الملوك •

ولعل هذه المنظومة هي التي أشار اليها الاستاذ الاشهب تحت اسم « رسالة السلوك » دون وصف آخر ، وذكر انها مخطوطة بمكتبة جلالة الادريس •

٢٠ - المواهب السرية في منتقى الاوضاع الحرفية •

٢١ - مواهب القيوم في تذييل روضة الفهوم •

٢٢ - نزهة الجنان في أوصاف مفسر القرآن •

- ٢٣ — الكواكب الدرية في أوائل الكتب الأثرية .
 ٢٤ — بغية السؤل في الاجتهاد والعمل باحاديث الرسول .
 ٢٥ — مختصر بغية الطلاب في علم الأنساب .
 ٢٦ — مختصر مسند الامام أحمد :

فاذا أضيفت هذه الستة والعشرون كتابا الى الثمانية عشر كتابا الاخرى كان مجموع كتب الامام أربعة وأربعين بالكمال والتمام .
 وأتمنى أن يحذو الباحثون حذوى في تحقيق كتب الامام ، لعلنا نصل الى غير هذه الكتب .

ونأسف مع ذلك لاننا لا نعرف أسماء الكتب الباقية ، وندهش كيف يضيع لامام مثله هذا العدد الكبير من الكتب ولا يبقى من كتبه الا البضعة عشر كتابا التى ذكرناها، ويعزى بعض هذا الضياع الى المحن التى أصابت ليبيا فى أوائل القرن الميلادى الحاضر ، ويكفى أن تعرف أنه لولا عناية الخفيد أثناء اقامته بمصر لظلت الكتب الستة المطبوعة مجهولة أيضا .

ويحسن أن تجمع هذه المخطوطات من مظانها وأن توصف وصفا دقيقا ، وأن تطبع طبعا متينا يقوم عليه جماعة من علماء البلاد وهم بحمد الله كثيرون ، وأرجو أن يتهىأ لبعض العلماء انتخاب مختارات مقتبسة من كتب الامام ، للتعريف بشخصيته : وأسلوبه ، واتجاهه الفكرى ، ونزغته التجديدية ، وتعمقه فى العلوم الشرعية ونحوها ، ليكون هذا المنتخب موردا سهلا يوضع بين أيدي الطلاب فى المدارس الليبية خاصة والمدارس الغربية بوجه عام .

اضطراب المؤلفين الحديثين فى ذكر الكتب التى نسبوها للامام (ر)

نسب الاستاذ الأشهب للامام خمسة كتب مطبوعة وأربعة غير مطبوعة، وجاء فى الموجز الذى طبعته اللجنة العليا لأحياء الذكرى المئوية أن المطبوع ثمانية أما غير المطبوع فقد أشير اليه فقط دون عدد . وذكر الشنيطى فى كتابه : أن للامام كتابين غير مطبوعين على حين ذكر الاستاذ الأشهب أن غير المطبوع نحو الثلاثين ، وقد ذكر الدكتور شكرى ستة كتب مطبوعة وثلاثة غير مطبوعة ، كل ذلك دون اشارة

صريحة لمؤلفات أخرى ، ثم ذكر الدكتور شكرى فى مكان آخر (ص ١٥) كتابا باسم الفهرسة وقد علمنا آنفا أن اسم الفهرسة يطلق على كتابين وأنه يجب ان يذكر بصيغة المثنى، وهكذا لم يتفق المؤلفون على عدد المطبوع ولا على عدد غير المطبوع وقد عرفنا مما سبق هنا عدد المطبوع بالضبط (وهو عبارة عن ستة كتب) وعدد المشهور من غير المطبوع مما ذكر أو أشير اليه (وهو عبارة عن سبعة كتب أخرى)، ولم نستبعد أن يكون للمؤلف كتب أخرى كثيرة كما قال الاستاذ الأشهب فى كتابه « برقة . . . » ، وقد تحقق حدس الاستاذ الأشهب بما تحقق لنا من معرفة بعض الكتب المجهولة قلا عن هدية العارفين .

ولا يقف الامر عند هذا الحد ، بل يختلفون فى بعض الالفاظ فى عنوان كتابي « المنهل . . . والمسائل العشر . . . » فيضيف بعضهم صفة أخرى بين لفظي المنهل وبين الرائق . فيروون المنهل الروى الرائق ويروون المنهل المعين الرائق ويروون أيضا المنهج الرائق (قارن موجز اللجنة ص ١٥ والأشهب ، برقة ص ١٨٠ والشنيطى ص ٣٨/٩ ، وشكرى ص ٤١) .

ويقع نحو ذلك الخلط فى عنوان « كتاب المسائل العشر المسمى بغية المقاصد و خلاصة المراصد فيروى العنوان مرة . . . خلاصة المحاصيل ومرة . . . اخلاص المراصد، ولا شك أن هذا الخلط يسير لا أهمية له اطلاقا ، وانما تأتي أهميته بتراخي الزمن واهمال طبع الكتب ثم ضياع آثارها وعندئذ يتطرق الشك الى وجود الكتب ذاتها أو الى مقدار ذبوعها على الأقل .

فائدة طبع المؤلفات

وفائدة الطبع هو احياء التراث وحض الناس على تداوله وفهمه والتفريع عليه أو ليس من الغريب ألا نجد عرضا شافيا لآراء الاستاذ الامام الدينية مع أن كلام المؤرخين عن دوره السياسى والاجتماعى وكذلك عن التنظيم الادارى كلام طويل مسهب ، وقد ذكرت أنه يستحسن أن تقتبس من هذه المؤلفات منتخبات توضع بين أيدي الطلاب ، فهي من المنتخبات التى يستطيع الاعتزاز بها كل عربى فى الوطن الليبي وفى الاوطان الشرقية والغربية بحسب التعبير الموفق الوارد فى كلام الامام المهدي | ص ٥٨ كتاب المهدي السنوسى للاستاذ الأشهب) .

مؤلفات الاخوان

المعروف أن الامام السنوسى أنشأ معاهد للعلم وفتح باب الاجتهاد فى الدين

وشجع روح البحث فيه ، وكانت هذه النشطة محور الابتكار والأصالة في تأليف وفي شخصيته ، وحولها اتقسم الناس الى فريقين ، فريق الشيخ الامام محمد عبده الذى يؤيد الاجتهاد ويرى السنوسى الكبير أهلا له قادرا عليه كل القدرة، ومن هذا الفريق أيضا جمال الدين الأفغانى ، ثم فريق الشيخ محمد عليش الذى انكر على السنوسى وعلى جمال الدين أيضا طريقتهما .

ومن الطبيعى أن تؤتى الشجرة المباركة ثمارها ، وأن يظهر من الاخوان من يسير على سنة الاستاذ الكبير في حياته وبعد مماته ، ولا تتصور قط مع وجود مكتبة الجعوب ومستوى التعليم العالى بمعهد الجعوب ومع قيام السيد بنفسه بتعليم المتقدمين من الاخوان الا يكلفهم أستاذهم ببحث كثير من المسائل لتكون على الاقل موضع حديث في مجتمعاتهم وسمرهم ومناقشتهم .

وقد تضيع هذه الابحاث أو لعل أكثرها قد ضاع .

ونحصى هنا ما وصل اليه المؤرخون من هذه المؤلفات، وتتوقع عند الجمع أن تظهر مؤلفات أخرى تضاف الى هذه فتزيدنا معرفة بالماضى ، وكل هذه المؤلفات من حقها أن تنشر هي أيضا على نحو ما تنشر كتب الامام . فهم غرس يديه ، وهم صدى شخصيته ، وهم صيغة الاستجابة لهدية .

(أ) رسالة كتبها السيد عمر الأشهب أسماها « رسالة البسمة والقبض » وهي موجودة لدى الاستاذ الأشهب ، وسبب تأليفها حسب قول الاستاذ الأشهب أن المؤلف احتاج الى أن يرد على شيخ بينغازى أنكر على السيد السنوسى وهو مالكي المذهب قراءة البسمة في الصلاة ، واسم الشيخ المعترض هو الشيخ بدر الدين وابنه الشيخ مصطفى موظف (اليوم) بالجمارك السعودية الحجازية (انظر الأشهب . . . برقة . . . ص ١٤٦)

(ب) دون الشيخ محمد بلو (هكذا) الدرداوى خبر زيارته للسيد بقصر العزبات، وقد وقعت هذه الزيارة في ٢٠ ربيع الاول ١٢٧١ - ١١ ديسمبر ١٨٥٤ ، وقد عثر أحد الأخوان على ورقة وجدت بزواوية درنة ضمن أوراق قديمة وجدت عند ورثة الشيخ محمد بلو الدرداوى . وفي هذه الورقة اشارة الى توقيع غزويطالى، ويمكن الاستدلال على صحة هذه الورقة باشارة الى نفس الموضوع في كتاب السيد احمد الشريف (انظر الدكتور شكرى

ص ٣٤) ، ولا يعرف بالطبع عنوان هذه الرسالة .

(ج) يقول الاستاذ الأشهب في كتاب « برقة . . . » (ص ١٣٨) انه وقف على بعض أوراق - مذكرات - رفاقه « ويقصد هنا السيد الكبير » .

وقد ذكر المؤلف نفسه في باب المصادر أن لديه مخطوطات متنوعة للسيد أحمد الشريف وبعض كبار الاخوان السنوسيين ، وقد ينصرف بعض مدلول هذه الاشارة الى الاخوان ايضا في ايام الامام الكبير .

(د) كان السيد عبد الرحيم المغبوب وهو من قبيلة زمورة المصرية من خير التلاميذ والاخوان وقد أسماه الامام بالمحبوب وكان عالما شاعرا اتدبه الامام لمهام كثيرة وسفارات كثيرة ، ولا يعقل قط ألا يكون ترك شيئا ، وهو على الاقل قد قدم تقارير عن سفارته أو ضمن رسائله هذه التقارير . فهل تقع له على شيء (انظر الاشهب . برقة . . . ص ١٤٨/١٤٩) .

(هـ) السيد على عبد الحق ، أديب السنوسية وأصله من قوص من صعيد مصر . وقد ذكر الاستاذ الاشهب أن السيد مصطفى عبد المتعال الاديسى اطعمه عام ١٩٢٩ على رسالة للسيد على عبد الحق في الفرائض ، وذكر الاستاذ الاشهب كذلك أن له شعرا يملأ ديوانا ضخما لو جمع ونشر (الاشهب ، برقة ص ١٥٠) لكان سجلا قيما لمدى النهضة الادبية في ذلك الوقت . (و) رسائل الشيخ على الليثى (الاشهب ، برقة . . . ص ١٥١) الى الامام من مصر .

(ز) رسائل عبد الله فكرى باشا من مصر الى السيد الامام ، وقد نشر بعضها في الآثار الفكرية (انظر الاشهب : برقة - ص ١٥١) .

(ح) شعر الاخوان ، وكان للشعر عندهم منزلة ، وجمع هذا الشعر يفيد في تاريخ الحركة الادبية كما يفيد في فهم بعض المواقف التاريخية ، ولا يكاد أحد من الاخوان يعجز عن قول الشعر ، وانما يختلفون في الاكثر والاقلال (انظر الاشهب . برقة . . . ص ١٦٨) على سبيل المثال عند برتشارد ص ١٧ وكذلك مصطفى بعيو ، دراسات في التاريخ الليبى ، الاسكندرية ١٩٥٣ ص ٦٤ ، وكذلك الشيخ محمد عثمان الحشائشى ص ٨٨ . وقد روى الاشهب قصيدة شعرية قيمة للشيخ على عبد الحق القوصى يخاطب فيها

الامام طالبا رضاه (انظر : السنوسى الكبير ، ص ١٤٩) .

(ط) نشر الاخوان ، ومن هذا النشر الخطب كخطبة السيد عمران بن بركة الفيتورى فى رثاء الامام الكبير (انظر الاشهب ، برقة . . . ص ١٧٣ / ١٧٥ ثم السنوسى الكبير ص ١٢٨ وما بعدها)

(ى) السيد فالح الظاهرى ، له رسالة ترجم فيها لأستاذه وشيخه ، وقد اقتبس بعضها الاستاذ الاشهب (السنوسى الكبير ، ص ١٥ / ١٤) .
(ق) مخطوط قديم فيه ذكر لسفر الامام من المغرب الى المشرق الاسلامى وقد اقتبس الاشهب عبارات منه (السنوسى الكبير ، ص ١١)

(ل) فالح بن محمد بن عبد الله بن فالح الظاهرى المهنوى ، اجتمع بالامام فى مكة فى ١٢٦٨ ثم لزمه من هذا الوقت ورحل معه عام ١٢٧١ الى ليبيا ، ثم اهتم فالح بتاريخ ليبيا وقام بتنقيح كتاب : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ، وكان الكتاب عاميا ركيز العبارة فصحة وزاد عليه ، والكتاب أصلا من تأليف احمد بك حسين النائب الأوسى الانصارى .

الرسائل المتبادلة بين الاخوان

وقد كان اتباع الامام يتراسلون فيما بينهم ويتذاكرون أحيانا أخبار الدعوة وقد يحسن جمع هذه الرسائل ، ومنها .

١ - رسالة من السيد فالح الظاهرى الى العلامة السيد احمد الريفى ، اقتبس الاشهب بعضها (انظر السنوسى الكبير ، ص ٦٢) .

(٢) الوثائق

الزوايا

(أ) مواقع الزوايا معروفة ، وقد أورد بريتشارد فى كتابه السنوسية فى برقة (بالانجليزية) (ص ٢٤ / ٢٥) قائمة باسماء الزوايا منقولة عن الكولونيل دى اوجستيني ، وقد ذكر ١١٠ زاوية ، منها زوايا فى الحجاز وتونس ومصر .
ولسنا نحتاج من كل ذلك الا الى معرفة الزوايا الأولى التى أنشئت فى عهد السيد الكبير . وقد ذكر الدكتور شكرى (السنوسية دين ودولة) أن عدد زوايا برقة التى أنشئت أيام المؤسس هى ١٨ زاوية فى برقة وحدها ، وأربعة فى غير برقة ، والمجموع ٢٢ زاوية (انظر شكرى ٣٥) ، ولكن سياق الكلام فى نفس الفقرة

يجعلنا لا نظمن الى هذا العدد . أما بريتشارد فيذكر أن عدد الزوايا القائمة فى برقة بحدودها الاصطلاحية هو ٤٥ زاوية اذا حسبنا التوفيلية والكفرة ، وأن الراجح أن ٢١ زاوية منها أسست فى عهد السنوسى الكبير أو قبل ١٨٦٠ م ، وأن المهدي أسس فى أيامه ٢٢ زاوية أخرى وأن السيد أحمد الشريف أسس زاويتين (راجع ص ٧٥) ولا يحصى بريتشارد فى هذا العدد الزوايا الطرابلسية أو التونسية أو المصرية أو الحجازية التى أسست أيام السنوسى الكبير ، ونحتاج أيضا الى أن ننظر مرة أخرى فى توزيع الزوايا من الناحية الجغرافية والقبلية ، كما نحتاج الى معرفة التصميم الذى اختير لبناء الزوايا الأولى والى معرفة النقوش أن وجدت نقوش فى هذه الابنية .

(ب) الزوايا ونظامها الادارى والمالى والتعليمى والحربى :-
فى هذا الباب توضع الوثائق الخاصة بالتأسيس والنظام والادارة الجارية .
ولدينا من هذا النوع من الوثائق ما يلى :-

١ - نص بخط السيد محمد المبحوث مؤيد بأقوال رؤساء الزوايا المروية عنهم .
٢ - نص بخط السيد محمد أبو فارس عند ابنه السيد سعد ، وكان الأب شيخ زاوية أم حنين وكلا النصين خاص بنظام الزوايا بحسب قول الاستاذ الاشهب (برقة . . . ص ١٩٦ - ٢٠١) وهذا نصان هامان جدا ، وكنا نود لو أوردتهما الاستاذ الاشهب بنصهما ، أو أنه اختط خطه الحاقهما فى ملحق خاص بآخر كتابه كما فعل فيما بعد فى كتاب المهدي السنوسى . وفى النصين معلومات كثيرة عن بناء الزاوية ، وتكاليف البناء ، وحرم الزاوية وحدودها ، وتعيين الشيخ وما يتقاضاه ، ومن يتبعه ، وما واجباته ، وما امتيازات الزوايا ونحو ذلك . وبفضل هاتين الوثيقتين كتب الاشهب فصلا من خمس صفحات يعمد من أهم الفصول .

النظام المالى للزوايا

ويتأخص النظام المالى للزوايا فى قاعدة الاكتفاء الذاتى ، وتحقيق هذا الهدف عن طريق التعاون اعتمادا على المجهود العادى الذى يقوم به الاخوان أنفسهم ، وعلى التجارة التى يشترك فيها رئيس الزاوية باسم الزاوية ، وعلى الخدمات التى تنلقاها الزوايا من سكان المنطقة (حراثة يوم وحصاد يوم ودراس يوم) . أما من حيث المصرف فللزاوية كفايتها من محصولها ، والباقي من الدخل المتحصل يحمل الى الزاوية الرئيسية للتصرف فيه .

وتجد هذا النظام موضعا فى اسهاب كثير فى جل الكتب العربية غير أننا نحتاج

الى وثائق تدعم الاخبار المتصلة به تدعيما تظمن اليه النفس بعد تناول السنين والأجيال .

والحاجة الى الوثائق في هذا الباب ماسة جدا .

التوجيه الديني

ومن الوثائق التي يشير اليها المؤلفون رسائل بعث بها الامام الى أهل النواحي ، فيها توجيه ووعظ جزل الأسلوب أخذ العرض صادق الحماسة ، ومثل هذه الوثائق يجب نشرها كاملة ، أما المؤلفون فلا يستطيعون بحكم ضرورات العرض المنهجي ان يوردوا مثل هذه النصوص كاملة ، وكل ما يستطيعونه هو أن يخصصوا لها ملاحق في آخر الكتاب ، وهم لم يفعلوا ذلك الا في نطاق محدود .
ولدينا من هذا النوع الوثائق الآتية :-

(١) كتاب بعث به الامام الى أهل وجنقة (وجنقة أيضا) مخاطبا العمدة الافضل . .
الشيخ فرج الجنقاوي يكلمه فيه عن انشاء زاوية في تزر وهي من بلاد واداي (أشار اليه الدكتور شكرى في كتابه السنوسية دين ودولة ص ٤٥-٤٦ ، وأورد بعض نصه . . .

ونشر الأشهب في (السنوسى الكبير) القاهرة ، ١٩٥٦ ص ١٥١ نص الرسالة كاملا وتاريخها ٤ محرم ١٢٦٦ ، وانظر نفس الكتاب ص ١٠٠)
وقد رأى حسنين في رحلته أصل هذا الكتاب في الكفرة واقتبس منه شيئا واختصر فيه ولم يورد النص كما هو (احمد حسنين : صحراء ليبيا)

(٢) كتاب من السيد محمد بن على السنوسى الى الاخوان يتضمن ارشادات دينية بالتوجه الى الله والفناء في ذاته ، ولم يرد فيها تاريخ (انظر ، الأشهب المهدى السنوسى ص ١٤٩ ، السنوسى الكبير ، ص ٨٨ ، ٨٩)

(٣) كتاب دورى من السيد محمد بن على السنوسى الى بعض الاخوان بالتزام المجاهدات والرياضات وابعار البواطن بالمشاهدات ، ولم يرد فيه تاريخ (انظر ، الأشهب ، المهدى السنوسى ص ١٤٩ ، ١٥٠) (وانظر ، الأشهب السنوسى الكبير ، ص ٨٧) .

(٤) كتاب من السيد محمد بن على السنوسى الى بعض الاخوان بتعمير الظواهر بالآداب والبواطن بمراقبة الله تعالى ، الى أن يغيب الشاهد في المشهود الذى هو الله ، الى ان قال : ورتبة اخلاص خواص الخواص التبرى من الحول والقوة وهى رتبة الكمال من أهل الفتوح ، ولم يرد في الكتاب تاريخ (انظر الأشهب ، المهدى السنوسى ص ١٥٠ ، ١٥١) .

(٥) كتاب أحد مقدمى السنوسية عام ١٨٨٩ هو السيد الجيب بن عمار شيخ زاوية النجيلة في مدح الهجرة والحض عليها ، منقول عن الترجمة الفرنسية لتعذر وجود الاصل (انظر ، شكرى ، السنوسية ص ٤٦ ، ٥٤) ، وهذه الوثيقة متأخرة طبعا عن عهد المؤسس بنحو عشر سنوات .

(٦) رسالة للاخوان بمكة مع ذكر محمد بن ابراهيم الغمارى ، واسماعيل بن رمضان ووجهه فيها نعى الامام ، نعاه اليهم ابنه وخليفته المهدى ، (انظر ، الأشهب ، السنوسى الكبير ، ص ١٢٧/١٢٨)

(٧) رسالة من الامام الى الشيخ ابراهيم الرشيدى خليفة الامام بمكة ينهى فيها عن الخوض في الأمور الاعتقادية والخروج بذلك عن الطريقة ، (انظر ، الأشهب ، السنوسى الكبير ، ص ١٤٥ وما بعدها) وفي الرسالة توجيهات لطيفة .

(٨) ملحق خير « هو عنوان لكلام كتبه الامام موصيا بالرفق ولين الجانب ، وهذا الملحق موجود بظهر رسالة لم يخبرنا الأشهب بما فيها ، وهو الذى رآها (انظر الأشهب ، السنوسى الكبير ، ص ١٥٤) .

(٩) رسالة من الامام الى ابنه المهدى بالتفرغ لله قلبا وقالبا ، بدون تاريخ ، (انظر الأشهب ، السنوسى الكبير ، ص ٩٠)

وثائق خاصة بتنظيم الزوايا

(١) وثائق موقعة من كبار الاخوان (عبد الرحيم بن أحمد عبد الرحيم المحبوب (المحبوب) وأحمد عبد القادر الريفى ، وعلى بن عبد المولى ، ومحمد المدنى بن مصطفى بن حامد وأحمد التواتى ، وحموده بن أحمد المقساوى ، ومحمد

القنطيني ومحمد بن عبد الكريم) بيعتهم الى امامهم ، ولم يرد فيها تاريخ (انظر ، الاشهب المهدي السنوسي ص ١٤٧) .

(٢) كتاب من السيد محمد بن علي السنوسي الى والي طرابلس المشير محمد أمين باشا ، بمناسبة تولية ابنه ولاية بنى غازي ، ولا تاريخ فيها (انظر الاشهب ، المهدي السنوسي ص ١٤٨) . (وانظر ، الاشهب ، السنوسي الكبير ص ١٣٩ | ١٤٠) .

(٣) رسالة من الامام السيد محمد بن علي السنوسي الى حاكم فزان « ولدنا مصطفى باشا قائم مقام فزان حالا » عقب زيارة قام بها « بحسب تعبير الامام » ولدنا الشيخ أحمد بن أبي القاسم التواتي « الى القائم مقام ، والامام يخبر القائم مقام أنه أرسل للدعوة بناحيته » ولدنا الشيخ محمد بن الشفيع « على أن يقيم بزواية (واو) وتتناول الرسالة أيضا شرح الغرض من سفر الشيخ أحمد بن أبي القاسم التواتي : وهو الحصول على بعض كتب غير موجودة في خزنة الامام — التاريخ ٣ شوال ١٢٧٣ هـ (انظر الاشهب ، المهدي السنوسي ص ١٥١ — ١٥٢) (وانظر : الاشهب ، السنوسي الكبير ص ١٤١ | ١٤٢) .

(٤) رسالة كالمسابقة من الامام الى حاكم فزان بدون تاريخ (انظر ، الاشهب ، السنوسي الكبير ، ص ١٤٢ | ١٤٣) .

(٥) رسالة من السيد محمد بن علي السنوسي الى « ولي نعمة ايلة فزان ولدنا مصطفى باشا » ردا على كتاب سبق من مصطفى باشا ، وفي الرسالة اشارة الى « الزاوية التي أعنتم (والخطاب لمصطفى باشا) عليها ووفقتم في أمورها وهي التي بواهي (واو) . وفي الرسالة أيضا شكر على هذه العناية ، وفي الرسالة أيضا توصية بالعناية بأمر الزوايا « التي تحت اياتكم مثل زاوية مرزق وسوكنة وخصوصا زاوية واو » ، ولم يرد في الرسالة تاريخ (انظر ، الاشهب ، المهدي السنوسي ، ص ١٥٢ | ١٥٣) .

(٦) رسالة من السيد محمد بن علي السنوسي الى حاكم بنغازي : «عزيزنا الاجل الافخم محمد باشا صالح » . وفي الرسالة اشارة الى « هذه الزوايا التي حدثت بهمة حفرتكم (أي حضرة حاكم بنغازي) ومنه جناب والدكم وفي

الرسالة أخبار بأن الامام رتب « لكل واحدة خليفة يقوم فيها . . . » ورجاء بأن يقوم الحاكم كما قام أبوه من قبل بحماية حرمها وصيائته ، وعدم التعرض لمقيم بها ، وأن يقوم الحاكم بالتيابة عن الامام « بخفارة هذه البنية » وفي الرسالة اشارة الى رحيل الامام دون ذكر لوجهة السفر . ولم يرد في الرسالة تاريخ (انظر ، الاشهب ، المهدي السنوسي ص ١٥٤ | ١٥٥) . (انظر ، الاشهب ، السنوسي الكبير ، ص ١٤٣ وما بعدها) .

(٧) كتاب بتاريخ ١٨٥٥ أرسله السيد محمد بن علي السنوسي الى بعض شيوخ سديدي من قبيلة العواقير بشأن انشاء زاوية مسوس . والكتاب يوجد عند الاستاذ الاشهب وقد أطلع هو الاستاذ بريشارد عليه ، وذكر ذلك بريشارد بنفسه . والكتاب يدل على أن من بين الاخوان جماعة من البنائين والنجارين .

(٨) كتاب وجده الطليان بزواية توكره ، اطلع عليه M. Colucci وذكره في كتابه

Il Regime della Proprieta Fondiaria nell'Africa Italiana vol. I
Libia, Bologna 1942

ويذكر الخطاب توقع وعود بخدمات من جانب البدو ، وهذه الخدمات هي دفع صدقات على السائمة والمحاصيل ، وتقديم جمال لحمل الامداد الى الجنوب ، ومساعدة الزوايا في البذر والبناء والحفر ، وتعهد بمدد القيام بمثل هذه الخدمات لزوايا أخرى ، وتعهد بحماية الزوايا ، واحترام سكانها وضيوفها .

(٩) رسالة من السيد عبد الله التواتي الى الامام بتاريخ ٢٨ صفر ١٢٦٥ بشأن الارض التي تبني عليها احدى الزوايا (انظر ، الاشهب ، السنوسي الكبير ، ص ١٥٣) .

(١٠) رسالة من الامام الى السيد عبد التواتي ، وكيل الامام بمكة ، بشأن أرض لبناء زاوية ، وفيها اشارة الى اهتمام الامام بأمر الشيخ علي عبد الحق القوصي ، والشيخ ابراهيم الرشيدى وكانا بصعيد مصر ، والرسالة بدون تاريخ (انظر ، الاشهب ، السنوسي ، الكبير ، ص ١٥٢) .

(١١) رسالة من الامام الى وكيله السيد عبد الله التواتي ، بشأن أسلحة خاصة بالامام ، وبشأن زواج أحد الاخوان ، وبشأن بناء الزوايا ، بتاريخ ٢٩ شعبان ١٢٦٤ (انظر، الاشهب، السنوسي الكبير، ص ١٥٣، ١٥٤)

(١٢) حديث للامام سجله محمد بن الشفيح بخط يده وارخه بغرة شعبان عام ١٢٧٠ . والحديث خاص بالسلاح وادخاره لوقت الحاجة ، وقد سجلت الرسالة أسماء من سمعوا هذا الحديث (انظر ، الاشهب ، السنوسي الكبير ص ١١٤)

(٣) الوثائق العامة والوثائق الدبلوماسية

من الوثائق العامة

(١) كتاب المهدي للاخبار بوفاء والده (الاشهب ، برقة . ص ١٧٥)

(٢) النمران السلطاني من عبد المجيد الأول حمله من استنبول سيدي عبد الرحمن المغبوب (انظر بريتشارد ، السنوسية في برقة (باللغة الانجليزية ص ٩١) وكان ذلك حول ١٨٥٦ قبيل وفاة الامام بعدة سنين ، وينب بريتشارد على أنه لم ير الوثيقة ، وقد تضمن فرمان أيضا عدة امتيازات منها الاعفاء من الاموال الاميرية . ويوجد فرمان مشابه لهذا في عهد المهدي ذكر بريتشارد أن ملخصه محفوظ في دائرة سجلات الاراضي في بنغازي في صورة تبليغ من والي طرابلس الى والي بنغازي .

من الوثائق الدبلوماسية

نحن نعرف أن السنوسية كانت على علاقة طيبة بالدولة العثمانية ، وقد نشرت ايطاليا الوثائق العثمانية التي كانت محفوظة في طرابلس ، ولا بد من نشرها مرة أخرى بالعربية ، ومن المحقق أيضا أن الدول الأخرى وخاصة فرنسا احتفظت بوثائق لا بد من نشرها أيضا .

Relatione fra Turchi e Senussi. Documenti rinvenuti nell'Archivio di Tripoli (Ufficio Politico Militare) 1912.

(٤) نظام المجاهدين

كانت السنوسية في أصلها دعوة عامة سبيلها الهداية والايمان، ولكن السلم الذي

هو أساس من أسس الاسلام الأولى سلم يقترن دائما بنظام جهاد يحميه ، دون نية للالتجاء الى القوة ، فلا اكراه في الدين ولا اكراه في الدعوة . ولم تخض السنوسية فيما بعد حربا جهادا بالسيف الا مضطرة فقط .

لقد كان الامام الاول عالما قبل كل شيء هاديا الى النور الذي يملأ القلوب ، ومع ذلك لا بد أن يكون اهتم بفكرة الجهاد .

وعلى أساس وثيقة من عهد ابنه المهدي اطلع عليها السيد الاشهب ولم ينشرها نستطيع أن نتساءل هل صنع البارود في الجغبوب . قال الاستاذ الاشهب أنه اطلع على كتاب من المهدي الى خليفة زاوية الطيلمون السيد مصطفى المحجوب بأن يرسل اليه ترابا من جهة معينة من جهات الطيلمون لفحصه والنظر في امكان استعماله في صناعة البارود (انظر ، الاشهب ، برقة . ص ١٧٩ - ١٨٠) واذا كان من الممكن أن يفحص التراب في الجغبوب نفسها فمعنى ذلك انه كان بها من يعرفون هذه الصناعة . (وانظر الاشهب ، السنوسي الكبير ، ص ٤٧) .

قال الاشهب ان الامام الأول كان يأمر رؤساء الزوايا باقتناء جميع أنواع السلاح ما استطاعوا ، وأن يحتفظوا به في مخازن خاصة ، وانه جعل بالجغبوب مخزنا للسلاح والبارود ، ولعل الأستاذ الاشهب نقل هنا من بعض الوثائق دون أن يذكرها (انظر الاشهب ، برقة . ص ١٧٩) .

(٥) مكتبة الجغبوب ومعهدا

روي بريتشارد في كتابه « السنوسية في برقة » (ص ١٧) عن المؤلف الفرنسي دوفرييه الذي جاء الى ليبيا بعد وفاة الامام بنحو عشر سنين أنه كان بمكتبة الجغبوب ثمانية آلاف مجلد .

وقد عرض الاشهب أيضا لموضوع المكتبة (برقة . ص ١٢ ، ص ٤٨٤) وذكر عبث الطليان بها عبث البرابرة الذين لا يعرفون للعلم أية حرمة ، وعرض في مكان آخر (ص ١٩١) للمكتبة وكثرة مخطوطاتها ونظام النسخ والنساخ بها ، ونظام التعليم ، ونظام تموين المعهد .

ونحن نحس أن الاستاذ الاشهب ينقل بعض التعميرات عن الوثائق أو عن رؤساء الزوايا ولكنه لا يذكر مرجعه .

ولا يذكر الاستاذ الاشهب أى رقم تقديري للمكتب التى كانت بالجغبوب ، ولكنه ذكر نحو خمسة آلاف مجلد نجت أثناء الاحتلال الايطالى ووصلت آخر الامر لمكتبة الاوقاف فى بنغازى ، وذكر كيف ضاع أكثرها أثناء الحرب ، وهذه الاخبار تشعر بأن الرقم الذى ذكره دوفريه هو أقل رقم ممكن لمجموع الكتب التى وجدت أيام الامام الكبير فى الجغبوب . ولا تزال مكتبة الاوقاف قائمة الى الآن ، ومن الخير أن تضم الى الجامعة وأن يفرد لها فى مكتبة الجامعة مكان خاص .

(١) تذكر رسالة من السيد محمد بن على السنوسى الى حاكم فزان أن الامام بعث بعض الاخوان الى فزان للحصول على بعض كتب لا توجد فى خزائنه ، وقد أشرنا الى هذه الرسالة فى مكان آخر (ولكن انظر ايضا الاشهب، المهدي السنوسى، ص ١٥١ - ١٥٢) .

(٢) وقد تكلم على مكتبة الجغبوب أيضا بورتون فى ص ٢٤ - ٢٥ من كتابه .

Richard Burton : Personal Narrative of a pilgrimage to al medinah & meccah (Memorial Edition) 1893 vol. II

مظان الوثائق

أتوقع أن نجد كثيرا من الوثائق لدى جلالة الملك فهو صاحب الفضل أولا فى طبع ما طبع من كتب جده ، وهو الحفيد الذى شارك فى مصير السنوسية منذ أول هذا القرن .

وتدل أنباء المؤرخين على أنه توجد وثائق لدى السيد صفى الدين السنوسى وآل السيد احمد الشريف السنوسى وآل المنتصر وآل مصطفى المحبوب والسيد عبد الله عابد السنوسى وآل الاشهب .

تعبير الوثائق

حاولت هنا أن أحصى كل ما استشهد المؤرخون به من وثائق ، ولم أحذف شيئا عرفته ، ولكل احصاء دلالة . ويدل هذا الاحصاء على أن تاريخ العصر السنوسى الاول لا يزال يحتاج الى الوثائق ، وليس من الانصاف أن ينقل المؤرخون بعضهم عن بعض مع امكان البحث عن الوثائق وجمعها ، وأنت ترى الوثائق التى بين أيدينا

لا تكاد تصل الى الثلاثين وأنت ترى أيضا أن محفوظات وزارات الخارجية من الوثائق لم تستغل الى الآن .

ولسنا نحتاج الى المقالات المدبجة ، ولا الى ترديد ما سبق اليه بعض المؤرخين بقدر حاجتنا الى الوثائق الرسمية الاصلية .

(٦) المراجع الهامة الخاصة بأصل السنوسية

والمراجع نوعان : مباشرة وغير مباشرة .

ونثبت هنا فى باب المراجع المباشرة كل ما كتبه السيد احمد الشريف أولا ، فانه كتب ما كتب وبين يديه المصادر والسجلات ، على حين كانت الظروف لم تكد تتغير ، وكان النظام الاول لا يزال يومئذ متبعًا . وكتابات السيد احمد الشريف تمثل الجانب العربى . وكذلك يأتى بعده فى المنزلة ما كتبه محمد بن عثمان الحشاشى ، وقد زار الحشاشى البلاد بعد وفاة المؤسس ببضع سنين . ويمثل وجهة النظر الاوروبية مؤرخ فرنسى وصل الى البلاد حول نفس التاريخ وهو دوفريه .

أما المتأخرون فلا يجب الاعتداد بأقوالهم الا بمقدار ما يقدمون لنا من وثائق جديدة مهما تأخر الزمن، مثال ذلك ما كتبه الاستاذ الاشهب فان قيمته الحقيقية الباقية هى فيما نشر من نصوص الوثائق ، وهو من هذه الناحية يعتبر من الذين قاموا الى الآن ببعض حق التاريخ السنوسى . أما الاستاذ شكرى والشنيطى وبريتشارد فانهم يعتبرون من كبار الدارسين لهذا العصر من أهل صناعة الاجتماع والتاريخ ، وهم من الذين حاولوا أن يضعوا هذا العصر فى قالبه التاريخى ، وعلى هذا القياس تستطيع أنت أن تعرف بنفسك قيمة المؤلفات الكثيرة التى تجدها ماثلة فى أبواب المصادر فى كل ما كتب عن السنوسية .

(١) Duveyrier, H. La Confrérie musulmane de Sidi Mohammed

ben Ali es-Sanoussi et son domaine géographique. en l'annee 1300 de l'Hégire - , 1883 de notre ère ; Paris 1881

Riun, Louis : Marabouts et Khouan, Alger 1884

(٢)

(٣)

Le Chatelier, A. : Les confréries musulmanes du Hedjaz, Paris 1887
Muhammad Uthman al Hashaishi : Voyage au pays de Senoussis à (٤)
travers la Tripolitaine et les pays Teuareg Paris 1^{ère} édition 1903 2^{ed}.
1912.

وقد قام برحلته عام ١٨٩٦ ولقى السيد المهدي .

اما النسخة العربية فلا تزال مخطوطة ، ومنها نسخة على الآلة الكاتبة بمكتبة بلدية الاسكندرية وعنوانها ، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب أو النفحات المكية في أخبار الدولة الطرابلسية . وتوجد نسخة أخرى بدار الكتب المصرية ، اشار إليها الاشهب (السنوسي الكبير ، ص ٥)

(٥)

Dr, C.C. Adams : The Sanusiya Order. (Part x in Handbook on Cyrenaica edited by the British Military administration).

(٦) احمد الشريف السنوسي (مخطوط) (١) السراج الوهاج في رحلة السيد المهدي من الجغبوب الى التاج .

(٢) الانوار القدسية في مقدمة الطريقة السنوسية طبع استامبول عام ١٢٣٩ -

١٣٤٣ هـ . وقد طبع نفس الكتاب بمصر بمطبعة الجريدة بدون تاريخ تحت اسم آخر هو الدرر الفردية في بيان مبنى الطريقة السنوسية .

(٣) الكوكب الزاهر في سماء مجلس الظلام العاكر (مخطوط)

(٤) الفيوضات الربانية في اجازة الطريقة السنوسية الاحمدية الادريسية بمكتبة تيمور رقم ١٤٨ مصطلح الحديث ، بدار الكتب المصرية ، طبع استانبول .

خاتمة

أردت بهذا البحث لفت النظر الى أن الظروف قد أضاعت الشئ الكثير من سجلات العصر السنوسي الاول ، وأنه قد آن الاوان لجمع ما تبقى ، ثم نشره مع حفظ الأصول في متحف خاص يمكن أن يسمى بمتحف الوثائق . و اردت لفت النظر أيضا الى ان الاشارات الى الكتب والوثائق اشارات تنقصها الدقة ، ولهذا يحسن ان تجميع وتميز بأرقام وأوصاف خاصة .

وللتدليل على قلة ما عندنا من الوثائق استقصيت جميع الوثائق التي ذكرت في أشهر المؤلفات الخاصة بالسنوسية ، وجعلت هذا الاستقصاء تعبيراً عن قلة ما وصل إلينا ، ليكون فيه حرض على جمع الوثائق .

ويكفي أننا أشرنا الى ٢٦ كتاباً مجهولاً لم يذكرها مؤرخو الامام . ففي هذا دليل قاطع على أن تراث الامام العلمي آخذ في الاندثار .
وأردت من جهة أخرى أن تمتد العناية الى مؤلفات الامام ومؤلفات الاخوان ففي مؤلفاتهم فكرة لا تزال الى اليوم تتمسك بها ، هي التمسك بجوهر الدين لا بشكلياته ، وهي فكرة يحتاج كل عصر الى أن يتعلمها وأن يتعقها ، فإن كان هذا البحث قد أظهر ما أردت فهذا ما كنت أبغى ، وبالله التوفيق .

بنغازي أكتوبر ١٩٥٦

محمد عبد الهادي شعيرة

استاذ التاريخ بالجامعة الليبية

استاذ التاريخ بجامعة عين شمس

فترة حاسمة من تاريخ المغرب موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين في افريقية ونقلتهم الى مصر

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد

مقدمة

يعتبر ظهور الدولة الفاطمية حدثا عظيما في تاريخ الاسلام بوجه عام وفي تاريخ المغرب أو افريقيا الشمالية جميعا بوجه خاص . وذلك أن ما فشل العلويون فيه - وهو المطالبة بحقهم في وراثة تركة النبي وهي الخلافة في المشرق - قد نجح الفاطميون في تحقيقه في المغرب نجاحا كانت له آثاره الحاسمة في تقرير مصير هذه البلاد لأمد بعيد . فبلاد المغرب ظلت منذ تمام فتحها ودخولها في الاسلام جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية العربية ، يخضع لوالى مصر في كثير من الأحيان ، ويتبع الخلافة في دمشق - رغم بعد الشقة - في بعض الأحيان . ولكن كن من نتائج سوء الادارة الأموية واستبداد عمالها أن قامت البلاد بسلسلة من حركات العصيان - التي يمكن ان تكون استمرارا لثورات عهد الفتح الأول - لقيت الدولة كثيرا من المشقة في اخادها . ولم تكن لهذه الحركات الثورية صبغة سياسية ليس غير بل انها اتخذت طابعا دينيا باعتناق البربر من أهل البلاد لمذهب الخوارج المعارض للدولة ، والذي يطالب بالمساواة التامة بين جميع المسلمين دون اية تفرقة عنصرية . هذا الى جانب الحركات الدينية الانفصالية ، التي يسميها الكتاب زندقة أو ارتدادا عن الاسلام ، والتي قامت في الأقاليم المنعزلة مثل جبال غمارة (الريف) أو جبال برغواطة (أطلس) ، والتي نشأت في أول أمرها نشأة خارجية .

هاتان الصفتان هما اللتان تميزان أحوال المغرب خلال العصر الأموي وهما :

المقاومة العنيدة المعبرة عن السخط على سوء الإدارة وفسادها ، وانتشار المذهب الخارجي الذي كان يؤيدها ويؤكد شرعيتها . ترتب على ذلك أن أصبح احتفاظ الدولة العربية بولاياتها المغربية البعيدة من الأمور الصعبة ؛ وفي الفترة التي كانت الأسرة الأموية تلقى خلالها مصرعها على أيدي العباسيين ، سادت الفوضى السياسية في البلاد التي أصبحت على أنظار اللاجئين من المشرق والمغرب وأصحاب المطامع الأناية . ولكن ما أن تم النظر للعباسيين حتى عاد المغرب من جديد إلى « أنس الطاعة » : فخضع عبد الرحمن بن حبيب بافريقية للمنصور ، وحتى عبد الرحمن الأموي الذي استقل بأسبانيا اعترف هو الآخر بالخلافة الجديدة وخطب في أول أمره للعباسيين ؛ فالخلافة كانت — حتى ذلك الوقت — واحدة لا تتجزأ ، إذ لم يتكلم الفقهاء في امكانية تعددها الا فيما بعد ، وأمام الأمر الواقع . ولكن خضوع المغرب لخلفاء بغداد كان صحيحا من الناحية النظرية فقط ، فالحقيقة أن سلطان العباسيين لم يتعد افرقية أي تونس . أما المغرب الأوسط فلم يكن خاضعا لأمر القويروان ، رغم قيام بعض هؤلاء — مثل عبد الرحمن بن حبيب — بحملات بعيدة ضد قبائل زناتة بأرض تلمسان ؛ ولم يكن من الغريب أن قامت امارة الرستيين الخوارج بتاهرت حوالي منتصف القرن الثاني الهجري (٨ م) وكذلك امارة المدراريين بسجلماسة بعيد هذا الوقت . وعلى ذلك فلا مجال للكلام عن خضوع المغرب الأقصى حيث قامت هرطقة برغواطة بأطلس وقام الأدارسة بفاس .

هذه الحالة التي هددت بانفصال المغرب عن مركز الدولة جعلت بغداد تفكر في ايجاد حل مناسب لمواجهة المشكلة ، فرأت أن تسند ولاية افرقية والمغرب بشكل وراثي لأسرة قوية تقيها متاعب تقلب الأحوال هناك . فعلا ظلت افرقية بين أيدي أفراد من أسرة المهلب بن أبي صفرة من عهد المنصور (سنة ١٥١ = ٧٦٨) إلى عهد الرشيد (سنة ١٧٨ = ٧٩٤) . وفي سنة ١٨٤ = ٨٠٠ رأى الرشيد أن يستمر في السياسة التي رسمها جده ، فعهد بافريقية إلى ابراهيم بن الأغلب ، واتفق معه على أن تستغنى الولاية عن المساعدة المالية السنوية التي كانت تدفعها مصر . وعلى أن تقدم — على العكس من ذلك — مبلغا سنويا إلى خزانة بغداد . وهكذا

أصبحت افرقية وراثية في أسرة الأغلبية ، وصارت أشبه بمملكة مستقلة لا تربطها ببغداد الا روابط رقيقة من ولاء للخليفة ، ودفع مبلغ زهيد لبيت المال . وبذلك تحددت العلاقة بين المغرب وبين الخلافة ، وشهدت البلاد نوعا من الاستقرار بفضل هذا النظام الجديد ، ساعد على انتشار الاسلام واستمرار تعريب البلاد بشكل منتظم مطرد . فالأغلبية — رغم أنهم كانوا أمراء لكل بلاد المغرب من الناحية النظرية على الأقل — قبلوا الأمر الواقع وتركوا جيرانهم المناهضين للخلافة في هدوء . فلم يتهكوا قواهم في صراع ضد أمراء تاهرت أو أمراء فاس . ومع أن ذلك لم يكن في صالح الخلافة فقد كان فيه خير للاسلام : فاذا كانت القيروان عملت على انتشار السنة وخاصة المذهب المالكي فإن تاهرت نشرت الاسلام في المغرب الأوسط وحتى الصحراء على المذهب الاباضي ، وهو مذهب المعتدلين من الخوارج الذي لا يختلف كثيرا عن مذاهب أهل السنة حتى أطلق عليه حديثا اسم « المذهب الخامس »^١ ؛ وهذا يفسر كيف أن امارة سجلماسة الصفرية كانت تدبى بالولاء لخلافة بغداد . وكذلك كان الحال بالنسبة لفاس ، فرغم أن الأدارسة من العلويين الا أنهم لم يكونوا شيعة من حيث الاعتقادات ؛ ولو كانوا كذلك ، فهم معتدلون بشكل لا يفرقهم عن أهل السنة ، ولذلك يطلق الكتاب على دولتهم اسم الدولة الهاشمية^٢ مثلهم في ذلك مثل العباسيين . وعلى ذلك قامت فاس بدور مهم في نشر الاسلام السني في المغرب الأقصى ، وجهدت صادقة في القضاء على هرملقات البربر في جبال مراكش . وهكذا بفضل هذه المجهودات المنفردة في افرقية والمغرب الأقصى اشتركت الدول الثلاث — دون خطة مرسومة — في نشر الاسلام السني بالمغرب بالشكل الذي يوجد عليه حتى اليوم .

من كل ما تقدم يمكن أن تقدر مدى الانقلاب الذي حدث في المغرب من أقصاه إلى أقصاه بعد نجاح الدعوة الشيعية في أرض كتامة ، وبعد ما حدث من خروج هؤلاء لغزو افرقية وقلب الأغلبية باسم الفاطميين ، ثم من القضاء على مملكة الخوارج بتاهرت وامارتهم بسجلماسة ، وما حدث من بعد من انتهاء حكم الأدارسة في فاس ؛ وقطع علاقة المغرب بالشرق وبالخلافة ببغداد . فقد خاب أمل أهل

G. Demonlynes, Les Institutions Musulmanes, p. 38

(١) انظر

(٢) انظر ابن عذارى ، البيان المغرب ، طبعة بيروت ، ج ١ ص ١٠٠

البلاد بل والذين أقاموا صرح الدولة الجديدة بسواعدهم في حكم الائمة المعصومين ، واتضح لهم أن ما نودى به من انتهاء عهد الجور والفساد ، وحلول عهد العدل والاصلاح لم يكن الا سرايا . فالى جانب البدع الدينية الجديدة من اعلان عصبة الامام وتقديسه ، وتناول بعض الشعائر أو الطقوس الدينية المتعارف عليها بالحذف والتغيير ، وتجريح كبار الصحابة وأئمة الاسلام - مما لا يمكن أن يقبله شعب نشأ على السنة وتعصب لمذهب مالك منذ أجيال - انتهج الفاطميون سياسة مالية متعسفة ، على عكس ما بشر به الداعي في أول الأمر ، فاشتطوا في جمع الضرائب ، وتفننوا في تنويعها حتى فرضوا على الحجاج جميعا أن يبروا بالمهدية حتى يدفعوا ضريبة الحج . وعلى ذلك لم يكن من الغريب على شعب افريقية بل والمغرب جميعا أن يكره ذلك الحكم الذي جمع الى جانب مفسده الدينية ، مساوى ، سياسية وأعباء مالية بغیضة .

وعرف الفاطميون هذا التباعد الروحي بينهم وبين الشعب منذ البداية وأحسوا بعدم الاطمئنان في مستقرهم الجديد ، فاتخذوا الاجراءات المناسبة لمواجهة الموقف . والظاهر أن هدفهم لم يكن هو الاستقرار في افريقية بل انهم اعتبروها خطوة أولى أو مرحلة في الطريق الى المشرق أى الى مصر والحرمين وبغداد . ولتحقيق هذا الهدف الأبعد أخذوا يعدون العدة من جميع الموارد البشرية والمالية ، فكان من الطبيعي أن يستمروا في سياستهم المالية الجائرة التي ضج منها أهل البلاد . وهكذا تركزت سياستهم المؤقتة في افريقية في نقطتين : أولاها العمل على فتح مصر ، وثانيتهما اغتصام الأسرة في مكان حصين يكفيهم شرور تقلبات الشعب المعادى لهم . وفعلًا قام أول جيش فاطمي بمحاولة فتح مصر سنة ٣٠١ = ٩١٢ بعد أربع سنوات فقط من دخول عبيد الله القيروان ، وقريب هذا الوقت (ما بين ٣٠٠ - ٣٠٣ = ٩١٣ - ٩١٥) تم اختيار موقع المهدية على بعد ستين ميلا من القيروان لتبنى فيه مدينة ملكية حصينة . وبعد أن تم بناء تحصيناتها عبر المهدي الذي نسبت

اليه عن اطمئنانه فقال : « أمنت على الفاطميات »^١ . وفعلًا قامت المهدية بدورها هذا خير قيام فحمت القائم ثم المنصور من خطر الثورة الخارجية التي ترعها أبو يزيد وشعب افريقية بعد أن كانا قاب قوسين من الهلاك أو أدنى . أما عن النقلة الى المشرق فانها تحققت على عهد الرابع من خلفائهم وهو المعز لدين الله بعد ٦٤ عاما من دخولهم القيروان ، اذ خرج المعز سنة ٣٦١ = ٩٧٢ من افريقية وفي نيته ألا يعود اليها ، فتقدمت موكبة تواييت آباءه وأجداده الذين لم يشأ أن يتركهم في أرض المهجر المؤقت .

رحل الفاطميون اذن من افريقية وتركوا أمرها لبني زيري الصنهاجيين بعد أن خلقوا في المغرب حالة من القلق الروحي الشديد هي التي وصفها جورج مارسيه بحق بأنها « الأزمة الفاطمية »^٢ . فالمذهب الشيعي لم يستطع (Georges Marçais) أن يفرس جذوره بعمق في أرض السنة الخالصة - التي اتخذت في جهات شكل مذهب الخوارج المتمتتين ؛ فكان من الطبيعي أن تعود الأمور الى مجراها المعتاد ؛ وهذا ما حدث في مصر أيضا بعد مائتي عام كان المذهب الاسماعيلي فيها هو المذهب الرسمي ، اذ عادت السنة الى عهدها الأول على يدى صلاح الدين . فبعد ثمانين عاما من خروج المعز الى مصر (أى سنة ٤٤٠ = ١٠٤٨) أعلن رسميا الغاء المذهب الشيعي من افريقية على عهد المعز بن باديس ، وقطعت الدعوة للفاطميين بل وأعلنت لعنتهم من أعلى المنابر ، وذلك بعد قيام حركات شعبية عنيفة ضد الشيعة ومقاطعة الناس للمساجد .

هذه العودة الى السنة كانت - بالنسبة للمغرب - ذات نتائج أهم وأخطر من النقلة الى التشيع على أيدي عبيد الله وخلفه . فلم يقتصر الأمر على قطع العلاقة بالفاطميين في مصر ، بل انتهى الى قلب الاوضاع في افريقية رأسا على عقب من النواحي السياسية والاقتصادية والبشرية انقلابا كانت له آثاره الدائمة وصداه البعيد في كل المغرب حتى المحيط الأطلسي . فقد قرر الفاطميون الانتقام من البلاد التي عاشوا فيها لحظات من المجد وفترات من الخوف ، والتي نزعَت النقاب عن

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ١ ص ٣٦

(٢) انظر

G. Marçais, La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen Age, p. 132 et suiv.

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٦٠ (أحداث سنة ٣٠٩) .
(٢) انظر سيرة جوذر (نشرة كامل حسين وشعمرة) ، ص ١١١ حيث يبعث المعز لجوذر بعض الدنانير المضروبة في مصر ويرجو أن يطول عمره حتى يحج معه ويعطيه مما يضرب له ببغداد .

وجها الحقيقى وكاشفتهم العدا . فأطلقوا عليها قبائل هلال وسليم فأحلت بها الخراب الاقتصادى والفوضى السياسية . فترك بنو زيرى ، داخل البلاد الى السواحل حيث داهمهم خطر النورماندين من صقلية ، واستدعى الأمر تدخل البربر من المرابطين ثم الموحدين الذين ضموا افريقية الى املاكهم ووجدوا المغرب جميعا مع الاندلس ورحلوا العرب الى المغرب الأقصى وبذلك تم تعريب المغرب جميعا فى القرن الثانى عشر الميلادى ورغم انقضاء سلطان العرب ، وانتهى دور القيروان كعاصمة سياسية ومركز حضارى . وانتقل مركز الثقل من افريقية الى المغرب الأقصى الذى قام يحمى الاسلام ضد الخطر النصرانى المندلع من صقلية ومن اسبانيا . وهكذا قدر للمغرب الذى استقل تماما عن المشرق أن يعرف أعظم فترات مجده السياسى والحضارى على عهد الدولتين الوطنيتين الكبيرتين ، دولتى المرابطين والموحدين ، وبذلك أصبح له طابعه الخاص وصفاته المميزة .

البلاد : لويبية

خلال هذه الفترة الحاسمة من تاريخ المغرب الاسلامى ، تأمل أن تلقى بض الأضواء على موقف « ليبيا » الحالية فيما بين دخول الفاطميين القيروان واستقرارهم فى القاهرة . والحقيقة أن المعلومات ليست كثيرة عن هذه الفترة ، وذلك طبعى فهى فترة اضطراب عام وقاقى روحى لا تدع مجالا مناسباً للانصراف الى الكتابة . وحتى النذر اليمير الذى كتبه المعاصرون من المناربة لم يصل الينا بل ضاع معظمه وسط هذه الدوامه الهائلة فلم يبق لنا منه الا تنف فى كتب المتأخرين . هذا عن المغرب بصفة عامة ، أما عن ليبيا بالذات فالأمر ليس بأحسن من ذلك بل هو أشد وأعسر : فالمنطقة الواقعة ما بين مصر وافريقية لم تحظ هى الأخرى الا بالقليل النادر من اهتمام هؤلاء الكتاب . وربما كان لهم العذر فى ذلك ، فالبلاد لم تكن فى الحقيقة الا طريقا موصلة أو منطقة فاصلة بين البلدين اللذين حبتها الطبيعة بظروف أسخى وأكرم . ولكن ليس معنى هذا أن المنطقة لم تكن مهمة أو أنها لم تقيم بدور خطير فى هذه الأحداث الجسام ، فحسبها مدينتاها الكبيرتان « الأزلتان » : برقة (أو أنطابلس) وأطرابلس . أما برقة التى أعطتها تربتها الفنية ذات اللون الأحمر اسم « المدينة الحمراء »^١ مثلها فى ذلك مثل مراكش وغرناطة ، فاشتهرت بزراعتها ومراعيها ، كما كانت تتميز بجبلها الدائم الخضرة ، الكثير المياه والبساتين . أما عن

(١) البكرى ، المسالك والممالك ، طبعة De Siane ص ٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، طبعة

شهرتها الحالية فى تربية الماشية ، فهى تركة اليهود الماضية . فالمعروف أن أكثر ذبائح أهل مصر والاسكندرية كان من غنم برقة « لعظم خلقها وكثرة شعبها ولذة لحنها »^١ .

وأما طرابلس الميناء البحرى والمدينة التجارية ، وأكبر حواضر ليبيا ، فكانت تتباهى بكثرة أسواقها وفنادقها وحماماتها^٢ . هذا اذا تركنا ما كان من الذكر لأجدابية ذات البساتين والنخيل والحمامات والفنادق الكثيرة ، والأسواق الحافلة المقصودة^٣ . أو ما كان لسرت المدينة البحرية الكبيرة التى اشتهرت كسوق مهم رغم ما عرف به أهلها من سوء معاملتهم^٤ على عكس أهل طرابلس الذين وصفوا بأن « لهم سمح فى تجارتهم ، وأنهم أحسن الناس معاملة ضد أهل سرت »^٥ . أما عن صحراواتها وهضابها وبواديها وما فيها من محلات العرب والبربر ، فلا يمكن إهمالها ، كما قد يظن ، فقد كان لها دورها فى توجيه تاريخ البلاد ، كما كان لها نصيبها فى تحمل المصير المشترك . وهنا لا يمكن السكوت عن جبل نفوسة ومدنه الكثيرة وقراه التى تزيد على ٣٠٠ قرية^٦ ، ولا عن مدينة غدامس الصحراوية الكثيرة النخل والمياه ، التى تخصصت فى دباغة الجلود فذاعت شهرة الجلد الغدامسى^٧ . أما زويلة فكانت سوق الرقيق الذى يدير افريقية بالعبيد وبمنتجات

بيروت ، ج ٤ ص ٣٨٨ ، الادريسي طبعة Dozy ، ص ١٣١ ، وانظر محمد الطيب بن أحمد : اعراس الأشهب ، برقة العربية أمس واليوم ، طبع القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٣٩ ؛ وكذلك مصطفى عبد الله بعبو ، المجلد فى تاريخ لويبية ، ص ٢٦ وهامش ١ (عن مدينة المرج حاليا) .

(١) انظر كتاب الاستبصار ، طبعة جامعة الاسكندرية ، ص ١٤٣
(٢) انظر البكرى الذى ينقل عنه المتأخرون ، ص ٧ - ٨ . وحتى بعد خراب البلاد على ايدي بنى هلال وبنى سليم ظلت طرابلس المدينة الوحيدة التى يجد فيها المسافرين حماما حتى يصل الاسكندرية (القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ص ١٠٤)

(٣) بكرى ، ص ٥ .
(٤) بكرى ، ص ١٥ ، ١٧ .
(٥) ناب الاستبصار ، ص ١١٠ .
(٦) بكرى ، ص ٩ ، وانظر الادريسي ص ١٠٥ .
(٧) البكرى ، ص ١٨٢ ؛ الاستبصار ، ص ١٤٥ ؛ القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ص ١٠٨ .

وأول ما نلاحظه أن اسم «لوية» الذي اتخذته البلاد الآن في شكل «ليبيا» ، ليس له ذكر في مصادر هذه الفترة ، وإن كانت مصادر عهد الفتح الأولى تذكره ما بين الحين والحين مصحوبا باسم مراقبة . وإن لم تبين ماهيته بوضوح . فالطبرى مثلا لا يذكر لوية عند كلامه عن فتح انطاكس وبرقة^٢ . أما ابن الأثير الذي ينقل عن الطبرى ويضيف إليه ، فإنه يذكر لوية ومراقبة ولكن ليس بمناسبة افتتاحهما أو دخول العرب فيهما وإنما بمناسبة الكلام عن بربر لواته . فيقول أن أصل البربر من نواحي فلسطين وإنهم ساروا إلى الغرب حتى انتهوا إلى لوية ومراقبة ومنها تفرقوا في أنحاء المغرب . وفيما عدا ذلك يذكر : « أنها كورتان من كور مصر الغربية »^٣ دون أن يحدد موضعهما ولو بشكل تقريبي . ترتب على ذلك أن المتأخرين من أصحاب الموسوعات لم يستطيعوا أن يحددوا بشيء من اليقين موضع «كورة لوية ومراقبة» . فاكفى ياقوت بالقول ، بشكل عام ، أن لوية مدينة بين الاسكندرية وبرقة ، ثم عاد وبين أن الاسم يرجع إلى أصل يوناني وقد أطلق على الجزء المعروف قديما من شمال القارة الأفريقية ، كما أطلق على القارتين الآخرين اسما أوروبا وآسيا^٤ . أما القلقشندي فإنه اكفى بالظن فقال : « والظاهر أن لوية غربى مربوط ، وأن مراقبة غربى لوية ، وهى آخر الديار المصرية من جهة الغرب »^٥ . وإذا أخذنا بهذا رأى يكون اسم لوية قد أطلق على جزء من صحراء مصر الغربية وهذا مقبول حسب مفهوم الكلمة عند اليونان ، وهو ما أخذ به الكتاب العرب ، وذلك ما يؤيده حديثا إطلاق اسم الصحراء الليبية على صحراء مصر الغربية وامتدادها في ليبيا جميعا .

ويرجع الفضل للمقرئ الذى بين بوضوح أن آخر حدود مراقبة الغربية هي مدينة برقة نفسها وذلك عند المنطقة التى ينحرف فيها الطريق نحو الجنوب بحذاء

- (١) انظر البكرى ، ص ١٠ . وتابع ؛ ياقوت ، معجم البلدان (طبعة De Goeje) ج ٣ ص ٩٦٠ - ٩٦١ .
- (٢) الطبرى ، طبعة القاهرة ١٩٣٩ ، ج ٣ ص ٢٢٧ .
- (٣) ابن الأثير ، طبعة القاهرة ١٣٥٦ هـ ، ج ٣ ص ١٣ .
- (٤) معجم البلدان ، طبعة القاهرة ، ج ٧ ص ٢٤١ . وانظر CH. - André Julien, Hist. de l'Afrique du Nord (Des origines à la Conquête Arabe) Paris 1951, p. 9.
- (٥) صبح الاعشى ، ج ٣ ص ٣٩١ .

ساحل خليج سرت أى نحو أجداية^١ . وعلى ذلك فإذا كانت مدينة برقة خارجة عن نطاق كورة لوية ومراقبة ، فإن هذه الكورة أو مراقبه على الأقل كانت تشمل المنطقة الشرقية من ولاية برقة الحالية . ويؤيد ذلك ما ينقله المالكي في رياض النفوس بشأن انسحاب زهير بن قيس البلوى من افريقية عقب استشهاد عقبة بن نافع فيقول : « فأقام زهير بالقيروان يسيرا ثم خرج إلى مصر ، فوصل إلى لوبيا ومراقبة وذلك سنة خمسة وستين ، فوجد يزيد قد توفى وعبد الله بن الزبير خليفة بمكة ، ومروان ابن الحكم أميرا بالشام^٢ . وإذا ما عرفنا أن زهير لم يعد إلى مصر عقب انتصار كسيلة بل أنه رابط في برقة إلى أن ولاء عبد الملك على افريقية^٣ ، اتضح أن المقصود بلوبيا ومراقبة هو ولاية برقة بصفة عامة . وإذا ما عرفنا أيضا أن من المرجح أن تكون الأجزاء الشرقية من اقليم برقة وكذلك الأجزاء الشرقية المحيطة بمدينة قورينا القديمة (شحات حاليا) كانت قد ضمت معا منذ القرن الثانى الميلادى تحت اسم « مرمريكا »^٤ ، ادمجت في مصر اتضحت صحة تحديد المقرئ « لمراقبة » ، التى هى تعريب لاسم « مرمريكا »^٥ ، من أنها كانت تشغل الجزء الشرقى من اقليم برقة ، وتبين أن العرب ورثوا التقسيم الرومانى القديم للبلاد .

نستنتج من كل ذلك أن التسمية الحديثة للبلاد وهى « ليبيا » ذات أساس تاريخى صحيح مثلها في ذلك مثل برقة أو طرابلس . وهذا لا يتعارض مع يذكره القلقشندي أو ابن تغرى بردى من أن لوية أو لوية ومراقبة « كورة من كور مصر الغربية »^٦ ، فالجزء الشرقى من برقة على الأقل كان محسوبا من الديار المصرية^٧ ،

- (١) الخطط ، ج ١٦ (وفى آخر أرض مراقبة تلقى أرض انطاكس وهى برقة فإذا بلغت آخر أرض مراقبة عدت ذات الشمال واستقبلت الجنوب وتسير في الرمل وانت متوجه إلى القبلية يكون الرمل من مصبه عن يمينك إلى افريقية وعن يسارك من أرض مصر إلى أرض الفيوم منها)
- (٢) المالكي ، رياض النفوس ، طبعة القاهرة ١٩٥١ ، ج ١ ص ٢٩ .
- (٣) ابن الأثير ، (طبعة ١٣٥٦ هـ) ج ٣ ص ٣٠٩ ؛ وانظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢٠٥ . وتابع .
- (٤) انظر مصطفى بعبو ، مجمل تاريخ ليبيا ، ص ٤١ . وانظر عن ضم برقة وطرابلس إلى مصر على عهد روما وبيزنطة M.A. Orici, La Lutte entre Arabes et Byzantins, p. 63 ex note 3.
- (٥) المالكي ، رياض النفوس ، هامش ١ ص ٢٩ (الحسين مؤنس) .
- (٦) صبح الاعشى ، ج ٣ ص ٣٩٠ ؛ النجوم الزاهرة ، طبعة مصر ، ١٩٣٢ ، ج ٣ ص ١٨٦ ، ١٨٧ .
- (٧) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٣ ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

بل وأكثر من هذا كانت الاسكندرية وبرقة تكونان في أوائل القرن الرابع الهجري « مديرية » واحدة لها واليها المستقل عن والي مصر^١ .

وعلى كل حال لا يتكلم الكتاب الا عن ولايتي برقة المتاخمة لمصر وطرابلس المتاخمة لافريقية، وكل منها تعتبر نظريا على الأقل من أعمال الولاية المجاورة لها. والحقيقة أن الحدود بين هذه البلاد جميعا ليست الا اعتبارية، ترسم الآن في خطوط على الخرائط ولا يوجد لها أثر على الطبيعة، فكل منها امتداد طبيعي للأخرى^٢ . ولكن اذا كانت مدينة طرابلس قد اعتبرت أول مدينة افريقية^٣، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لمرت التي كانت مع أجدادية تتبع الخلافة العباسية لتكون مثل برقة عملا من أعمال مصر^٤ .

هذه كانت حالة مدن ليبيا الرئيسية - الساحلية منها أو القريبة من الساحل - من الناحية الادارية والسياسية عند استيلاء الفاطميين على افريقية . أما الهضاب والصحاري والبادي فلا يعرف موقعا بالضبط، الا أن قبائلها كانت تتمتع بحرية فعلية، ولم يكن لحكومة القيروان أو لحكومة الفسطاط سلطان عليها، مثل ذلك قبائل جبل نفوسة الخارجية غربي طرابلس، وقبائل لواتة وهوارة التي كانت تقيم في صحراء طرابلس وتسبب للمدينة كثيرا من المتاعب .

الفترة الاولى

أول ما يلفت النظر هو أنه بمجرد استقرار الفاطميين في افريقية، وقفت مدينتا

(١) انظر عريب بن سعد القرطبي (صلة تاريخ الطبري، طبعة مصر، ص ٣١) الذي يورد أن برقة كانت تابعة لوالي الاسكندرية القاسم بن سيم سنة ٣٠١ هـ وانظر ابن تفرى بردي حيث يقول أن أهل لويبة ومراقية أجلاوا إلى الاسكندرية سنة ٣٠٤ = ٩١٦ خشيبة العسكر الفاطمي (النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٨٦) أو أن عسكر الخليفة أجلى حباسة عن الاسكندرية وبرقة سنة ٣٠٢ = ٩١٤ (ج ٣ ص ١٧٣) .

(٢) أنظر P. Hubac, Tunisie (coll. l'Union Fr.) p. 7

(٣) ياقوت، معجم البلدان، طبعة بيروت، ج ٢ ص ٢١٧؛ صبح الأعشى، ج ٥ ص ١٠٤ (ينقل عن ياقوت)، ج ٥ ص ٩٩ . ولهذا السبب انضوت طرابلس تحت حكم الفاطميين دون أي مجهود بمجرد دخول أبي عبد الله القيروان، إذ أرسل قوة من رجاله إلى طرابلس أحضرت أخاه أبا القاسم الذي كان مستقلا بها وكذلك أم المهدي عبد الله . انظر ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٤) ابن الاثير، ج ٨ ص ٢٤٥

ليبيا الكبيرتان موقعا غربيا بالنسبة للحكومة المركزية التي تتبعها كل منها . ولكن هذه الغربة لا تلبث أن تزول اذا عرفنا أن البلاد جميعا كانت تطاول جاهدة وبصفة مستمرة أن تتخلص من سلطان جارتها الكبيرتين وأنها عملت - منذ القدم، وما بين الحين والحين - على أن يكون لها كيائها الخاص وشخصيتها المستقلة، وأنها كانت تنجح في ذلك في كثير من الأوقات . انتهزت المدينتان إذن فرصة الانقلاب السياسي الذي حدث في المغرب، ورأتا أن تجربا حظهما في التحرر، فثارتا في وقت متقارب على حكومتيهما . وبدأ الاضطراب في ولاية طرابلس والخروج على الفاطميين سنة ٢٩٨ = ٩١١، فثارت قبائل هوارة بقيادة أبي هارون الهواري، وتحالفت معها في العصيان جماعات من زناته ولامية، وزحف الجميع إلى المدينة وضربوا حولها الحصار . ولكن عبيد الله المهدي تمكن من تشتيت شمل الثوار فأخرج اليهم قائده أبا زاكى تمام بن معارك الاجابي الذي قتل منهم مقتلة عظيمة، وبعث برؤوس القتلى وأذانبهم إلى رقادة حيث نصبت^١ . ورغم الحملات التأديبية والانتقامية التي وجهها عبيد الله ضد لامية وزناته فإن هذه الثورة كانت تمهيدا لثورة المدينة نفسها بعد سنتين . ففي سنة ٣٠٠ / ٩١٢ - ٩١٣ أعلن الطرابلسيون العصيان وقتلوا الحامية الكتامية وانتخبوا قائدا منهم هو محمد بن اسحق المعروف بابن القرشي . ووجه المهدي لحرب المدينة الثائرة جيشا بقيادة ابنه أبي القاسم، الذي كان قد حضر لتوّه من حرب العصاة في بلد كتامة، كما وجه اسطولا بحريا يتكون من ١٥ مركبا حربية . وقاومت طرابلس مقاومة شجاعة استمرت أشهرا وأظهر أهلها ضروبا من البسالة والبطولة . فما إن وصلت الحملة البحرية حتى أخرجوا إليها مراكبهم التي نجحت في احراقها والقضاء على من فيها من المقاتلة، وبذلك سجلوا أوائل مفارخهم كبجارة مهرة . أما أبو القاسم فإنه اتخذ طريق البر وعرج على منازل قبائل هوارة، نائفة الأمس، فأوقع بها ثم نزل على طرابلس وشدد الحصار عليها . ولم تستلم المدينة بالأمان الا بعد أن نفذ منها القوات حتى أكل الناس الميتة . وقبض أبو القاسم على زعماء الثورة وعلى رأسهم محمد بن اسحق، وصحبهم معه إلى القيروان حيث

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

شهر بهم^١ ، أما عن أهل طرابلس فأنتهم أغرموا كل نفقات الحملة وترك أمر تعذيبهم واستخلاص الأموال منهم إلى القائد خليل بن اسحق - الذي سيفتخر فيما بعد بمذابحه في أهل صقلية - وهو من مواليد طرابلس ومن أبناء جندها^٢ .

وفي نفس هذا الوقت ثارت برقة، ولكن ضد حكم العباسيين الذين أنهوا حكم الطولونيين في مصر . ويفهم من رواية ابن تغري بردي^٣ أن الفاطميين كان لهم يد في تدبير الاضطراب إذا أثاروا الأعراب في المنطقة فخرج هؤلاء يهاجون حدود مصر . وكان ذلك بمثابة التمهيد لثورة المدينة نفسها التي انتهت بأن أغرقت في الدم ؛ إذا اعتبرت هذه الثورة خيانة من المدينة التي تعد ثغرا يحصى مصر من الخطر الشيعي المحدث بها ، وأخذت دون رحمة أو شفقة ، وانتقم من الثوار انتقاما يعبر عن الغيظ والتشفي - الذي يذكر بانتقام عبد الرحمن الداخل من الثوار العباسيين سنة ١٤٦/٧٦٣ - فقطعت أنوفهم وآذانهم وأرسلت إلى المشرق^٤ .

وشجعت ثورة برقة عبيد الله فعمل على الاسراع في محاولة غزو مصر . ففي السنة التالية (٣٠١/٩١٣) بعث بقائده حباسة بن يوسف على رأس قواته نحو المشرق ، وكانت الحملة نزهة عسكرية : إذ دخل حباسة مدينة سرت بالأمان ودون مقاومة بعد أن فر من كان بها من الجند العباسي ، وبعث بالنبا سريعا فأعلن فورا من أعلى منابر أفريقية . وتابع حباسة تقدمه فدخل أجداية بالأمان أيضا وهربت الحامية العباسية . وأتبع ذلك بدخوله برقة التي راحت ضحية انتقام الفاطميين بعد أن كانت بالأمس فريسة انتقام العباسيين ، فقتل من أهلها عدد كبير ، ثم أغرم الأحياء مفارم ثقيلة بلغ بعضها مائة ألف مثقال في يوم واحد . وكانت حجة حباسة في تنكيهه بالبرقيين أنه انتقم لما لحق الإمام عبيد الله بالمدينة من الاهانة ، عندما دخلها وهو

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ؛ وانظر ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٧٤ .

(٢) ابن الأثير، ج ٨ ص ٢٥ ؛ وانظر عريب بن سعد (صلة تاريخ الطبري، ص ٣٧) الذي يكتفي بذكر أنه فتح طرابلس وأخذ منها أموالا عظيمة ؛ وانظر التيجاني، الرحلة، طبعة تونس ١٩٢٧، ص ١٧٢ .

(٣) النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٧٢ .

(٤) ابن الأثير، ج ٨ ص ٢٨ .

قادم من مصر ، إذ سرقوا ماله وشتموه ولطموه^١ . ووصل حباسة إلى الاسكندرية بعد أن هزم جيشا عباسيا في حدود برقة ، ولحق به أبو القاسم بن عبيد الله واتجه الاثنان نحو القيوم ولكنهما اختلفا فعاد حباسة مخالفا وانسحب الأمير الفاطمي أمام قوات العباسيين^٢ .

وعند عودة أبي القاسم (سنة ٣٠٢/٩١٤) مر ببرقة فخرج أهلها لاستقباله وتهنئته بالسلامة . ورد ولي العهد الفاطمي على تحيتهم بأنه ما عاد من مصر الا لطلب حباسة ليعاقبه على ما فعله بهم، وأمرهم بتجديد ما أصاب المدينة من الهدم والخراب، ثم ترك لديهم حامية من كتامة وعاد إلى والده . ولكن ما أن عرفت عامة الشعب بفشله في مصر، وباقترب الجيش العباسي الذي كان يتعقبه، حتى قامت إلى الحامية الفاطمية فقتلت أفرادها وأعلنت الثورة^٣ . واضطر عبيد الله المهدي إلى أن يسير الجيوش من جديد ضد برقة بقيادة أبي مدين بن فروخ الهيصي . وقامت المدينة طوال عام ونصف عام وهي محاصرة أشد الحصر، ولم تستسلم الا بعد أن فنى أكثر أهلها وذلك في سنة ٣٠٤/٩١٦ - ٩١٧ ، فاستصفت أموال من بقى منهم وأرسل

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ؛ الطبري (طبعة ١٣٥٨) لا يذكر الا دخول أصحاب عبيد الله الذي يسميه «ابن البصري» برقة وطردهم عامل السلطان عنها (ج ٨ ص ٢٥٦) ؛ أما عريب بن سعد (صلة تاريخ الطبري، ص ٣٤) فيقول أنه وردت كتب التجار بدخول الشيعة برقة وعظم ما أحدثوا في تلك الناحية . وانظر المقرئ (اتعاظ الحنفا، نشر الشيال، القاهرة ١٩٤٨، ص ٨٣ - ٨٤ وهامش ٢) حيث يوجد نص يظن - رغم عدم وضوحه - أنه متعلق بهذه الحادثة . هذا النص يقول أنه بعد خروج المهدي من مصر « خرج عليه عدة من اللصوص بموضع يقال له «الطاحونة» فأخذوا بعض متاعه ومنه كتب وملاحم كانت لأبائه فعظم أمرها عليه . فيقال أنه لما خرج ابنه أبو القاسم ، في المرة الأولى ، إلى الديار المصرية أخذها من ذلك المكان . وانظر ابن الأثير (ج ٨ ص ٣٢ ، ٣٤) الذي يجعل قيادة حملة سنة ٣٠١ إلى أبي القاسم بن المهدي ، ويجعل مسير حباسة إلى الاسكندرية سنة ٣٠٢ (كما هو موجود في الطبري) ، وهذا ما لا يتفق مع رواية ابن عذاري المغربية التي أخذنا بها .

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٣٦ ؛ وقارن ابن الأثير، ج ٨ ص ٣٤ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٤٠ ؛ وانظر ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٧٣) الذي يقول أن عسكر الخليفة أجلى حباسة عن الاسكندرية وبرقة .

زعماء الثورة الى المهدي فأمر بقتلهم^١. وظل أبو مدين بن فروخ واليا لبرقة الى حين وفاته في سنة ٩١٩/٣٠٦ وهي السنة التي دخل فيها الجيش الفاطمي الى مصر للمرة الثانية^٢.

وهكذا دخلت مدن ليبيا تحت الحكم الفاطمي وضمت الى افريقية، وعين لها العمال والجباة والقضاة من الاسماعلية^٣، إلا أن خضوعها ظل مؤقتا كالمعتاد. أما البوادي فرغم أن الفاطميين كانوا يكتفون منها بالركون الى الهدوء والسكينة بعد دفع ما هو مقرر عليها من الأموال، فانها عمدت كدأها الى اثار الاضطراب ومهاجمة المدن والحضر كلما وجدت الى ذلك سبيلا. ويعبر عن ذلك ما ينسب الى المعز من أنه أوصى بلكين بن زيري بألا يرفع الجباية عن أهل البادية ولا السيف عن البربر وأن يفعل مع أهل الحاضرة خيرا^٤. ففي سنة ٩٢٢/٣١٠ - ٩٢٣ ثارت قبائل نفوسة في منطقتها الجبلية النبعة، والخارجة أبدا على السلطان بزعامه رجل يدعى «أبو بطة»^٥. وعندما سير اليهم عبيد الله قائده على بن سليمان تمكنوا من مفاجأة قواته التي انهزمت أمامهم، واضطر القائد الى الالتجاء الى مدينة طرابلس. وسير المهدي أمدادا جديدا الى على بن سليمان الذي عاود ضرب الحصار حول المنطقة الثائرة، ولكنه لم يصل الى نتيجة حاسمة^٦. وفي سنة ٩٢٨/٣١٦ اضطرب البربر في منطقة برقة فسار اليها أبو القاسم بن عبيد الله وضرب الحصار على حصنهم المعروف بأعزر وتمكن من هدم أسواره على المدافعين الذين أحرقوا أمتعتهم وعرقبوا دوابهم ومواشيهم ودافعوا عن أنفسهم دفاع اليأس المستميت^٧.

وفي نفس هذه السنة كان أبو يزيد الزناتي «صاحب الحمار» وثائر أوراس الكبير، الذي كاد أن يقضى على ملك الفاطميين، لاجئا في مدينة طرابلس وذلك في ابتداء أمره. وكان قد خرج من ققيوس (من بلاد الجريد) - حيث بدأ دعوته وهو يعلم الصبيان - اثر مقتل عاملها الفاطمي بتحريض منه، وخشية على نفسه، فعزم على الابتعاد عن البلاد وقرر القيام بفريضة الحج، ولكن ما ان وصل الى طرابلس حتى وصلت في أعقابها كتب المهدي في طلب جماعة من البربر ممن حامت حولهم الشبهات، فرأى أبو يزيد أن يهرب وعاد الى ققيوس مستترا حيث بدأ عمال عبيد الله في البحث عنه^٨. وظلت طرابلس آمنة تقبل عمال الشيعة من القضاة والجباة فلا تذكر النصوص اضطراب منطقتها الا سنة ٩٣٢/٣٢٤. ففي هذه السنة توفي عبيد الله المهدي والظاهر أن القبائل المحيطة بالعاصمة الغربية وجدت في موته فرصة مواتية للتحرر من سلطان العبيديين. قام بزعامه الثورة رجل من العرب يعرف بأبن طالوت القرشي، وادعى أنه علوي وأنه ابن المهدي، فأسرت قبائل البربر بتصديقه والتفوا حوله، وسار الدعي الفاطمي الجديد بأنصاره الكثيرين نحو مدينة طرابلس، ولكن نجحت حاميتها بمساعدة الطرابلسيين من رد المهاجمين الذين زعزعتهم الهزيمة وأضعفت ايمانهم بالدعي، فثاروا به وقتلوه، وبعثوا برأسه الى الامام الجديد أبي القاسم^٩. وما ان انتهت الثورة في منطقة طرابلس حتى سير القائم جيشا الى برقة حيث أنضم اليه جزء من حاميات كتامة هناك، وتابع الجميع سيرهم نحو الاسكندرية فدخلوها ولكنهم انهزموا بعد ذلك أمام قوات الاخشيديين^{١٠}.

ولا يذكر الكتاب شيئا عن ليبيا بعد هذه الأحداث الى نهاية عهد القائم (٩٤٦/٣٣٤) وكذلك خلال عهد المنصور (٩٤٦/٣٤١ - ٩٥٣) أي أثناء تلك الفترة التي شغلها الصراع ضد أبي يزيد اليفرنى الزناتي، رغم أن منطقة طرابلس كان يتردد فيها صدى الثورة المندلعة من الجنوب التونسي المتناخم لها. ولكن لما كانت الحرب

- (١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٤١.
- (٢) نفس المصدر، ج ١ ص ٢٥٤؛ وانظر الطاهر احمد الزاوي، الفتح العربي في ليبيا، ص ١٦٧ (يكتب أبو مدينى بدلا من «أبو مدين»).
- (٣) هناك ذكر لبعض عمال وولاة وقضاة طرابلس وبرقة في هذا العصر في كتاب ابن عذارى (انظر البيان المغرب، ج ١ ص ٢٥٣، ٢٦٥، ٢٩٠، ٢٩١).
- (٤) انظر ابن خلكان (طبعة ١٩٤٨)، ترجمة بلكين بن زيري، ج ١ ص ٢٥٧.
- (٥) ابن عذارى، ج ١ ص ٢٦٣.
- (٦) هنا لا يمكن التأكد من صحة نص ابن عذارى (البيان، ج ١ ص ٢٧٢) والارجح أن النص محرف وأن المقصود بموضع هذه الواقعة ليس برقة إذ تمته أن هوارة هوارة ولماية خضعتا اثر ذلك فأمّنهم أبو القاسم الذي سار الى تاهرت. وعلى ذلك ليس من البعيد أن يكون حصن أغرر المذكور في المغرب الأوسط.
- (٧) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٧٣؛ وانظر القريري (اتعاط الحنفا، ص ١٠٩) الذي يحدد بدء خروجه بسنة ٣١٦ على أيام المهدي.
- (٨) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٦؛ ابن الاثير، ج ٨ ص ١٠٧ (ينقله القريري في اتعاط الحنفا، ص ١٠٨).
- (٩) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٩٦؛ ابن الاثير، ج ٨ ص ١٠٧.

حتى نسب بعض الكتاب مقتله إلى رفقاء هذه الليالي بعد أن سكروا وعربدوا عليه^١.

أما موانئ ولاية برقة فقد ازدادت أهميتها العسكرية الاستراتيجية مثلها في ذلك مثل طرابلس . فبينما ازدادت أهمية طرابلس بعد أن أصبحت من قواعد أسطول صقلية ، استرعت موانئ برقة أنظار المعز لوقوعها في الطريق البحري إلى مصر ولما كان استخدامها للتدخل في شئون جزيرة اقريطش (كريت) . فعندما عجزت الخلافة العباسية ومصر عن حماية مسلمي الجزيرة طلب هؤلاء المساعدة من المعز . ورأى المعز أن يستفيد من الموقف إلى أقصى حد فيتخذ من تدخله في شئون كريت ذريعة للتدخل في شئون مصر ، ودبر خطة للعمل المشترك بينه وبين الأخشيديين . هذه الخطة كانت موضوع خطاب رسمي بعث به المعز إلى صاحب مصر وقتله أبو حنيفة النعمان بن محمد الفقيه الأسماعيلي في كتابه المسمى بالمجالس والمسائرات^٢.

حث المعز في هذا الخطاب أبا الحسن على الأخشيد على الجهاد وامداد أهل كريت بالمرائب ، ولنت نظره إلى أن تدخل الأسطول الفاطمي - تلبية لدعوة الكرنتيين المسلمين - لا يستدعي تخليه عن هذا الواجب ، بل ربما كان من المصلحة أن يعمل الأسطولان سويا . وهو بعد أن طمأن الأخشيدي على مراكزه وأعطاء الموائيق والعهود طلب منه أن يبعث المراكب المصرية إلى مرسى « طبرقة »^٣ من أرض برقة لقربه من جزيرة اقريطش . وحدد المعز موعد اجتماع المراكب المصرية بالمرائب الفاطمية في مرسى برقة الشرقي هذا في أول ربيع الثاني (من سنة ٣٥٠) . وختم المعز خطابه هذا بأنه سيرسل - على كل حال - أساطيله لمساعدة المسلمين في الجزيرة سواء وافق الأخشيدي أم لم يوافق .

كل هذا يبين أن ليبيا تمتعت بنوع من الاستقرار والرخاء كما احتلت مكانا مرموقا في السنوات الأخيرة من عهد الفاطميين بآفريقية ، وأن ذلك كان نتيجة طبيعية

- (١) انظر ابن خلكان، ترجمة محمد بن هاني، ج ٤، ص ٤٩ - ٥٠ .
- (٢) انظر حسن إبراهيم وطه شرف، المعز الدين الله، طبعة القاهرة ١٩٤٧، الملحق الاول ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .
- (٣) هذه الكلمة موجودة في النص في شكل « طينة » وهذا غير صحيح فطينة من مدن الزاب ، ولهذا وضعنا بدلا منها « طبرقة » أي ميناء برقة الشرقي فهذا اقرب إلى الصواب .

لتوجيه سياسة الخلفاء وجهة مشرقية ولا سيما على عهد المعز الذي تم على عهده فتح مصر .

الفترة الثانية :

وفي يوم ٢١ من شوال سنة ٣٦١ / ٩ أغسطس ٩٧٢ خرج المعز لدين الله من المنصورة قاصدا مصر وفي نيته عدم الرجوع إلى المغرب . ولم يسر المعز نحو المشرق مباشرة بل أقام حوالي شهرين في قرية سردانية القريبة من القيروان انتظارا لاجتماع رجاله وقيام عدده . وفي يوم ٢٠ من ذي الحجة / ٣ أكتوبر رحل المعز عن سردانية بعد أن استخلف على البلاد يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي . وتقول الرواية أن المعز عرض التفويض في أول الأمر على قائده أبي احمد جعفر بن علي ولكن هذا طلب أن يتمتع بما يشبه الاستقلال التام عن الخلافة « لبعد ما بين مصر والمغرب » حتى أغضب المعز . أما بلكين فإنه تحفظ عندما عرض عليه الاستخلاف ثم قبله بشرط أن يولى المعز القضاء والخراج لمن يراه ، ويولى الخير لمن يثق به ، وأن يجعله قائما بين أيديهم لمواجهة العصاة بينما يكون الأمر لهم^٤ .

ويغلب على الظن أن هذه الرواية موضوعة فيما بعد ، وأنها تعبر عن الحالة الراهنة وقتذاك وعمما اتخذ المعز من الاجراءات لضمان بقاء آفريقية تحت سلطانه . فهو لم يجعل بلكين يستبد بالبلاد رغم ما أعطاه من سلطات واسعة ، بل جعل إلى جانبه عاملا لجباية الأموال هو زيادة الله بن القديم ، وعاملين على الخراج هما عبد الجبار الخراساني وحسين بن خلف الموصدي^٥ ، وكان هؤلاء يتبعون المعز مباشرة بطبيعة الحال .

ويؤيد هذا الرأي ما تنسبه الرواية السابقة إلى المعز من أنه كان يعرف ان المسألة ستنتهي بافراد بلكين بالأمر اذا ما تطاولت المدة . ولهذا السبب أيضا لم يكن تقليد بلكين شاملا لكل الأملاك الفاطمية في المغرب ، وذلك أن المعز أخرج ليبيا جميعا من امارته بما فيها مدينة طرابلس التي كانت تتبع آفريقية في معظم الأحيان

- (١) انظر ابن خلكان، ترجمة المعز، ج ٤، ص ٢١٤ ؛ ، انعاظ الحنفا ، ص ١٤٤ .
- (٢) المقرئ ، انعاظ الحنفاء ، ص ١٤٢ .
- (٣) ابن الاثير ، ج ٨، ص ٢٤٥ .
- (٤) المقرئ ، انعاظ الحنفاء ، ص ١٤٣ .

والتي كانت تعتبر أول مدنها الشرقية .

وهكذا انشأ المعز ولاية جديدة تتكون من طرابلس وسرت وأجدابية ، وفصلها عن إفريقية وعهد بولايتها الى أحد قواد كتامة وهو عبد الله بن يخلف الذي كان أسيرا عنده^١ . ولا شك أن هذه السياسة من جانب المعز كانت تهدف الى استرضاء كتامة ، رجال دولته ، باطلاق ذلك الزعيم واقطاعه النصف الغربى أو ما يزيد على النصف من ليبيا ، ثم العمل على الحد من نفوذ بلقين الصنهاجى حتى لا يفكر فى استغلال مركزه وتقوية نفوذه خشيته جاره القوى . وكذلك كان الامر بالنسبة لصقلية التى ثبت فى ولايتها بنى أبى الحسين من أبناء الحسن بن على مؤسس أسرة الكليين بالجزيرة^٢ .

ترتب على هذا الاجراء الذى أريد به اقامة التوازن بين نواب المعز ان اقسمت أملاك الفاطميين المغربية الى ثلاث ولايات منفصلة هى : إفريقية (التي ستصبح تونس فيما بعد) وما بين برقة وقابس (التي أصبحت ليبيا الآن) ثم صقلية (التي انفصلت عن أملاك الاسلام بعد أن استرجعتها أوروبا بعد قليل) ، وكان ذلك تمهيدا لقيام أسر مستقلة فى كل منها .

وسار موكب المعز الضخم نحو مصر بأحمال الذهب والفضة ، يتقدمها تواييت أسلافه ، وتحيط بها قواته وحاشيته ، ووصل الى طرابلس عن طريق قابس . وفى طرابلس انتهزت فرقة من رجاله ، كان قد ساءهم أن يهاجروا الى المشرق ، الفرصة فهربوا الى جبال نفوسة ، واعتصموا بالمنطقة الخارجة أبدا على القانون ، وفشلت

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ؛ وانظر الطاهر احمد الزاوى ، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، ص ١٧٣ .

(٢) نلاحظ هنا أن ابن الأثير (ج ٨ ص ٢٤٥) الذى ينقله المقرئى فى اتعاظ الحنفاء ص ١٤٤ يقول أن المعز عهد بالجزيرة الى الحسن بن على ولكن الحسن كان قد مات فى سنة ٣٥٤/٩٦٥ (انظر سيرة جوذر ، هامش رقم ١٢٢ ص ١٨٧) . أما الذى ولى الجزيرة بعده فهو ابنه احمد الذى توفى قبل مسير المعز الى مصر ثم ابنه الثانى أبو القاسم الذى ظل يليها من سنة ٣٥٩ الى سنة ٣٧٢ (انظر حسن ابراهيم وطه شرف ، المعز لدين الله ، ص ٦٣) . ولزيادة المعلومات انظر الفصول الخاصة ببنى أبى الحسين فى

Michele AMARI, Storia dei Musulmani di Sicilia :

(عن بداية الحسن بن على ج ٢ ص ٢٣٧ ، ٢٧٥ وعن أسرة بنى الحسن فى الجزيرة ابتداء من صفحة ٢٧٩) .

مجهودات المعز فى استرجاعهم^١ . وتابع الموكب الملوكى سيره مارا بسرت وأجدابية والمعز يقيم بعض الأوقات فى بعض المواضع ، ويجد السير فى بعضها الى أن وصل برقة فى ١٤ جمادى الاولى سنة ٣٦٢/٣٠ فبراير سنة ٩٧٣ ونزل بالقصر خارج المدينة^٢ بموضع يعرف بمياسر^٣ . وهناك فقد المعز شاعره المشهور محمد بن هانىء الأندلسى ، ويظن أنه اغتيل لمعالاته فى مدح المعز حتى اتهم بالكفر ، وذلك فى اواخر رجب/ابريل^٤ . وفى برقة أيضا توفى عم المعز وهو يوسف بن القائم^٥ . كما توفى مولاه جوذر الصقلية فنقل الى القصر حيث دفن بجامعة^٦ . ووصل المعز الى الاسكندرية فى اواخر شعبان/مايو ، ودخل القاهرة فى رمضان بعد رحلة استغرقت حوالى العام .

وبمجرد أن استقر بلقين فى امارته أظهر جدارة بالمنصب الكبير : فهزم الثوار الذين ظنوا أن الفرصة سنحت للتحرر من سلطان القيروان فى باغاية وفى تاهرت كما قهر زناته قرب تلمسان . والظاهر أنه شعر أو كان يشعر بقوته ومكائنه فبدأ بمارس سلطانه كأمر مستقل دون أن يقيم وزنا لعمال الخليفة الفاطمى . وهكذا انتهى أمر زيادة الله بن القديم الذى كان قد عينه المعز على جباية الأموال الى الموت أو الاغتيال سنة ٣٦٦/٩٧٦ - ٩٧٧ فى سجن عبد الله بن محمد الكاتب ، الذى آل اليه تدبير دولة بلقين^٧ . أما صاحب الخراج حسين بن خلف فانه كان قد ثار سنة ٣٦٤/٩٧٤ - ٩٧٥ على بلقين وجمع حوله البربر - ربما فى نفس الوقت الذى بدأ فيه النزاع بين زيادة الله وعبد الله الكاتب^٨ .

ورغم هذا ظل الامير الصنهاجى يحافظ على الشكليات : من اظهار الخضوع

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣٤٤ - ٢٤٥ .

(٢) المقرئى ، اتعاظ الحنفاء ، ص ١٨٦ .

(٣) سيرة جوذر ، ص ١٤٧ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٤٥ ؛ وانظر ابن خلكان (ترجمة ابن هانىء) ، ج ٤ ص ٤٩ - ٥٠ .

(٥) المقرئى ، اتعاظ الحنفاء ، ص ١٢٧ .

(٦) سيرة جوذر ، ص ١٤٧ .

(٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٢٨ ؛ ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٤٥ .

(٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٤٦ (النص هنا غير واضح بشكل أكيد ولكن هذا هو التفسير المقبول) .

والولاء للخليفة بالقاهرة كلما تطلبت الظروف . فعقب وفاة المعز سنة ٣٦٥/٩٧٦ أرسل بلكين بعثة الى القاهرة تحمل الى الخليفة الجديد العزيز بالله هديته وتهنئته بالولاية ، وتؤكد له الطاعة^١ . هذا وسيسير أبناء بلكين على هذا المنهج كلما اعتلى خليفة جديد عرش مصر .

وفي سنة ٣٦٧/٩٧٧ - ٩٧٨ قام عامل بلكين وهو عبد الله الكاتب بارسال أكثر من ٤٠٠ ألف دينار كان قد جمعها في السنة السابقة قهرا من أهل القيروان الى القاهرة ، ربما لشراء رضا الخليفة عنه ولاقناعه بأنه ليس بأقل غناء من عامله الذي مات في سجنه . ورغم أن العزيز أمر برد المال الى أصحابه الا انه أظهر رضاه عن بلكين فلم يكتف بأن جدد له تقليد ولاية إفريقية بل ولاه أيضا على الجزء الغربي من ليبيا ، فأضاف اليه طرابلس وسرت واجدانية وما يتبعها من الاعمال^٢ . وعهد بالقيادة العسكرية للأملاكه الليبية الى أبي الفتح يحيى بن خليفة الملياني ولكنه عزله بعد شهور^٣ . وهكذا قامت العزيز بحكمة والده المعز من فضل هذا الجزء من ليبيا عن إفريقية ، واخراجه عن سلطان بلكين ، فزادت قوة هذا الأخير الذي كان يظهر الطاعة « مجاملة ومراقبة لا مائل وراءها » كما يقول ابن الأثير^٤ .

- (١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٩ .
(٢) ابن الأثير، ج ٨ ص ٢٦٣ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٢٩ (لا يذكر الا طرابلس ونواحيها فقط) ، وانظر .

G. Margais, La Berbérie Musulmane, p. 158.

- (٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٢٩ .
(٤) الكامل، ج ٨ ص ٢٦٤ . هذا ولو أن يوسف بلكين عمل في السنة التالية ٣٦٨/

٩٩٧ على أن يؤكد حسن ثقة العزيز فيه ، فقام باسمه بحملة كبرى في بلاد المغرب فوصل بجيوشه الى فاس واستولى عليها ودخل سجلماسة ، وطرد عمال بنى أمية الأندلسيين ، وهدد سبتة الأموية ثم عاد الى البصرة وخرّبها وكانت للأمويين أيضا . ثم طارد زنانه أعداء الصنهاجيين حتى الجاهم الى الرمال في اقاصي المغرب ، وأخضع برغواطية في جبال أطلس وقتل متبنيهم صالح بن عيسى ، وظل مقيما بالمغرب الى سنة ٣٧٣/٩٨٣ . وخلال تجواله هذا في المغرب كانت الخطابات الرسمية ترد اليه على البريد من القاهرة تثني على حسن بلائه ضد أعداء سادته المقيمين في مصر (انظر ابن الأثير ، ص ٢٦٤ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٣٠ ، ٣٣٨) . ولكن عندما وصلتته هناك رسالة من مصر تطلب منه اختيار وارسل ألف فارس من أبطال صنهاجه ، كتب يعتذر بلزومهم له في حربه ضد الأمويين امراء الاندلس ، وهدد بأن يترك المغرب اذا ما أصر الخليفة . واكتفت القاهرة بالسكوت وعدم الرد (ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٢٠) . ومات يوسف بلكين في =

ورغم أن المنصور بن بلكين الذي ولي في أوائل سنة ٣٧٤/٩٨٤ عقب وفاة والده ، قام بارسال البعثة التقليدية الى القاهرة تحمل ولاءه وطاعته للخليفة بصفته الأمير الجديد للولاية التي ورث امارتها عن والده ، وتطلب بالتالي تقليد الخليفة وعهده ، ورغم أن الهدية التي حملها المبعوث كانت ثمينة تحوى من الدواب والأمتعة والطرف ما يقدر الكتاب - بشئ من المبالغة - بمليون دينار ، فإن اتجاه المنصور الى التحرر من سلطان مصر واعتقاده في استقلاله وسيادته كان واضحا منذ البداية . ويعبر عن ذلك خطبته التي خطبها في أعيان القيروان الذين ذهبوا لتعزيته وتهنئته بمدينة أشير حيث كان يقيم . فهو بعد أن وعدهم بالخير والاحسان اليهم ، على عكس ما نهج عليه والده وجده من سياسة القهر والعنف ، قال : « وما أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب (ويشرح ابن الأثير ذلك بأنه يعنى أن الخليفة بمصر لا يقدر على عزله بكتاب) لأنى ورثته عن آبائى وأجدادى وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير^١ » . ومع هذا فإن كتاب التقليد الذي يستهين به كان مهما بالنسبة له ، فهو يقوى من سلطانه ويؤكد شرعيته ، وعلى ذلك فعندما وصل في سنة ٣٨٢/٩٩٢ سجل من العزيز بالله بولاية المهدي لابنه باديس سر بذلك سرورا عظيما وجاءته الهداية من كل مكان^٢ . حدث ذلك بعد اضطرابات كئامة سنة ٣٧٦/٩٨٦ - ٩٨٧ ، وستة ٣٧٨/٩٨٧ - ٩٨٨ بتحريض العزيز وقهر المنصور لهم^٣ .

اواخر سنة ٣٧٣/٩٨٤ وهو في طريقه من امام سبتة الى سجلماسة التي دخلها خزرون بن فلفول الزناتى وقتل بها عامل بلكين (ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٤١) .

- (١) ابن عذارى، البيان، ج ١ ص ٣٤٣ - ٣٤٤ ؛ ابن الأثير، ج ٩ ص ١٤ .
(٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٤٣ . وانظر G. Margais, La Berbérie Musulmane, p. 160
هنا يظهر أن جورج مارسيه استند الى الترجمة الفرنسية لبيان ابن عذارى دون أن يرجع الى النص فهو يترجم كلمة « حمير » التي يقصد بها ملوك اليمن الحميريين بكلمة « حمير anes » ويترتب على ذلك أنه يغير في المعنى بحيث يصبح « وورثوه عن آبائهم وأجدادهم ولكن أجدادهم كانوا حميرا »
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٥٢ .
(٤) ابن الأثير، ج ٩ ص ٢٢، ٢٧ - ٢٨ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٤٥ - ٣٤٦ ، وانظر

G. Margais, La Berbérie Musulmane, p. 160 - 161

وتوفي المنصور بن بلكين سنة ٣٨٩/٩٩٦ وهى نفس السنة التى توفى فيها العزيز بالله ، ولا ذكر لليبيا الغربية التى ضمت الى دولة صنهاجة ، ولا للجزء الشرقى منها الذى ظل تابعا لمصر . ولكن بولاية باديس بن المنصور وخلافة الحاكم الفاطمى تغيرت الأمور الى حد كبير . فبعد أن كان مركز الصراع بين العزيز والمنصور فى المغرب الاوسط حيث سار دعاة القاهرة يؤلبون كتامة فى منطقة سطيف ضد تابعها القوى ، انتقل مسرح هذا الصراع الى ليبيا الغربية ومنطقة طرابلس ، وذلك رغم تبادل تجديد العهد والبيعة ، وتبادل الهدايا الذى أصبح أمرا شكليا وتقليديا . ففى سنة ٣٨٩/٩٩٩ قامت زناته بالمغرب الأقصى والأوسط بقيادة زيرى بن عطية صاحب فاس وتأثرت لنفسها من الهزائم التى ألحقها بها يوسف بلكين وابنه المنصور من قبل . فرحف ابن عطية الى تاهرت ، وهناك حاصر يطوفت عم باديس ، ثم هزم الجيشين اللذين اخرجهما باديس لانتقاد تاهرت وأولهما بقيادة عمه حماد صاحب أشير ، وثانيهما بقيادة كاتبه محمد بن أبى العرب . وخرج باديس بنفسه للقاء زيرى بن عطية ، وعرج فى طريقه على طبنه حيث كان فلفل بن سعيد حفيد خزرون الزناتى الذى قاتل جده بلكين فى سجلماسه^٢ وابن سعيد الذى لجأ سنة ٣٧٩/٩٨٩ - ٩٩٠ الى والده المنصور فأكرمه وقربه وولاه طبنه من بلاد الزاب^٣ .

وطلب باديس من فلفل بن سعيد الخروج معه ولكن هذا اعتذر وطلب توليته طبنه ، اقطاع أبيه ، حتى يضبطها فولاه اياها . ولكن ما أن بعد باديس حتى تملكت فلفل العصبية والعداوة القديمة فمضى يفسد فى البلاد حتى باغاية . كل هذا وجموع زناته تلتف حوله ، وكذلك أعمام باديس الساخطون عليه ، حتى طمع فى امتلاك القيروان .

وعاد باديس من حملته والتقى بفلفل وتمكن من هزيمته قرب مرمجة بعد قتال مرير راح فيه أكثر من ٧ آلاف رجل من زناته وزويلة . ولكن الثائر الزناتى اعتصم

(١) انظر ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٢) انظر فيما قبل هامش ٤ ص ٩٧ .

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٤٩ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٥٧

بالصحراء ، ثم اتجه الى منطقة طرابلس^١ . وطوال سنة ٣٩٠/١٠٠٠ ظل فلفل رافعا راية العصيان ، ولكنه لم يستطع أن يواجه قوات باديس فى معركة منظمة ، وخاصة بعد أن انفض عنه كثير من أتباعه ولا سيما عمومة باديس فلم يبق معه منهم الا ماكسن وابناء محسن وباديس الذين قتلوا أثناء الصراع فيما بعد^٢ . وعلى ذلك اتبع فلفل فى ثورته فنا حرييا معروفا لدى البربر وهو يتلخص فى الفرار والاقسام بالصحراء أو الجبال أمام قوات الأمير اذا ما طارده ، ثم العودة الى مهاجمة المدن والمناطق العامرة بعد رجوعها .

ومع أن حوادث هذه الفترة مختلطة متداخلة يصعب على الباحث توقيتها بشكل دقيق فانه يمكن ترتيب أحداث ليبيا على الوجه التالى : أثناء انشغال الامير الصنهاجى بشورة زيرى بن عطية فى المغرب الأوسط والأقصى ، وخلال ثورة فلفل وانضمام الأمراء الصنهاجين اليه ، خرجت مدينة طرابلس على باديس سنة ٣٨٩/٩٩٩ عن طريق تدخل الخليفة الحاكم ، الذى رأى أن يصطاد فى الماء العكر ، فاتصل بنائب باديس بها وحرضه على الخروج على سيده . وأعلن الوالى خلع طاعة باديس وطلب ارسال قوة فاطمية للدفاع عن المدينة ولضبطها . وصدرت الأوامر من القاهرة الى والى برقة وهو يانس الصقلى الذى كان من أخصاء الحاكم بالمسير على رأس جيش لاستلام المدينة ، وتم ذلك فى السنة التالية^٣ .

وهكذا كان على باديس أن يواجه تدخل الحاكم الى جانب عصيان فلفل . وبدأ يستفسر عن الغرض من دخول القوات الفاطمية طرابلس ، وعن شرعية عمل يانس . ولما لم يجد جوابا شافيا أرسل جيشا بقيادة جعفر بن حبيب تمكن من قتل يانس وهزيمة رجاله خارج المدينة ثم ضرب الحصار عليهم بعد أن اعتصموا بها^٤ . حدث ذلك وفلفل بن سعيد ثائر فى المنطقة يراوغ قوات الامير الذى كان يتتبع أنباء

(١) ابن الاثير، ج ٩ ص ٦٣ - ٦٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٥٩ - ٦٠ .

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٦١ ؛ ابن خلدون (الترجمة) ، ج ٢ ص ١٧ .

(٣) ابن الاثير، ج ٩ ص ٦٤ .

(٤) ابن الاثير، ج ٩ ص ٦٤ ؛ وانظر احمد النائب الأنصارى ، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٤ - ٩٥ .

تحركاته عن طريق عماله في تلك الجهات . وفي ٢٣ من رجب ٣٩١/١٩ يونية ١٠٠١ وصلت كتب عامل قابس تذكر أن الثائر مر من طريق قابس في اتجاه طرابلس . وفعلا وصل فلفل بينما انسحب القائد الصنهاجي الذي خشي الوقوع بين الزناتين من خارج طرابلس والفاطميين من داخلها ، وتقادى طريق قابس فاتجه نحو الجبل جنوبا . وخرج وفد من الطرابلسيين برئاسة واليها فتوح بن علي وهو من قواد يانس لاستقباله وفتحوا له الأبواب . ولما كانت العامية الفاطمية المحصورة بطرابلس قد طلبت النجدة من مصر ، جهز الحاكم جيشا بقيادة يحيى بن علي الأندلسي ، أخى جعفر بن علي قائد المعز لدين الله ومناقص بلكين ، وبصحته زيدان الصقلي الذي كان اليه تدبير شؤون الحملة . ومر الجيش في الطريق ببرقة حيث كان عليه أن يتزود منها بالمال . وأصيب يحيى بخيبة أمل مريرة إذ كانت خزانة برقة خاوية ليس فيها أموال ، فكان ذلك سببا في تمرد الجند وعدم انتظامه . وواصلت الحملة طريقها فوصلت في ربيع الأول سنة ٣٩٢/يناير ١٠٠٢ الى طرابلس حيث خرج فلفل ، الذي صارت اليه الأمور ، واستقبلها . ومنذ البداية اتضح عدم الانسجام بين الزناتين الذي كان يطمح في السيادة وبين القائد الفاطمي الذي كانت له الولاية الشرعية من قبل الخليفة ، والذي كان قد فقد السيطرة على رجاله المضطربين .

ورغم هذا الاختلاف تم الاتفاق على القيام بعمل مشترك ضد باديس . وفي سنة ١٠٠٣/٣٩٣ خرج يحيى بن علي على رأس قواته المصرية ، وفلفل بن سعيد بأعوانه من زناته وزويلة ، وفتوح بن علي بحامية طرابلس ، واتجهوا نحو قابس وضربوا عليها الحصار في منتصف شعبان/١٩ يونية . ولما لم يكن الوفاق تاما بين الأحلاف الثلاثة فقد فشلت مجهوداتهم ضد المدينة التونسية . وأخيرا رأى يحيى ، الذي أفلت زمام الأمر من يديه ، العودة الى طرابلس . وفي طرابلس عجز القائد الفاطمي من جديد عن مواجهة الموقف : من اختلال عسكره ، وتهجم فلفل ورجاله على جيشه ، فقرر الانسحاب بعد أن نهبت أمتعته وخيله . وهكذا وقعت طرابلس فريسة

- (١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦١ .
- (٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦٨ .
- (٣) نفس المصدر، ج ١ ص ٣٦٨ .
- (٤) ابن الأثير، ج ١ ص ٧٤ .

سهلة بين يدي الثائر الزناتي الذي أعطى لحركته نوعا من الشرعية بعد أن تدخلت جيوش الخليفة الفاطمي الى جانبه .

واكتفى الحاكم بأن صب جام غضبه على قائده الفاشل ، الذي أسخط تابعيه القوى في افريقية ، وأضاع طرابلس فأعطاهما لقمة سائغة لزناته أعداء القواطم وحلفاء الأمويين في المغرب ، حتى كاد يقتله . ولم يتخذ الحاكم اجراءات أخرى ضد الأمير الزيري الذي لم يرض له بأن يسترجع المدينة التي وهبها والده (العزيم) بعد باديس (بلكين) ، ولا ضد الثائر الزناتي الذي استخدمه كمغلب القط واستولى عليها .

وظل فلفل في طرابلس حتى وفاته سنة ١٠٠٩/٤٠٠ - ١٠١٠ بعد أن عمل على جعل المدينة وأعمالها مملكة زناتية صغيرة يورثها لأفراد أسرته : فاتخذ قصرا للامارة، ودون الدواوين ، وقوى من شأنه حتى خلقه أخوه ورثوا الذي بايعته زناته بعده . وساعدت الظروف فلفل على الاستبداد بطرابلس طوال فترة السبع سنوات هذه . ففي السنة التالية لاستيلائه على عاصمة ليبيا الغربية (أي في ٣٩٥/١٠٠٥) حدثت مجاعة كبرى بافريقية صاحبها طاعون فأتت نشر الخراب والدمار ، وشل حركة البلاد بشكل يصفه الكتاب وصفا رائعا . والى جانب هذه المأساة التي أحزنت البلاد بدأ النزاع يشتد بين باديس وبين عمه في مغرب المملكة . ولا شك أن هذا الخطر الجديد أثار اهتمام باديس أكثر من خطر الثائر الزناتي الذي قام باسم الخليفة الفاطمي . ولكن بقاء فلفل في طرابلس كان خطرا على كيان باديس . فبعد أن خذله الفاطميون في مصر بدأ يتطلع الى تأييد الأمويين في الأندلس فراسلهم . ثم بدأ شأنه يرتفع شيئا فشيئا في بلاط القيروان نفسه حتى أصبح ملاذ الساخطين على باديس أو الفارين من رجاله . فعندما توفي محمد بن أبي العرب عامل افريقية ، هرب أبناؤه سنة ٣٩٩/١٠٠٩ من المنصورية ، مقر باديس ، ويمسوا وجوههم نحو فلفل بطرابلس . ولكن باديس حذر والى قابس في الوقت المناسب ، فقبض عليهم

- (١) ابن الأثير، ج ٩ ص ٧٣ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦٩ .
- (٢) ابن الأثير، ج ٩ ص ٧٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٢ .
- (٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦٩ ؛ ابن الأثير، ج ٩ ص ٧٧ .
- (٤) انظر احمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٦ .

وقتل اثنين منهم بينما عاد الثالث وهو القاسم الذي كان قد خلف والده في منصب عامل افريقية ، الى باديس فعفا عنه^١ . وثقل باديس واقفا موقف المترقب ازاء بني خزرون بطرابلس ، ولم يتحرك الا بعد أن بلغه نبأ وفاة فلعل سنة ٤٠٠/١٠١٠ عندئذ سار على رأس قوات كبيرة ووصل الى ظاهر المدينة في أوائل شعبان/أواخر مارس فخرج منها وروا أخو فلعل دون قتال . وتقدم أهل المدينة مرحبين بأمرهم القديم وضربوا خيام الديباج والسرادات الحافلة اعلانا عن سرورهم بمقدمه وحفاوة بوصله . ولكن الأحوال الجوية لم تحقق لهم ما أرادوا فهبت الرياح ومزقت أو اقتلعت ما أقاموا ، وعندئذ أدخلوه الى قصر الامارة الذي كان اتخذته فلعل^٢ .

وخضع وروا بن سعيد ، الذي لم يكن له همة أخيه ونشاطه ، للأمر الواقع فأرسل الى باديس يطلب الأمان له ولمن معه ، فأجابه باديس وعوضهم عن طرابلس وأعمالها فأقطعهم نفزاوة وقسطيلة من بلاد الجريد^٣ . هذا ولم يلبث بنو خزرون أن انشقوا على أنفسهم اذ يذكر ابن عذارى أن خزرون بن سعيد اختلف مع أخيه وروا فقصده الى باديس سنة ٤٠٢/١٠١١ - ١٠١٣ فأكرمه ومن معه من فرسان زناته ، ثم أعطاه احدى المدن فخرج اليها بالبنود والبطول^٤ . وعلى كل حال عادت طرابلس الى افريقية ودولة بنى زيرى بعد أن حققت استقلالها تحت امرة الزناتيين طوال سبع سنوات .

وكان لأحداث طرابلس هذه صداها - كما هو المعتاد - في الجزء الشرقى من ليبيا أى في ولاية برقة التى اقتطعت من مصر فى سنة ٣٩٦/١٠٠٦ على يدى رجل يدعى الوليد بن هشام ويعرف بابى ركوة . ورغم ان الكتاب لا يربطون بين ثورة طرابلس وثورة برقة، فهناك دلائل تبين وجود علاقة بينهما أو أوجه شبه على الأقل : فعمال الثورة فى الحالتين هم زناتة وهؤلاء كانوا حلفاء بنى أمية الأندلسيين فى المغرب . ولكن حركة برقة تختلف عن حركة طرابلس بأنها اتخذت شكل دعوة أموية بدأت بالصورة التقليدية التى بدأت بها الدعوة الفاطمية فى أرض كتامة ، ونجحت فى

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧١ .

(٢) ابن عذارى فى البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٢ . عن قصر فلعل أنظر الطاهر احمد الزاوى، الفتح العربى فى ليبيا، هامش ١ ص ١٨٥ .

(٣) ابن الاثير، ج ٩ ص ٧٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٢ .

(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٣ .

استمالة زناتة التى عاضدتها . وصاحب الدعوة هو الوليد بن هشام من أقرباء المؤيد هشام بن الحكم الأموى ، وكان قد فر من قرطبة عندما طلبه المنصور بن أبى عامر^١ . وبعد رحلة فى الشرق زار خلالها مصر والحجاز واليمن استقر فى برقة حيث اشتغل بتعليم الصبيان ، كما فعل أبو عبد الله الشيعى من قبل فى أرض كتامة . وسلك الرجل مسلك المصلح الاجتماعى فأظهر العدل وأمر بالمعروف وأصلح بين قبائل المنطقة المتخاصمة من عرب بنى قره وبربر زناته ، ثم انتهاز فرصة استيلاء زناته على طرابلس وفترة المجاعة فأعلن نسبة الأموى . والظاهر أنه ادعى انه الأموى المنتظر الذى يعيد مجد بنى أمية فى الشرق ، وتمكن من اقناع أهل المنطقة بأنه مقدر له ملك مصر وازالة حكم الشيعة منها .

وكان من الطبيعى أن تقبل قبائل البربر من لواته وزناته هذه الدعوة فأجابوه ونصبوه اماما عليهم . وعندما أحس باشتداد أمره جمع جموعه وهاجم مدينة برقة، وتمكن من دخولها فى رجب من عام ٣٩٥/ابريل ١٠٠٥ . ورد الحاكم على ذلك بأنه أرسل جيشا ضده ، ولكن النتيجة لم تكن باحسن منها فى طرابلس ، اذ انهزم الجيش الفاطمى الذى أنهكه الجهد والعطش ، وعاد الى مصر بعد أن ترك قائده « ينال » قتيلا فى أرض المعركة . وقوى هذا النصر من شأن الثائر فاستفحل أمره وأصبح خطرا يهدد مصر نفسها ، اذ بدأ يكتاب بعض كبار قواد القاهرة مثل الحسين بن جوهر قائد القواد - كما يروى ابن الأثير . وهنا رأى الحاكم أن يستعمل معه الحيلة بعد أن فشلت ضده القوة . فتقول رواية ابن عذارى التى تؤيدها رواية ابن الأثير بشكل غير مباشر ، أنه أمر بعض كبار رجال الدولة بمكاتبة الوليد واغرائه بدخول مصر ، ووعدته بالمساعدة أو الانضمام الى جانبه .

ووقع الثائر فى الشرك الذى نصب له ، فدخل مصر وترددت سراياه الى الصعيد حيث فاجأته القوات المصرية ومن معه من البربر وألحقت بهم هزيمة منكرة، ففر نحو النوبة ، وهناك أخذ أسيرا وحمل الى القاهرة مشهرا على جمل ، ثم قتل فى منتصف شوال سنة ٣٩٧/٥ يوليو ١٠٠٧ .

(١) ابن الاثير، ج ٩ ص ٨٤ .

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٠ - ٣٧١ ؛ ابن الاثير، ج ١ ص ٨٢ ،

٨٤، ٨٣ .

وهكذا قضى على ثورة زناته في برقة قبل انقضاء ثورتها في طرابلس بسبب تهور صاحبها الذي لم يعرف حدود قدرته ، وأراد أن يحقق في بضعة سنوات ما حققه كتامة والفاطيون بعد ثمانين عاما من الدعاية الواسعة والكفاح المرير .

انتهت الأزمة السياسية اذن في ليبيا سنة ١٠١٠/٤٠٠ وعادت الاوضاع الى ما كانت عليه أيام المعز لدين الله ويوسف بنكين بعودة طرابلس الى بنى زيري بعد أن استقل بها بنو خزرون ، وعودة برقة الى أعمال مصر بعد أن جربت حظها لا في الاستقلال فقط بل وفي فتح مصر أيضا . ولكن العلاقة كانت قد فترت من غير شك بين باديس وبين الحاكم بعدما قام به الأخير في طرابلس وقابس . وعلى ذلك عمل الفاطمي على اصلاح ما أفسده ، فأرسل — بطريق البحر — الى باديس في سنة ١٠١٢/٤٠٣ سفارة تحمل هدية قيمة وسجلات باضافة برقة وأعمالها الى أملاكه . وبذلك حقق الحاكم هدفين معا : استرضاء الأمير باديس ، والتخلص من الولاية المضطربة التي أزعجته بالأمس والقاء مسئولية ضبطها على عاتق الصنهاجي .

والحقيقة أنه رغم أن ليبيا أصبحت جميعا خاضعة لأمر تونس إلا أنه كان من الصعب عليه أن يقر النظام فيها . فبعد التجاء خزرون بن سعيد الى باديس سنة ١٠١١/٤٠٢ اثر اختلافه مع أخيه وروا^٢ ، اغضب هذا الأخير لذلك فسار الى طرابلس بقصد استرجاعها ، وضرب عليها الحصار^٣ . ورأى باديس أن يضرب أعداءه الزناتيين بعضهم ببعض فمهد الى خزرون بحرب أخيه فسار الى طرابلس سنة ١٠١٢/٤٠٣ لمنع وروا من حصارها . والتقى الزناتيون المتنافسون فيما بين قابس وطرابلس ولكنهم اتفقوا بدلا من أن يتحاربوا فدخل أصحاب خزرون في طاعة وروا . وعندما طلب باديس من خزرون أن يفسر موقفه المريب لحق هو الآخر بأخيه في السنة التالية . ورغم أن المصادر لا توضح الأحداث التي وقعت أثناء ذلك وبعده إلا أنه يتبين أن زفاته وبنى خزرون استقروا من جديد في منطقة طرابلس ، وأنهم فرضوا سلطانهم على المدينة حتى أصبحت علاقتها بالقيروان علاقة اسمية فقط ، وأن الرئاسة ظلت

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٤ .

(٢) انظر ما قبل، ص ١٠٤ .

(٣) ابن الأثير، ج ٩ ص ٧٤ .

(٤) ابن الأثير، ج ٩ ص ٧٤ .

لوروا الى أن مات سنة ١٠١٦/٤٠٦ .

والظاهر أن باديس أراد انتهاز فرصة وفاة وروا لاستعادة طرابلس كما حدث سنة ١٠١٠/٤٠٠ عقب وفاة فلفل، ولكن المنية عاجلته قبل أن يتحقق له ذلك . فيروى ابن خلكان أنه في سنة ١٠١٦/٤٠٦ قصد باديس طرابلس ولم يزل على قرب منها عازما على قتالها ، وبلغ من شدة حنقه على المدينة المعنة في العصيان أنه أراد أن ينزل بها عقوبة أشبه بتلك التي أنزلها الحكم بن هشام بربض قرطبة سنة ٨١٧/٢٠٢ : « فحلف أن لا يرحل عنها حتى يعيدها فدنا للزراعة » . وما يؤسف له أن ابن خلكان الذي ينقل هذه الرواية عن كتاب « الدول المنقطعة » — الذي لم يصل إلينا — رأى الاختصار ، فقال أن رغبة باديس في الانتقام من طرابلس كانت « لسبب اقتضى ذلك تركت شرحه لطوله » . ولكنه يستمر بعد ذلك فيقول انه عندما علم أهل البلد بهذا التهديد الخطير ، اجتمعوا عند المؤدب محرزولى المدينة وعابدها، وطلبوا منه الدعاء الى الله أن يزيل هذا البأس . ورفع الرجل الصالح يديه الى السماء وقال : « يا رب باديس ، اكفنا باديس . فهلك في ليلته بالذبحة »^٤ .

وإذا ما علمنا أن باديس توفي بالمسيلة بالمغرب الاوسط عقب انتصاره على عمه حماد ، خامرنا الشك في صحة هذه الرواية . ولكن يمكن التوفيق بين مضمونها الذي يعبر عن طبيعة العلاقة بين طرابلس وأمير القيروان ، بأن نبأ وفاة وروا وصل الى باديس وهو بالمسلية ، وأنه قرر استعادة عاصمة ليبيا الغريبة فأرسل اليها أحد قواده وأوصاه بالحزم والشدة ازاء أهل المدينة الذين انزعجوا للتهديد الخطير ، وأن القوة الصنهاجية انسحبت من أمام طرابلس عندما بلغها نبأ وفاة باديس .

ولم يمنع هذا من انقسام بنى خزرون اذ دبت بينهم الفرقة فقامت المنافسة بين خليفة ابن وروا وبين عمه خزرون بن سعيد . ولكن كان التفوق لخليفة الذي استطاع اكتساب معظم زناته الى جانبه . وازاء تفوق خليفة يس خزرون من منافسة ابن أخيه فقرر السير الى مصر وبصحبه أبناءه الثلاثة وهم سعيد وخليفة والمنتصر^٥ .

(١) ابن عذاري، البيان المغرب ج ١ ص ٣٨٣ ؛ وانظر احمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٢) ابن خلكان، ترجمة باديس بن المنصور، ج ١ ص ٢٤١ .

(٣) انظر احمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٨ .

هذا عن طرابلس في أواخر أيام باديس أما عن برقة فلم تكن بأحسن حالا فلم يستطع أن يضبطها الأخرى . إذ تدل الدلائل على أن الحكومة الصنهاجية لم تكن مسيطرة عليها تماما، وأن هبة القيروان لم تكن أكيدة هناك. ففي سنة ١٠١٤/٤٠٥ - ١٠١٥ لم تتردد جماعات عرب برقة في مهاجمة مركب أميرية كان باديس قد سيرها نحو مصر وهي تحمل هدايا منه ومن أخته أم ملال إلى الخليفة الحاكم وإلى أخته . واستولى المهاجمون الجريئون على كل الأمتعة ولأعلاق النفسية : من الأفراس الأصلية والسروج المزخرفة والخز السوسى المذهب .

وفي هذه الظروف ظلت العلاقة فاترة مائعة بين القاهرة والقيروان ، رغم محاولات الإصلاح ، كما ظلت الأحوال مضطربة في ولايتي ليبيا جميعا منذ أن تدخل الحاكم في أمر طرابلس سنة ٣٨٩/٩٩٩ إلى وفاة باديس سنة ٤٠٦/١٠١٦ .

خلف باديس ابنه المعز الذى يعتبر ملكة نقطة التحول الحاسمة في الموضوع : وذلك أن الصراع السياسى بين الخليفة الفاطمى وبين تابعه الصنهاجى ، هذا الصراع الذى اتخذ على عهد باديس صفة العداء المكشوف واستعمال العنف والقوة في ليبيا ، اتخذ على عهد المعز شكلا مذهبيا أعمق وأخطر . وذلك أن شعب افريقية اشترك مع أميره وقام الجميع يعارضون المذهب الاسماعيلى الفاطمى ، معارضة صامتة أول الامر ثم علنية بعد ذلك - كل هذا مع الاحتفاظ بالشكليات - وانتهى الامر بالانفصال التام واعلان السنة والمناداة بخلافة بغداد . فمجرد اعتلاء المعز لعرش بنى زيرى قامت حركات شعبية كبيرة في القيروان ضد الشيعة ، راح ضحيتها كثير من هؤلاء في القيروان وفي المهديّة^٢ . هذه الحركات تبين أنه رغم أن التشيع كان المذهب الرسمى إلا أن جمهرة الناس ظلت متمسكة بمذهب مالك، وأنه بعد رحيل الفاطميين لم يعد للتشيع سلطان حقيقى في البلاد . ففي سنة ٤٠٧/١٠١٦ - ١٠١٧ أى حينما وصل تقليد الحاكم للمعز بالولاية وتلقيه بشرف الدولة ، كان الشيعة مستترين بأحد أحياء القيروان المعروف بدرب المعلى^٣ . والحقيقة أن الانشقاق المذهبى والتمسك بالسنة ظهر بوضوح قبل ذلك وفي بلاط الامراء أنفسهم . إذ يسجل ابن عذارى ، أنه رفع الى المنصور سنة ٣٨١/٩٩١ أن عبدا من عبيده قذف

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٥ .

(٢) ابن الاثير، ج ٩ ص ١٢٣ .

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

بعض الصحابة فأمر المنصور بقتل عبده وصلب جثته ، وأنه أعلن ذلك على الملأ في أحياء القيروان وأسواقها^١ . وفي أواخر أيام باديس عندما أراد أن يقتطع من عمه حماد بعض أعماله ويعهد بها الى ولى عهده المعز بن باديس ، وذلك بموافقة الحاكم ، يقول ابن خلدون ان حمادا لم يتردد في خلع طاعة ابن أخيه فقط بل خلع طاعة الفاطمى أيضا ، فأعلن ولاءه المباشر لخلافة بغداد وقتل الرافضة وأظهر السنة ورضى عن الشيخين أبى بكر وعمر^٢ .

كل هذا يدل على أن السنة كانت قد عادت فعلا الى المغرب عند ولاية المعز ، وبدأت المالكية تستعيد سلطانها المفقود . وعرف الشيعة ذلك منذ البداية، وقدروا خطورة موقفهم فقررت جماعة منهم مغادرة البلاد . ففي سنة ٤٠٩/١٠١٨ - ١٠١٩ خرجت طائفة منهم مهاجرة الى صقلية عن طريق المهديّة ، وخرجت معهم قوة من الخيل لحراستهم ، ولكن أهل البلاد فتكوا بهم في الطريق واستباحوا حريمهم^٣ . ولهم تهم القاهرة برد فعل ضد هذا التحرش ، وظل الحاكم والمعز محافظين على الشكليات فالحاكم يرسل الهدايا وعلامات التشريف دون أن يذكر ما كان من خصمه الى الشيعة من القتل والاحراق^٤ ، والمعز يبعث بأخبار المغرب وانهايار الأمويين أعداء الفاطميين بالأندلس^٥ . وبينما نرى الكتاب يسهبون فيما قامت به افريقية من التحرر المذهبى من الشيعة ، لا نجد ذكرا لليبيا في هذا المجال رغم ما يقول التيجانى من أن الفقيه أبى الحسن على بن محمد بن المنمر الطرابلسى كان أول من أظهر السنة بمدينة طرابلس ، وأنه أثناء مقاتل الشيعة في افريقية (سنة ٤٠٧هـ) قام العامة ضدهم في طرابلس ، وقتلوهم في الواقعة المعروفة بوقعة المشاركة وذلك بتحريض الفقيه أبى الحسن وعلى يديه . ويتابع التيجانى روايته فيقول ان أبا الحسن كان أول من قطع من الأذان «حى على خير العمل» ، وأذن في ذلك اليوم اذان أهل السنة بنفسه^٦ . وهذا الجزء الأخير وما يتبعه من سياق الحديث والأخطاء الواضحة

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٥١ - ٣٥٢ .

(٢) انظر فيما قبل هامش ٤٨ ص ٩٧ .

(٣) انظر ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ١٧١ ؛ وانظر

G. Margais, La Berbérie Musulmane, p. 164.

(٤) ابن الاثير، ج ٩ ص ١٠٦ .

(٥) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٨٩ .

(٦) التيجانى، الرحلة، ص ١٩٠ - ١٩١ .

في التأريخ والتوفيت ، تدل على أن التيجاني خلط بين الأحداث التي وقعت في بداية عهد المعز بن باديس وتلك التي حدثت بعد أن قطعت الخطبة الفاطمية في إفريقية . والحقيقة أنه خلط بين الفقيه أبي الحسن بن المنصور المتوفى سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤٠م وبين الفقيه أبي الحسن بن المنتصر الذي كان في طرابلس سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م وصول العرب إليها .

وعلى عكس ما يفهم من رواية التيجاني نرى أن زناته سببت المتاعب من جديد لأمير القيروان في طرابلس ، وزاد الأمر عما كان عليه إلى سنة ٤٠٦هـ / ١٠١٥م - ١٠١٦م فانتقل ميدان الصراع من البر إلى البحر . أما السبب المباشر لاستئناف الصراع ، فهو أن المعز كان ساخطا على وزيره أبي عبد الله محمد بن الحسن لأشياء منها استبداده وطمعه في الأموال . ثم أتت الأنباء بأن أخا الوزير وهو عبد الله بن الحسن الذي كان واليا لطرابلس يمالئ زناته وزعماءهم بنى خزرون المجاورين له والمناوئين للدولة وترتب على ذلك أن تخلص المعز من وزيره الخائن فقتله سنة ٤١٣هـ / ١٠٢٣م - ١٠٢٣م . وعندما وصل هذا النبأ إلى طرابلس ثار عبد الله لقتل أخيه ، وتحالف مع زناته سرا وأدخلهم طرابلس وأعلن العصيان على المعز ، وقتل هو وحلفاؤه من بنى خزرون بالحامية الصنهاجية في المدينة . وبذلك عادت طرابلس إمارة زناتية من جديد . وبدأ خليفة بن وروا الذي تخلص من عبد الله بن الحسن ، في إنشاء أسطول لطرابلس ، فبنى عددا كبيرا من المراكب . وعندما انضم أحد حلفائهم وهو فتوح بن القائد إلى جانب المعز الذي ولاه مدينة نقطة من عمل قسطنطينية ، خرجت مراكب خليفة من طرابلس لمطاردة سنة ٤١٤هـ / ١٠٢٣م . وبذلك أصبحت طرابلس قوة بحرية يخشى بأسها ، وكان على المعز أن يتخذ الاستعدادات البحرية إلى جانب قواته البرية إذا ما أراد استرجاعها . وفعلا خرج المعز في نفس السنة من القيروان إلى سوسة ، ومنها سار إلى المهديّة وبدأ في حشد حملة بحرية برية . فأمر بجمع البحريين والعمل في إصلاح القطائع واعداد دار الصناعة لإنشاء

(١) انظر أحمد النائب، المنهل العذب، ص ١٠١ .

(٢) نفس المصدر، ص ١٥ .

(٣) ابن الأثير، ج ٩ ص ١٣٦ .

(٤) من الجائز أن يكون فتوح هذا ابن القائد بن حماد وأن يكون قد اتخذ جانب زناته ضد المعز قريبا في أول الأمر نتيجة للخلاف بين الحمادين في أشير وبين بنى عمومهم في القيروان . فابن الأثير (ج ٩ ص ١٤٧) يذكر عند وفاة حماد وولاية ابنه القائد أن حمادا كان قد اصططح مع المعز كما أن ابنائه اذعنوا له بالطاعة .

العدد والآلات الحربية اللازمة . وتم الاستعداد حقيقة في وقت قصير . أما الحملة البرية فانه أمر من تخلف من عسكره باللاحاق به في المهديّة حتى يسير الجيش إلى جانب الأسطول على طول الطريق الساحلي من المهديّة إلى صفاقس ومنها إلى قابس ثم إلى طرابلس . ولكنه عاد وغير خطته فرجع إلى القيروان لكي يستوفي رجاله عددهم وما يحتاجون إليه كما يقول ابن عذارى . ولكن ما هو أقرب إلى الصحة هو أن زناته وبنى خزرون عندما ثاروا في منطقة اقطاعهم بقسطنطينية ونزاعوا وافسدوا البلاد، جعلوا المعز يغير من خطته فسير اليهم قواته التي قتلت بهم سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤م حسب رواية ابن الأثير .

هذا الحدث ، وهو تكوين بنى خزرون لأسطول بحري في طرابلس ، له أهمية كبرى في تاريخ الإمارة الصنهاجية وتحديد مصيرها ، فهو الذي وجه اهتمامها بصفة جدية نحو البحر ، ونحو احياء مدينة المهديّة التي فقدت أهميتها كقاعدة بحرية بعد رحيل الفاطميين . وسار النشاط البحري بسرعة غريبة ، فبعد سنتين فقط استطاع المعز أن يجهز أسطولا كبيرا بلغت عدته ٤٠٠ قطعة ، حسب قول ابن الأثير ، وسيره إلى صقلية لملاقاة القوات البيزنطية التي أرسلها الامبراطور باسيل الثاني ونزلت في أملاك المسلمين بجنوب إيطاليا وفي الجزيرة . ولكن الحملة كانت سيئة الحظ اذ ثارت بها ريح عاصفة ونوء عظيم ففرق معظمها غير بعيد من الساحل الإفريقي . وهكذا لم يكن من الغريب أن تكتفى الإمارة الصنهاجية ، بعد غزوة الهالبيين بعد ٢٥ سنة تقريبا بالمناطق الساحلية وان تصبح دولة بحرية أولا وقبل كل شيء .

أما دخول العرب من مصر إلى المغرب ، وما ترتب عليه من نتائج بعيدة المدى في كل النواحي السياسية والاقتصادية والبشرية ، فانه كان رد الفعل المباشر لاعتراف المعز بن باديس بالعباسيين ، وقطع علاقته بالفاطميين والقضاء على مذهبهم في إفريقية، ولعنهم من أعلى المنابر . وكان ذلك نتيجة طبيعية لسياسة الصنهاجين الذين أرادوا أن يوطدوا ملكهم على أسس متينة عن طريق توطيد علاقتهم بشعبهم الذي تمسك بسننيتهم، ولم يقبل «الزندقة» الشيعية منذ البداية . ولقد عبر أحداث القيروان عن

(١) البيان المغرب، ج ١ ص ٣٩٠ - ٣٩١ .

(٢) ابن الأثير، ج ٩ ص ١٤١ .

(٣) ابن الأثير، ج ٩ ص ١٤٥ .

ذلك ، أيام عيد الله المهدى ، في بيتين من الشعر تلتفوا في وصولهما اليه خفية ، وهما :

الجور قد رضىنا لا الكفر والحماسة
يا مدعى القيوب من كاتب البطاقة ؟

وانتهى الامر الى أن أضرب القيروانيون عن صلاة الجمعة في المساجد « فرارا من دعوتهم ، وتبديما لاقامتها بأسمائهم »^٢ . وهكذا اضطر المعز الى حسم الموقف ، وعدم التمسك بالشكليات التي لا طائل وراءها ، ولكنه فعل ذلك بكثير من التردد والحذر ، خلال فترة استمرت حوالي ثمانى سنوات . ففي سنة ٤٣٣/١٠٤١ بدأ الاتصال بالخلافة العباسية ، وأظهر رغبته في الدعاء لها . ورد عليه ديوان الخليفة القائم بالموافقة ، وبعث اليه بالتقليد والخلع والأعلام عن طريق القسطنطينية^٣ . ولكن ذلك لم يتم بصفة قاطعة الا سنة ٤٤٠/١٠٤٨ ، اذ قطعت الدعوة فعلا للفاطمي وأحرقت بنوده ، ودعى للعباسيين . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل لعن بنو عبيد من أعلى المنابر ، ثم محى ذكرهم من السكة في السنة التالية (٤٤١هـ) ، ومنع التعامل بالنقود التي تحمل أسماءهم رغم ما أدى اليه ذلك اضطراب الأسواق^٤ .

وفي هذه الاثناء حاول الخليفة المستنصر أن يعالج الامر بالسياسة والمداراة كما فعل أسلافه ، فكتب الى المعز يرغبه ويهدده ، ويقول له : « هلا اقتنيت آثار آبائك في الطاعة والولاء » . ورد الصنهاجى يؤكد حق أسرته في الاستقلال ، كما فعل جده المنصور عندما خطب في أعيان القيروان بأشير ، فقال في جوابه : « ان آبائى وأجدادى كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك ، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ، ولو آخروهم لتقدموا بأسيا فهم » واستمر على قطع الخطبة^٥ . وفي سنة ٤٤٣/

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٤٠٠ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٣٩٧ . أما ابن الاثير (ج ٩ ص ٢١٧) فإنه يضع ذلك في سنة ٤٣٥/١٠٤٣ أى بتأخير سنتين ، ويضيف الى ذلك قطع الخطبة للعلويين واحراق اعلامهم . ولكن هذا غير صحيح اذ المعروف ان ذلك حدث سنة ٤٤٠/١٠٤٨ حسب ما يفصله ابن عذارى (ج ١ ص ٣٩٩) ، وما يذكره ابن الاثير نفسه فيما بعد (ج ٩ ص ٢٣٥) . ولهذا السبب لم يستطع ابن خلكان تفسير هذا التضارب فذكر أن قطع الخطبة تم سنة ٤٤٣ ثم أضاف الرواية التي تقول بقطعها سنة ٤٣٥ ، وعلق قائلا والله اعلم (ترجمة المستنصر) .

(٤) ابن عذارى البيان المغرب ، ج ١ ص ٤٠١ - ٤٠٣ .

(٥) ابن خلكان (ترجمة المستنصر) ، ج ٤ ص ٢١ .

١٠٥١ تقرر اتخاذ اللباس الأسود ، لون العباسيين شعارا للصنهاجيين . فأخرجت الثياب البيض من فندق الكتان ، وصبغت بأحلك سواد ، وقطعت أثوابا ، ووزعت على الفقهاء والقضاة وخطيب القيروان وجميع المؤذنين^١ .

وكان لذلك صدهاء في ليبيا جميعا . ففى طرابلس قام الفقيه أبو الحسن بن المنتصر بتحريض العامة ضد الشيعة واشترك معهم في قتلهم ، ثم قطع من الأذان « حى على خير العمل » ، وأذن أذان أهل السنة بنفسه كما ذكرناه من قول التيجانى^٢ . وفى سنة ٤٤٣/١٠٥١ وصلت الى القيروان رسالة من جبارة بن مختار أمير برقة يعلن ولاءه وطاعته للمعز ، وتفيد أنه وأهل برقة أحرقوا المنابر التي كان يخطب عليها للفاطميين ، وأنهم أحرقوا راياتهم وتبرأوا منهم ، كما دعوا لخليفة بغداد القائم بأمر الله^٣ .

عندئذ تحطم كل أمل في ايجاد تسوية مناسبة ، فقد مضى الزمن الذى كان يوحى فيه لمعز بقتل الشيعة ويرسل بهداياه وآيات خضوعه الى القاهرة ، فيرد الحاكم بسجلات التشريف ولا يذكر ما كان من تابعه الى الشيعة من القتل والاحراق . ولم يقف الامر عند خلق الطاعة بل تعداه الى لعن الفاطميين ، لا على منابر القيروان فقط ، بل على منابر برقة المتاخمة والتي كانت عملا من أعمال مصر . وكان اليازورى وزير المستنصر قد فكر في اتخاذ اجراء يرد الى الثوار الطائشين في ليبيا وتونس صوابهم ، وكان انتقامه رائعا ، اذ نصح الخليفة الفاطمى بأن يطلق على المغرب جحافل العرب الموجودين في صحراء مصر الشرقية من قبائل هلال وسليم . وكان هؤلاء قد أرغموا على المسير الى صحراء مصر بعد أن قاموا - منذ وقت غير بعيد - فيما بين الشام والحجاز ، بأعمال خرفت كل ما تعارف عليه الناس ، وانتهكت كل ما هو مقدس ، مثلهم في ذلك مثل القرامطة . فتسجل الحوليات التاريخية أن بنى سليم خرجوا سنة ٣٥٥/٩٦٦ على الحجاج السائرين من مصر والشام فأخذوهم ولم يسلم الا القليل^٤ . أما بنو هلال فاتهم هاجموا الحجاج سنة ٣٦٥/٩٨٦ وقتلوا منهم خلقا

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٤٠٥ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ١٠٩ هامش ٦ .

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٤١٦ .

(٤) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٢٢٦ . وانظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١١ .

كثيرا حتى بطل الحاج في ذلك العام^١. ووافق المستنصر على الفكرة التي تحقق له ضرب أعدائه بأعدائه ، وسهل لهم عبور النيل ، وقلدهم المغرب وكل ما يفتحون وزودهم ببعض المال والسلاح .

وخرجت هلال وسليم بفروعها من زغبة ورياح والأبج وعدى ، ولم يأمرهم الخليفة الفاطمي بشيء «لعلمه أنهم لا يحتاجون لوصية»^٢ . فكان هؤلاء العرب الذين لم يعهدوا نعمة ، ولا طالعوا حاضرة ، كلما اتهموا الى قرية تنادوا : « هذه القيروان ، ونهبوها »^٣ . وبهذا الشكل استقروا في برقة التي وجدوها مفتوحة أمامهم بعدما تحطمت زناته في المنطقة خلال الصراع المستمر ضد صنهاجه وضد الفاطميين^٤ . ثم وصلوا مسيرهم عبر ليبيا فوصلوا الى طرابلس سنة ١٠٥٤/٤٤٦ - ١٠٥٥ وملكوا المدينة . وواصلت رياح منهم والأبج وبنو عدى المسير الى افريقية ، وعاثوا فسادا في نواحيها ، ولم يستطع المعز وصنهاجه الوقوف أمامهم أوردتهم . وانهى أمر المعز الى أن انتقل الى المهديّة في سنة ١٠٥٧/٤٤٩ . واستمر العرب في تقديمهم نحو الغرب ، وبدأوا متعاونين مع القرع الغربي من صنهاجه وهم بنو حماد في الصراع ضد زناته بالمغرب الأوسط ، ذلك الصراع الذي سجلته ملحمة بنى هلال الشعبية الشهيرة .

النتيجة الخاتمة

ترتب على تخريب العرب المنظم أن حلت الفوضى السياسية والاقتصادية بعد أن لجأ بنو زيري الى الاقاليم الساحلية ، وخربت البلاد الداخلية ، مما استند عليه ابن خلدون في نظريته التي تقول ان العرب - وهو يقصد البدو منهم - لا يتذوقون الحضارة ولا يفهمون المدنية ولا يصلحون لتكوين دولة منظمة . وأدى انفكاش الدولة الصنهاجية في المناطق الساحلية الى اهتمامها بالامور البحرية فوجهت أنظارها نحو صقلية وجنوب إيطاليا . ولكن شاءت الأقدار أن يغزوا النورمانديون الجزيرة

على المسلمين ، ولم يستطع بنو زيري الوقوف أمامهم فقبلوا وصايتهم . واستلزم الأمر تدخل المرابطين من صنهاجه الصحراء بحريا ضد النورماندين في صقلية . ولكن رد الفعل كان وبالا على الحسن بن علي ، آخر بنو زيري ، اذ انتهى الصراع بأن احتل النورمانديون كل السواحل الافريقية من بونة الى المهديّة الى طرابلس . واستتبع ذلك تدخل الموحدين المصامدة ، فأثنى عبد المؤمن بن علي بجيشه المنظم وطرد النصارى وحمل عرب هلال وسليم الى المغرب الأقصى وضم افريقية حتى طرابلس وبرقة الى أملاكه . وبذلك توحد المغرب جميعا واستقل عن المشرق استقلالاً تاماً في القرن السادس الهجري .

وهكذا كان لليبيا دورها الذي لا ينكر في تلك الأحداث الجسام التي قررت مصيرها ومصير المغرب لزمان بعيد . فموقعها المتوسط بين افريقية ومصر هو الذي ألقى عليها موقفها ازاء كل من حكومتى القيروان والقاهرة . فلما كانت طرابلس داخلية في حدود افريقية ، وبرقة في أعمال مصر ، ولما عملت كل من الولايتين باستمرار على التحرر من سلطان الحكومة التابعة لها - مما ترتب عليه استعمال القوة ضدها من جانب الحكومة التي يهمها الأمر أو تدخل الأخرى بشكل انتهازي لتحقيق مغانم عابرة على حساب جارتها - اضطرب أمر البلاد التي أصبحت مجال الصراع السياسي بين جارتها الغربية والشرقية ، وانتهى الأمر بانهاك قوى الجميع . وترتب على ضعف ليبيا أن انكشفت حدود مصر الغربية وحدود تونس الشرقية . وبذلك عملت ثورة برقة في أول الأمر على تسهيل دخول كنامة الى أرض مصر ، كما قررت ثورتها الاخيرة اطلاق قبائل العرب عليها . وكذلك كانت الحالة بالنسبة الى طرابلس فهي عندما خرجت على الزيريين تشجع الفاطميون وتدخلوا في أمورها مما ساعد على قيام بنو خزون فيها . وكانت نتيجة هذا الصراع الدائم أن تبددت قوى قبائل لواته وهوارة وزناته في ليبيا وانتشرت البلاد على مصراعيها أمام بنى هلال وبنى سليم الذين استقروا فيها وعربوها واندفعوا منها يعربون افريقية والمغرب . ثم ان انشاء بنى خزون لأسطولهم في طرابلس هو الذي دعا الزيريين الى إعادة مجد المهديّة

- (١) ابن الأثير، ج ٨ ص ٢٥٦ .
- (٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ٤١٧ .
- (٣) ابن عذاري ج ١ ص ٤١٨ .
- (٤) ابن الأثير، ج ٩ ص ٢٣٦ .
- (٥) ابن الأثير، ج ٩ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

الساحلية نحو البحر ، ذلك النشاط الذى اتخذ فى كثير من الأحيان صفة الجهاد البحرى ، وجاء استيلاء الهالبيين على البلاد الداخلية فوجه نشاط معظم المدن ضد أوروبا حتى العصر الحديث .

النظرية العنصرية

— نقد وتحليل —

الدكتور احمد الخشاب

تمهيد

يفرق علماء الدراسات الانسانية بين المجموعات البشرية على أساس المظهر الفيزيقي الخارجى والصفات الجسدية والمميزات الحيوية لهذه المجموعات . ولم يستطع الباحثون أن يتفقوا بضد تصنيفهم للسلالات البشرية على أسس ثابتة محددة ، ومن أجل هذا نجد عدة تقسيمات للناس : كل منها بحسب الصفة أو الصفات التى يتخذها العالم أساسا للتقسيم . ويكفى أن نشير فى هذا المجال الى أن أهم المميزات التى تستخدم للفرقة بين المجموعات الانسانية المختلفة تدور حول .

(١) لون البشرة ، (٢) لون الشعر ، (٣) شكل الشعر ، (٤) لون العين .

(٥) نسبة عرض الرأس الى طولها ، (٦) نسبة عرض الأنف الى طوله ، (٧) توزيع شعر الجسم (٨) طول القامة . (٩) درجة بروز القسم الأسفل من الوجه أو عدم بروزه .

(١٠) ثم أخيرا فى وقتنا الحاضر يتجه علماء الاتروبولوجى الى الاستعانة بتحليل

يتوقف اختلاف لون الجلد على مقدار الحبيبات الملونة التى توجد فى أعماق البشرة	بيض البشرة	Leucodermi	(١)
	سود البشرة	Xanthodermi	
	صفر البشرة	Melanodermi	
الشعر المستقيم	الشعر المستقيم	Leiotrichy	(٢)
	الشعر المموج	Cymotrichy	
	الشعر المفلفل	Ulotrichy	
الرأس طويلة اذا نقصت النسبة عن ٧٥ الرأس متوسطة اذا كانت النسبة ٧٥، ٨٠ الرأس عريضة اذا زادت النسبة عن ٨٠	الرأس طويلة اذا نقصت النسبة عن ٧٥	Dolicho Cephalic	(٣)
	الرأس متوسطة اذا كانت النسبة ٧٥، ٨٠	Meso Cephalic	
	الرأس عريضة اذا زادت النسبة عن ٨٠	Brachy Cephalic	
Prognathism and Orthognathism.			(٤)

الساحلية نحو البحر ، ذلك النشاط الذى اتخذ فى كثير من الأحيان صفة الجهاد البحرى ، وجاء استيلاء الهالين على البلاد الداخلية فوجه نشاط معظم المدن ضد أوروبا حتى العصر الحديث •

النظرية العنصرية

— نقد وتحليل —

الدكتور احمد الخشاب

تهيهـد

يفرق علماء الدراسات الانسانية بين المجموعات البشرية على أساس المظهر الفيزيقي الخارجى والصفات الجسمية والمميزات الحيوية لهذه المجموعات • ولم يستطع الباحثون أن يتفقوا بصدد تصنيفهم للسلاسل البشرية على أسس ثابتة محددة ، ومن أجل هذا نجد عدة تقسيمات للناس : كل منها بحسب الصفة أو الصفات التى يتخذها العالم أساسا للتقسيم • ويكفى أن نشير فى هذا المجال الى أن أهم المميزات التى تستخدم للفرقة بين المجموعات الانسانية المختلفة تدور حول •

(١) لون البشرة ، (٢) لون الشعر ، (٣) شكل الشعر ، (٤) لون العين •

(٥) نسبة عرض الرأس الى طولها ، (٦) نسبة عرض الأنف الى طوله ، (٧) توزيع شعر الجسم (٨) طول القامة • (٩) درجة بروز القسم الأسفل من الوجه أو عدم بروزه •

(١٠) ثم أخيرا فى وقتنا الحاضر يتجه علماء الاتروبولوجى الى الاستعانة بتحليل

بيض البشرة	Leucodermi	(١)
سود البشرة	Xanthodermi	
صفر البشرة	Melanodermi	
الشعر المستقيم	Leiotrichy	(٢)
الشعر المموج	Cymotrichy	
الشعر المغفل	Ulotrichy	
الرأس طويلة اذا نقصت النسبة عن ٧٥	Dolicho Cephalic	(٣)
الرأس متوسطة اذا كانت النسبة ٧٥، ٨٠	Meso Cephalic	
الرأس عريضة اذا زادت النسبة عن ٨٠	Brachy Cephalic	(٤)
Prognathism and Orthognathism.		

الدم ومعرفة فصائله للتعرف على السلالة .

هذا ولم يعتمد علماء الاتروبولوجي على صنف واحد من تلك المميزات الجسمية في تصنيف السلالات البشرية ، وإنما اعتمدوا على تركيب أو جملة عدد منها . ومن هنا تباينت وتعددت تقسيماتهم . فنجد ليناؤس وهو أول من حاول تقسيم الاجناس تقسيما علميا على أساس جغرافي يقسم البشرية الى ثلاثة اجناس . بينما قسمها كل من «سانتھلير ولينتز» و «كانت» الى أربعة ، وصنفها بلومباخ الى خمسة اعتمادا على لون البشرة وتقاطيع الوجه وشكل الشعر والرأس وأخذ يتزايد عدد هذه التصنيفات ، فقسمها « يافون » الى ستة اجناس ، وصنفها « برتشارد » الى سبعة ، و «أجاسين» الى ثمانية . ثم قفزت على يد كل من «بيكرنج» وهايكلم ومولر^١ Bory St. Vincent إلى احدى عشر ، وبوري^٢ Pikering ; Haeckel ; Muller إلى خمسة عشر ، وتوينارد^٣ Topinard إلى ثمانية عشر ، ومورتن^٤ Mortan إلى اثنين وثلاثين .

وصنفها روجري^٥ Ruggeri في ثمانية اجناس وثلاثة وأربعين فرعا ، بينما اعتبر هادن^٦ C. Haddon الاجناس الأصلية ثلاثة منقسمة الى ستة وثلاثين فرعا ، وقسمها كراوفورد^٧ Crawford الى اثنين وستين مجموعة بشرية . بل وصل تقسيم هذه المجموعات الى مائة وعشرين فرعا في مؤتمر عقد للدراسات الاتروبولوجية ، وأخيرا زاد العالم الأمريكى جليسون^٨ George R. Gliddon عدد فروع العائلة البشرية الى مائة وخمسين فرعا .

واختلاف علماء الاجناس على هذا الوجه يثير الشك في صحة رأى القائل بتعدد اجناس البشر أصلا ، كما أن الاختلافات الظاهرة بين اصناف الجنس البشرى لا تقوم على قواعد ثابتة أصيلة .

هذا فضلا عن أن هذه التصنيفات لا تنطبق وواقع الاجناس أو الفروع

Bory St. Vincent	(٢)	Pickering, Haeckel, Muller	(١)
Mortan	(٤)	Topinard	(٣)
Grawford	(٦)	G. Ruggeri	(٥)
G.R. Gliddon : Origin & Race	(٨)	Haddon	(٧)
W. Weatherford : Race Relations			

السلالية ، فيندر أن تمثل المقاييس الجسمية في فرد أو في جماعة ما تمثالا كاملا بشكل نموذجي حتى يسهل معه تطبيق هذه المقاييس ورد الأفراد الى أصولها السلالية ، أو نسبتها الى اجناسها الأصلية .

وكان من المحتمل أن يكون الأمر أبسط من ذلك لو أن كل سلالة التزمت الاستقرار في بيئتها التي اكتسبتها صفاتها الفيزيكية المميزة لها ، ولكن الذى حدث فعلا أن هجرة الاجناس من بيئتها تحت ظروف طبيعية وبيئية واجتماعية — اقتصادية كانت او سياسية ، قد مكنتها منذ فجر الانسانية من الاختلاط والامتزاج بعضها البعض الآخر فأصبح من العسير أن نعر على جنس نقي يحتفظ بخصائصه الأصلية ، وبالتالي فإن محاولة تشخيص الجنس أو السلالة غدت من باب الأفكار الذهنية التي تجردت عن تجسدها الفردية ، وأطلقت للتقريب والتعميم والتجريد على تفرعات المجموعات البشرية التي تكتسب مظهرا متحدا .

ومهما يكن من امر تنوع تصنيفات السلالات فإن العلم ينظر الى أفراد البشر نظرتهم الى كائنات حية تنتقل فيها المورثات^١ Genes من الأصول الى الفروع بنسب متفاوتة ، فضلا عن أن تلك المورثات تعترىها الطفرات^٢ Mutations التي تجعل من التركيب الفسيولوجي للاجناس تركيبا ديناميكيا . ويترب على ذلك أن تصبح تلك التصنيفات متبدلة غير ثابتة .

— الآراء الفلسفية والسياسية في التفاوت العنصرى —

والذى يعيننا بوجه خاص هو أن التفرقة بين المجموعات الانسانية تقترب عادة بأحكام تقويمية تقديرية مؤداها أن الصفات الفيزيكية تدل على تفوق أو انحطاط نفسى أو اجتماعى للمجموعة البشرية التي تتميز بها .

وقد جرت عادة غالبية المفكرين من فلاسفة واجتماعيين على التسليم بالأفكار المتعلقة بالتمايز العنصرى وقد اتخذت هذه الافكار في أطوارها الأولى مظهر الشعوبية التي كانت مألوفة بين المجتمعات التاريخية المتحضرة لا سيما مصر والفرس واليونان والرومان ، فيما يؤثر عن المصريين القدماء أن أحد الفراعنة قد أقام نصبا على حدود النيل الجنوبية ، ليمنع أى « زنجى » من عبور هذا الحد ، وقد عد هذا أقدم أثر

(١) المورثات أو الصبغيات Genes
(٢) الطفرات Mutations

تاريخي لاثبات التمييز العنصري ضد الزنوج العبيد^١ . وكان اليونان والرومان يقسمون العالم ممن عداهم قسمين : قسم يسمونه بالبرابرة ، وهى الجماعات التى لم يعرف لها تاريخ أو يؤثر لها حضارة ، وقسم يسمونه بالجنجيتيل^٢ Gentiles ويحوى كل الشعوب الأخرى التى من جنس دون الجنس الرومانى . وعن الرومان أخذ اليهود والمسيحيون هذا اللفظ ولكنهم صبغوه بالتمييز على أساس ديني ، فأطلقه اليهود على جملة الشعوب غير الاسرائيلية ، وأطلقه المسيحيون على جملة الجماعات غير اليهودية ، وغير المسيحية ، وفى مقابل ذلك نجد تعصبا شعوبيا من جانب الفرس باعتبارهم أصحاب سيادة وتفوق على الشعوب التى دانت لهم من العرب والآراميين والعبريين ، وبالتالى يقابل هؤلاء بالتعبير عن تفوقهم الشعوبى اما بالفخر بفصاحة اللسان وعراقة الانسان ، فجاء التمييز بين العربى والعجمى ، واما الاعتزاز بالسمو الدينى والروحى مما يظهر جليا فى زعم الشعب الاسرائيلى بانه شعب الله المختار ، بل ان سفر التكوين قد تضمن بذور التمييز العنصرى فى حكمه على أبناء كنعان باللعنة والاستبعاد^٣ .

ومما يجدر الاشارة اليه أن ما ورد فى سفر التكوين بصدد أولاد نوح الثلاثة : سام وحام ويافت والشعوب التى انحدرت من كل ولد منهم ، كان من أول الدعائم لتقسيم الاجناس البشرية مع ملاحظة أن سفر التكوين قد اعتمد فى تقسيمه على الروابط اللغوية والسياسية أكثر من اعتماده على الصلات الفيزيكية والبولوجية التى يتخذها علماء الاتروبولوجيا أساسا لتصنيف المجموعات البشرية . هذا الى ان روايات وانساب التوراة كان لها اثرها فى التعصب القبلى بين العرب ، تعصبا يقوم على التفاوت العنصرى ويظهر هذا جليا فى التمييز بين بدو الشمال وعرب الجنوب على أساس ان العرب فى تسلسلهم من جدهم الأعلى سام بن نوح يتبعون فرعين منفصلين : فأهل الشمال منحدرون من عدنان المتناسل من اسماعيل وأهل الجنوب يرجعون فى تسلسلهم الى قحطان بن عابر . ويختلط هذا التصنيف مع تقسيم العرب الى عرب عاربة وعرب مستعربة والى تقسيمهم الى الحمس والطلس والحل ، ونجد ان

Juan Comas : The Race Question in Modern Science ; Racial Myths (١)

Pharoah : Sesotris III, (B.C. 1887 1849) Unesco 1951 (٢)

Ibid : (h) General Observations on Racial Prejudices & Myths (٣)

ابن حبيب - المجبر ص ١٨٠ (٤)

بعض مفكرى العرب قد عرض لموضوع التمايز العنصرى ، فقد أشار الجاحظ^١ فى كتابه الحيوان الى هذا الموضوع فى كلامه عن النتائج المركب فيحدثنا عن «الخلاسى» من الناس وهو الذى يتخلق بين الحبش والبيضاء ويكون عادة أعظم وأقوى من أبويه، ويتكلم عن «البيستري» من الناس وهو الذى بين الأبيض والهندي ولا يكون يكون فى قوة أبويه ولكنه يكون أجمل ملامحا . . .

ولقد حارب الاسلام فكرة العنصرية القبلية ، الا أن النظم الاسلامية لم تستأصل جذورها من نفوس العرب ، فقد راعاها الخليفة فى أعطيات الخراج^٢ ، كما أنها برزت فى عهد الأمويين ، وظهرت الشعوبية فى عهد العباسيين ، وأدى ذلك الى ايجاد طوائف عربية مصطفة تمتاز بشرف الدم وقرابتها للرسول (صلعم) أو أهل البيت وأصبح لهذه الطوائف حقوق اقتصادية وسياسية تتمتع بها جماعة الأشراف الذين ينتمون الى جنس عربى مختار أو مصطفى بالرغم من أن دعوة النبی (صلعم) كانت لا تفرق بين العربى والأعجمى ولا بين القرشى والحبشى الا بالتقوى .

وقد ذهب الكثير من المفكرين الى التسليم بالآراء المتعلقة بالتمايز العنصرى ، بل وحاول اغلبهم من فلاسفة واجتماعيين تبريرها بدون اخضاعها للدراسة العملية النقدية التحليلية الصحيحة . وقد تجلت هذه النظرة فى عدة اتجاهات فلسفية وفكرية نذكر منها على سبيل المثال :

أولا : الآراء الميثولوجية والثيوقراطية البدائية التى صورت العناية الالهية وقد أودعت فى الطبيعة البشرية نزعة الاستعلاء العنصرى اذ أنها تؤثر جنسا معينا بالرعاية وتعاهده على السيادة وفى ثنائيا هذا الاتجاه الفكرى نجد البذور الأولى التى اختلطت فيها فكرة التفوق العنصرى بالسيادة والسلطة وامتزجت بفكرة التقديس والالوهية ويتمثل هذا فى الاساطير المصرية القديمة التى تصور حكام مصر الاقدمين من الآلهة العظام أو أنصاف الآلهة ، أى أنهم أسمى طبيعية وأرقى عنصرا

الجاحظ - الحيوان ص ١ ص ١٥١ (١)

ابو عبيد القاسم : الاموال ص ٢٢٢ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٣٥٢ (٢)
ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى هاشما من قريش واصطفانى من بنى هاشم .

من الرعايا المحكومين ، ونجد مثل هذا الزعم في تعاليم مانو اذ تصور حكام الهند بأنهم أنصاف آلهة في أثواب انسانية مما يجعلهم أسمى من سائر الأفراد العاديين وهم بطبيعتهم مزودون بالجواهر القدسية المعروفة بأسماء فارونا واندرا وأجنى Agni, Indra, Varonna ويرى العالم الانجليزي هو كارت^١ Hocart أن لفظ فارونا يؤدي في مفهومه الأصلي ما يؤديه لفظ رادكس radix الذي اشتق منه العلامة فينو Jean Finot مصطلح « الجنس » بالمعنى الذي استخدمه فيه كل من بوفون Georges Buffon وتاوت François Tout وسانت هليير Geoffry Saint Hilaire وجيمس برتشارد James C. Prichard .^٢

وقد ذخرت الميثولوجيا اليونانية بأقاصيص تبين أن النظام الاجتماعي عند قدماء اليونان كان يقوم على أساس طبقي ثيولوجي : في قمة الهرم الاجتماعي الآلهة وهم يشبهون البشر في صفاتهم وفي تكوينهم الجسمي ويتولون شئون القوى الكونية ، ويأتي بعدهم في السلم الاجتماعي أنصاف الآلهة وهم أدنى منزلة من الآلهة ، ثم يجيء اليونان الأول الذين ترجع اليهم الأساطير الفضل في نهضة اليونان في مختلف شئون الحياة وتفوقهم على ما عداهم من الشعوب ، ثم يأتي بعد هذه الطبقات في المنزلة طبقة الشعب من بنى الانسان من نسل Epimethée (الانسان الأول) وباندور "Pandore" (المرأة الأولى)^٣ .

وقد ساد هذا الاتجاه الثيوقراطي - في تحليل التفاوت العنصري - المجتمعات السامية ، واستغل الانسان الدين الروحي في تبرير استعمار الاوروبيين للشعوب الأخرى الملونة ، وقد لجأت الشعوب الاستعمارية الى نص ديني ورد في العهد القديم لتستند اليه في استغلال جهود تلك الاجناس ، وذلك النص هو الذي يشير الى أنه قد قضى على أولاد حام أن يكونوا قاطعي أخشاب وأن يعملوا في رفع الماء وحمله^٤ ، واستخلصوا من ذلك أن الشعوب الملونة قد كتب عليها القيام بأعمال

Hocart : Caste in India 1950. Hutton : 19 III. Caste in India, 1946 (١)

Homère : L'Iliade & l'Odyssée (٢)

Hésiode : La Theogonie Epimetheé, Pandore, (٣) ومعنى ذلك أن السيادة والحكم أمور تقتصر على فيئات من الناس زودتهم الطبيعية بمعادن نفسية وجبلية خاصة ، أما الآخرون من الفئات المحكومة والمغلوبة على أمرها ، فقد كونت تكوينا طبيعيا يحرمها من ممارسة أى نوع من مظاهر السلطة . فقد كتبت الطبيعة على البعض بالحكم والقيادة وعلى البعض الآخر بالانقياد والطاعة .

Plato : The Republic. (translated by A.D. Lindray. Book P, 415 416

السخرة لخدمة الجنس الأبيض ، وليس لها من سبيل للتحرر مما قضت به المشيئة الالهية ، وبهذا أخرجوا النصوص الدينية عن القصد الذي تهدف اليه بما يحقق لهم أغراضهم الاستغلالية .

هذه الافكار الميثولوجية تنطوى على ظاهرة باثولوجية مرضية ، يمكن فهم مصدرها البدائي من طبيعة مقومات التكامل الاجتماعي ، اذ يبدو أن كيان الجماعة وتماسك وحدتها ، كان مرتبطا بالتعصب لمقومات جنسها ، بل وبتقديسها لعنصرها . ويظهر ذلك واضحا بتحليلنا للعقائد التوتمية التي تسود الجماعات المتخلفة في الحضارة ، فالتوتمية تفترض الاتجاه الجوهرى بين الفصيلة الانسانية وتوتمتها ، وتقديس التوتم يرجع الى الاعتقاد بانحدار أصولهم عنه ، أى باعتباره أصلا لجنسهم ، ولذلك فإن كثيرا من الطقوس الدينية البدائية تقصد الى تغذيته وتقوية المبادئ التوتمية التي تعتبر حاملة لمبدأ الحياة ، مغلدة للجنس ، لازمة للانسال والتكاثر في الجماعة . ومن ثم يستبعد من مجالات تلك الطقوس الجماعات والافراد الذين يحملون تواتم مغايرة ، لأنهم من فصائل بشرية أخرى تبعا لتواتمهم ويجب درء خطرهم وتجنب مخالطتهم وخاصة في تلك المناسبات الدينية التي لها شأنها والتي يرتبط كيان الجماعة بها .

ولئن كان «دركهيم» قد انتهى من تحليله للحياة الدينية عند القبائل البدائية الى أن أول ديانة انسانية هي عبادة الجماعة لنفسها^٥ ، فانا اذا تبينا منهجه التحليلي أمكننا ان نستخلص ان تقديس الانسانية الأولى لم يكن للجماعة في ذاتها وانما كان لجنسها ، ويستقيم هذا الزعم مع الناموس الحيوى في الحرص على البقاء .

ثانيا : نظرية أفلاطون في تمييزه معادن الناس وطبقاتهم ، اذ جرى على لسانه في دستور مدينته الفاضلة بلغة ميثولوجية ان الاله ، وضع في طينة بعض المواطنين ذهباً ، ليتمكنهم أن يكونوا حكاما ، وهؤلاء هم الاعلى مرتبة والأكثر احتراماً ، ووضع في جبلة مساعدتهم فضة ليأخذوا مركزاً أدنى من السابقين ، أما طبقات الشعب من

(١) التوتم Totem عبارة عن نوع من الحيوان أو النبات أو الجماد ، تتخذة العشيرة رمزا لها ولقباً لجميع أفرادها ، وتنزله منزلة التقديس ، وتعتقد ان كيانها الاجتماعي مرتبط به لانه يؤلف معها وحدة اجتماعية متكافئة

E. Durkheim : Les formes elementaires de la vie religieuse, Paris 1925 (٢)

الزراع والعمال فقد وضع في جبلتها حديدا ونحاسا .

وهكذا يقسم الناس الى طبقات وفقا لمعادنهم أو عناصرهم .

ثالثا : وكذلك آراء أرسطو في الرق والاستعباد اذ يعتقد ان الطبيعة قد أعدت شعوبا للتفوق والسيادة ، وخصت الأخرى بالانحطاط والعبودية .

وهذا الاتجاه لم يكن قائما على أساس التعصب العنصرى بالمعنى المألوف في وقتنا الحاضر ، إلا أن آراء أرسطو تعتبر تبريرا لذلك الصراع الشعبى الذى كان سائدا بين الشعب اليونانى من ناحية وسائر الشعوب الأخرى التى أطلق عليها اليونان اسم البربر معارضا بذلك آراء السوفسطائيين الذين استغلوا قوة جدلهم الكلامى في دحض مبررات العبودية العنصرية ، ولا شك أن آراء أرسطو لم تصادف قبولا لدى المدرسة الرواقية التى مجلت العدالة الانسانية والمساواة العنصرية . وهذه النظرة لم تقم على أساس علمى سليم ، غير أنها كانت ترجمة لمنطق تلك المرحلة العبودية التى مرت بها المجتمعات الانسانية حين كان ينظر الى المنازعات العنصرية على أنها أمور طبيعية ، ولم ير أنصار العنصرية اذ ذاك أنها ظواهر تاريخية اجتماعية وانما نظروا اليها على أنها أمور محتومة لا سبيل الى تسويتها الا بطريق التوافق الطبيعى الذى يتم باستسلام الاجناس المنحطة لسلطان الاجناس الراقية .

وغنى عن البيان أن آراء أرسطو كانت نواة للأفكار التى سيطرت على أصحاب المذاهب الطبيعية في تفسير وتبرير التفاوت بين الاجناس على أساس التكوين الفطرى والانتقال الوراثى لصفات المادة الحيوية من الأصول الى الفروع ، فالطبيعة قد أعدت كل جنس اعدادا خاصا ، وشكلته على نحو معين ، وأمدته بعناصره الأصلية متمثلة في غرائزه الكامنة واستعداداته الفطرية التى تنتقل بالوراثة من جيل الى جيل في الجنس النقى الذى يحتفظ بخصائصه المميزة مهما تعاقبت عليه الأجيال ، ومن هنا كان التفاوت أمرا محتوما ودائما ولا سبيل الى التخلص منه .

رابعا : وقد تولد عن التبرير الثيولوجى للتفاوت العنصرى والذى سبقت الإشارة

اليه ، تيار معارض كان نتيجة لمعارضة بعض رجال الدين لا سيما الدين المسيحى ، في تفسير النصوص الدينية تفسيراً استغلاليا مغرضا ، وأيد هذا الاتجاه المعارض اخضاع الدراسات المستوحاة من الكتاب المقدس للمنهج المقارن ومحاولة كثير من المفكرين تصور الحالات البدائية للمجتمعات المتخلفة في الحضارة التى كان يطبق عليها جماعات المتوحشين البرابرة . وفي مقدمة الباحثين بهذا الصدد ديمودين^٢ وفروبين^٣ وسبنسر^٤ J. Spenser, Frobein, De Modene وقد ألف الاخير كتابا قيما عن العادات والتقاليد الخاصة بإسرائيل يعتبر مصدرا للمقارنات بين شعب إسرائيل المختار والشعوب الأخرى التى تحدث عنها الكتاب المقدس .

خامسا : وكان من نتائج اكتشاف الدنيا الجديدة ومعرفة شعوب أمريكا من الهنود الحمر والسكان الأصليين أن اتجه التفكير الى تشبيه تلك الشعوب ومقارنتها بالشعوب التى ورد ذكرها في الكتاب المقدس ويظهر هذا واضحا جليا في كتابات الفيلسوف الفرنسى مونتائى^٥ Montaigne (١٥٣٣ - ١٥٩٢) . ومن الطريف أن الناقد لانسون^٦ Lanson قد علق على كتابات الفيلسوف الفرنسى مونتيسكيو بقوله أن شعوب الله وشرائعها المنزلة قد احتلت في كتابه مكانا ضيلا بالنسبة لشعوب أمريكا المتوحشة وشعوب جزر المحيط الهادى المتبربرة . وكذلك سيطرت هذه النزعة على كثير من المفكرين ممن دعوا للحرية والمساواة والاخاء الانسانى ، فنجد مثلا أن فولتير^٧ Voltaire يدعو الى القضاء على مظاهر الاضطهاد العنصرى ولا يؤيد التمايز الجنسى، فذلك انحراف اجتماعى لا يتمشى في نظره مع العقل كما انه يناهى الفضيلة التى يجب أن يتحلى بها الانسان المتحضر والتى يجب ان يربها في معاملاته وعلاقاته مع الاجناس الأخرى المتأخرة أو المتخلفة في الحضارة . ومهما يكن من أمر الدعوة التى وجهها فولتير في مناهضة التمايز العنصرى فلا شك أن آراءه تركز على الاعتقاد بأن هناك أجناسا متأخرة تمتاز بالتوحش والهمجية وتتنافى عاداتها وتصرفاتها مع الأذواق السليمة ومع

- (١) J. Dottin : Les Anciens Peuples de l'Europe. 1916 P. 25 - 32.
- (٢) De Modene : Ceremonies et coutumes qui s'observent chez les Juifs
- (٣) Frobein: Les Antiquités Judaïques 1545.
- (٤) J. Spenser : De Legibus Hebraeorum Ritualibus . et Forum Rationibus (Cambridge 1686)
- (٥) & R. Linton : The Study of Man, N. York 1934.
- (٥) Voltaire : Philosophie de l'Histoire P.P. 7,9, 23 (Dictionaire : Egalité)

- (١) جمهورية افلاطون ص ٩٠ دستور المدينة
- (٢) اعتنق هذا الرأى فريق كبير من العلماء وعلى رأس هذا الفريق Henry Houssey وFontenelle وأوجست كونت A. Conte وهربت سبنسر H. Spencer وشوبنهوور وجالتون Galton

الأوضاع العرفية والقانونية التي تسيطر على المجتمعات المتقدمة الراقية بل انه غالى وجانب الصواب في وصفه لقبائل الأيروكوا Iroquois بأنهم من أكلة لحوم البشر وآية ذلك أن فولتير لم يتجرد من النزعة المعيارية والأحكام التقديرية وعارض التمييز العنصرى على أساس خلقى وان لم يكن يعارضه على أساس علمى واقعى ، وما يؤخذ عن فولتير في هذا الصدد يمكن أن يرشخ على العلامة روسو J.J. Rousseau حين حاول أن يتصور الحالة القطرية التي مرت بها المجتمعات الانسانية بطريق التخمين فتعرض لجماعات متأخرة وصفها بأنها متوحشة ومنحطة كجماعة الهوتينتوت Hottentot من أقوام افريقيا ، والأروكوا من أقوام أمريكا ، وان كان قد تأثر بما كان يرويه رهبان الجزويت عن طيبة الاقوام المتأخرة (Le Bon Sauvage)

ويمكن القول بصفة عامة أن آراء هذه الطائفة من المفكرين قد أعوزتها البيانات الصحيحة ، كما أعوزها المنهج الموضوعى الواقعى السليم ، وكان التخمين والخيال يقوم فيها مقام الملاحظة المنهجية . ولم يتجرد هؤلاء المفكرون من أهوائهم الشخصية وأحكامها التقديرية بل لم يكن قصد الكثير منهم دراسة وفهم حقيقة التفاوت العنصرى بقدر النقد والسخرية والتهكم^٢ . على أننا لا ننكر أن الاتجاه الفكرى العام لهذه الطائفة بدأ ينحو نحو الدعوة للتقليل من شأن التفاوت العنصرى أو محو آثاره على أساس أن ذلك الموقف يعتبر فضيلة من الفضائل . ويظهر ذلك من ثنايا كتابات مونتاي Montaigne عن هنود البرازيل (١٥٣٣ - ١٥٩٢) وفي دعوة كل من فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) و جان چالك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) وبيفون Buffon (١٧٠٦ - ١٧٨٨) للمساواة بين جميع الناس على اختلاف أجناسهم ، ولعل هذا الفريق يمتاز تميزا واضحا عما ذهب اليه بعض فلاسفة القرن الثامن عشر والتاسع عشر أمثال دافيد هيوم Hume (١٧١١ - ١٧٧٦) وتين Taine (١٨٢٨ - ١٨٩٣) ورينان Renan (١٨٢٣ - ١٨٩٣) الذين أنكروا تساوى الاجناس البشرية في قدراتها وملكانتها العقلية واستبعدوا أن يكون الزنحى أو الهندى مساويا للنوردى Nordic .

سادسا : وترجع طائفة من المفكرين فكرة التفرقة العنصرية الى عوامل تاريخية واجتماعية نشأت عن هجرة اجناس واستقرارها في أو اغتصابها لبلاد تسكنها أجناس أخرى . فالذى يحدث عادة أن الجنس الذى يتولى الحكم فيها ويفرض سلطانه على سكانها الأصليين يحتكر لنفسه أسباب التقدم الحضارى ويحرم منها الاقوام المغلوبة على أمرها بكافة القيود التي يفرضها بها . ومن ثم تتحسن وتتقدم الظروف الاجتماعية والحضارية للعنصر القاهر في الوقت الذى يتردى السكان الاصليون في الحضيض والتأخر ، وكلما أمعن الزمن في المضى على تلك الحال كلما بدا للعيان أن الاقوام الغالبة القاهرة تمتاز بخصائص نفسية وعقلية عن تلك الاقوام المضطهدة المهورة . هذا ويقوم طائفة من الكتاب الذين ينتمون الى العنصر المتحكم بتصوير هذه الفوارق المضطعة على أنها فوارق أصيلة مرجعها تفوق عنصرهم في مقوماته وخصائصه على العنصر المغلوب ولهذا آثاره النفسية الاجتماعية على الشعب الأصلي ، اذ أن غرس هذه الآراء يؤثر على سيكولوجية هؤلاء الاقوام ويجعلها تدين بالطاعة والاستسلام لحكم الواقع باعتباره أمرا محتوما . بل كثيرا ما يتضافر العامل الشيلوجى مع العامل الاثنولوجى في تأييد وتدعيم سيطرة عنصر على عنصر آخر بحكم أن هذه الفوارق مرجعها مشيئة الله وحكم الطبيعة . وأبرز مثال على ذلك نظام الطبقات في الهند ، فالباحث المدقق يستطيع أن يقرر أن هذا النظام قام على أساس تفاوت عنصرى ثم صورت الماوية هذه التفرقة على أنها من وحى الاله براهما نفسه ، فقد أرادت مشيئته أن ينقسم المجتمع الهندى الى الطبقات الآتية :-

(١) طبقة رجال الدين أو البراهما وتمثل هذه الطبقة رأس الاله واغلب الظن ان هذه الطبقة ترجع الى هجرة الدرافيديين Scytho-Dravidians قبل سنة ٢٠٠ ق م . واستيلاؤهم على السكان الأصليين ، قد مكّنهم من الاستئثار بالنفوذ والجاه والظاهرة والنقاوة ، ويمكن القول بصفة عامة أن الطبقات العليا جنوب الهند تمثل الصفات الدرافيدية الأصلية^٣ كما ان الطبقات العليا بسهول الهندستان تمثل العنصر الهندى الآرى .

(١) ابراهيم رزقانه العائلة البشرية ص ١٩٣ - ١٩٥ ، ١٩٦ ، وهو لا يختلف كثيرا عن جنس البحر الابيض المتوسط ص ١٩١ المرجع السابق .
(٢) Jacob & Storn : Outline Antropology P. 587. 1948 & The Living Races p. 48-49

J.J. Rousseau : Discours sur l'Inégalité p. 176

(٢) عبد العزيز عزت : فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع
(٣) Goldenweiser : Antropology N. York 1937 P.P. 364-366

(٢) طبقة المحاريين Khatryas أو الكشاترية وتمثل ذراع براهيم وتنسب

هذه الطبقة الى الجنس القوقازي Homo Caucasicus

(٣) طبقة التجار والصناع وتمثل فخذ براهيم ويمكن نسبتها الى العنصر الفيدي

Veddoid Caucasoid أو عنصر الفدا •

(٤) طبقة العبيد والأرقاء التي تمثل قدم براهيم وتعرف باسم السودرا Soudra

(٥) ويوجد الى جانبها طبقة الباريا أو المنتوذين وترجع أصولها الى القبائل

الوطنية التي كانت تسكن الهند قبل هجرة الدارفيديين مثل قبائل شاندر

Chandra والسكاي Sakai والسينوي Senoi والبنيان Paniyan

ويبدو أن نظام الطبقات الهندي قد نشأ أولا بين المجموعتين الجنسين الكبيرتين :

ما قبل الدارفيديين (والسكان الأصليين) والدارفيديين ، والآرين ثانيا ، ومما ساعد على تأصل هذا التمايز الحاجز اللوني إذ أن البيض كانوا يحتقرون السود ويعتبرونهم أقل منهم مرتبة • هذا الى ان المنزلة الاجتماعية لكل طبقة قد تطورت تبعا لظروف الحياة الاجتماعية ، فوجد مثلا أن الزعامة كانت لطبقة الكاشاترية المحاربة اثناء الحروب الوطنية التي نشأت بين السكان الأصليين والنازحين المهاجرين • ولا شك أن خوف الأجناس النازحة الى الهند على خصائصهم المميزة لعنصرهم كان أهم حافز لهم على وضع نظم تابو Tabou (مرمات مقدسة) صارمة تحرم عليهم التزاوج أو الاختلاط بغيرهم من الأجناس الأخرى لأن ذلك قد يؤدي الى انحطاط خواصهم العنصرية • وقد ترتب على ذلك قيام نظام طبقي ثم تطور هذا الأساس فأصبح المولد هو الذي يحدد مركز الفرد الاجتماعي والطبقة التي ينتمي اليها • على أن هذا التحليل لا يحملنا على التسليم بأن هذه العناصر الاثولوجية ظلت تقيية صافية إذ أن الثابت أنه حدث اختلاط بين الاجناس من جل الطبقات، فمثلا الراجبوت والطبقات العليا الذين ينتمون الى العنصر الهندي الآري لا يمكن أن يوصفوا بالنقاوة المطلقة بل امتزجت بهم دماء أخرى من السكان القدماء بشمال الهند ثم

(١) مصطفى الخشاب : تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية ص ٢٧ - ٣١ ابراهيم زرقانه المرجع السابق ص ١٦٢

Chanda, Sakai, Senoi
Panyian
Tabou

(٥)

من الغزاة الذين أتوا بعدهم ، على أن الملاحظ بصفة عامة أن الطبقات العليا اكثر نقاوة تتلوها الطبقات المتوسطة ثم الطبقات الدنيا ، ويرجع هذا الامتزاج الى ان القيود الاجتماعية ونظم التابو لم تتخذ شكلها النهائي في الصرامة والدقة الا بعد تطور أتاح فرص المزج •

ويبدو ان التمايز العنصري بين السكان الأصليين والغزاة الفاتحين والمهاجرين الفاصيين للسلطان ، كان مألوفاً عند اليونان والرومان في القرون الأولى ، فيشير العلامة دي كولانج^١ Fustel de Coulonges في كتابه المدينة القديمة الى أن طبقة السوق أو الدهماء Plebs لم تكن تكون عنصرا من عناصر الشعب populus في الأصل • ومع أن الكتاب الأقدمين لم يلقوا ضوءاً على التكوين الأول لهذه الطبقة الا أن المرجح أنها كانت تتألف من السكان الاصليين الذين غلبوا على أمرهم ، وكانت هذه الطبقة منفصلة عن الموالي والعبيد Thètes وكانت حالتها كحالة السودرا أو المنوذين في الهند ، شعب محقر مهين ليس له أن يشترك في الطقوس الدينية ، وكانت معاملتهم تعتبر ضرباً من التدنس والنجاسة ، ولم يكن لهم أية حقوق مدنية أو سياسية ولم يصبحوا مواطنين الا بعد ثورتها واندماجها في الشعب باندماج الموالي في السوق • وعلى ضوء ما تقدم يمكن أن نفترض أن النظام الطبيعي في تلك المجتمعات التاريخية قام أصلاً على أساس عنصري اثولوجي • سابعاً : هذا وفي خلال العصور الوسطى والاقطاعية كان النبلاء يبررون امتنانهم واحتقارهم لطبقة العبيد والفلاحين الذين لم يكونوا من أصل زنجي بترويج تلك الاسطورة التي ترجع أصلهم الى حام بن نوح ، الذي لعنه والده ودعا على سلالة بالعبودية والمهانة •

وذكر العلامة هرتز^٢ Hertz أن طبقة الاشراف في فرنسا حاولت حتى نهاية القرن السابع عشر أن تدعم مركزها الطبقي وتبرر سيادتها بأسطورة خيالية ترجعهم اصلاً الى فرانسوا François بن هكتور Hector^٣

(١) Fustel de Coulanges : La Cité Antique, Etude sur le Culte, le Droit,

Hertz : Race & Civilization, P. 5.

Cont de Boulanivillier

(١)

(٢)

(٣)

وفي أواخر القرن الثامن عشر نجد أن كونت دي بولانفيللي Count de Boulanviller ينسب الطبقة الحاكمة في فرنسا إلى العنصر الجرمانى الغازى ، في حين أن سواد الشعب الفرنسى يتكون من العنصر الكلتى والرومانى المغلوب على أمره فكانت الثورة الفرنسية في نظره قلبا للأوضاع الطبيعية التى تقضى بأن تكون طبقة النبلاء والحكام من العنصر الغالب وطبقة المحكومين من العنصر المغلوب .
ومن وجهة نظر أخرى فسر أيسيه^٢ Joseph Emanuel Abbé Sieyès الثورة الفرنسية بأنها نتيجة طبيعية لسعى الطبقة المحكومة من سكان فرنسا الأصليين للتخلص من وطرد العناصر الدخيلة من الغزاة الفاتحين .

هذا وقد حاول كثير من المفكرين تمييز أفراد الطبقة الواحدة على أساس عنصري في ضوء التفاوت العنصرى بين الطبقة البرجوازية وطبقة البروليتاريا ، فيذهب ساخلاند^٣ Erich Suchsland إلى أن الأفراد الذين قدر لهم النجاح في حياتهم الاجتماعية ، لا بد وأنهم ينتمون إلى جنس أرقى من أولئك الذين أصابهم الفشل ، وعلى هذا الأساس فالأغنياء أنبل جنسا وأصفى من الفقراء . ومن أنصار هذا رأى أيضا كارل^٤ Alexis Carrel فهو يعتقد أن المتعطلين من الطبقة البروليتاريا ينتمون بالضرورة إلى عنصر منحط ، وهذا الانحطاط جرى في عروقهم فافقدتهم القدرة على الكفاح والنضال بل جعلهم لا يرون أية حاجة ملحة للصراع من أجل البقاء . وبذلك تنتهى بنا هذه المدرسة إلى لون من الجبرية التعسفية للطبيعة البيولوجية وتجعل من الوراثة العامل الأول والفد في تقرير حظ الإنسان ودرجته الاجتماعية وشخصيته ، ولا شك أن هذا رأى يؤيده فريق كبير من الفلاسفة والمفكرين أمثال فونتينيل وأوجست كونت وسبنسر وشوبنهاور وجالتون ، ولكن هذا رأى مدافع ويعارضه فريق كبير وعلى رأسه جون لوك وأدم سميث وجون ستيوارت ميل وليسنكو وكثير غيرهم فيقررون أن أثر الوراثة في التفصيلة الإنسانية ليس شيئا مذكورا إذا قيست بأثر البيئة الطبيعية ومظاهر الثقافة المكتسبة

من المنظمات الاجتماعية بصفة عامة . بل لقد بالغ بعض أفراد اصحاب هذا رأى فذهب إلى أنه من الممكن التغلب على جميع آثار الوراثة بإحداث تغيرات في البيئة ، وغلا فريق منهم إلى أبعد من ذلك فانكر أثر الوراثة إطلاقا في الأنواع والاجناس البشرية ، ومن الثابت أن هذه العوامل لا تنفصل من حيث آثارها على الصفات المميزة للجنس ، بل احدها ليكمل الآخر ، فنحن نعلم من علم الوراثة أنه إذا كانت صفات الجنس تنقرر إلى حد ما بالمورثات Genes فإن مميزاته يمكن أن تتغير - إذا عرفت الوسائل المناسبة في نطاق حدود معينة بتغيير الأحوال البيئية المحيطة . وكذلك يمكن الوصول إلى تغيرات في صفات الجنس إذا توصلنا إلى وسائل تغير مؤثراته ، ومن المحقق من الناحية العملية أن وراثة صفات نوعية ممتازة ليس ضامنا للتفوق في الذكاء أو في النمو العقلى والجسمانى ، كما أن وراثة صفات عنصرية سيئة لا يحتم بالضرورة العجز أو التخلف الحضارى .^٥ فالمشكلة على هذا النحو نسبية وليست مطلقة .

ثامنا : في مستهل القرن التاسع عشر حدث تطور كبير في النظريات السياسية والاقتصادية نتيجة لازمة للثورة الصناعية في إنجلترا والثورة البرجوازية في فرنسا ونهضة الروح القومية في النمسا والمانيا . وكان لهذا أثره في الاتجاهات الفكرية المتعلقة بالتفاوت العنصرى . فنجد في إنجلترا مثلا كارليل Carlyle يقيم دعائم الفلسفة الارستقراطية ، ممهدا الطريق للإمبريالية الانجلوسكسونية ، وتتخلص فلسفته في أن رجل العمل خير وأفضل نوعا من رجل النظر والتأمل ، فكان مترجما صادقا للتيار الاجتماعى الذى ساد إنجلترا بعد الانقلاب الصناعى وكان دافعا ومبررا لموجة الرق والاستعباد التى اجتاحت امريكا عقب اختراع آلة الحليج الميكانيكية وشيوع استعمالها في الولايات الجنوبية اذ ازدهرت زراعة القطن نتيجة لذلك واستدعى ذلك استرقاق عدد كبير من الزوج العبيد ، ونما في الولايات المتحدة نظامان اقتصاديان مختلفان هما : النظام الصناعى ومعه الزراعة التى يضطلع بها أحرار في الشمال ، ثم النظام الزراعى الصرف الذى يقوم على اكتاف العبيد في الجنوب ، ولم يلبث أن اصطدم النظامان وقام النزاع بين ولايات الشمال التى نادى

(١) V. Cancllin : Heredity & Environment.
(٢) R.H. Wheeler & Perkins : Principles of Mental Development.
Hollingsworth : Mental Growth & Decline.

(١) Cont de Boulanviller
(٢) J.E. Sieyès Abbé : Qu'est ce que le Tiers Etat?
(٣) Erich Suchsland : Archiv Für Rassen Gesellschafts - Biologie
(٤) Alexis Carrel : Man, the Unknown.
(٥) V. Ency of Social Science : Art Racial Conflict
Brit. : Art Social Conflict by Hans Kihm.
Juan Comas : Racial Myths p. 10

بالغاء الاسترقاق وبين ولايات الجنوب التي نادت بالاحتفاظ بنظام الاسترقاق^١.

ونجد من علماء فرنسا الكونت دي جوبينو^٢ Count de Gobineau يشيد بفكرة الجنس النقي، وبالرغم من أنه فرنسي إلا أنه يقرر أن الجنس الجرمانى هو أكثر الاجناس نقاوة، وهو الجنس المختار الذى حمل لواء الحضارة ومشعل الثقافة من الجنس الأرى، وهو يتميز عن الاجناس اللاتينية التى لم تعد اجناسا نقية بعد أن اختلطت بالشعوب السامية والاجناس الزنجية المنحطة، ولم يخف جوبينو امتعاضه ونقده الشديد للنظم الديمقراطية التى كانت مألوفا فى بلاده، وراجت آراؤه وأفكاره فى كل من المانيا وأمريكا بالرغم من أنها كانت آراء فجة ينقصها التعليل العلمى الصحيح، فضلا عن أنها لعبت دورا هاما فى خلق روح معارضة للجنس السامى - وغنى عن البيان أن جوبينو وأمثاله خلطوا من الناحية العلمية بين الجنس واللغة والحضارة.

ويرجع هذا الخلط الى تفسير ما ورد فى سفر التكوين من كتاب العهد القديم عن نجاة سيدنا نوح وأولاده سام وحام ويافت بعد الطوفان، فقد قسم المفسرون البشر وفقا لذلك الى الجنس السامى والهامى والآرى، وفى نفس الوقت قسمت اللغات البشرية وفقا لهذا التصنيف الثلاثى. ويبدو أنه غاب عن أذهان النقاد أن سفر التكوين اعتمد فى تقسيمه على الروابط اللغوية والسياسية أكثر من اعتماده على الصلات والروابط الفيزيائية والبيولوجية التى يتخذها علماء الانسان أساسا لتصنيف الاجناس البشرية.

هذا الى أن كثيرا من علماء الفيلولوجيا (فقه اللغة)، قد أقاموا باكورة أبحاثهم اللغوية المقارنة على أساس أن هناك مجموعات من اللغات، تجمع أفراد كل مجموعة منها صلات تشابه وتقارب، كأن تتفق مثلا فى أصول المفردات وطرق الاشتقاق وما الى ذلك من القواعد اللغوية، فذهبوا الى أن هذه المجموعات لا بد وأن تكون قد

(١) هذا ما يعرف بالحرب الاهلية الامريكية التى بدأت فى ١٢ ابريل سنة ١٨٦١ بزعامة ابراهام لنكولن.

(٢) Counte de Gobineau : An essay on The Inequality of the Human Races. 1855

صدرت عن أصل لغوى واحد، واستخلصوا من ذلك أنها لا بد وأنها تمثل حضارة وثقافة واحدة، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك : وهو أن الناطقين بها ينتسبون - لا محالة - الى جنس واحد. وقد ساعد على ذلك الاستنتاج أن التوراة قد لاحظت - من باب التسهيل والتقريب الى الأذهان - اطلاق الاجناس أحيانا على الشعوب المتكلمة بلغة معينة أو المشتركة فى صلات أو روابط ثقافية أو سياسية، وقد تعرض كثير من العلماء أمثال بروكلمان Brockleman لمناقشة أسباب الاختلاط بين تصنيف اللغات والسلالات، واثبتوا الى نقد تفسيرات رواية التوراة، واعتقد اللغوى الايطالى ترومبيتس A. Trombettis فى نظرية اتحاد نوع بنى الانسان من جهة الجنس اعتمادا على ان جميع اللغات لو حللناها وتبعناها ترجع الى اصل واحد. وقد ذكر العلامة اللغوى ماكس مولر^٣ Max Muller سنة ١٨٨٢ انه حين يقول أن ثمت جنسا آريا، فانه لا يعنى البتة تشابها فى التكوين الفيزيقي لشعوب معينة وانما يعنى وجود تشابه فى اللغات التى ينطقون بها.

ولعل ابرز اختلاط بين تصنيف اللغات والسلالات ما وقع بين اللغات الآرية (الهندو أوروبية) ومجموعة الشعوب التى تسمى بالآرية أيضا. وتشتمل هذه المجموعة من اللغات على ثمانية فروع :

- ١ - اللغات الهندية : الهندية الايرانية - السنسكريتية والفارسية القديمة والافستية.
- ٢ - اللغات الأرمنية.
- ٣ - اللغات الايطالية (الرومانية واللاتينية وما تفرع منها من ايطالية واسبانية وبرتغالية وفرنسية) .
- ٤ - اللغات اليونانية .

(١) فقد اعتبرت التوراة مثلا العاموريين الفينيقيين من انحاميين لمجرد أنه كانت تربطهم بالحاميين فى مصر وافريقيا الشمالية روابط سياسية وتجارية.

٥ — اللغات الالبانية •

٦ — اللغات الكلتية التي بقي بعض أشكالها في لهجات ايرلندا وويلز •

٧ — اللغات الجرمانية (الانجلوسكسونية والهولندية والألمانية) •

٨ — اللغات البلطيقية (الليتوانية والروسية) والسلافية (البولونية الروسية)

وظن علماء الفيلولوجيا (فقه اللغة) ان الشعوب والمجموعات الجنسية التي تنطق بها ترجع الى أصل سلالى واحد هو الجنس الآرى •

ويجدر الاشارة في هذا المقام الى الملابس التي وقع في ظلها الخلط بين الآرية كلغة والآرية كجنس • ومما قيل في هذا الصدد أن أول من اكتشف أوجه التشابه بين مجموعة اللغات الهندوأوربية التي سميت فيما بعد بالآرية هو المستشرق الانجليزى وليام جونز W. Jones وقد كان يعمل قاضيا في الهند واشتغل اثناء اقامته هناك بدراسة اللغة السنسكريتية ، وفي فبراير عام ١٧٨٦ صرح أن اللغة السنسكريتية اكمل بناية من اليونانية وأغزر مادة من اللاتينية ، وهى مع ذلك شديدة العلاقة بهما في الأصول والافعال والقواعد بحيث لا يتصور الانسان أن المشابهة بنت المصادفة ، بل ان عالم اللغة اذ يدرس اللغات الثلاثة لا بد أن يؤمن بأنها من نبع واحد شامل وربما زال من الوجود •

هذا الاعلان هو الذى حمل علماء فقه اللغة على أن يدرسوا العلاقة بين السنسكريتية وأقدم اللغات الأوروبية ، وبفضل اتباع الاجرومية القياسية امكن تشييد سمات اللغة الأصلية التي نطق بها السلف المشترك لتلك الشعوب قبل انقسامها وتشتتها ، وقد سميت اللغة الأصلية باللغة الهندية الأوروبية • وعلى ذلك فان اكتشاف وشائج القرابة بين اللغة السنسكريتية واللغات الأوروبية هو الذى جعل العلماء يحكمون باتتمائها جميعا الى أصل واحد ، وامتد هذا الحكم الى الاعتقاد بان الناطقين بهذه اللغات جميعا يرجعون الى أصل جنس واحد أيضا • ومن أشهر دعائم هذا الاتجاه المستشرق الالماني شلوتزر Schlözer الذى أعلن في أواخر القرن الثامن عشر أن الشعوب التي تنطق باللغات الهندية الأوروبية تنحدر كلها الى جنس واحد هو الجنس الآرى الذى يقال أنه دخل أوروبا عن طريق آسيا

والذى ينسب اليه التفوق العقلى والجسمى • وذهب نفس المذهب العالم الالماني اللغوى ماكس مولر Max Muller ١٨٨٢ •

فليس هناك وجود حقيقى لما يسمى بالجنس الآرى أو الجنس السامى • فأساس فكرة الجنس الآرى اذن هو ما لاحظته علماء اللغات من اتفاق في الالفاظ والقواعد بين اللغات الأوروبية الحديثة المشتقة من اللغة اللاتينية وبين الاغريقية والجرمانية والسلافية وبين لغة الهنود القديمة المسماة بالسنسكريتية فأجمعوا عن طريق التخمين والفرض على أنها كانت في الأصل لهجات لقبائل كانت تنتمى في الأصل الى جنس واحد ، وقد اطلق العلماء على هذا الجنس اسم الجنس الهندوجرمانى ، ولما اتسعت المقارنة بين اللغات اطلق العلماء عليه اسم الجنس الهندوأوروبى ، ثم أخيرا الجنس الآرى نسبة الى آريا التي تذكر الكتب الهندية القديمة أن أجداد الهنود قد وفدوا منه ، وتشير الى أن موقعه في الشمال الغربى من الهند من هضبة ايران الحالية أو المنطقة المجاورة لبحر قزوين وقد اعتبر وفقا لذلك الموطن الأصلي للجنس الآرى •

وأما الجنس السامى فقد أطلقه شلوتزر Schloetzer على الشعوب التي كانت تتكلم العربية والعبرية واليمينية القديمة والبابلية والآشورية والآرامية لتشابه هذه اللغات تشابها يؤدي الى الاعتقاد باتتمائها الى فصيلة واحدة ، وقد حمل هذا على الظن بأنها ترجع الى فصيلة انسانية واحدة سميت بالسامية اقتباسا مما ورد في سفر التكوين بصدد اولاد نوح : سام وحام ويافت • وباختلاف الفروض عن موطن «سام» اختلفت الروايات عن الموطن الاصلى للساميين •

والواقع أن تقسيم البشر الى سلالات طبقا للغة ليس له أى سند صحيح • فالناس المشتركون في لغة ما أو ثقافة ما ليسوا بالضرورة متحدرين من أصل واحد أو أصول متقاربة ، فاللغة تنتقل من شعب الى شعب آخر أحيانا بطريق الغزو أو القهر ، فلطالما فرض الفاتحون لغتهم فرضا على المغلوبين ، ومن أمثلة ذلك اللغة التركية التي فرضها

(١) هناك آراء مختلفة بصدد الموطن الاصلى ومنها أنهم نشأوا على ضفاف بحر البلطيق ، وقد اقتصرنا هنا على أهم الآراء التي تذهب الى أن العنصر الآرى قد انقسم منذ القرن ٣٠ أو ٢٠ ق.م الى شعبتين رئيسيتين : شعبة شرقية (الهند وايران) وشعبة غربية في أوروبا •

Renan : Histoire Generale des Langues Semitiques p. 43.

(٢)

آل عثمان على سكان شبه جزيرة الاناضول الذين كانوا يتحدثون الاغريقية قبل الغزو العثماني ، والذين يتعدون بعداً تاماً عن السلالة الكبرى التي ينتمى اليها الأتراك الغزاة ، واللغة الاسبانية واللغة البرتغالية التي يتحدث بها عدد كبير من سكان أمريكا الجنوبية •

فظاهرة انتشار اللغة بالفتح ظاهرة تاريخية هامة ، وأحيانا يقتبس الغزاة لغة الشعب المغلوب على أمره ، فالغزاة النورمان تحدثوا الفرنسية في فرنسا ثم بنوا الانجليزية في بريطانيا •

هذا الى أن كثيرا من الكتاب يستعملون تعابير مختلفة في الاشارة الى الأمم والشعوب والقوميات ، فيقولون : الكلت والجرمان والهنود والعرب والانجليز والفرنسيين ، للدلالة على أن شعبا أو أكثر يرتبط بعضهم البعض برباط التاريخ والتقاليد المشتركة واللغة ، وأحيانا الدين ، والجوار الجغرافي ، أو يرتبط بعضهم البعض الآخر بالتقارب الحضاري والثقافي ، ويشتركون في آمال وأمان واحدة بغض النظر عن أصولهم السلالية ، فالإنسان حيوان فريد يمتاز بقدرته على نقل تجاربه وخبراته عن طريق التقليد ، دون أن يكون لها أى علاقة بالعوامل الوراثية الحيوية ، وكل ما يترتب على ذلك من نتائج ، واللغة والعادات والتقاليد والآراء كلها أمور سائلة تنتقل من شعب الى شعب بوسائلها الخاصة ولا يصح أن تتخذ دليلا على الاشتراك في أصل سلالي واحد ، وفي معرض الاشارة بالجنس النقي نجد الكونت جوبينو Gobineau قدر أن الجنس الجرمانى هو أكثر الشعوب نقاوة ، وهو الجنس المختار الذى حمل لواء الحضارة من الجنس الآرى وهو يمتاز عن الأجناس اللاتينية التي لم تعد بعد أجناسا نقية وخاصة بعد أن امتزجت بالشعوب السامية والأجناس الزنجية المنحطة ؛ من ذلك العرض يتضح لنا أن بعض العلماء قد خلطوا بين الجنس واللغة ، فليس هناك وجود حقيقى لما يسمى بالجنس الآرى أو الحامى أو الجنس السامى •

فمن الخطأ أن نتحدث عن السلالة الآرية أو السلالة السامية أو السلالة الحامية ، فهذه كلها مجموعات من البشر تتفق في أنها تتحدث لهجات أو لغات مشتقة من أصول أو عائلات لغوية واحدة ، وقد ينطوى تحت العائلة اللغوية الواحدة ، بل أحيانا تحت

اللغة الواحدة ، سلالات عديدة ، قد يربط بينها رباط الأصل المشترك ، وقد ينعدم هذا الرباط ، فالعائلة اللغوية الآرية مثلا يتحدث بها الامبانيون جميعا فيما عدا اللاب في أقصى شمال اسكندناوة والباسك في الحدود الفرنسية الاسبانية من ناحية الغرب ، وفيما عدا البلغاريين والهنغاريين والمجموعات التركية جنوب روسيا في تركيا نفسها ، كما أن اللغات الفارسية والافغانية والهندية من نفس العائلة اللغوية ومن ثم كانت تسميتها باللغات « الهندو أوروبية » هذا بالرغم من السلالات الفرعية العديدة التي يتكون منها الناطقون بلغات هذه المجموعة — ليس هذا فحسب ، بل ان التقارب من ناحية السلالة بين بعض الناطقين باللغات « الهندو أوروبية » والناطقين بإحدى اللغات الآرية الفنية أكبر من التقارب السلالي بين الناطقين باللغات « الهندو أوروبية » بعضهم والبعض الآخر •

كذلك الحال فيما يختص باللغات السامية إذ أن هناك تنوعات سلالية بين العرب الشماليين (طوال الرأس) والعرب الجنوبيين (عراض الرأس) ، كما أن اللغة العبرية القديمة تحدث بها بنو اسرائيل وخلفاؤهم فيما بعد وفيهم من يرجع الى الأصل الأرمنى . هذا الى وجود بعض عناصر هندية أوربية قديمة في الهلال الخصيب مواطن الممالك السابقة القديمة في بابل وآشور وأرض كنعان ، فإن انتشار العرب المسلمين قد حمل اللغة العربية وفرضها فرضا على البلاد المفتوحة في مصر وشمال افريقية مما أخرج تعبير العرب عن المعنى الاثنولوجى الى المعنى الثقافى واللغوى •

ولقد باعدت اللغة بين الشعوب الأقرب رحما لأنها حاجز ثقافى كبير فأصبح الاثيوبيون أبعد عن جيرانهم من الصومال الحاميين الشرقيين ، بالرغم من القرابة العنصرية الكبيرة التي تربطهم •

ففى رأى (آرثر كيث) لا يقل حاجز اللغة في فصل الجماعات بعضها عن البعض خطرا عن الحواجز الفيزيكية ، فهى فاصل كبير بين الشعوب لأنها وسيلة التفاهم بين الأفراد داخل الشعب الواحد ، أو الجماعة الواحدة ولكنها بالرغم من ذلك أمر سهل يصبح بالاختلاط والتقليد ، أو بالقهر والغزو تراثا مشاعا بين جماعات تختلف بعضها عن البعض في الصفات الجسمية ، وربما كانت تتحدث لغة واحدة ، منعزلة عن غيرها ، مقتصرة على التزاوج فيما بينها ، وقد عملت بحكم توارث الصفات

العامة المشتركة بين أفرادها على إبراز صفات خاصة بها ، وبهذا كونت سلالة متميزة ، ولكن مثل هذا الغرض لا ينطبق الا على الجماعة اللغوية وهى فى دور التكوين فى مرحلة معينة من تاريخها ، ويؤيد ذلك ما تواتر فى كتب اليونان القديمة من صفات امتاز بها الاوروبيون القدماء وارتباط صفات الشقرة بالشعوب الناطقة بالهندأوربية بين شعوب لا تتصف بالشقرة .

وفى الوقت الحاضر نجد أن الشعوب التى تتحدث لغات حامية فى افريقية تكاد تكون متجانسة فى صفاتها الجسمية ، ولكن هذا لا يشفع مطلقا فى اطلاق هذا التعبير اللغوي على معنى سلالى ، كما أننا نلاحظ أن بعض الجماعات قد تركت لغتها الحامية وتحدثت بالعربية وهى لغة سامية مثل المصريين ومثل بعض بربر شمال افريقية .

مما سبق تتضح لنا العلاقة بين الجنس واللغة التى استعملت خطأ فى تقسيم البشر الى سلالات والتى اتضح منها أنه لا يصح أن تتخذ اللغة دليلا على الاشتراك فى أصل سلالى واحد .

تاسعا : وفى ألمانيا برزت فكرة التفوق العنصرى بشكل واضح وبصورة تحيزية قومية فى الفلسفة الاجتماعية للعلامة الألماني هردر^(١) فهو يعتقد أن الاجناس البشرية ليست متساوية فى استعدادها للتخضر ، فاذا كانت الاجناس تتمايز فيما بينها فى تركيبها الفيزيقي فانها تتفاوت كذلك فى مدى التأثير بمظاهر المدنية وفى تمثلها لمقومات الحضارة ، وعلى هذا الأساس يذهب هردر الى أن هناك اجناسا بشرية خلقت للرقى وأخرى قضى عليها بالتأخر والانحطاط ، بل ان الاجناس المتخلفة فى مضمار الحضارة يجب أن تظل كذلك لأنها ليست أهلا للرقى : وقد حاول هردر أن يفسر التاريخ تفسيراً عنصرياً : فالامبراطورية القديمة انما تم لها السيطرة على الشعوب الأخرى المتخلفة لتحقيق الصفات الحضارية فى عناصرها ، فقديمًا تحقق التفوق العنصرى فى الشعب المصرى ثم خلفه الشعب اليونانى فالرومانى فالجرمانى ، ويعتبر الجرمان الآرى أرقى الشعوب وأسماءها فى العصر الحديث ، بل اليه يرجع الفضل فى كل اصلاح دينى أو سياسى (بانقاذ الوعى القومى) وجميع مظاهر الحضارة

(١) عبد العزيز عزت : فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع

الحديثة ترجع فى نظره الى الحضارة الجرمانية المسيحية . وقطارى القول ان تعصبه لقوميته أداه الى تعصب لما يسميه بالجنس الآرى والى تغيير حقائق التاريخ والى الخروج عن المنطق السليم : الى أن يبرز بذور العداوة بين الشعب الألماني والشعوب الأخرى ولا سيما الشعب الفرنسى الذى وصفه بالانحطاط والشيخوخة .

وقد احتضنت المدرسة الألمانية نظرية السيادة العنصرية للجنس الجرمانى ، ورتبت عليها من الناحية السياسية ضرورة قهر الشعوب المنحلة ، بما ينجم عنه من توسع وغزو وحروب طاحنة ، وقد بذر هيغل وفخته Fichte بذور هذه الفلسفة فى الشعب الألماني ، فاعتنق هيغل نظرية الارتقاء وبقاء الأصلح ، وطبقها فخته على الجنس الجرمانى باعتباره الجنس المختار وأنه الجدير بالخلود والبقاء ، ولم يكن فخته يدعو الى بقاء الجنس الألماني بقدر ما يدعو الى بقاء وخلود الثقافة والحضارة الجرمانية ، ومن ثم كان على الشعب الألماني أن يحمل لواء انتقدم والحضارة العالمية ولو بالقوة والعنف . وتولد عن هذه الاتجاهات نزعة قومية تعصبية أشعلتها حماسة كتابات كل من فردريك شليجل Friedrich Schlegel وليست List ، وقد غذى هذا التيار موسيقى الفنان الألماني فاجنر^(٢) Richard Wagner إذ أنه أشعل الألمان حماسة للتوسع والغزو والاشادة بنقاوة عنصرهم وحفزهم الى التخلص من اليهود الدخلاء الساميين الذين هم أساس التخلف والانهيار لكل حضارة ، وليس عجباً ان يصبح زوج ابنته^(٣) الكاتب الانجليزى الألماني تشامبرلين Houston Stewart Chamberlain من أشد غلاة نظرية التفوق العنصرى ، فقد حاول فى كتابه عن دعائم القرن التاسع عشر ان يثبت أن العنصر الجرمانى هو الذى انشأ الحضارة الأوروبية ، وأن انهيار الحضارات القديمة ، وخصوصاً حضارتى الاغريق والرومان ، انما مرجعه الى امتزاج الاجناس التى انشأت هذه الحضارات باجناس غريبة عنها ، وخلص الى أن مصير الحضارة الانسانية منوط بمحافظه الجرمان على نقاوة عنصرهم . وقد قسم الاجناس البشرية من حيث أثرها الحضرى الى قسمين كبيرين : أجناس

Beracha : Le Mythe de Racisme, Paris 1945.

Willis Weatherford : Race Relations, p. 16.

Dr. H.A. Miller : The Jew & His Music (Wagner).

H.S. Chamberlain : The Foundations of the 19th Century, 1910.

منشئة وفي صدارتها الاجناس المختارة Elite وعلى رأسها الجنس الجرمانى ، وأجناس هادمة بطبعها وعلى رأسها اليهود والزنج ، وانتهى من هذا الى أنه يجب أن تكون السيادة في العالم للاجناس الممتازة وعلى قمته العنصر الجرمانى .

وقد تبنت النازية الألمانية آراء تشمبرلين هذه واتخذتها أساسا لسياستها العنصرية في تطهير البلاد والعنصر الألماني ، فنصت المادة الرابعة من برنامج الحزب الاشتراكي أنه لا يحق لغير الذين ينحدرون من دم ألماني مهما كان مذهبهم أن يكونوا أعضاء في الأمة الألمانية . واذن فليس ليهودي أن يكون عضوا فيها . على أن النازية لم تقف عند حد العمل على سحق اليهودية في ألمانيا ، بل ذهبت الى أبعد من ذلك في الاشارة بتفوق السلالة النوردية الشمالية متبينة آراء برادلي^(١) R.N. Bradely عن التفوق العنصرى لهذه السلالة (The Superior Nordic Race) وقد شاع استعمال الجنس أو العنصر التيتوني لهذه المجموعة البشرية ، وذلك نسبة الى اللغة التيتونية التي يتكلم بها سكان المانيا والسويد والنرويج والدنمرك وهولندا والنصف الشمالى من بلجيكا (V. Teutonism) ، وقد تمادت النازية في غلوائها فذهبت الى تصوير اليهود على أنهم أشد الأجناس هدمًا للحضارة^(٢) ، وأن الحضارات لا تقضى أو تهدم الا عندما يمتزج الجنس الآرى المنشئ لكل مدينة بالاجناس الوضيعة ، بل ان تاريخ الامم الآرية يدل على أنها تنحط وتدهور كلما انحرفت عن مبدأ تقاوة الجنس وامتزجت بالاجناس المقهورة ، وتذهب النازية الى أبعد مدى بمبادئها بتفوق الجنس الآرى على جميع الاجناس الاخرى وليس على السلالة اليهودية وحدها . . . وترى أن الاجناس غير الآرية كلها أجناس منحطة : فشعوب البحر الأبيض والشعوب السامية والشرقية بوجه عام شعوب منحطة يجب أن يستبدها الجنس الآرى ، ويجب أن يحرص على نقائه وعدم الامتزاج بها ، فالنازية بهذا المعنى تحمل في ثناياها الزعم بأن العنصر الجرمانى هو الشعب السيد والجنس المختار Herrenvolk ، كما أنها تتصل بروحها بصلة وثيقة بفلسفة القوة والسيادة التي دأبت في المانيا خلال القرن التاسع عشر ، والتي حمل لواءها بالأخص

R.N. Bradely : Racial Origins of English Character P. 87.

Frank - H. Hankins : The Racial Basis of Civilization

Ginsberg : Anti-Semitism.

(١)

(٢)

فردريك نيتشه . فالبشر في نظره صنفان : الأسياد والعبيد ، أو الصفوة والدهماء ، وأن الخير لا يتحقق للانسانية الا اذا قام بين الشعوب جنس يمتاز بالقوة والتفوق والسيادة Uebermensch^١ . يمثله الانسان الكامل المتفوق Superman.

هذا وقد نوه كثير من العلماء والكتاب امثال جنزبرج^٢ Ginsberg وريموند فيرت^٣ Raymond Firth بطلان النظرية النازية القائمة على الزعم بتفوق السلالة الآرية أو العنصر النوردى ، أو اعتبارها منشئة للحضارات الانسانية ، فالتاريخ لم يرو لنا أن البلاد الشمالية قد شهدت حضارة عريقة كالتى ازدهرت في الشرق الأدنى والأوسط في الصين ومصر وبحر ايجيه . كما أن الثابت المحقق أن المدنية الحديثة والأوسط في الصين ومصر وبحر ايجيه . كما أن الثابت المحقق أن المدنية الحديثة وفرنسا وبريطانيا والمانيا وامريكا وروسيا ، وكل تلك امم توجد فيها اجناس مختلطة بكثرة . هذا الى أن مغالاة النازية في التحقير من شأن السلالات الأخرى ليس له ما يبرره من الناحية النظرية أو الواقعية ، ويبدو أن الاجراءات الاستثنائية التي اتبعتها النازية في اضطهادها للسلالات الاخرى مما يمكن أن تفسر في ضوء التعليل السيكولوجى الاجتماعى لظاهرة العدوان والتعصب ، والتميز الجماعى الذى تلجأ اليه الجماعات التي تعاني من القلق الاجتماعى لتعيد الى كيانها الاستقرار ، وذلك بأن تصرف تقمة الجماهير عن النقائص الحقيقية في الهيكل الاجتماعى وتحولها وجهة محدودة وخاصة . وقد كان هذا هو شأن المجتمع الالماني^١ ، اذ كان معظم افراد الأمة الالمانية يشعرون قبيل الحكم النازى بالمرارة ، مما ادى الى وجود نوع من الشقاق والتناؤد الذى يندر بقيام ثورة داخلية أو حرب أهلية تقضى الى تقويض المجتمع الالماني ، فكان على النازيين أن يحولوا شعور النعمة الى متنفس يلتمسون فيه ملاذا من تلك النعمة الجماعية التي كانت تهدد كيان المجتمع الالماني ، وبذلك تهيأ للحكم النازى نوع من الاستقرار . هذا ويرى بعض النقاد أن النازية رأت ان تستغل بلواء النظرية العنصرية في اضطهادها لليهود ، ولكن البواعث الحقيقية كانت سياسية واقتصادية قبل كل شئ .

والآن يجدر بنا أن نتساءل من الناحية الموضوعية العلمية ، عما اذا كانت هناك

Raymond Firth : Human Types.

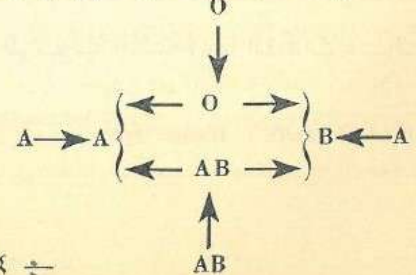
(١)

تمت قاعدة حقيقية ، يقاس بها تفوق جنس على جنس آخر ، استنادا الى الدعائم الاساسية التي يذكرها دعاة التفرقة العنصرية ، أعنى بها التفوق في الدم والذكاء والثقافة .

ففيما يتعلق بتفوق الدم ، أجرى بعض علماء الاثروبولوجيا تجارب تقوم على تحليل عينات من السلالات البشرية ، بقصد استنباط المجموعات الدموية التي تنتمي اليها . وقد نشر دان L.C. Dunn مؤلفا صغيرا عن علاقة الجنس بعلم الحياة لخص فيه جهود العلماء في هذا الصدد ، ويكفي هنا أن نشير الى نسبة انتماء بعض الشعوب الى الفصائل الدموية المعروفة (O, A, B, AB) على النحو المبين في الآتي :-

اسم الشعب	نوع فصيلة الدم			
	O	A	B	AB
الهنود الحمر في أمريكا الشمالية	٩١	٧	٢	صفر
الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية	٩٨٠٥	١٤٥	صفر	صفر
السكان الاصليين في غرب استراليا	٤٨٠١	٥١٤٩	صفر	صفر
السكان الاصليين في شرق استراليا	٥٨٠٦	٣٧٠٨	٣٤٦	صفر
الانجليز	٤٧٠٩	٤٢٤٤	٨٠٣	١٤٤
السويديون	٣٧٠٩	٤٦٤١	٩٠٥	٦٠٥
الروس	٣١٠٩	٣٤٤٤	٢٤٤٩	٨٠٨
اليابان	٣٠٠١	٣٨٤٤	٢١٤٩	٩٠٧
الصين	٣٤٤٢	٣٠٠٨	٢٧٤٧	٧٠٣

يلاحظ ان عملية نقل الدم يمكن أن تتم حسب ما هو مبين بالرسم الآتي :-



ومن الواضح أن هذه الفصائل الدموية لا تعطى دلائل تفوق عنصري وانما قد تدل على توحد أو تقارب الاصول السلالية ، ومدى العزلة الجغرافية أو الحضارية للجماعات البشرية ، وهي تخدم أغراضا حيوية أكثر منها دلالات عنصرية ، وخاصة في مجال نقل الدم من شخص لآخر اذ يجب ملاحظة أن هذه العينات قد تتمثل بأكملها في شعب واحد ، أن الفرد الذي دمه من نوع (O) يستطيع أن يعطي دمه لأي شخص آخر ، بينما لا يستطيع شخص من نوع (AB) اعطاء دمه الا الى شخص ينتمي الى نفس المجموعة أي (AB)

أما فيما يتعلق بتفاوت الاجناس في ذكائها وفقا لتفاوتها في الفروق التشريحية الفسيولوجيا — وخاصة في معدلات حجم الجمجمة وتلافيف المخ ووزنه ، فقد ذهب فريق من العلماء الى تأكيد الصلة بين الفوارق الفيزيائية والتفاوت في الملكات الذهنية والقدرات العقلية والاستعدادات النفسية . فوضع مارتن Rudolf Martin عام ١٩١٤ لوحة هامة ، وضح فيها معدلات حجم الجمجم عند بعض السلالات المختلفة على النحو الآتي :-

الشعوب والقبائل	رجال	نساء
الأوروبيون وسكان جزر المحيطين، الهادي والاطلسي	١٤٥٠ سم	١٣٠٠ سم
الاستراليون الاصليون	١٣٤٧ سم	١١٨١ سم
القيرا	١٢٥٠ سم	١١٣٩ سم
الاندمانيون	١٢٨٠ سم	١١٤٨ سم

بملاحظة التفاوت بين معدل حجم الجمجمة في شعوب أوروبا من جهة ومعدل حجم جماجم بعض الأقوام المتأخرة استنتج انه لا بد وان تكون هناك صلة بين حجم الجمجمة والمقدرة العقلية .

واذا نحن سلمنا بهذه الارقام ، واخذنا بعين الاعتبار وجود صلة مباشرة بين حجم جمجمة الرأس والذكاء فمن الممكن أو المحتمل أن نسلم بتفوق الجنس الأوروبي ، غير أننا لو وسعنا دائرة الاستدلال ، ودققنا في الجداول التي وضعها كثير من العلماء

بخصوص معدل أحجام بعض الشعوب المتأخرة فربما انتهينا الى نتيجة مخالفة كما يتضح ذلك من الجداول الآتية :-

الشعوب	معدل سعة الجمجمة	القبائل	معدل سعة الجمجمة
اليابانيون	١٤٨٥	قبائل الآما Ama	١٥٧٠
العرب	١٤٧٤	الاسكيمو	١٥٦٣
الصينيون	١٤٥٦	الكافر Kafir	١٥٤٠
		اقزام افريقيا الوسطى	١٦٠٠

وفي ضوء هذا يتبين لنا أن الأرقام الدالة على حجم الجمجمة عند القبائل المختلفة في الحضارة أعلى منها عند الأوروبيين مما ينهض دليلا على دحض آراء مارتين . ومن أولى المحاولات العلمية لاثبات التفاوت العنصرى ، ما أجراه العالمان جوردن Gordon وفينت Vint بقصد مقارنة نمو الدماغ ووزن المخ بين الجماعات البدائية الافريقية والشعوب الأوروبية . فقد انتهى الاول الى أن متوسط النمو في دماغ الافريقى الذى يقع سنه ما بين ١٠ - ٢٠ ، هو نصف متوسط النمو لدماغ الفرد الاوروبى في نفس السن . وقد رتب على ذلك أن نظم التعليم الاوروبى لا يجب تطبيقها في شرق افريقيا لأنها لا تأتى ثمارها المرجوة هناك . واستخلص فينت أن متوسط وزن المخ بين الشعوب الافريقية أقل ١٠،٦٪ منه عند الاوروبيين وان هناك ثمة صلة بين المخ وذكاء الجنس .

ومن ناحية اخرى حاول العالم الفرنسى توينسار Paul Topinard أن يضع لوحة يبين فيها معدلات زنة المخ في بعض الاقوام والشعوب كما هو مبين على النحو الآتى :-

الصينيون	١٤٢٨ صم
اليابانيون	١٣٦٧ صم
الاوروبيون	١٣٦١ صم
زنوج أمريكا الشمالية	١٣١٦ صم

Morris Ginsberg : Sociology, P. 64. Paul Topinard

(١)

والمدقق في تلك البيانات ، يلمس أن لا صلة مطلقا بين معدل وزن المخ ، ومستوى الذكاء في الجنس أو المستوى الحضارى له . ومما ينبغى الإشارة اليه ان هذه المقاييس لشعوب لا لأجناس ، وهذه الشعوب لا تتكون من سلالات نقية بحيث يمكن اعتبارها عينات يمكن الاستدلال بها أو القياس عليها ، فضلا عن أن هذه المعدلات أخذت من اعداد محدودة لا تكاد تفي بغرض المنهج الاستقرائى العلمى . وهى مع ذلك لا تعزز آراء المدافعين عن التفاوت العنصرى .

وقد اتجه بعض العلماء الى التدليل على سمو الجنس بنسبة النابغين فيه الذين يبلغون الحدود العليا للمقدرة أو الكفاية الذهنية "The Upper Limits of Ability" والواقع أن بلوغ هذا الحد ليس وقفا على سلالة معينة كما دلت ابحاث كل من ويتى Witty وجنكنز Jenkins

ولقد أثبتت اعتراضات فنية على قيمة تلك البحوث من الناحية العلمية . ويهمننا في هذا المجال أن نشير الى جهود بعض العلماء في محاولة الربط بين الميدان التشريحي والميدان السيكولوجى والميدان الثقافى في دراسة دلالات السلالات البشرية ، ومن بين هذه المحاولات ما قام به كل من شلشير Shell chear وكانجهام Cuningham وكابر Kapper . فعلى الأول صغر حجم أدمغة بعض السلالات بعدم اكتمال نموها نظرا لظروف بيئية واجتماعية وثقافية ، بل يذهب الى أن نموها قد يبرز امكانيات لقدرات عقلية تفوق السلالات التى تدعى لنفسها السمو . ويرى الآخرون أن المشكلة تتصل بمعدل التطور أو النمو الفيزيقي والعقلى بين أفراد الأجناس المختلفة ، فالأطفال في الجماعات المتأخرة ينمون بسرعة اكبر من أطفال الشعوب الأوروبية ، وعلى ذلك يقف نمو عظام الجمجمة قبل أن يستكمل المخ المراكز اللازمة للنمو العقلى لأن استغلاق الجمجمة يحول دون نمو المخ .

هذه المحاولات وما إليها قد تفسر طبيعة الصلة بين التباين العضوى الوظيفى اكثر من تفسيرها للتفاوت بين الملكات العقلية تبعا لتفاوت السلالات ٢ .

Witty & Jenkins : The Journal of Social Psychology 1935
Otto Klinberg : Race & Psychology 1951 (Unesco)

(١)

(٢) ومما يدعو الى عدم التسليم بنتائج تلك المحاولات انه اذا اضطبت النسبة بين حجم الجسم وحجم الجمجمة وبين زنة الجسم وزنة المخ تضاءلت هذه الفروق السطحية ولم يعد لها دلالة يقينية .

وقصارى القول أن هذه الاعتبارات لا تنهض دليلا على تفوق سلالة على أخرى ، ومن الخير أن نقف موقف العالمين الأمريكيين كروبر^١ A.L. Kroeber وفرانز بواس^٢ Franz Boas ، فانهما رغم تسليهما بأن الاختلافات التشريحية لا بد وأن ينجم عنها فوارق فسيولوجية سواء في الوظائف العضوية أو في الصفات النفسية ، إلا أن هذا لا يستلزم بالضرورة القول بتفوق جنس على جنس آخر ، في أى من الملكات العقلية .

واذ تبين لنا أن جهود علماء التشريح في قياس حجم الجمجمة وفي وزن المخ أو ملاحظة دقة تلافيفه ، تقصر عن أن تزودنا بدلالات عن التفاوت في الملكات العقلية والصفات النفسية للسلالات البشرية ، فلنول وجهنا شطر ميدان علم النفس التجريبي

والواقع أن علماء الاثروبولوجيا قد استعانوا بالاختبارات المستخدمة في تجارب علم النفس الفردي ، لقياس القدرات العقلية كالقدرة على التذكر والتصور والابتداع والذكاء ، والمهارات الفنية في الموسيقى أو الرسم أو الهوايات ، كما استعانوا بما يستخدمه علم النفس في قياس الاحساس بالألم وبالتعب ، وفي تحديد سمات الشخصية من ناحية المزاج والطبع Temperament ، وحاول الكثير من علماء الانسان تطبيق هذه الاختبارات على بعض الشعوب بغية دراسة الاختلاف المفروض بين الأجناس في الذكاء والادراك والحساسية ، ولمعرفة ما اذا كان التفاوت أصيلا أم طارئا ، وعما اذا كان هذا التفاوت يرجع الى عامل المورثات السلالية أو الى عامل البيئة الاجتماعية .

وفي مقدمة هؤلاء العلماء وودورث L.C. Presey Woodworth وكلينبرج Klinberg . وتدل أبحاث هؤلاء بصفة عامة على أن نتائج هذه الاختبارات تتأثر بالوسط الاجتماعى وبالتقاليد والعادات وبفاهيم اللغة ، فلا بد أن يكون للاسئلة المستخدمة معنى اجتماعيا في نظر الشخص ، كما أن موقف الجماعة تجاه الاسئلة يؤثر

(١) A.L. Kroeber : Social Antropology 1934, 1938.
(٢) Franz Boas : The Mind of Primitive Man, 1911.
(٣) Morris Ginsberg : The Study of Society, P. 184.

الى حد كبير في نتائج الاختبارات ، هذا فضلا عن طبيعة الحياة الاجتماعية من ناحية كونها بدوية أو ريفية أو مدنية .^١

وقد أوضح العلامة كلينبرج استاذ علم النفس في جامعة كولومبيا أن الاختلافات في مستويات الذكاء تفسر جميعها بعوامل تتعلق بالبيئة والمحيط الاجتماعى ولا يمكن ارجاعها الى تنوعات وراثية سلالية .

وقد اعتاد كثير من المفكرين أن يميزوا بين الاجناس في السجيا والطباع ، وان يخصصوا بعض السلالات بصفات معينة ، فيعتقد الكثير أن الشعوب المتأخرة تفوق الشعوب المتحضرة مثلا بالقدرة على تعرف الأجسام والأصوات من مسافات بعيدة ، ولكن الاختبارات العلمية تفيد أن هذا التفوق لا يرجع الى قدرات أفضل ولكن يرجع الى الانتباه الى بعض الموضوعات التى يهملها الرجل الأبيض . وما قيل في تمييز الاجسام والصوت قد ينطبق على ما يقال عن حاستي الشم واللمس ، فإن الاعتقاد السائد هو أن هناك فروقا لطيفة في هاتين الحاستين بين القبائل المتأخرة والمجتمعات المتحضرة مع أنه لم يتحقق شيء بصفة جدية .

وقد وجد بعض الباحثين أن عتبة الألم ترتفع بين البدائيين عنها بين المتمدنين ويقصد بذلك أن الأول يتحمل ضغط آلة مدة أطول من الثانى قبل أن يشعر بالألم ، ويرى البعض أن الرجل الأبيض يشعر بؤل وخزة بينما يتحمل البدائى الضغط حتى يؤلمه ، ويرجع هذا الى طبيعة الحياة الاجتماعية التى يحياها كل منهما ، فالتحضر قد انشئ تنشئة اجتماعية تعتمد أساسا على الحرية الفردية وعدم احتمال الضيم والألم ، بينما تركز الحياة البدائية على الصبر واحتمال الألم ، ومن أظهر الأمور السائدة عندهم أن الفرد لا يقبل في الحياة الاجتماعية الا اذا اجتاز عدة تجارب قاسية Ordeals تثبت مدى تحمله للألم .

والواقع أن هذه الموضوعات تعود بنا الى صعوبة التمييز بين العوامل الاجتماعية والعوامل النفسية أى التأكد من أن الذى قيس بالفعل هو نقص العمليات العقلية وليس مجرد طريقة للسلوك تعود الشخص على أدائها .

L.C. Presey : Art. in The Journal of Applied Psychology 1933.
Otto Klinberg : Opt. Cit.

وقد أجرى عدد كبير من الاختبارات التجريبية لقياس الذكاء النسبي للأجناس المختلفة ، وهنا تعترضنا صعوبة ، ألا وهى : ماذا يعنى بالذكاء ؟
أجمع كثير من العلماء على أن ليس هناك صفة عقلية محدودة اسمها الذكاء ، ولكن هناك عدد من القدرات الخاصة .

ووجهة نظر بعض العلماء الانجليز وعلى الاخص سيرمان Spearman هو أنه وجد مظهر عام للعقل يسمى بالذكاء ، وبمعنى أكثر تفصيلا ، عرف الذكاء بأنه المقدرة على التعلم واستخدام هذا التعلم فى مواقف جديدة .

ولكى نقارن ذكاء الأجناس المختلفة من الضروري أن ندرس مجموعات كبيرة من كل منها ، كما أنه من الضروري أن يراعى فى الاختبارات المستعملة ظروف كل بيئة حتى لا يعوقها اختلاف طرق المعيشة فى البيئات المختلفة . وهناك عدة طرق لقياس الذكاء النسبي . غير أنه يوجد اتجاهان رئيسيان بين علماء النفس ، الاتجاه الأول يشله هؤلاء الذين يستخدمون اللغة اللفظية فى اختباراتهم ، والاتجاه الثانى يقوم على أساس تجنب استعمال اللغة والاقتصار على التصرفات الـ Performance Test

وأهم اختبارات النوع الاول اختبار بنيت سيمون Binet-Simon الذى عدله فيما بعد ترمان Terman . وهذه الاختبارات اللفظية تتطلب صياغة الاسئلة بطريقة تمكننا بقدر المستطاع ان نستبعد نتائج التعلم وبحيث تقلل الاختلافات البيئية الى أصغر عامل مستطاع^١ .

وقد طبق عدد من هذه الاختبارات على البيض والصينيين واليابانيين والمكسيكيين وهنود أمريكا وقبائل الزنوج فى شمال وجنوب الولايات المتحدة . ومن نتائج هذه الاختبارات أن البيض على رأس القائمة فى الذكاء يليهم مباشرة الصينيون واليابانيون ثم أخيرا الجماعات الأخرى . ويجدر بنا أن نتساءل : هل تعتبر هذه النتائج دلالة على المقدرة النسبية للعقل ؟ توجد أسباب تدعو للقول بأنها ليست كذلك ، فما عدا عدم التأكد من أن قوة اللغة نفس التأثير على الجماعات المختلفة ، فلم يستبعد

(١) ومن الاسئلة مجموعة لمتوسط اعمار الافراد ، فمثلا الطفل الذى يجيب على مجموعة الاسئلة التى يجب عليها عادة اطفال أكبر منه يقل على هذا الطفل أن له العمر العقلى لهؤلاء الاطفال الكبار ، أى أن عمره العقلى أكبر من عمره الفعلى .

Raymond Firth : Human Types, P. 35.
L.C. Pressley : Art in The Journal of Applied Psychology, 1933.

تماما تأثير اختلاف الأنماط الثقافية ، وعلاوة على ذلك فمن المحتمل اختلاف الحياة الاجتماعية حيث هذه الجماعات لم تمكن الاختبارات من أن تستنتج مقارنة عادلة . وعندئذ فهذه النسب مضللة اذا أثبتنا بها أن قبائل الزنوج والهنود أقل ذكاء من الرجل الأبيض . وفى الجماعات السالفة الذكر أحرز الأفراد مكانة عالية مثل الرجل الأبيض وأعلى من مستواه .

وبعد بحث دقيق فى نتائج عدد كبير من هذه الاختبارات يصل جارث Garth وهو عالم أمريكى فى علم النفس التجريبى ، يصل الى أن الاختلافات فى الذكاء الموجودة بين الاجناس يمكن ارجاعها الى تأثير التربية والانتخاب الطبيعى . وذلك لأن الأجناس التى يظهر من الاختبارات أنها فى مرتبة أقل من غيرها من المحتمل أنها لم تتعلم قط ، وانهم يعيشون معيشة وضيفة ، ويرجع ذلك الى مقاومتهم للحياة الاجتماعية الأوروبية التى تحيط بهم ، وهذه المقاومة — على حد قوله — قد لا تكون علامة على الانحطاط ، بل على العكس من هذا . وقد ايدى فى هذا العالمان هويلر وبركنز Wheeler & Perkins

والواقع أن نتائج مثل هذه الاختبارات لا تكشف النقاب عن الذكاء الموروث فى هذه الجماعات ، بل انها غالبا ما تعكس آثار المحيط الاجتماعى والتراث الثقافى . ان أبسط اختلاف فى اللهجة أو فى اللغة التى يستخدمها العالم الممتحن عن لهجة أو لغة الشخص موضوع الاختبار ، تؤثر على نتيجة الاختبار ، خصوصا اذا لم يكن للمصطلحات المستعملة فى مادة الاختبار دلالات اجتماعية واضحة فى ذهن الاشخاص الممتحنين .

هذا الى أننا حينما نجري اختبارا للذكاء لا نختبر بناء العقل ولكن عملياته ، ولا نمحص فيه أجزاء منفصلة ولكن عمليات مركبة ، ولا نعرف حتى الآن اختباراً يقيس القدرات الفطرية المحضة منعزلة عن المعرفة المكتسبة بالخبرات والتجارب التعليمية . وحيث أننا نجهل فى وقتنا الحاضر المقاييس المتعلقة بمقارنة العمليات العقلية لمختلف الأجناس ، فلا توجد شواهد قاطعة تثبت تفاوت العقول بين الأجناس ، كما أنه لا يوجد أيضا دليل واضح على أنها متماثلة^١ .

والنوع الثانى من الاختبارات لا تستخدم الألفاظ ، وهذه الاختبارات تتجنب الى حد ما الصعوبات الناشئة عن عدم اتاحة فرص التعليم للأشخاص الذين يختبرهم . ومنذ أن بطل استخدام الألفاظ والكتابة فى الاختبارات أمكن قياس سلوك الأميين وهذه الاختبارات تعرف بالاختبارات العملية . ومن الامثلة المعروفة لهذه الاختبارات اختبار لوحة اشكال جو دارد وسلفستر Goddard & Silvester واختبار متاهة بوريتس Portens Maze Tests

وهناك نقطة جديرة بالاعتبار فى هذه الاختبارات العملية ، وهى أن الاختلاف فى اللغة أو التعليم أو القراءة أو الكتابة ليس العقبة الوحيدة فى مقارنة القدرات العقلية ، وهناك أيضا الاختلاف فى نوع الحياة الاجتماعية التى تربى فى كنفها هؤلاء الناس ، وهى من الأهمية بمكان بحيث لا يجب اهمالها . والذى يبدو مهما هو أن مجموعة الاختبارات التى تستخدم الصور والأشكال الهندسية هى محاولة لقياس القدرة النسبية للبدائيين فى المواقف العملية فى حياتهم اليومية أو فى المواقف التى تعتمد على خبرتهم العادية .

نحن الآن فى حالة تسمح لنا بأن نجيب على بعض الاسئلة السابقة عن الفروق فى القدرة العقلية والعمليات العقلية فى مختلف الأجناس . فمن نتائج عدد كبير جدا من الأبحاث السيكولوجية ظهر أن القدرة العقلية والذكاء ليس فى مستوى واحد فى مختلف الأجناس ، ووجد من النتائج أنه يجب وضع البدائيين فى مرتبة أقل من المتمدنين .

ولكن مع هذا يجب ألا تعتبر هذه الاختبارات قاطعة وذلك لعدة أسباب ، فمع أن مستوى الجماعات المتأخرة لم يعرف أنه واحد ، فهى كل جماعة حتى أكثرهم بدائية ظهر أفراد على مستوى عالى فى الذكاء والقدرات العقلية الأخرى فوق مستوى المتمدنين . علاوة على ذلك فالاختبارات تختلط مع الحقيقة ، وذلك لأن نوع المجتمع الذى يعيش فيه الأفراد الذين تجرى عليهم الاختبار يعين الى حد بعيد النتائج التى تحصل عليها الاختبارات ، فمثلا كيفية التفكير ، والقدرة على التذكر ، والقدرة على التصميم ، وكل هذا وما الى انما يجرى داخل اطار من الأفكار والمواقف العملية التى تختلف من مجتمع لآخر .

ومع أن هذه الاختبارات قد يسلم بها من ناحية القيمة الاسمية ، فهى لا تمكننا من أن نربط بين الاختلاف فى العقلية وبعض المظاهر الفيزيكية كلون البشرة ولون العينين وشكل الرأس . . . الخ ، أو بينها وبين الاختلافات الوراثية ، ولو أبعد تأثير الاختلافات فى التعليم والبيئة الاجتماعية ، وحتى لو فرضنا جدلا أنه يمكن عن طريقها معرفة تركيب المخ ، ووظيفته فى الأجناس المختلفة ، فسيبقى سؤال يحتاج الى اجابة شافية ، الا وهو ما اذا كنا سنتوصل عن طريق هذه الاختبارات الى نتائج كيفية أم كمية ؟

من الناحية الكيفية : من المستحيل القول بأنه يوجد هناك اختلاف فى مقدرات معينة بين الاجناس مثل المقدرة الموسيقية ، فهذه المسألة لم تبحث كما يجب .

ومن الناحية الكمية : فمن الملاحظ أن تأثير العمليات الاجتماعية على عمل العقل يمكن استبعاده من الاختبارات التى تطبق ، ولكن مع أن القواعد التجريبية ما زالت قليلة فانه يبدو من بعض الامثلة البسيطة أن الوظيفة العقلية لمختلف الاجناس متشابهة . فعقل الرجل البدائى يعمل بنفس الأساليب التى يعمل بها عقلنا . وهنا تتفق اختبارات علم النفس وتجارب علماء الاثروبولوجيا .

وفى ضوء هذا يمكننا ان نناقش رأى من يفرق بين السلالات على أساس مقدرتها على انشاء حضارات ، فقد فسر البعض تفاوت السلالات فى درجات الرقى والثقافة والارتقاء الحضارى باختلافاتها فى الملكات والاستعدادات الفطرية . ولكن ما دام البحث العلمى قد هدم الأساس النظرى الذى تقوم عليه هذه النظرة فاننا لا نستبعد أن تبلغ الشعوب المتأخرة المستوى الذى وصلت اليه الشعوب المتحضرة ، وخاصة بعد أن تبين أن سبب تخلفهم عن غيرهم لا يرجع الى اختلافهم اختلافا جوهريا عن بقية السلالات البشرية ، وانما سر تأخرهم يكمن وراء عزلتهم الاجتماعية وسطوة المستعمر وحرصه على ان يمتلك معيناً لا ينضب من الثروة البشرية والعمل الرخيص .

مشكلة الأمطار في ليبيا

للدكتور عبد العزيز طريح شرف

ان المشكلة المائية هي من غير شك أول وأهم ما يسترعى الانتباه عند البحث في امكان بناء مستقبل اقتصادي مضمون للملكة الليبية المتحدة، فعلى الرغم من أن مساحة هذه البلاد تزيد على مليون ونصف مليون ميل مربع ، فإن ما يصلح منها للإنتاج الزراعي والرعوي لا يزيد في الوقت الحاضر على $\frac{2}{3}$ من هذه المساحة ، أما الباقي فعباره عن مساحات صحراوية لا يوجد بها من مظاهر الحياة الا النذر اليسير الذي يظهر حيثما تتوفر أى مقدار مهما كان ضئيلا من الماء .

ومن الممكن تقسيم موارد المياه في المملكة الليبية بصفة عامة الى قسمين رئيسيين هما :

١ — مياه الأمطار التى تنحدر على سطح الأرض أو تتسرب في مسام التربة السطحية وتعيش عليها النباتات بطريقة مباشرة .

٢ — المياه الجوفية ، ومصدرها الأصلي بطبيعة الحال هو ما يتسرب من مياه الأمطار في تكوينات القشرة الأرضية ويتجمع في طبقة أو أكثر من طبقاتها المسامية بعيدا عن سطح الأرض .

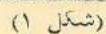
وسنخصص هذا المقال للقسم الأول من هذه الموارد أما القسم الثانى فسنخصص له مقالا آخر في المستقبل ان شاء الله .

التوزيع العام للأمطار في ليبيا :

من المعروف ان الشريط الساحلى الممتد على طول البحر المتوسط هو أكثر مناطق المملكة الليبية مطرا ، ومع ذلك فان أمطار هذا الشريط ليست من الكثرة بحيث تجعل الحياة مضمونة في جميع أجزائه ، فبمجرد النظر الى الخريطة التى في

ويرجع الاختلاف في توزيع الأمطار على طول الشريط الساحلى بصفة عامة الى عاملين رئيسيين هما :

ب - شكل الساحل وتعاريفه : فبالنظر الى الخريطة نلاحظ أن السواحل المواجهة للشمال الغربى مطرها أكثر من مطر السواحل المواجهة للشرق أو الشمال الشرقى ، وسبب ذلك هو أن الرياح الممطرة التى تهب من الشمال الغربى والغرب تكون عمودية على السواحل المواجهة لها بينما تكون موازية للسواحل المواجهة للشرق أو الشمال الشرقى ، بل انها لا تصل فى كثير من المناطق الى هذه السواحل الأخيرة الا بعد أن تعبر أراض مرتفعة ، وعلى هذا الأساس نجد أن أمطار ساحل بنغازى مثلاً أكثر من أمطار ساحل خليج ببة من ناحية وساحل خليج سرت خصوصاً القسم الغربى منه من ناحية أخرى، كما نجد أن امطار ساحل مدينة طرابلس تزيد على أمطار الساحل الممتد الى الغرب من بلدة الزاوية مباشرة. وتتكرر نفس هذه الظاهرة بوضوح أيضاً على الساحل الشمالى لمصر حيث نلاحظ أن أمطار ساحل مدينة



الاسكندرية مثلاً تزيد بكثير على أمطار ساحل خليج العرب حول بلدة الحمام .
والواقع ان أقل تباين في الظروف المحلية للسواحل الليبية ، سواء من حيث
شكل التضاريس أو اتجاه الساحل كفيلاً بأن يؤدي الى ظهور تباين كبير في كمية
الأمطار ، وهذا هو السبب في وجود مناطق صحراوية جرداء تفصل بين مناطق
ال عمران القليلة التي توجد متناثرة على مسافات كبيرة في شمال البلاد ، مما حمل
بعض الكتاب على وصف هذه المراكز بأنها واحات منتشرة على طول الساحل . وبين
الجدول الآتي معدلات الأمطار في أهم محطات شمال ليبيا .

(جدول ١) المعدلات الشهرية والسنوية للأمطار بالليمترات في بعض
بلاد برقة وطرابلس

المحطة																	
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	
٣٧١	٩٦	٦٨	٣٦	١٠	١	١	١	٢	٩	٧	٤٢	٥٣	٧٤	٤٢	٧٧	طرابلس	
٣٣٢	٥٤	٤١	٢٠	١٣	١	١	١	١	٩	١١	٢١	٣٤	٤٦	٥٣	٧٤	غريان	
٢١٤	٤٨	٢٧	١٦	٧	—	—	—	١	٤	١١	٢١	٣٤	٤٦	٥٣	٧٤	الغزويّة	
٢٦٦	٦٦	٤٦	١٧	٣	—	—	—	١	٢	٥	١٩	٤٠	٦٧	٥٣	٧٤	بنغازي	
٤٨٥	١١٩	٥٧	٣٦	٢	١	—	—	١	٦	١٧	٤٢	٨٧	١١٧	٥٣	٧٤	المرج	
٥٩٨	١٤٣	٨١	٣٩	٩	١	—	—	١	١٢	٢٠	٦٠	٧٩	١٥٤	٥٣	٧٤	شحات	
٢٨٥	٦٢	٤٣	٢١	٣	—	—	—	١	٦	١٠	٢٨	٤٥	٦٥	٥٣	٧٤	دونة	

أنواع الهواء وعلاقتها بسقوط الأمطار في ليبيا :

مما لا شك فيه أن هناك علاقة وثيقة بين كمية الأمطار التي تسقط في أي اقليم
من الأقاليم وتوزيعها على أشهر وفصول السنة وبين نوع الهواء الذي ينشأ على هذا
الاقليم أو الذي يغزوه من الأقاليم المجاورة ، ولهذا السبب نجد أن دراسة الأنواع
المختلفة للهواء ، وهي الأنواع التي تطلق عليها عموماً اسم « الكتل الهوائية » قد
أصبح من الموضوعات التي لا يمكن أن يغفل بحثها عند دراسة المناخ في أية بقعة
في العالم ، وعلى الرغم من أنه لا توجد لدينا حالياً بيانات وافية عن الكتل الهوائية
التي تؤثر في مناخ البلاد الليبية في الأشهر والفصول المختلفة فإننا نستطيع ، بناء على
ما لدينا من بيانات قليلة ، وبناء على ما يفرضه الموقع الجغرافي لسواحل ليبيا ، أن
نحدد أنواع الهواء التي لها آثار واضحة في مناخ هذه السواحل كما يلي :

١ — هواء مدارى قارى «eT» مصدره الصحراء الكبرى التي تعتبر ،
بسبب اتساعها وانسجام سطحها بصفة عامة ، من أهم مناطق نشأة الكتل الهوائية
المدارية القارية على سطح الأرض ، ويتميز هواء هذه الكتل بأنه شديد الجفاف
طول السنة ، وبأنه شديد الحرارة في فصل الصيف ، ومائل للبرودة في فصل
الشتاء . ويكون تأثير هذا الهواء محسوساً بصفة خاصة في فصل الربيع عندما يندفع
في مقدمة الانخفاضات الجوية الربيعية التي تتحرك على طول السواحل الشمالية
للبلاد من الغرب الى الشرق ، إذ أنه يكون في هذا الفصل شديد الحرارة جداً فضلاً
عن أنه يكون في غالب الأحيان محملاً بكميات كبيرة من الأتربة والرمال الناعمة ،
وهذا الهواء نفسه هو الذي يشتهر محلياً باسم « القبلى » وكثيراً ما ترتفع درجة
الحرارة عند وصوله الى أكثر من ٤٠° مئوية .

٢ — هواء مدارى بحرى «mT» مصدره الكتل المدارية البحرية التي تتكون
فوق المحيط الأطلسي ، وهو يصل الى السواحل الشمالية للبلاد في فصل الربيع
في مؤخرة الانخفاضات الجوية الربيعية ، ويكون غالباً على شكل رياح غربية ، ومعنى
ذلك بعبارة أخرى أنه يأتي في الأيام التي تلى وصول « القبلى » مباشرة ، ونظراً
لأن المحيط الأطلسي يكون في هذا الفصل أقل حرارة من البحر المتوسط فإن الهواء
الذى يصل منه يكون باردا نسبياً ، ولكنه لا يسبب في غالب الأحيان سقوط
كميات تذكر من الأمطار ، ومع ذلك فكثيراً ما تظهر معه بعض السحب المنخفضة
والزوابع الترابية .

٣ — هواء مدارى قارى له صفات معدلة يصل الى شمال المملكة الليبية
خلال فصل الصيف ، ومصدره هو الأجزاء الجنوبية من أوروبا ، وعلى الرغم من أن
هذا الهواء يمر فوق مياه البحر المتوسط فإنه يظل محتفظاً في معظم قطاعاته بالصفات
القارية اللهم الا في الأجزاء السفلى التي تزداد فيها نسبة بخار الماء ، ولكن هذه الزيادة
لا تظهر في الطبقات العليا منه لأن البحر المتوسط يكون عندئذ مركزاً لضغط مرتفع يميل
فيه الهواء للهبوط الى أسفل ، ولذلك فإن هذا الهواء يكون على الرغم من الرطوبة
التي يحملها في أجزائه السفلى مصحوباً بجو صحو عديم السحب والأمطار بسبب
جفاف الطبقات العليا منه .

٤ — هواء قطبي قارى «eP» شديد البرودة يصل الى شمال البلاد في فصل

الشتاء في مؤخرة الانخفاضات الجوية التي تغزو البحر المتوسط في هذا الفصل من ناحية الغرب ، وهو يأتي من جنوب روسيا وشرق أوروبا ، وكثيرا ما يؤدي وصوله الى حدوث موجات باردة شديدة القسوة تهبط درجة الحرارة أثناءها الى ما دون درجة التجمد . ولكن يلاحظ أن هذا الهواء ، على الرغم من أنه يكون جافا في أول الأمر ، لا أن مروره على المياه الدافئة للبحر المتوسط يؤدي الى زيادة كمية بخار الماء العالقة به من جهة والى ارتفاع درجة حرارته نسبيا من جهة أخرى ، ويؤدي هذا التغير بدوره الى حدوث حالة عدم استقرار في طبقاته مما يجعله سببا في اثاره بعض العواصف وسقوط المطر على الشريط الساحلي الشمالي للبلاد .

٥ - هواء قطبي بحري «mP» شديد البرودة يصل الى البلاد بصفة خاصة في فصل الشتاء والخريف ، ومصدره هو الكتل الهوائية القطبية التي تنشأ فوق المحيط الأطلسي ، وهو يصل غالبا عبر فرنسا ووسط أوروبا وإيطاليا في مؤخرة الانخفاضات الجوية التي تغزو البحر المتوسط من ناحية الغرب ، ويتميز هذا الهواء عن الهواء القطبي القاري بارتفاع نسبة بخار الماء العالقة به ، ونظرا لأن مياه البحر المتوسط تكون في نصف السنة الشتوى دافئة بالنسبة لليابس المحيط بها فإن مرور هذا الهواء فوقها يساعد على رفع درجة حرارته ، وزيادة كمية بخار الماء العالقة به ، ويؤدي ذلك الى حدوث حالة عدم استقرار في طبقاته مما يجعله هو الآخر سببا في اثاره عواصف شديدة ، وهذا الهواء هو الذي يحمل الى النطاق الساحلي الشمالي في ليبيا معظم الأمطار التي تسقط عليه .

ومن الممكن أن نشير هنا الى أن الهواء القطبي بنوعيه السابقين قد يستمر في هبوبه نحو الجنوب حتى يصل أحيانا الى شمال السودان حاملا معه موجات شديدة من البرد .

طبيعة امطار ليبيا :

أمطار شمال ليبيا في جملتها من النوع الاعصاري وهي تأتي مع الانخفاضات الجوية التي تتكون على حوض البحر المتوسط أو تغزوه من ناحية الغرب ، وتنشأ هذه الانخفاضات عادة نتيجة لالتقاء نوعين مختلفين من الهواء أحدهما مداري قاري مصدره الصحراء الكبرى والثاني قطبي (بحري أو قاري) يأتي من ناحية الشمال . ويسقط هذا النوع من الأمطار غالبا على شكل وابل يأتي في فترات متقطعة ،

ورغم أن أمطار شمال المملكة الليبية تسقط كلها تقريبا في نصف السنة الشتوى فانها تتباين تباينا عظيما من سنة الى أخرى سواء في كميتها أو في توزيعها على الأشهر ، حتى أنه يصعب علينا أن نعين بالذات الشهر الذي تظهر فيه قمة الأمطار ، ففي بعض السنوات تظهر هذه القمة في شهر يناير ، وهذا هو الغالب ، ولكنها يمكن أن تظهر كذلك في ديسمبر أو فبراير .

وكثيرا ما نلاحظ أيضا وجود تباين كبير بين كميات الأمطار التي تسقط في الشهر الواحد من سنة الى أخرى ، فاذا نظرنا مثلا الى أمطار شهر مارس (كما تدل عليها الأرقام التي في متناول أيدينا)^١ نلاحظ أنه بينما زادت أمطار هذا الشهر في مدينة طرابلس في سنة ١٩٣٣ على ٢٦٠ ملليمترا نجد أن نفس الشهر كان عديم الأمطار تماما في بعض السنوات الأخرى ، كما حدث في سنتي ١٩٣١ و ١٩٤٧ . ولما كان شهر مارس هذا هو الذي يحتل قلب الموسم الزراعي في ليبيا فإن نقص أمطاره أو زيادتها هو العامل الرئيسي الذي يقرر في معظم السنوات نجاح المحصولات الزراعية أو فشلها ، خصوصا فيما يتعلق بحصول القمح والشعير ، كما أنه هو الذي يقرر بالتالي مبلغ الرخاء الذي تنعم به البلاد في بعض السنوات أو القحط الذي تشقى بسببه في سنوات أخرى .

ويلاحظ أن هذا الاضطراب الشديد في نظام سقوط الأمطار ليس مقصورا على شهر مارس وحده ، بل انه يظهر كذلك بالنسبة لأي شهر آخر من أشهر فصل الشتاء بما في ذلك شهري ديسمبر ومارس اللذين يحتلان قلب الفصل المطير ، ويمكننا أن نلاحظ هذا الاضطراب الشديد بمجرد النظر الى المنحنيات البيانية التي في شكل (٢) ، وقد قارنا فيها بين ثلاثة منحنيات للأمطار هي : ١ - منحني يمثل توزيع المعدلات الشهرية العامة ٢ - منحني يمثل توزيع كمية المطر التي سقطت في سنة معينة كانت متميزة بكثرة أمطارها ، ٣ - منحني يمثل توزيع الكمية التي سقطت في إحدى السنوات التي تميزت بقلة أمطارها .

ويبدأ موسم الأمطار في ليبيا عادة في شهر اكتوبر وتأخذ الأمطار بعد ذلك في

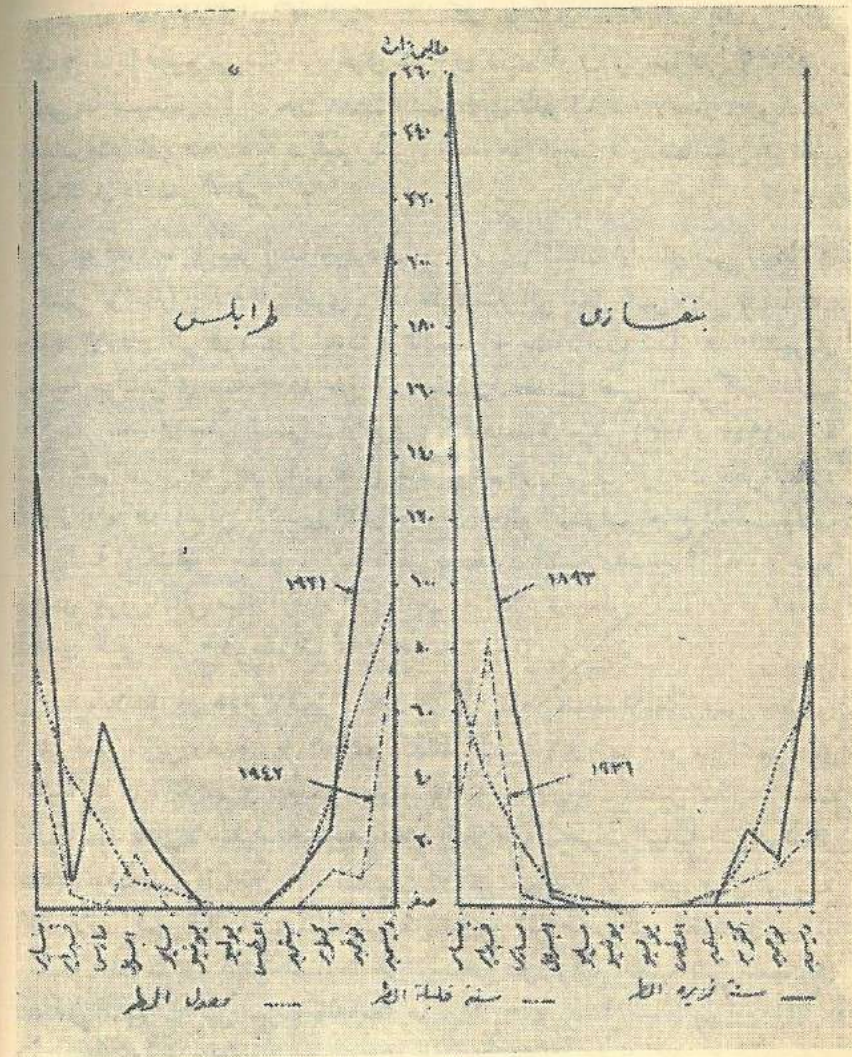
(١) تشمل هذه الأرقام الفترة ١٨٧٩ - ١٩٥٥ بالنسبة لطرابلس والفترة ١٨٨١ - ١٩٤١ بالنسبة لبنغازي .

الازدياد بسرعة ، كما يدل على ذلك الفرق الكبير بين أمطار أكتوبر وأمطار نوفمبر ثم الفرق الكبير بين أمطار نوفمبر وأمطار ديسمبر ، ولكننا على العكس من ذلك نلاحظ أن الفصل المطر ينتهي بشكل تدريجي كما تدل على ذلك الفروقات الصغيرة بين كميات الأمطار التي تسقط في كل شهر من أشهر الربيع (مارس - أبريل - مايو) والشهر الذي يليه مباشرة . وليس هذا الانتهاء التدريجي للفصل المطر إلا نتيجة لظهور الانخفاضات الجوية الربيعية التي يصحبها غالبا سقوط قليل من الأمطار في كل من أبريل ومايو .

القيمة الفعلية للأمطار :

إن مجرد معرفتنا لكمية الأمطار السنوية وتوزيعها على الفصول لا يفيدنا كثيرا لمعرفة التأثير الفعلي لهذه الكمية ، فمن الحقائق المعروفة أن الحياة النباتية والحيوانية بما في ذلك الإنسان لا يمكنها أن تستفيد بأي حال من الأحوال بكل ما يسقط من الأمطار فوق سطح الأرض لأن نسبة كبيرة من هذه الأمطار تضيع بوسائل مختلفة، فجزء منها ينصرف عن طريق الأنهار والمجاري المائية إلى البحار والمحيطات وجزء آخر يتسرب في شقوق القشرة الأرضية ومسامها ويصل إلى أعماق بعيدة يصعب الوصول إليها ، ولكنه ينتهي أيضا في معظم الأحيان إلى البحار والمحيطات . وفضلا عن ذلك فإن نسبة كبيرة جدا من مياه الأمطار تضيع بالتبخر عند انحدارها فوق سطح الأرض أو عند تجمعها في الحفر والمنخفضات والبحيرات والأنهار ، أو بالتبخر من سطح التربة التي تتسرب فيها ، كما أن النتح من أوراق النباتات يعتبر هو الآخر وسيلة لها خطورتها العظيمة لأنها تؤدي بدورها إلى ضياع كميات كبيرة جدا من المياه المخزونة في التربة .

والواقع أن التبخر والنتح معا هما أخطر الوسائل التي تضيع بواسطتها مياه الأمطار ، ويرجع ذلك إلى عظم الكميات التي تضيع بواسطة هاتين الوسيلتين من جهة ، وإلى استحالة الاستفادة بهذه الكميات بأية صورة من الصور من جهة أخرى ، وهذا بخلاف الحال بالنسبة للمياه التي تتحد في مجاري الأنهار أو التي تتسرب في باطن الأرض ، إذ أنه من الممكن التحكم فيها واستغلال معظمها لأغراض الري والشرب وغيرها ، وإن كان ذلك يتطلب في أغلب الأحيان مجهودات شاقة وتكاليفها



شكل (٢)

ثلاثة منحنيات للأمطار يمثل أحدها المعدلات الشهرية ، والثاني يمثل توزيع الأمطار التي سقطت في سنة تميزت بكثرة أمطارها والثالث يمثل توزيع الأمطار التي سقطت في سنة تميزت بالجفاف ، وذلك لبيان مدى الاضطراب في نظام سقوط الأمطار في ليبيا .

باهظة ، ولهذا السبب نجد أن العلماء أصبحوا ينظرون الى التبخر والنتح معا على أنهما عنصران مناخيان لا يقل أثرهما على مظاهر الحياة المختلفة على سطح الأرض عن أثر الأمطار نفسها ، إذ أن القيمة الفعلية للأمطار تتوقف عموما على مقدار ما يضيع منها بالتبخر والنتح .

وعلى الرغم من أن خطورة هذين العنصرين كانت معروفة منذ أواخر القرن الماضي فإن دراستهما لم تكن تلقى ما تستحقه من عناية ، وربما كان السبب في ذلك هو أن عمليتي التبخر والنتح تعتبران من الظواهر الطبيعية المعقدة التي لا يزال من الصعب تحديد العوامل التي تتحكم فيها تحديدا دقيقا واضحا ، فدرجة الحرارة والرياح والضغط الجوي والرطوبة النسبية والأمطار والارتفاع عن سطح البحر ، ورطوبة التربة ، ووجود المسطحات المائية وعمقها واتساعها ، كلها تتدخل بطريق مباشر أو غير مباشر في عملية التبخر ، كما أن معظم هذه العوامل نفسها تتدخل كذلك في عملية النتح من النباتات ، وهي العملية التي تتأثر فضلا عن هذا ببعض العوامل الأخرى التي تتعلق بصفات النبات نفسه من حيث النوع والكثافة والحجم وشكل الأوراق وغيرها .

وليس من شك في أن تعدد العوامل التي تؤثر في عمليتي التبخر والنتح مع عدم معرفة الدور الذي يلعبه كل عامل منها معرفة واضحة ، فضلا عن عدم وجود بيانات دقيقة عن معظم هذه العوامل ، كل ذلك كان من أهم الأسباب التي جعلت قياس التبخر والنتح أمرا غاية في الصعوبة لدرجة أننا لا نجد في الوقت الحاضر بيانات تذكر يمكن أن نتخذ أساسا لتقدير القيمة الفعلية للأمطار التي تسقط في أي منطقة من المناطق ؛ ولهذا فقد رأى بعض الباحثين أن يتخذوا درجة الحرارة ، وهي من العناصر التي يسهل الحصول على بيانات وافية لها ، أساسا لتقدير هذه القيمة ، وذلك على اعتبار أن هناك معامل ارتباط مرتفع بينها وبين نشاط عمليتي التبخر والنتح ، فكلما ارتفعت درجة الحرارة ازدادت كمية المياه المفقودة بهاتين الظاهرتين ، وكلما انخفضت درجة الحرارة زادت هذه القيمة ، ولكن بشرط ألا يؤدي هذا الانخفاض الى توقف الحياة النباتية أو الى تجمد المياه بحيث لا تستفيد بها الحياة الحيوانية أو النباتية .

وهنا يحسن أن نشير أيضا الى أن عددا من الباحثين في دول مختلفة مثل ألمانيا

وبريطانيا وفرنسا وأمريكا اقترحوا عدة معادلات رياضية لتقدير القيمة الفعلية للأمطار لا على أساس درجة الحرارة وحدها بل على أساس بعض العناصر الأخرى التي يعتقد أن لها دخلا في نشاط عمليتي التبخر والنتح ، إلا أن معظم هذه المعادلات معقد بدرجة لا تشجع الباحث الجغرافي على الاستفادة بها ، وذلك فضلا عن أن نتائجها لا تزال مفتقرة الى التحقيق ، ولهذا فلن نحاول أن نتعرض لشرحها ، وسنكتفي هنا بالإشارة الى بعض المعادلات البسيطة التي لا نحتاج لتطبيقها الا الى معرفة المعدلات الشهرية والسوية للأمطار ودرجة الحرارة ، وهي بيانات يسهل الحصول عليها في أي منطقة من المناطق .

ويعتبر ديمارتون E. de Martonne وكوبين W. Köppen من أشهر الباحثين الذين وجهوا النظر منذ أواخر القرن الماضي الى أهمية تقدير القيمة الفعلية للأمطار عند دراسة المناخ وأثره على مظاهر الحياة المختلفة فوق سطح الأرض ، ففي سنة ١٩٢٥ رأى ديمارتون أن القيمة الفعلية للأمطار أو كما يسميها معامل الجفاف Aridity Index يمكن حسابها بالمعادلة الآتية $Q = \frac{P}{10 + T}$ وذلك على اعتبار أن «ق» هي القيمة الفعلية للأمطار و«م» هي معدل المطر السنوي بالمليمترات و«ح» هي معدل درجة الحرارة بالدرجات المئوية .

أما كوبين فقد اقترح عددا من المعادلات كانت آخرها المعادلات التي اقترحها في سنة ١٩٣١ ، ووضع على أساسها حدودا عامة للأقاليم النباتية كما يأتي : مع ملاحظة أن «م» هي كمية المطر السنوي بالمليمترات و«ح» هي المعدل السنوي لدرجة الحرارة بالدرجات المئوية .

الأقاليم النباتية	مناطق مطرها طول العام	مناطق مطرها صيفي	مناطق مطرها شتوي
غابات	$Q = 7 + T$	$Q = 14 + T$	$Q = 2$
حشائش	$Q = 2 + (T + 7)$	$Q = 2 + (T + 14)$	$Q = 2$
صحراء	$Q = 2 + (T + 7)$	$Q = 2 + (T + 14)$	$Q = 2$

(١) de Martonne, E. ; "Une Nouvelle Fonction Climatique ; l'Indice d'Aridité",

la Météorologie de France, vol. 2, 1926, PP. 449 - 466.

Köppen, W. "Grundriss der Klimakunde," 1931.

ولا يتسع المجال هنا للتوسع في مناقشة الحدود التي اقترحها ديمارتون أو كوين أو غيرهما للأقاليم المناخية ، ولكن يحسن أن نشير الى أن الدراسة المقارنة للمعادلات المختلفة التي ظهرت لتقدير القيمة الفعلية للأمطار ومن بينها معادلتا ديمارتون وكوين المذكورتان قد أثبتت أن المعادلة الآتية ، وهي المعادلة التي عبرنا عنها بمتوسط المعادلات يمكن أن توفق بين وجهات النظر المختلفة ، وذلك بالإضافة الى بساطتها التي تجعل من السهل تطبيقها في الدراسة الجغرافية ، وهذه المعادلة هي : $Q = \frac{1}{1+C}$

وذلك على أساس أن «ق» ترمز للقيمة الفعلية للأمطار و «م» لكمية المطر السنوي بالمليمترات و «ح» للمعدل السنوي لدرجة الحرارة ، وكما هي الحال بالنسبة لمعادلة ديمارتون التي سبق ذكرها يمكننا أن نطبق معادلتنا هذه على كل شهر على حدة ، ولكن يجب في هذه الحالة أن تكون قيمة «م» هي كمية المطر لهذا الشهر وقيمة «ح» هي معدل درجة حرارته ، كما يجب في هذه الحالة الأخيرة أن نضرب قيمة «ق» الناتجة $\times 12$ حتى يمكن مقارنتها بالحدود المناخية العامة ، وقد رأينا أن نجعل هذه الحدود مطابقة للحدود التي اقترحها ديمارتون وهي :

قيمة ق (القيمة الفعلية للأمطار) نوع المناخ والحياة النباتية

مناخ جاف — صحراء	$Q \geq 5$
مناخ شبه جاف — أعشاب فقيرة	$5 - 10$
مناخ رطب نسبيا (استبس)	$10 - 20$
مناخ رطب — حشائش غنية وأشجار	$20 - 30$
مناخ شديد الرطوبة — غابات	$Q < 30$

وبين الجدول الآتي القيمة الفعلية للأمطار في بعض محطات القسم الشمالي للمملكة الليبية المتحد محسوبة بالمعادلة $Q = \frac{1}{1+C}$

Torayah Sharaf, A., "The Climate of the British Isles, a New Classification,"
Bul. Soc. Geog. d'Egypte, Tom. XXVII, Sept. 1954.

(جدول ٢) القيمة الفعلية للأمطار في شمال ليبيا

المحطة	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢
طرابلس	٣٧	١٩	١٠	٠٤	٠٢	—	—	—	—	—	—	—
غريان	٤٤	٢٨	١٩	٠٧	٠٣	—	—	—	—	—	—	—
هون	٢٥	٢٥	٢٢	٠٢	٠٢	—	—	—	—	—	—	—
العزبية	٢١	١٢	٠٨	٠٤	٠١	—	—	—	—	—	—	—
بنغازي	٣٣	١٨	٠٨	٠٢	—	—	—	—	—	—	—	—
المرج	٥٨	٤٣	٢٠	٠٧	٠٢	—	—	—	—	—	—	—
شحات	٩٠	٤٤	٢٠	١٠	٠٥	—	—	—	—	—	—	—
درنة	٣٠	٢٠	٢٠	٠٤	٠٢	—	—	—	—	—	—	—

وتبين المنحنيات التي في شكل (٣) توزيع الأمطار وقيمتها الفعلية في بعض المحطات ، ومنها يتضح أن القيمة الفعلية للأمطار لا تختلف كثيرا في نظامها عن التوزيع الفعلي للأمطار ويرجع ذلك الى أن فصل الصيف الحار هو نفسه فصل الجفاف الشديد ، ولكن يجب أن نلاحظ أنه على الرغم من أن الأرقام التي في الجدول رقم ٢ تدل على ارتفاع في القيمة الفعلية للأمطار في ديسمبر ويناير وفبراير فإن برودة هذه الأشهر وكثرة تعرضها لظهور الصقيع وخطورة ذلك على المحاصيل المهمة ، كلها تقلل من فائدة ارتفاع القيمة الفعلية للأمطار خصوصاً في ديسمبر ويناير . وفي شهر مارس تنخفض القيمة الفعلية للأمطار انخفاضاً كبيراً عنها في شهر فبراير ، ومن الواضح أن هذا يرجع الى تناقص الأمطار نفسها من جهة والى بدء حلول موسم الدفء والحرارة من جهة أخرى .

هل هناك تناقص في امطار ليبيا ؟

من المتفق عليه في الوقف الحاضر أن المناخ لم يكن يخضع في كل الأزمنة لنظام واحد بل انه تعرض في عصور مختلفة لعدة تغيرات كانت تتبعها تغيرات أخرى في مظاهر الحياة على سطح الأرض ، ففي خلال الزمن الرابع الجيولوجي مثلاً تعرض العالم لعدة تغيرات مناخية كبرى كان لها مظهران رئيسيان هما :

١ — اشتداد البرودة في نطاق عظيم في شمال أوراسيا وأمريكا الشمالية بدرجة جعلت هذا النطاق يتغطى بطبقات سميكة من الجليد في عدة فترات أطلق عليها عموماً

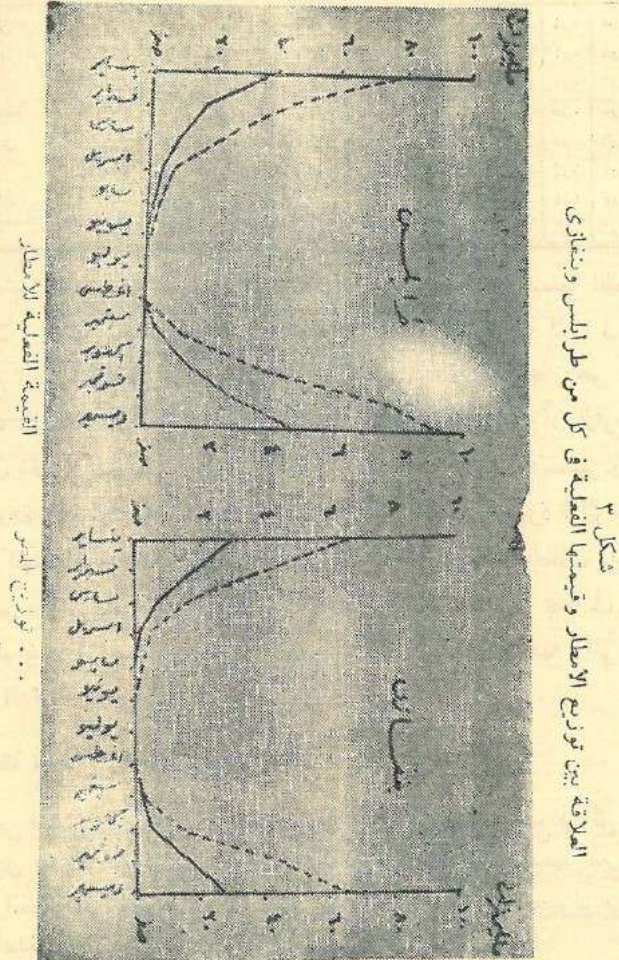
اسم « العصر الجليدي » •

٢ - ازدياد الأمطار في الصحراء الكبرى وغيرها من صحارى شمال افريقية وغرب آسيا في فترات كانت تتفق عموما مع فترات اشتداد البرودة في المناطق السابقة ، وقد أطلق على تلك الفترات الممطرة اسم « العصر المطير » •

لا يهنا كثيرا هنا أن ندخل في تفاصيل التغيرات المناخية التي حدثت في الأزمنة الجيولوجية ، ولكن يجب ألا نهمل التغيرات التي تعرض لها المناخ في العهود التاريخية والتي لا يزال يتعرض لأمثالها في الوقت الحاضر ، إذ أن هذه التغيرات لها دخل كبير جدا في درجة رخاء الصحارى ومبلغ ما كانت عليه من عمران في العهود المختلفة ، وسنرى فيما بعد كيف أن هذه التغيرات هي أخطر العوامل التي تزيد من صعوبة المشاكل المائية التي تواجهها هذه البلاد في نهضتها الحديثة •

ويلاحظ أن موضوع التغيرات المناخية قد أخذ يجتذب في الوقت الحاضر اهتمام الباحثين ، لا في العلوم الجغرافية فحسب بل وفي علوم أخرى كثيرة منها علوم الزراعة وتصريف المياه والاقتصاد وتاريخ الحضارات والهجرات البشرية وغيرها ، بل إن الشخص العادى أصبح يتحدث عن مثل هذه التغيرات ، فكثيرا ما نسمع أحد شيوخنا يروى بعض القصص عن غزارة الأمطار وكثرة الزرع أيام آبائه وأجداده ، ولقد كان ينظر الى هذه الروايات على أنها لا تخرج عن كونها حينا للماضى وخبراته وثورة على الحاضر ومتاعبه كما هي عادة الانسان دائما ، الا أن الأبحاث الأخيرة أثبتت أن هذه الروايات خصوصا ما يتعلق منها بصحارى شمال افريقية وغرب آسيا تعتمد في جملتها على أسس من الحقيقة ، حيث تبين أن الذبذبات المناخية خصوصا ما يتعلق منها بكثرة الأمطار في عصر وقلتها في عصر آخر كانت سببا في موت حضارات معينة ونشوء حضارات أخرى ، وفي حدوث كثير من الغزوات والهجرات البشرية الكبرى ، وفي اضمحلال بعض المدن وازدهار غيرها •

ومما يذكر في هذا الشأن أن هنتنجن قد أوضح في دراساته لبعض الحضارات القديمة في غرب آسيا أن المناطق التي تحتلها صحارى مجربة في الوقت الحاضر كانت في بعض العصور غزيرة الأمطار وعامرة بالسكان ، وكانت توجد بها مدن لعبت ادوارا



مهمة في التاريخ ، فقرية العوجة مثلا وهي قرية صغيرة جدا على الحدود الشرقية لمصر تدل آثارها وما يرويه عنها المؤرخون على أنها كانت في بعض المهود التاريخية مدينة ذات شأن ، وكذلك مدينة الخليل (حبرون) في فلسطين كانت فيما مضى أعظم اتساعا منها الآن ، كما تدل على ذلك بقايا المساكن والضواحي التي كانت تكون جزءا منها ، وبلدة تدمر في بادية الشام يجمع المؤرخون على أن سكانها كانوا في القرن الثامن الميلادي تقريبا حوالى مائة ألف نسمة ، وهي الآن عبارة عن بقعة صحراوية لا تكاد موارد مياهها تكفى لحياة أكثر من ألف شخص .

ومن الحقائق المعروفة أيضا أن صحارى ليبيا وغرب مصر قد مرت بها عهود فيما قبل التاريخ كانت الأمطار فيها أكثر منها في الوقت الحاضر ، وكانت تسكنها في بعض تلك المهود جماعات بشرية كبيرة العدد ، وكان النطاق الساحلى في شمال مصر وليبيا بصفة خاصة مزدحما بالسكان اللذين كانوا يشتغلون برعى قطعان كبيرة جدا من الغنم والماعز والبقر والحمير ، كما كانوا يقومون بالصيد وبعض الزراعة الأولية .

وفي بداية العصر التاريخى أى منذ حوالى ٦٠٠٠ سنة استمر هذا النطاق الساحلى زائرا بالحياة ، وكانت تغطية مراعى غنية تربي عليها قطعان كبيرة جدا من الماشية ، وقد ذكر بعض المؤرخين أن ملوك مصر في عهد الأسرات القديمة كانوا يرجعون من حروبهم مع القبائل التي كانت تسكن في هذا النطاق بأعداد ضخمة من الأسرى والمواشى ؛ فقد قيل مثلا أن الملك مينا مؤسس الأسرة الأولى قد أسر من هذه القبائل ١٢٠ ألف أسير وغنم منهم ٤٠٠ ألف رأس من البقر ومليون و ٤٢٢ ألف رأس من الغنم والماعز ؛ وفي عهد الأسرة الخامسة غنم ساهورع من نفس المنطقة أكثر من ١٢٣ ألف رأس من البقر و ٢٣٣ ألف رأس من الحمير و ٤٧٦ ألف رأس من الغنم والماعز . ولئن دلت هذه الأعداد على شيء فالتا تدل على مبلغ رضاء هذه المناطق .

على أن تلك المهود الأولى لا تهنا الآن بقدر ما تهنا تلك الفترة التي اتفق

1 - de Cosson, A., "Mareotis", London 1935, P. 316.

2 - Oric Bates, "The Eastern Libyans", 1914.

المؤرخون على أنها كانت تمثل العصر الذهبى للأجزاء الشمالية من ليبيا وصحراء مصر الغربية وهذه الفترة هي التي تشتهر باسم العهد الاغريقى الرومانى ؛ فقد كانت هذه الأجزاء تعتبر في ذلك العهد حقلا زراعيا من أعظم حقول الامبراطورية الرومانية ، كما تشهد بذلك البقايا الكثيرة للمدن والآثار التي تخلفت عن ذلك العهد ، ويبدو أن زراعة العنب والزيتون والقمح كانت تحتل المكان الأول بين غلات هذه المناطق ، وكانت كميات كبيرة من النبيذ وزيت الزيتون والقمح تصدر منها الى روما .

ويروى المؤرخون أن هذه البلاد قد استمرت على ما هي عليه من ثراء وعمران حتى القرن السابع الميلادى ، ثم بدأت بعد ذلك في التأخر والاضمحلال وهجرها سكانها وتحولت الى حالة مشابهة لحالتها في الوقت الحاضر ، وهنا يجب ان نحاول البحث عن الأسباب الحقيقية التي أدت الى هذا الاضمحلال ، فان وجدناها أسبابا عارضة يمكن التغلب عليها سهل علينا أن نبني مشروعاتنا على أسس ثابتة فنضمن لها النجاح ؛ أما اذا كان من هذه الأسباب ما هو مرتبط بتغيرات طبيعية لا قبل لنا بالتحكم فيها وتعديلها فما علينا الا أن نبذل مجهودا أكبر ونبحث عن وسائل جديدة للنهوض بالانتاج الزراعى وغير الزراعى في هذه البلاد على حسب ما تمليه علينا الظروف الطبيعية الجديدة .

ان الكتاب الغربيين يميلون دائما الى الأخذ بوجهة النظر التي تقول بأن حالة الاضمحلال التي طرأت على بلاد القسم الشمالى من ليبيا وصحراء مصر الغربية جاءت نتيجة مباشرة للفتح العربى ، لأن العرب ، كما يدعى هؤلاء الكتاب ، نهبوا حقوله وخربوا مدنه ولم يحاولوا تطبيق الوسائل الناجحة التي كان اليونانيون والرومان يتبعونها في الزراعة وغير ذلك من وسائل الانتاج ، وفيما يلى على سبيل المثال ما ورد في التقرير الذى أعدته منظمة الأغذية والزراعة التابعة لهيئة الأمم المتحدة ورفعته الى الحكومة الليبية .

« في القرن السابع الميلادى اكتسح العرب بلاد ليبيا ووجدوا كل شمال افريقية وبلاد العرب واسبانيا تحت حكمهم ، وحل الاسلام محل المسيحية ، وعندما سقطت روما اختل النظام والأمن في البلاد وقضى على الزراعة المستقرة اللهم في بعض

المراكز التي أمكن الدفاع عنها ، وكان ذلك ايذاً باتتهاء احدى الحضارات الراقية التي عاشت حوالى ١٠٠٠ سنة ؛ وقد احتل البدو البلاد وردمت الآبار والخزانات ، الا ما كان منها ضروريا لسقى الماشية التي أصبحت في جملتها مكونة من الجمال ، كما فقدت التجارة أهميتها بسبب التعصب الدينى والأطماع الحربية والسياسية ، وان كانت التجارة مع البلاد الواقعة في قلب الصحراء قد ظلت قائمة بل انها ازدادت نشاطا ، وفي القرن الحادى عشر جاءت غزوات بنى هلال وبنى سليم فقضت على البقية الباقية من آثار الرخاء » .

ومن الواضح أن الدليل الوحيد الذى يستند اليه هذا رأى هو أن بدء اضمحلال المستعمرات الرومانية في ليبيا وشمال غرب مصر قد حدث في نفس القرن الذى حدث فيه الفتح العربى لهذه البلاد ؛ والواقع أن هذا التوافق مشكوك فيه الى حد كبير ؛ فبينما يرى بعض الكتاب أن اضمحلال المستعمرات الرومانية قد بدأ منذ حوالى سنة ٦٠٠ ميلادية أى قبل الفتح العربى بحوالى ٤٠ سنة نجد أن البعض الآخر يؤكد أن هذه البلاد ظلت على ما هى عليه من غنى وعمران لمدة طويلة بعد الفتح العربى ، فقد ذكر ديكوسون مثلا عند دراسته للآثار اليونانية والرومانية في شمال صحراء مصر الغربية « أن هذه المنطقة بدأت في التأخر التدريجى وأخذت تسودها المظاهر الصحراوية ابتداء من سنة ٦٠٠ ميلادية بسبب تفشى مرض الطاعون وحدث زلزال عنيف ، حيث أدت هاتان الحادثتان الى هلاك كثير من السكان وتخريب كثير من المباني » .

وبينما يرى دى كوسون هذا رأى نجد أن بتلر^٢ يقول في كتابه عن فتح العرب لمصر ، « انه ليس شئ أبعد عن الحق من أن يقول قائل ان الطريق الى غرب مصر كان يشق فيافى قاحلة ، فلدينا من الأداة ما يذكر بصراحة ان كل أرض الساحل الواقعة الى غرب مصر بقيت أهلة يزكو بها الزرع حتى مضت قرون ثلاثة على الفتح العربى » . كما يقول في موضع آخر عند كلامه على حملة عمرو بن العاص على بركة « واذا قلنا ان السير في ذلك الطريق كان سهلا على جند الرومان فانه كان نزهة لفرسان العرب ولم يلقوا في سيرهم هذا كبير كيد »^٣ .

1 - de Cosson, Ibid, PP. 52 & 59.

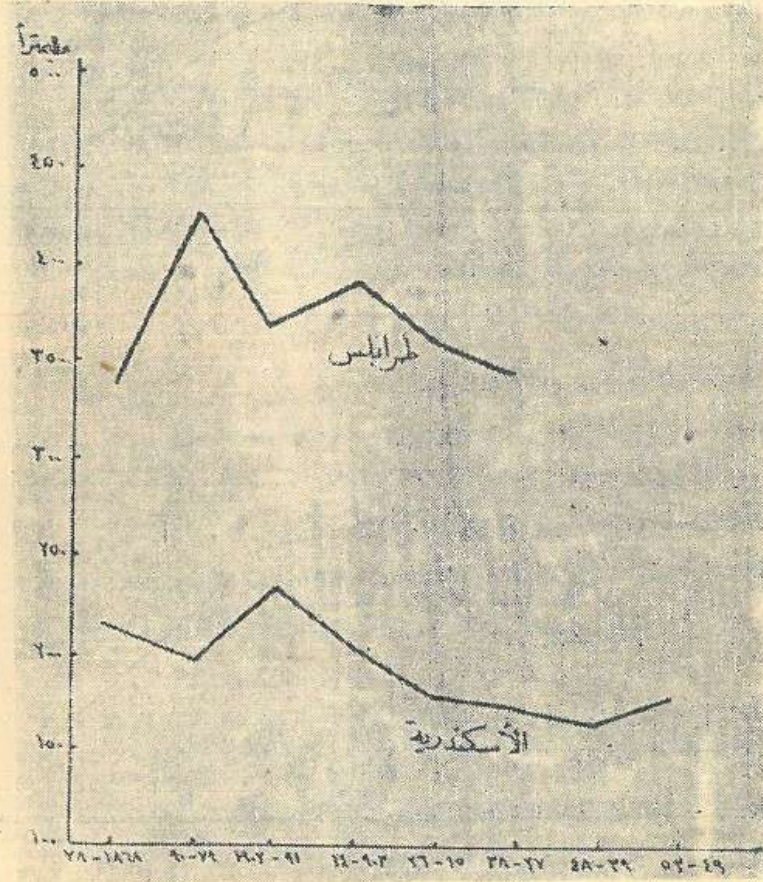
2 - Butler, A.J. "The Arab Conquest of Egypt, 1902, P. 10

3 - Ibid, P. 428

واذا ما صرفنا النظر عن الخلاف بين الكتاب فيما يختص بتحديد تاريخ اضمحلال تحديدا دقيقا فاننا نلاحظ أن هناك اتفاقا عاما على أن هذا اضمحلال قد بدأ في القرن السابع الميلادى ، وبالبحت في تاريخ الحضارات التي كانت موجودة في ذلك الوقت تقريبا ، تبين أن هناك توافقا عاما بين تاريخ اضمحلالها وبين تاريخ اضمحلال حضارات شمال افريقية وغرب آسيا ، كما تبين أن تغيرات المناخ كانت هي المسؤولة بصفة خاصة عن هذا اضمحلال ، فقد لوحظ مثلا أن معظم الآثار التي خلفها أصحاب حضارات المايا القديمة في أمريكا الوسطى موجودة في منطقة مدارية لا تسمح ظروفها المناخية في الوقت الحاضر بظهور أى حضارة راقية بسبب شدة حرارتها وغزارة أمطارها وكثافة الحياة النباتية الطبيعية وانتشار الحشرات بها ، ومن الصعب علينا أن نتصور أن مناخ هذه المنطقة كان في عهد ازدهار حضارات المايا مشابها تماما لما هو عليه الآن ؛ وقد استنتج هنتنجن من دراسته لهذه المنطقة وللمناطق الواقعة الى الشمال منها في كاليفورنيا أنها جميعا قد تعرضت لبعض الذبذبات المناخية التي كان أثرها يظهر بوضوح في ياكاتان وجواتيمالا في الجنوب ، وفي كاليفورنيا في الشمال ، ولكن أثر هذه الذبذبات كان في ياكاتان وجواتيمالا معاكسا له في كاليفورنيا بمعنى أن الفترات التي كانت تزداد فيها الأمطار في المنطقتين الأوليين كانت تقل فيها الأمطار في المنطقة الأخيرة ؛ وهذا هو ما حدث في القرن السابع الميلادى وترتب عليه اشتداد الجفاف في كاليفورنيا وازدياد الأمطار في جواتيمالا وياكاتان بدرجة أدت الى تدهور حضارة المايا التي كانت مزدهرة فيها ، وقد قارن هنتنجن هذه التغيرات المناخية بتلك التغيرات التي كانت تحدث في بعض المناطق الواقعة على نفس خطوط العرض في غرب آسيا وشمال افريقية ، ولاحظ أنه كان يوجد توافق واضح بين الفترات الممطرة والفترات الجافة في كاليفورنيا من جهة وفي صحارى العالم العربى من جهة أخرى ؛ ويرجع هنتنجن أن القرن السابع الميلادى قد شاهد بدء فترة من الجفاف الشديد في جميع هذه الصحارى ، وأن هذه الفترة هي التي لا تزال نلّس آثارها في الوقت الحاضر .

ولئن تركنا التغيرات المناخية التي حدثت في العهود التاريخية جانبا ، وحاولنا أن ندرس الوضع الراهن ، نجد أن الأمطار لا تزال تتعرض في الوقت الحاضر لتغيرات واضحة من سنة الى أخرى ، كما سبق أن بينا ، وقد يكون من الصعب

تزايدتها أو تناقصها الا اذا قارنا أرقامها على طول فترات طويلة ، وبين الجدول رقم (٤) الكميات السنوية للأمطار التي سقطت في كل من طرابلس والاسكندرية في أطول مدة أمكن جمع احصائيات لها في كل مدينة من هاتين المدينتين . وتبدو ظاهرة تناقص الأمطار بشكل أكثر وضوحا اذا ما قارنا معدلاتها في فترات أطول من الفترات السابقة ، كما في شكل ٥ و ٦ اللذين جعلنا طول الفترات فيهما ١٦ سنة بدلا من ١٢ سنة .



شكل ٤

أن ندرك لأول وهلة اذا ما كانت هذه التغيرات تسير عموما في اتجاه واحد نحو الزيادة أو النقصان ، ولكن مع ذلك أمكننا أن نوضح كيف أن أمطار السواحل الشمالي لمصر وليبيا لا تزال في تناقص مستمر بمعدل يبلغ حوالي ٧ و ٠ من المليمتر كل عام ، وذلك بعد أن حصلنا على أطول احصائيات ممكنة للأمطار في الاسكندرية وطرابلس ، ففي المدينة الأولى أمكن الحصول على أرقام ٨٨ سنة (١٨٦٨ — ١٩٥٥) وفي الثانية على أرقام ٧٧ سنة (١٨٧٩ — ١٩٥٥) — وقد قسمنا هاتين الفترتين الى فترات قصيرة نسبيا طول كل منها ١٢ سنة ، واستخرجنا المعدلات السنوية للأمطار خلال هذه الفترات ، وحصلنا من ذلك على المنحنيين المبينين في شكل (٤) ومنهما يظهر بوضوح أن أمطار السواحل الشمالية لمصر وليبيا ما زالت آخذة في التناقص ، وأن فترة الجفاف التي بدأت في القرن السابع الميلادي لا تزال مستمرة في الوقت الحاضر ، ويغلب على الظن أنها لم تصل بعد الى أقصى شدتها ، ولكن هذا لا يعنى أن تناقص

(جدول ٣)

معدلات الامطار في الاسكندرية وطرابلس لفترات كل منها ١٢ سنة

الفترة	الاسكندرية	طرابلس
من ١٨٦٨ — ١٨٧٨ (١١) سنة	٢١٤	—
من ١٨٧٩ — ١٨٩٠	١٩٦	٣٤٠
من ١٨٩١ — ١٩٠٢	٢٣٣	٤٢٧
من ١٩٠٣ — ١٩١٤	٢٠٠	٣٦٦
من ١٩١٥ — ١٩٢٦	١٧٧	٣٨٤
من ١٩٢٧ — ١٩٣٨	١٧٠	٣٥٦
من ١٩٣٩ — ١٩٤٨	١٦٣	٣٤٤
من ١٩٤٩ — ١٩٥٢	١٧٣	—

الأمطار يحدث باطراد وبنظام ثابت ، لأن أمطار هذا الاقليم تتباين في كميتها تبانيا كبيرا نحو الزيادة أو النقصان من سنة الى أخرى ، بحيث يستحيل علينا أن ندرك

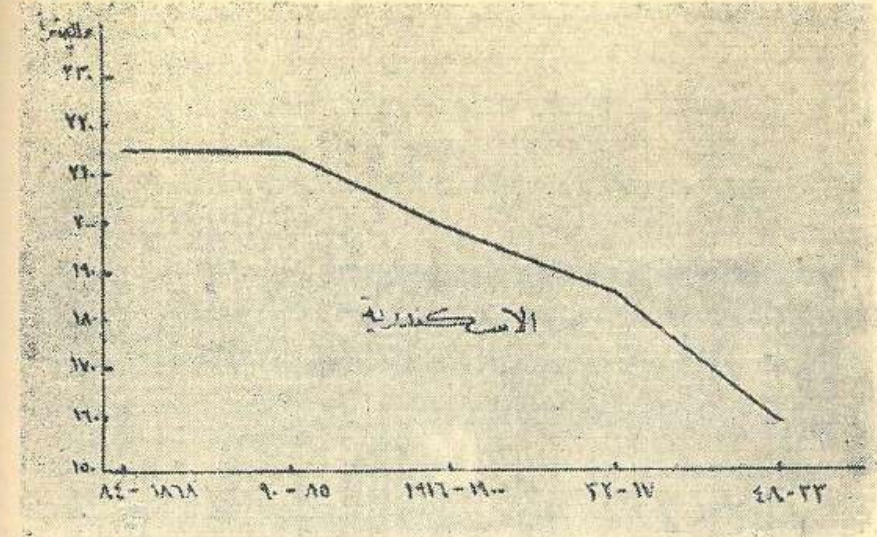
استغلال مياه الأمطار المنحدرة على سطح الأرض :

على الرغم من قلة الأمطار في المملكة الليبية بصفة عامة ، فمن المؤكد أن هذه الأمطار تكفي لو استغلت على الوجه الأكمل لبناء مستقبل اقتصادي مضمون مستقر لمناطق أوسع بكثير من المناطق التي تتمتع بالعمران أو الاستقرار الزراعي والرعوي في الوقت الحاضر ، خصوصا في الشريط الساحلي الضيق الممتد على طول البحر المتوسط في برقة وطرابلس .

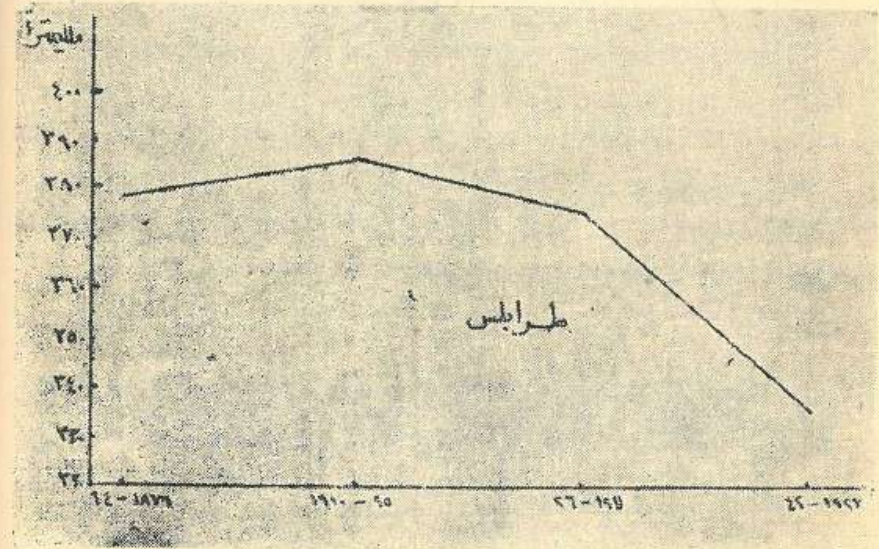
ولكى يمكننا أن نستفيد بالمياه السطحية الفائدة المطلوبة يجب علينا أولا أن نحاول تقدير كميتها ولو بصورة تقريبية ، إلا أن مثل هذا التقدير ما زالت تعترضه لسوء الحظ صعوبات كثيرة لأنه مرتبط ، كما سبق أن بينا عند الكلام على القيمة الفعلية للأمطار ، بعوامل متعددة من أهمها كمية الأمطار نفسها ، ومدى نشاط عمليتي التبخر من التربة والتشح من النباتات ، ودرجة مسامية الطبقات السطحية من الأرض في المناطق التي تسقط فيها الأمطار ، وما يوجد بها من شقوق وفجوات تتسرب المياه عن طريقها نحو الباطن .

وليس من شك في أن نظام سقوط الأمطار له علاقة وثيقة بكمية المياه السطحية ، فالأمطار التي تسقط بغزارة ولو في فترات متباعدة تساعد على جريان المياه أكثر من الأمطار المتواصلة التي تسقط على شكل رذاذ . وقد سبق أن ذكرنا أن أمطار المملكة الليبية في جملتها من النوع الأعاصري الذي يسقط في فترات متقطعة ، ولكن نظرا لقلتها فإنها لا تكفي الا لظهور مجار وفتية لا تلبث أن تجف عقب توقف سقوط الأمطار بوقت قصير ، ومن النادر أن يستمر جريان المياه فيها لأكثر من بضعة أيام .

وهناك عامل آخر مهم يجب عدم اغفاله عندما نحاول تقدير القيمة الفعلية للمياه المنحدرة على سطح الأرض ، وهو وجود نسبة مرتفعة من الأملاح التي قد تختلط بهذه المياه في بعض المناطق وتؤدي الى التقليل من فائدتها للشرب أو لأغراض الري .



شكل ٥



شكل ٦

وكثيرا ما يحدث في مناطق التكوينات الجيرية التي تكثر بها الشقوق والكهوف الباطنية أن تساب المياه في هذه الشقوق والكهوف وتتكون منها أنهار سفلية ؛ وقد يحدث أن تعود مياه هذه الأنهار للظهور على سطح الأرض مرة أخرى اما على شكل مجار صغيرة أو على شكل عيون تنبثق على جوانب المنحدرات أو في قاع الوديان ، ومثل هذه المياه لا يمكننا أن نعتبرها مياه سطحية بمعنى الكلمة ، بل يحسن أن ندخلها في باب المياه الباطنية . وتوجد الأنهار السيلية في ليبيا في منطقة الجبل الأخضر في برقة ومنطقة جبل نفوسة في طرابلس ، وهما نفس المنطقتين اللتين توجد فيهما أهم مجارى المياه السطحية في البلاد .

وعلى الرغم من أن المياه التي تجري في جميع الوديان قليلة بصفة عامة وإن جريانها لا يستمر إلا لفترات قصيرة تتراوح بين بضع ساعات وبضعة أيام فإن بعض هذه الوديان فيفيض في بعض السنوات فيضانات خطيرة يترتب عليها حدوث خسائر فادحة في الثروة الزراعية والثروة الحيوانية ، وينطبق هذا بصفة خاصة على وادى المجنين الذى ينتهى الى البحر عند مدينة طرابلس .

وان عدم انتظام جريان المياه في الوديان المختلفة بالصورة التي وصفناها قد جعل من الصعب عمل مشروعات كبيرة مضمونة النتائج لاستغلال مياه هذه الوديان ؛ ولكن مع ذلك فمن الممكن عمل مشروعات خاصة لا تتكلف أموالا كثيرة اما لتنظيم جريان المياه في بعض هذه الوديان أو لتخزينها في المواضع التي تصلح لهذا الغرض . ولكن يلاحظ أن أى مشروع من هذه المشروعات ، مهما كان بسيطا يتطلب دراسة مفصلة لمظاهر السطح والتركيب الجيولوجى في كل المنطقة التي تنصرف مياهها الى الوادى وروافده بصفة عامة وفي قاع الوادى نفسه بصفة خاصة .

ولن أحاول هنا أن أعرض لتفاصيل المشروعات التي يمكن بواسطتها استغلال المياه التي تنحدر على سطح الأرض ، ويكفى أن أشير باختصار الى الطرق العامة التي يمكن اتباعها لتحقيق هذا الغرض وهي :

أولا — انشاء سدود صغيرة أو كبيرة لتخزين المياه في بعض الوديان التي تتوفر فيها جميع الشروط اللازمة لذلك من حيث مظاهر السطح والتركيب الجيولوجى وكمية الأمطار التي تتجمع فيها . وهناك أودية كثيرة يحتمل أن ينجح استغلال مياهها

بهذه الطريقة الا اذا أثبتت الدراسات التفصيلية عكس ذلك ، ومن أمثلة هذه الأودية في برقة وادى الباكور وبعض روافد وادى الكوف ووادى درنه وبعض الوديان القصيرة التي تنحدر نحو حوض المرج ، ومن أمثلتها في طرابلس وادى ترهونة ووادى فالوت ووادى المجنين ووادى صوفجين ووادى الحيرة . وقد بنى بالفعل سد لتخزين المياه في هذا الوادى الأخير ولكن تبين لسوء الحظ أن قاع الوادى به رشح كثير يؤدي الى ضياع المياه بالتسرب نحو الباطن .

ثانيا — تحويل مياه بعض الوديان الى المناطق الزراعية المجاورة لها ، وذلك لغمر هذه المناطق بالمياه في موسم الأمطار ، وهذا يتطلب بناء سدود صغيرة في مواضع معينة من هذه الوديان ، وهذه الطريقة لا تؤدي الى تنظيم جريان المياه بمعنى الكلمة ، ولكنها في الواقع عبارة عن نوع من الري أشبه بـرى الحياض في مصر ، ومن أهم مميزاتا أنها تساعد على تجديد التربة في المناطق الزراعية ، كما أنها تساعد على زيادة مساحة الرقعة المزروعة ، بفضل الرواسب التي تتوزع باستمرار على سطحها وعلى جوانبها . ويعتبر حوض المرج في برقة مثالا ممتازا أوجدته الطبيعة لهذا النوع من الري ، فهذا الحوض عبارة عن سهل فيضى تبلغ مساحته حوالي ٥٠٠ هكتار ، وكثيرا ما تؤدي غزارة الأمطار التي تسقط على هذا السهل وعلى المرتفعات المحيطة به في بعض السنين الى غمره تماما بالمياه خصوصا في القسم المنخفض منه ، وهو القسم الذى يشتهر باسم الغريق ومساحته حوالي ٢٤٢٠ هكتارا ، وفيه نجد أن الأرض تتغطى أحيانا بطبقة من المياه يزيد عمقها على متر ، ويغلب الا تجف هذه المياه الا في أوائل فصل الصيف أو في أواسطه .

ج — تحويل بعض الوديان الى مدرجات تغطيها طبقة من التربة الناعمة الخصبة ، والوسيلة الى ذلك هي بناء حواجز أو سدود قليلة الارتفاع في مواضع متفرقة على امتداد هذه الوديان حيثما تسمح الظروف بذلك ؛ والغرض من هذا هو تهيئة الفرصة للرواسب التي تحملها المياه لكي تتراكم أمام السدود المينة فتتكون بذلك مصاطب تغطيها طبقة من التربة يمكن استغلالها للزراعة ، أما المياه الزائدة فيمكن توجيهها الى مجار صغيرة على جوانب هذه المصاطب ، ولكن على الرغم من فوائد هذه الطريقة فإن مساحات الأرض الزراعية التي تتكون بواسطتها تكون غالبا صغيرة ومتفرقة .

الصهاريج (الآبار الرومانية) :

من الوسائل المهمة التي لجأ اليها الرومان لاستغلال مياه الأمطار انهم كانوا يحفرون تحت سطح الأرض غرغا يمكن أن تنحدر اليها المياه من المناطق المجاورة فيمكن بذلك تخزينها والاستفادة بها عند الحاجة ، وهذه الغرغ هي التي تشتهر باسم «الصهاريج» أو «الآبار الرومانية» ؛ وقد ترك الرومان أعداداً كبيرة من هذه الآبار في شمال ليبيا وشمال صحراء مصر الغربية ؛ ولا يزال هذا الأسلوب من أساليب استغلال مياه المطر ذا أهمية كبيرة في الوقت الحاضر ، ولهذا فمن الضروري تطهير كل ما يمكن تطهيره من الآبار القديمة وإنشاء آبار جديدة من نفس النوع في الأماكن التي تصلح لهذا الغرض .

وهناك شرطان أساسيان يجب توفرهما في المواضع التي تصلح لإنشاء الصهاريج وهما :

١ - أن يكون سطح الأرض منحدرا نحو فتحة الصهريج حتى يمكن أن تنحدر اليه أكبر كمية ممكنة من المياه ، وكثيرا ما يستعان على توصيل المياه الى فتحة الصهريج بواسطة حفر مجار صناعية تجري فيها المياه .

٢ - أن تكون الصخور التي يحفر فيها الصهريج لينة بدرجة تساعد على عملية الحفر وتكون في نفس الوقت صماء بقدر الامكان حتى لا تضيع المياه المخزونة فيها بالتسرب ، ولضمان عدم تسرب المياه الى الخارج يمكن أن تغطى جدران الصهريج من الداخل بواسطة طبقة من المصيص .

ولكن يلاحظ أن هذين الشرطين لا يسهل أن نجدهما متوفرين في مواضع كثيرة متجاورة ، ولهذا فانا لا نستطيع أن نعتمد على هذه الصهاريج وحدها لتغذية مراكز عمرانية كبيرة نسبيا ، ولكن مع ذلك فانها ضرورية جدا للبدو الرحل خصوصا في المناطق البعيدة عن الساحل .

وتكون مياه هذه الصهاريج غالبا أفضل للشرب من مياه الآبار والسراريب اننى تستمد مياهها من الطبقات الباطنية ، وذلك لأن انحدار مياه الصهاريج على سطح الأرض يكون لمسافة قصيرة نسبيا ولا تختلط بها لهذا السبب الا نسبة قليلة جدا من الأملاح .

(جدول ٤) كميات الأمطار التي سقطت في الاسكندرية وطرابلس (بالمليمتر) في أطول عدد ممكن من السنين

السنة	كمية المطر في الاسكندرية	كمية المطر في طرابلس	السنة	كمية المطر في الاسكندرية	كمية المطر في طرابلس
١٨٦٨	٣٠٥		١٩٠٠	٢٠٢	٢٧٣
٦٩	١٦١		١٩٠١	٢٢٥	٢٩٩
٧٠	٨٠		١٩٠٢	٢٥٨	٣٠٦
٧١	١٨٠		١٩٠٣	١٧٢	٢٥١
٧٢	٣١٣		١٩٠٤	١٩٦	٥٧٢
٧٣	٢٧١		١٩٠٥	٢٧٠	٢٨١
٧٤	١٨٣		١٩٠٦	٢٠٧	٥٢٣
٧٥	١٩٥		١٩٠٧	١٦٠	٣٣٥
٧٦	٢٧٥		١٩٠٨	٢٦٠	٢٥٦
٧٧	٢٦٧		١٩٠٩	٢٠٩	٢٣٠
٧٨	١٢٣		١٩١٠	١٨٠	٣٧٩
٧٩	٨٦	٤٠٢	١٩١١	١٨٨	٣٩٢
٨٠	٢٧٠	٤٨٥	١٩١٢	٩٣	٤١١
٨١	١٧١	٢٩٦	١٩١٣	٢٦٠	٣٦٩
٨٢	—	٣٦٢	١٩١٤	٢٠٦	١٩٨
٨٣	٢٤٠	٣٥٧	١٩١٥	٨٢	١٦٦
٨٤	٢٠٣	٥٥٨	١٩١٦	١٩٩	٢٢٠
٨٥	٨٤	٢٦٣	١٩١٧	٢٠٠	٢٥٧
٨٦	٦٦	٢٥٢	١٩١٨	١٧٩	٣٨٩
٨٧	٦٩	١٩٦	١٩١٩	٢٢٤	٤٢٠
٨٨	٥٧٢	٣٥٣	١٩٢٠	١٣٣	٤٢٩
٨٩	٢٢٥	٢٦٢	١٩٢١	١٨٣	٥٨١
٩٠	١١٨	٢٩٣	١٩٢٢	١٨٧	٣٦٣
٩١	١١٠	٢٩٣	١٩٢٣	١٠٥	٣٧٧
٩٢	١٩٧	٢٩٨	١٩٢٤	٢٧٠	٣٧٠
٩٣	٣٠٠	٦١٤	١٩٢٥	١٨٦	٥٦٣
٩٤	٢٤٧	٧٥٨	١٩٢٦	١٦٥	٢٧٢
٩٥	١٦٨	٢١٣	١٩٢٧	٢١٠	١٩٧
٩٦	٢٠٨	٤٧٠			
٩٧	٢٢٦	٥٢٤			

السنة	كمية المطر في الاسكندرية	كمية المطر في طرابلس	السنة	كمية المطر في الاسكندرية	كمية المطر في طرابلس
٢٨	٩٩	٣٤٢	٤٢	٩٣	١٩٨
٢٩	٢٤٨	٣٧٤	٤٣	١٩٤	٤٠٩
٣٠	٩٥	٢٧١	٤٤	٢١٨	٤٦٢
٣١	٢٣	٣٥٣	٤٥	١٩٧	٥٩٤
٣٢	٢٥١	٣٧٦	٤٦	١١٤	٣٧٨
٣٣	٨٨	٥٢٩	٤٧	١١٤	١٦٤
٣٤	٢٠٣	٤٢٨	٤٨	٢٨٢	٣٧٢
٣٥	١٤٢	٢٧٤	٤٩	٢٩٤	٣٢٨
٣٦	١٢٠	٢٥١	٥٠	١٥٠	٤٥٧
٣٧	١٥٠	٢٣٠	٥١	١٣١	٢٤٩
٣٨	٢٢٨	٦٥٥	٥٢	١١٧	٢٢٩
٣٩	٧٥	٢٩٨	٥٣		٤٩٩
٤٠	١٩٨	٣٢٤	٥٤		٣٢٨
٤١	١٥٤	٢٤٧	٥٥		٢١٥

باب عرصه الكتب ونفدها

كتاب الاحاطة

في اخبار غرناطة *

هذا الكتاب أشهر كتب لسان الدين بن الخطيب واضخمها ، وهو من أشهر الكتب الاندلسية عامة . وقد عرفته المطبعة المصرية في مطالع هذا القرن ، فأخرجت الجزء الأول والثاني منه ، واستطاعت هذه النشرة الجزئية أن تقضى اذ ذاك بعض حاجات الادباء والدارسين . ثم كانت النهضة العلمية الحديثة في صناعة النشر ، وكان اقتضاب تلك النشرة وغيوبها الفنية وقدم العهد بها ، مما يقتضى الأخذ في نشره كاملا محققا ، على الاصول العلمية للنشر .

واستجاب الاستاذ محمد عبد الله عنان لهذه الحوافز ، وهو الرجل الذى أقبل على الدراسات الاندلسية منذ عهد بعيد ، اقبالا دائبا متعمقا بصيرا ، وبذل فيها غاية جهده ومنتهمى وكده ، فافتحم هذا المجال ، وأخذ في تحقيق الجزء الأول من الاحاطة واعداده للنشر ، وبذل في ذلك جهدا كبيرا استغرق منه — كما يقول في مقدمته — فترة طويلة من العمل المتواصل بالقاهرة ومديره والاسكوريال .

وكان هذا الجزء الذى أخرجه دار المعارف — اخرجنا انيقا — في سلسلة ذخائر العرب ، ثمرة هذا الجهد ، ونتيجة ذلك العمل المتواصل في مصر واسبانيا . ولا ريب أن ظهور هذا الكتاب ، بتحقيقاته التاريخية التى عرف الاستاذ عنان بها ، قد أخذ يسد حاجة كبيرة من حاجات الدرس الأدبى ، وحاجات القومية العربية الناهضة معا . وجدير به ان يعد من الاحداث البارزة في تاريخ النشاط الأدبى والعلمى المعاصر .

وبقدر المكانة الكبرى التى يحتلها كتاب الاحاطة من تاريخنا الادبى وتراثنا العربى ، وبقدر منزلة الاستاذ الناشر في الدراسات الاندلسية ، كان استبشارنا لظهوره وتحفيضا به ، وبقدر ذلك كله ينبغى ان يكون اقبالنا على درسه درسا ناقدا ، يتناوله من نواحيه المختلفة .

* هذا هو الاسم الدارج للكتاب ، وبه نشر . ولكن لسان الدين نفسه يسميه في قائمة الكتب التى أوردها في آخر الاحاطة ، ونقلها عنه المقرئ في نفع الطيب : « الاحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة » . ثم جعل الاستعمال يختصر هذا الاسم ، فصار « الاحاطة باخبار غرناطة » كما سماه البشتكى في مقدمة مختصره « مركز الاحاطة »

أما أنا فسأجعل هذه الدراسة خاصة بناحية النشر ، ومدى توفيق الأستاذ الناشر في اخراجه ، وابدأ ذلك بالنظر في الأصول التي اعتمد عليها ، واستند في تحقيق النص إليها .

والاصول في النشر العلمى — كما نعلم — نوعان : أصول مباشرة ، وأصول غير مباشرة .

أما الأصول المباشرة فهي مخطوطات الكتاب . وجملة ما اتيح للاستاذ الناشر منها اربع ، صنفها صنفين ، وجعلها مجموعتين متفاوتى القيمة والمنزلة :

المجموعة الأولى تتألف من مخطوطتين ، واحدة مصرية وهى مخطوطة دار الكتب بالقاهرة ، والأخرى اسبانية ، وهى مخطوطة جاينجوس المحفوظة ضمن مجموعته فى اكاديمية التاريخ بمديرى . والمجموعة الثانية تتألف من مخطوطتين أيضا ، واحدة مصرية وهى مخطوطة رواق المغاربة بالأزهر ، والأخرى اسبانية تونسية ، وهى مخطوطة كوديرا المأخوذة عن نسخة جامع الزيتونة بتونس ، والمحفوظة بمكتبة اكاديمية التاريخ الملكية . وقد رأى الناشر أن يكتفى بها عن أصلها ، متجاوزا بذلك حدود المنهج العلمى .

فأما المجموعة الأولى فهى التى اعتبرها الأصل ، وجعل مخطوطتيها عمدته فى نشر هذا المجلد الأول تدوينا وضبطا وتحقيقا ، لأنه قد انتهى بالبحث والمقارنة الى انهما « اقدم ما وصل إلينا من اجزاء الاحاطة الأولى ، والى انهما فى الوقت نفسه من حيث الكتابة والنص اقيما واصحها » كما هو نص عبارته .

ووددنا لو انه اشرك القارئ معه فى خطوات البحث والمقارنة التى انتهى بها الى الحكم لهاتين المخطوطتين بالاقدمية والأصحية ، بحيث آثرهما هذا الايثار ، وكاد يهدر ما عداهما .

أما نحن فلم نر فيما ذكره عن هاتين المخطوطتين ما يوليها هذا الحق ، ويؤثرهما بهذه المأثرة ، فليست واحدة منهما نسخة المؤلف ، أو نسخة قرئت على المؤلف ، أو نسخة منسوبة نسباً كريماً معترفاً به يحلها هذه المنزلة ، أو حظيت فى تاريخ حياتها بما عسى أن يسمو بها حتى تتجاوز غيرها ، فلا شئ من ذلك يمكن أن توصف به هذه أو تلك لتظفر بذلك الشرف ، وتخمل ما عداها كمخطوطة جامع الزيتونة أو رواق المغاربة . ولسنا بحاجة الى أن نراجعها لنرى أن فيهما الى جانب القراءة الصحيحة القراءة الفاسدة ، والى جانب القراءة المحتملة الخطأ المصمت الذى لا وجه

له ، فذلك ما تثبته فى وضوح وجللاء القراءات المثبتة فى هامش هذه النشرة ، كما ثبت الى جانب ذلك — كما سنرى ذلك فيما بعد — أن من المخطوطتين المفصولتين ما لم تتورط فى مثل هذه الاخطاء .

وكان مما ترتب على اعتبار مخطوطتى دار الكتب وجاينجوس أصلا وعمدة ، أن جعلهما الناشر الحكم الذى يحتكم اليه ، ويقبل حكمته ، فى أكثر الأحيان . فيقبل ما يوردانه ويشبته وأن كان محالا ظاهر الخطأ ، ويريف ما عداه ويطرحه ، وأن كان ظاهر الصواب ، بل وأن كان متعينا لا يجوز غيره .

وقد لاحظنا هذا فى غير موضع ، وأخذ منا العجب — أول الأمر — كل مأخذ . ولكن هذا العجب لم يلبث أن زال عنا حين ادركنا السر فى ذلك ، وهو هذا التأصيل الذى لا أصل له ، والا يثار فى غير مأثرة .



وبعد ، فاذا كان هنالك بين الأصول المخطوطة التى عرف بها الأستاذ الناشر فى المقدمة ، أصل هو أول بالتقدمة ، وآثر بالأولية ، لكان ذلك الأصل هو مخطوطة رواق المغاربة (ر٠م) . وحسبها فى ذلك ما يذكره الأستاذ الناشر من صفتها « أن بهوامشها تعليقات واستدراكات للمقرى صاحب كتاب فصح الطيب وبخطه . ومنها فى صفحة ٢٧٩ هامش كتبه تأييدا لقرشية نسب جده ابي عبد الله المقرى . وفى نهايته ما يأتى : « قال هذا وكتبه الفقير أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ، نزيل فاس ، بالقاهرة المحروسة ، سنة ١٠٢٩هـ . عرفنا الله خير » .

ومنذ قرأت هذه الفقرة عن مخطوطة رواق المغاربة وأنا أحس احساسا قويا بخطرهما ، ثم تحول ذلك الاحساس الى خاطر ما زال يراودنى ويساورنى ويلج على : الا يمكن أن تكون نسخة رواق المغاربة هذه بقية من النسخة التى كانت فى مصر أيام كان المقرى فيها ، عالما من علمائها ، وشيخا ظاهر المكانة من شيوخ الأزهر ، والتى كان يرجع اليها فى تأليف كتابه : فصح الطيب ، ويصدر عنها بما كان يورده فى هذا الكتاب عن كتاب ابن الخطيب ؟ ذلك فرض على كل حال جد قريب . ثم الا يمكن أن تكون هذه النسخة التى بقيت لنا منها هذه البقايا هى احدى نسخ الكتاب الأصلية ، أى انها النسخة التى اختص بها لسان الدين بن الخطيب مصر ، فوجه بها اليها ، ووقفها على أهل العلم فيها ، وجعل مقرها اذ ذاك بخانقاه سعيد السعداء ،

والتي يتحدث عنها المقرئ في الفصل الذي عقده في نفح الطيب لمصنفات ابن الخطيب، كما يشير إليها الأمير ابن الأحمر حفيد الغنى بالله تعالى في الفصل القيم الذي تحدث فيه عن كتاب الاحاطة، وبعض ملابسات وضعه، في كتابه «نثر الجمان»، ونقله المقرئ؟

ما زال هذا الخاطر يرادني، ولا أملك له صرفا، كما لا أملك تحقيقه والانتهاء فيه الى رأى علمي قاطع، وأنا بعيد عن مصر، اذ كان أول التحقيق فحص هذه المخطوطة. فليبق اذن هذا الخاطر فرضا حتى يتسنى لى أو لأحد الباحثين تحقيقه. فاذا تحقق فقد ظفرتنا بأصل من الأصول النادرة، وكنز علمي من الكنوز التي يغالى بها أصحابها أشد المغالاة. وذلك لجملة أسباب، كل واحد منها يكفي لأن يجعل من هذه المخطوطة شيئا نادرا. فهي أولا نسخة المؤلف التي بعث بها هو نفسه الى مصر لتوقف على أهل العلم فيها. ثم هي تعد من أول نسخ هذا الكتاب ظهورا، فتاريخ الوقفية التي كتبها وكيل المؤلف في مصر الشيخ ابو عمرو بن عبد الله بن الحاج الأندلسي، عن موكله، هو ٢٢ محرم سنة ٧٦٨، أى قبل وفاة لسان الدين بن الخطيب بعشرة اعوام. ثم لانها — فوق هذا كله — تحمل خطوط جماعة من العلماء الاعلام وتعليقاتهم وتوقيعاتهم، منذ عهد ابن الخطيب نفسه، كما نرى ذلك فيما يذكره المقرئ في حديثه عنها، اذ يقول:

«وقد رأيت بظهر أول ورقة من هذه النسخة خطوط جماعة من العلماء. فمن ذلك ما كتبه الحافظ المقرئ المؤرخ، ونصه: اتقى منه داعيا لمؤلفه أحمد بن علي المقرئ في شهر ربيع سنة ثمان وثمانمائة. وما رقه الحافظ السيوطي، ونصه: الحمد لله وحده، طالعت على طبقات النحاة واللغويين، وكتبه عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي سنة ثمان وستين وثمانمائة. وبعد هذين ما صورته: اتقى منه داعيا لمؤلفه محمد بن محمد القوصوني، سنة اربع وخمسين وتسعمائة. وبعده ما صورته: انهاء نظرا وانتقاء على الحموي الحنفى، لطف الله به. وبخط مولانا العارف الرباني علامة الزمان وبركة الأوان الشيخ محمد البكرى الصديقي ما نصه: طالعت مبتهجا برياضه الموقفة، وازهار معانيه المشرقة، مرتقيا في درج كلماته العذاب سماء الاقتباس مقتنيا من لطائفه دررا وجواهر، بل احاشيها بذلك القياس. كتبه محمد الصديقي، غفر الله له. انتهى.»

ورأيت بهامش هذه النسخة كتابة جماعة من أهل المشرق والمغرب، كابن

دقماق، والحافظ ابن حجر، وغيرهما من أهل مصر، ومن المغاربة ابن المؤلف ابي الحسن على بن الخطيب، والخطيب الكبير سيدى ابي عبد الله ابن مرزوق، والعلامة ابي الفضل ابن الامام التلمساني، والنحوى الراعى، والشيخ الفهامة الشهير يحيى العجيسى شارح الألفية وصاحب التأليف. وغير هؤلاء ممن يطول تعدادهم. رحم الله جميعهم»

فأى ذخى أدبى فريد فى بابہ تتضمنه هذه النسخة!

وهذه التعليقات التي يشير إليها المقرئ في هذه الفقرة قد أورد كثيرا منها في نضاعيف كتابه: نفح الطيب، واكثرها غاية في الطرافة والنفاسة من ناحية قيمتها الأدبية والتاريخية. ومن هذه التعليقات ما كتب في حياة لسان الدين، وما كتبه بعض من اتصلت حياتهم بحياته، وشاركوا في بعض الأحداث التي عني بتسجيلها، كبعض ما كتبه ابن مرزوق. ومنها ما يمثل الوانا من الجدال أو الحوار ومناقلة القول بين هذا وذاك من قراء هذه النسخة من العلماء، في عبارات حية نابضة، مما احاط هذه النسخة بجو خاص، وقد عنيت بتتبع هذه التعليقات والتوقيعات — كما جاءت في كتاب المقرئ — ووجدت فيها متعة أى متعة. وأنا أرجو أن تجمع وتستقصى وتتشمل في هذه النشرة الجديدة من كتاب الاحاطة، وأن تأخذ مكانها الجدير بها في هامشها.

هذه هي النسخة التي ظلت في مصر محوطة بأسباب الرعاية حتى القرن الحادى عشر للهجرة، وظلت مرجعا للعلماء يرجعون إليها ويمتحنون منها، وبقيت مركزا من مراكز النشاط الأدبى فى القاهرة، وموطنا من مواطن الاتصال بين علماء المشرق والمغرب. فهل ترى هذه المخطوطة التي احتفظ بها رواق المغاربة فى الأزهر، والتي تحمل كثيرا من التعليقات كما رأينا فيما قاله الاستاذ عنان فى صفتها، هي بقية من بقايا تلك النسخة؟ والا يكون ذلك التعليق الذى أشار الاستاذ عنان الى ان المقرئ كتبه على هامشها تأييدا لقرشية جده ابي عبد الله المقرئ، (ولم يورد الاستاذ نصه)، انما كتبه ليقترنه الى التعليقين الذين اشار اليهما فى النفح، عند نقله ترجمة جده عن الاحاطة، وفيها أنه قرشى، فقال: «وكتب بعض المغاربة على هامش هذا المحل من الاحاطة: (القرشى وهم. انتهى)، فكتب تحته الامام ابو الفضل ابن محمد التلمساني رحمه الله تعالى ما نصه: (بل صحيح نطقت به الألسنة والمكاتبات والاجازات، واعربت عنه الخلال الكريمة، الا ان البلدية يا سيدى ابا عبد الله والمنافسة تجعل القرشية فى امام المغرب ابي عبد الله المقرئ وهما. والحمد لله)»

اكان تعليق المقرئ الموجود في نسخة رواق المغاربة قرينا لهذين التعليقين ، أم انه كتبه مستقلا عنهما وفي هامش نسخة أخرى غير تلك النسخة التي نقلها عنها ؟ هذا مالا نملك الاجابة عنه والقول فيه ما دمنا لانملك مراجعة نسخة رواق المغاربة . على انه مهما يكن من شيء فهذه النسخة ، نسخة رواق المغاربة ، تعد ولا ريب نسخة ممتازة حقا بهذه التعليقات التي كتبها المقرئ بهامشها ، كما تمتاز بما يستطيع قارئ النشرة المطبوعة أن يراه واضحا فيما اثبتته الاستاذ الناشر من قراءاتها مما يدل دلالة قاطعة على أصالة حقيقية ، وإن كنا — ومعدرة الى الاستاذ الناشر — نشك كثيرا في مدى الدقة والاستيعاب في عرض هذه القراءات . فهو قد أساء الظن بها منذ أول الأمر ، واقتحمها نظره بادية بدء ، فلا جرم لم يكن حريصا على أن يؤدي في مقارناته صورة أمينة لها . وإنما هي الالمامة بها بين الحين والحين ، واستشارتها بين وقت وآخر ، في عجلة واستخفاف . وذلك هو تأويل نصه في هامش ترجمة ثابت بن محمد الجرجاني على أن هذه الترجمة « روجعت بأكملها على مخطوط رواق المغاربة بالأزهر » . ولم يكن ثم حاجة الى هذا النص لو أن هذا هو شأن الناشر في جميع الترجمات التي جاءت في هذا المخطوط .

وهذا الى اختفاء رمز هذه المخطوطة اختفاء تاما من هامش كثير من الترجمات التي جاءت في هذا الجزء مما تضمنته هذه المخطوطة . وإذا كان الأستاذ الناشر قد أغفل بيان هذه الترجمات التي شاركت مخطوطة رواق المغاربة فيها — كما كان يقضى بذلك منهج النشر العلمي — فإن القارئ يستطيع بشيء من التعقب أن يستنتج بعضها ، فيرى مثلا انه يذكر في الفصل الذي عقده لوصف هذه المخطوطة انها تبدأ ببقية ترجمة بدر مولى عبد الرحمن بن معاوية ، كما يذكر في هذا الفصل أيضا انها تتضمن تراجم من حرف الحاء . وليس في ترجمة بدر ولا أي ترجمة من تراجم حرف الحاء إشارة الى أي قراءة من قراءات هذه المخطوطة . وكذلك الأمر في ترجمة ثابت بن محمد الجرجاني التي نص — كما رأينا — على انها روجعت عليها . وعند ترجمة أحمد بن محمد الهمداني اشار الى ان ترجمته التي انفردت بها هذه المخطوطة قد وردت فيها قبل ترجمة ابن اضحى . وقد خلا هامش ابن اضحى من الإشارة الى أي قراءة من قراءاتها .

كما انا نستطيع أن نتبين مدى الدقة في مراجعة هذه المخطوطة اذا نحن رجعنا الى الصفحتين المنشورة صورتها منها في صدر هذه النشرة ، وإذا كان الاستاذ الناشر لم يعين مكانهما منها — وكان من واجبه أن يفعل — فقد وفقنا اليه ، وذلك

فيما بين صفحة ٤٥٥ و صفحة ٤٥٨ ، في ترجمة تاشفين بن علي ، وهي من الترجمات القليلة التي يظهر في هامشها الرمز (ر٠م)

وبمراجعة هاتين الصفيحتين وجدنا أن كثيرا من القراءات التي تخالف بها هذه المخطوطة غيرها فيهما قد أغفل ، فلم يشب في النص ، ولم يشر اليه في الهامش ، على ما يبدو من تعيين بعضها ، وعلى ما يلاحظ في هذه النشرة من اسراف شديد في اثبات قراءات لا وجه لها ، واختلافات يصعب تبين حقيقة اختلافها ، مما أثقل الهامش بكثير مما لا داعي له .

وقد أحصينا المواضع التي أغفلت في هاتين الصفيحتين ، مما انفردت به مخطوطة رواق المغاربة ، فإذا هي تقرب من العشرين موضعا . وليس بنا الآن ان نوردنا جميعا ، اذ يكفيها للدلالة على ما نحن بصدد ، وهو موقف الاستاذ الناشر من هذه المخطوطة ، ان نشير الى بعضها :

فمن ذلك أن المخطوطة تسمى عامل على بن يوسف بن تاشفين على اشبيلية « أحمر » ، في حين أن اسمه في النشرة « اغمار » (ص ٤٥٥ س ١٥) . وكان من حق ذلك الاسم ، على الأقل ، أن يأخذ مكانه في الهامش ، اذا لم ير الاستاذ الناشر انه جدير بالنص .

وبعد هذا بقليل نجد هذه العبارة ، في سياق الحديث عن علي بن يوسف بن تاشفين ، بعد أن وجه ابنه تاشفين الى العدو : « وتوفي لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين لفعله ذلك » (س ١٨) فتعترض حلوقنا هذه الكلمة الأخيرة النائية ، لانجدها مساعغا ، فنهبط بأنظارنا الى الهامش ، فإذا به يقول : « هكذا وردت في ج . وفي ك : « تفعله ذلك » . وأغفلها ر٠م » . وتظل الغصة ناشبة في حلوقنا ، حتى يأذن الله فنقع على هذا الموقع من (ر٠م) ، فإذا هي لا تفعل هذه الكلمة كما يزعم الهامش ، وإنما تضع موضعها العبارة الصحيحة ، اذ تقول : « وتوفي على تقيته ذلك » .

ونحسب أننا نستطيع بهذه القراءة وحدها أن نعرف قيمة مخطوطة رواق المغاربة هذه وتقديرها قدرها . ومثل هذه القراءة في هذا الموضع سائر النص في هاتين الصفيحتين ، فهو سليم مستقيم لا عوج فيه ولا أمت ولا تعثر ، اذا استطاع القارئ أن يضبط القراءة على وجهها .

كما نستطيع أن نتبين هذا تبينا لا شبهة فيه فيما أورد الناشر من قراءاتها في

بعض الفصول التي حظيت عنده فيها .

وبعض هذه القراءات ظفرت من الاستاذ الناصر بالرضا والقبول ، فأحلها في مكانها من النص . ولكنه سخط الكثير منها فأهدره ، وإن كان هو الأجدر والأولى ، بل وإن كان هو المتعين . كما جاء في صفة الوزير الفقيه أحمد بن خلف العسائي القليعي انه « قريع دهره » ، فلم تحظ هذه القراءة عنده ، فأهدرها ، وأثر أن يضع مكانها قراءة المخطوطتين الاثريتين : « مريع دهره » وفسرها بقوله : « أغنى وافر الخصب والمرعى » !! (ص ١٥٣ س ٦) .

وفي هذه الترجمة ، في سياق حديث ابن الخطيب عن محنة ابي جعفر القليعي ، وسجن حفيد باديس اياه ، ثم اطلاقه من سجنه ، نقرأ هذه العبارة : « ولما تخلص أعدها غنية » ، وينزل النظر الى أسفل الصحيفة ليرى التعليق على كلمة « أعدها » القلقة النابية ، فإذا هو يقول : « هكذا في المخطوطتين » ، وفي ر.م : « اعتدها » . ولكن هذه القراءة لم تقع من الاستاذ الناصر موضع القبول ، فأهدرها ، مع أن الكلمة التي اثبتتها فاسدة ، وليست الا تصحيحا لكلمة « اعتدها » المهذرة .

وفي عقب هذه الكلمة نقرأ هذه العبارة : « وكان جزلا قوى القلب » ، فنحس فيها بشيء من الغرابة ، فإذا قرأنا ما اثبتته الناصر في الهامش تعليقا عليها ، وجدناه يقول : « هكذا وردت هذه العبارة في المخطوطتين . ولكنها وردت في ر.م : حولا قلبا » . وهذه — ولا ريب — القراءة الصحيحة الأصلية التي يستقيم بها النص : والتي تحولت في المخطوطتين الأخريين — بسوء القراءة والفهم — الى « جزلا قوى القلب » . أساء الناسخ قراءتها ، إذ غمض عليه معناها ، فوضع كلمة « جزلا » موضع كلمة « حولا » وتصرف في كلمة « قلبا » ، فجعلها « قوى القلب » ، وأخذت بذلك هذه الصورة الغريبة التي روجها عند الأستاذ مجيئها في المخطوطتين الاثريتين ، كما أهدر القراءة الصحيحة المتعينة ورودها في مخطوطة رواق المغاربة .

وهذا هو شأن سائر ما أورده الاستاذ الناصر من قراءات هذه المخطوطة ، وهو قليل في جملته . ولكنه يدلنا على أصالتها وعظيم جدواها . وانا لنرجو أن تكشف لنا دراستها عن سائر مزاياها . وهي — فيما يبدو — جديرة بهذه الدراسة ، حقيقة أن تنكشف عن ذخير أدبي بليغ القدر .

أما ما اعتبره الاستاذ الناصر فيها من « انها تتكون من عدة أقسام متناثرة ،

لا تكون مجموعا موحدا أو متتاليا » أو انها « عبارة عن قطع متناثرة ليست كلها موصولة ولا متتالية » كما يقول في صفتها ، فما ينبغي لشي من ذلك أن يحرمها حقها ، أو يهدر شخصيتها ، ويقصصها عن مكانها في تحقيق النص والرجوع به الى الصورة التي أداها المؤلف . وأما قوله عنها : « انها بلا ريب قطعة مما يعرف بمختصر الاحاطة » ، لما ثبت انه يوجد بالنسخة المطبوعة زيادات كثيرة عما أثبت فيها ، فذلك أيضا لا يبرر اهدارها ، وخاصة اذا كانت جميع النسخ التي اتحت للأستاذ الناصر موسومة بسمة الاختصار . على اني أحسب أن هذا القطع البات الجازم بانها قطعة مما يعرف . . الخ مجازفة غير لائقة علميا ، فليس يكفي أن يكون بالنسخة المطبوعة زيادات كثيرة عما أثبت فيها لتكون قطعة مما يعرف بمختصر الاحاطة ، وخاصة اذا كان « ما يعرف بمختصر الاحاطة » هذا شيئا ليس له كيان خاص ولا شخصية معروفة .

فإذا عرفنا ان لسان الدين بن الخطيب كتب كتابه الاحاطة غير مرة ، وانه ما زال يراجعها ويزيد فيه منذ وضعه ، تبين لنا مبلغ ما في ذلك القول من مجازفة .

وقد رأينا أن تاريخ وافية النسخة التي اهداها الى مصر هو ٢٢ محرم سنة ٧٦٨ ، أي انها تمت تأليفنا ونسخا قبل هذا التاريخ بزمان غير قصير . كما نعلم الى جانب هذا أن نسخة الاحاطة المطبوعة في مصر أول هذا القرن تحمل في أطوائها وفي سياق بعض تراجمها ما يدل على انها كتبت بعد ذلك التاريخ بزمان غير قصير ، إذ تؤرخ مثلا لبعض الاحداث التي وقعت في سنة ٧٧١ .

وإذا علمنا أن نسخة الاحاطة تلك المهداة الى مصر ليست هي النسخة الأولى ، بل كتب قبلها من نسخ هذا الكتاب ما يقع في نحو نصفها ، علمنا مبلغ التفاوت في نسخ الاحاطة التي صدرت عن المؤلف نفسه . وقد نص على هذا الأمير ابن الأحمر في النصل الذي كتبه عن الاحاطة ، إذ يقول :

« . . . وأخذ في تأليف الاحاطة مستدعيا تصحيح الموالد والوفيات ، والاسماء والمسميات ، ومستكثرا من طرف المصنفات ، ليتيم قصده من الاطباب ، ونقله العيون الرائقة من كل كتاب . والقي جميع مقاصده ، والمعظم من تنظيم فرائده ، بيد الشيخ العمدة ، معلم الجملة منا كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ابي عبد الله الشريشي ، قدس الله تعالى ضريحه . وهذا الشيخ الذي لم يجاوز سن الكهولة في ذلك الوقت هو الذي تولى من المبيضات نقله ، واحكم جنسه وفصله ،

وانتختم على مجلدات ستة • ولما عاد ابن الخطيب الى الاندلس ، بعودة جدنا الغنى بالله تعالى الى ملكه عام ثلاثة وستين وسبعمائته ، تلاحقت الفروع من كتاب الاحاطة بالأصول ، وانجز من التبحر فيه الوعد المطول ، ووضعت بخانقاه سعيد السعداء النسخة المتممة من اثني عشر سفرا »

فها نحن اذن ازاء نسخ ثلاث من كتاب الاحاطة صدرت جميعا عن المؤلف : كتبت أولاها قبل سنة ٧٦٣ ، وكتبت الثانية قبل سنة ٧٦٨ ، وكتبت الثالثة بعد سنة ٧٧١ • ولعل هنالك مما صدر عن المؤلف غير هذه الثلاث • وبين الاولى والثانية من التفاوت ما رأينا • ولا بد أن تتفاوت جميعا على كل حال ، اذ كان الرجل في اصداره لها مؤلفا وليس ناسخا ، واذا كان معنيا بتسجيل احداث عصره والاحاطة بها وملاحقتها •

واذن فالادعاء بان نسخة رواق المعاربة ليست الا قطعة من مختصر الاحاطة ، لان هناك نسخة أخرى تزيد عليها ، ادعاء يعتمد على غير أساس •

وبذلك يسقط ما اعتبره الاستاذ الناشر في هذه النسخة ، مما آخرها عنده عن موضعها ، وأهدر حقها الاصيل في تقويم نص الاحاطة على الأصول العلمية •

طه الحاجري

بنغازي

الاستبصار في عجائب الأمصار

لؤلف مراكشي مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ ، رقم ١٠ من مطبوعات كلية الآداب بجامعة الاسكندرية •

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، ناشر هذا الكتاب ، الفضل في نشر نصف هذا الكتاب لأول مرة في نصه العربي ، وقد شفع هذا الفضل بآخر وهو ترجمة ما نشره عربيا لأول مرة الى اللغة الفرنسية •

وبذلك أتم الدكتور سعد زغلول ما بدأه فون كريمر بالنسبة للنص العربي ، وأتم كذلك ما بدأه فانيان منذ عام ١٩٠٠ بالنسبة لترجمة النص العربي الى اللغة الفرنسية • فاذا ذكر كتاب الاستبصار هذا فلا بد أن يقرن اسم الدكتور سعد زغلول الى جانب اسمي فون كريمر وفانيان لأن دوره وحده في هذا الكتاب يعادل دوريهما معا •

وكان فون كريمر قد عنى بهذا الكتاب منذ أكثر من قرن ، ثم رأى فانيان في أول هذا القرن أن يترجم هذا الكتاب الى الفرنسية ليستفح به من لا يعرفون العربية أو من لا يتقنونها • وفانيان دور مشكور في ترجمة كثير من الكتب العربية الى الفرنسية •

فلما عنى الدكتور سعد زغلول بهذا الكتاب أثناء تحضيره لدرجة الدكتوراه في السربون وجده ناقصا لأن سلفيه العالمين نقلا عن مخطوطات ناقصة ، ووجد الناقص جديرا بالنشر والتسجيل : فقد كان الناقص : قصولا خاصة ببلاد غمارة ، واستقرار الإدارة بالمغرب ، وزندقة برغواطة ، ومدينة سحلماسه ، وبداية العبيدين الفواطم ، ومدن درعة وأغمات ونقيس وتملل ومراكش ، وكذلك الفصول الخاصة ببلاد السوس المتاخمة لبلاد السودان (أنظر ص : أ) • ومن شأن مثل هذا النقص أن يحرمنا من معلومات تاريخية وجغرافية قيمة • ولهذا واصل الدكتور سعد زغلول العناية بالكتاب وجعله رسالته التكميلية • ثم عنى بطبعه وشجعت على ذلك جامعة الاسكندرية حتى خرج الكتاب في ثوب أنيق منشورا على الأصول المصطلح عليها في النشر •

وانختم على مجلدات ستة . ولما عاد ابن الخطيب الى الاندلس ، بعودة جدنا الغنى بالله تعالى الى ملكه عام ثلاثة وستين وسبعمائه ، تلاخقت الفروع من كتاب الاحاطة بالأصول ، وانجز من التبحر فيه الوعد المطول ، ووضعت بخانقاه سعيد السعداء النسخة المتممة من اثني عشر سفرا »

فها نحن اذن ازاء نسخ ثلاث من كتاب الاحاطة صدرت جميعا عن المؤلف : كتبت أولاها قبل سنة ٧٦٣ ، وكتبت الثانية قبل سنة ٧٦٨ ، وكتبت الثالثة بعد سنة ٧٧١ . ولعل هنالك مما صدر عن المؤلف غير هذه الثلاث . وبين الأولى والثانية من التفاوت ما رأينا . ولا بد أن تتفاوت جميعا على كل حال ، اذ كان الرجل في اصداره لها مؤلفا وليس ناسخا ، واذ كان معنيا بتسجيل احداث عصره والاحاطة بها وملاحقتها .

واذن فالادعاء بان نسخة رواق المغاربة ليست الا قطعة من مختصر الاحاطة ، لان هناك نسخة أخرى تزيد عليها ، ادعاء يعتمد على غير أساس .

وبذلك يسقط ما اعتبره الاستاذ الناشر في هذه النسخة ، مما آخرها عنده عن موضعها ، وأهدر حقها الأصيل في تقويم نص الاحاطة على الأصول العلمية .

طه الحاجري

بنغازي

الاستبصار في عجائب الأمصار

مؤلف مراكشي مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ ، رقم ١٠ من مطبوعات كلية الآداب بجامعة الاسكندرية .

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، ناشر هذا الكتاب ، الفضل في نشر نصف هذا الكتاب لأول مرة في نصه العربي ، وقد شفع هذا الفضل بآخر وهو ترجمة ما نشره عربيا لأول مرة الى اللغة الفرنسية .

وبذلك أتم الدكتور سعد زغلول ما بدأه فون كريم بالنسبة للنص العربي ، وأتم كذلك ما بدأه فانيان منذ عام ١٩٠٠ بالنسبة لترجمة النص العربي الى اللغة الفرنسية . فاذا ذكر كتاب الاستبصار هذا فلا بد أن يقرن اسم الدكتور سعد زغلول الى جانب اسمي فون كريم وفانيان لأن دوره وحده في هذا الكتاب يعادل دوريهما معا .

وكان فون كريم قد عني بهذا الكتاب منذ أكثر من قرن ، ثم رأى فانيان في أول هذا القرن أن يترجم هذا الكتاب الى الفرنسية لينتفع به من لا يعرفون العربية أو من لا يتقنونها . وفانيان دور مشكور في ترجمة كثير من الكتب العربية الى الفرنسية .

فلما عني الدكتور سعد زغلول بهذا الكتاب أثناء تحضيره لدرجة الدكتوراه في السربون وجده ناقصا لأن سلفيه العالمين نقلا عن مخطوطات ناقصة ، ووجد الناقص جديرا بالنشر والتسجيل : فقد كان الناقص : قصولا خاصة ببلاد غبارة ، واستقرار الإدارة بالمغرب ، وزندقة برغواطة ، ومدينة سجدماسه ، وبداية العبيدين الفواطم ، ومدن درعة وأغمات ونقيس وتممل ومراكش ، وكذلك الفصول الخاصة ببلاد السوس المتاخمة لبلاد السودان (أنظر ص : أ) . ومن شأن مثل هذا النقص أن يحرمنا من معلومات تاريخية وجغرافية قيمة . ولهذا واصل الدكتور سعد زغلول العناية بالكتاب وجعله رسالته التكميلية . ثم عني بطبعه وشجعتة على ذلك جامعة الاسكندرية حتى خرج الكتاب في ثوب أنيق منشورا على الأصول المصطلح عليها في النشر .

ومؤلف الكتاب مجهول . ولهذا لا نعرف عنه الا ما أورده المؤلف من اشارات الى نفسه أو موطنه أو ظروف تأليف الكتاب .

والمؤلف يقول بنفسه ان الكتاب الذى يقدمه مأخوذ من كتاب أقدم مع تحقیقات واضافات هي كل ما استجد . ثم يمدنا المؤلف بكتاب أوفى . ولا نعلم ان كان قد بر بوعده أم حيل بينه وبين ما كان يطمح فيه . ولكننا نقرر أن الأخذ بالنص عن المؤلفين السابقين كان منهجا علميا معترفا به في جميع العلوم الثقيلة مثل الجغرافيا والتاريخ والتراجم والأخبار الأدبية . ولهذا فنحن نفهم قوله على أنه اراد أن يقرر انه اتبع المنهج السليم المصطلح عليه مع التنبيه على ما أضافه . وقد شرح الخطيب البغدادي أصول المنهج في العلوم الثقيلة في كتابه تقييد العلم ، فارجع اليه .

أما موطنه فالراجح أنه بلاد مراكش ، ووجه هذا الترجيح أن أخباره عن مكناسة وفاس ومراكش تبلغ من الدقة حدا لا يصله الا المقيم بهذه المدن . بل ان المؤلف يتجاوز حد التعريف الى حد رسم الخطط العمرانية لمراكش .

أما عن ظروف تأليف الكتاب ، فان التأليف عاصر سفارة ابن منقذ (٥٨٧/٨) من لدن صلاح الدين الأيوبي الى ثالث خليفة من خلفاء الموحدين وهو المنصور أبو يوسف يعقوب (٥٨٠ — ٥٩٥) . والكتاب مهدى من صاحبه الى الشيخ أبي عمران بن أبي يحيى بن وقتين . ولا نعرف عن المهدى اليه شيئا غير أنه ممن يصلون العلماء والفقهاء شأن الأعيان البارزين ذوى الجاه والثراء . ويظهر من ناحية أخرى أن المؤلف قد اطلع على سجلات الموحدين اما بحكم وظيفته أو بطريقة أخرى . وهذا أمر يزيد به قيمة الكتاب من حيث صحة الأخبار وجديتها .

ويرجح الدكتور سعد زغلول أن يكون المؤلف أحد كتاب الدواوين وهو ابن محشرة القيسى ، ولكنه ترجيح مفتقر الى أدلة أقوى وأصرح .

والكتاب من حيث موضوعه من كتب الجغرافيا العربية . وقد جرى الجغرافيون المسلمون على ترصيع هذا النوع من الكتب بأخبار مختلفة في نوعها فيها غناء كثير في بعض الأحيان . ثم اننا اذا عرفنا ان الكتاب قصر عنايته على الحرمين ومصر

والمغرب عرفنا أنه يجب أن يوضع بين كتب الرحلات المؤلفة لغرض خاص هو انتفاع الحجاج بها ، مع اضافات لا يجب أن نخدعنا عن الغرض الأصلي . ولهذا وصفت المؤلف مناسك الحج وصفا دقيقا مستجيبا لحقيقة هامة لا جدال فيها هي أن هذه التفاصيل عزيزة في قلوب الحجاج كما نعهد فيهم بالتجربة الى اليوم .

وينضاف الى ذلك عنايته بالمدن الواقعة على طريق الحج ، مع ذكر عجائب الأمصار . وأغلب الظن أنها مادة للسمر والتشويق . وأهم من ذلك كله بالنسبة لنا ذكر أخبار المغرب في كثير من الدقة على عهد الموحدين خاصة ، ووصف الآثار التي أنشأها أمراء الموحدين الثلاثة الأوائل وهنا نلمس أن المؤلف معاصر متصل بالحوادث مطلع على السجلات الديوانية .

وينقل المؤلف فيما عدا تحقیقاته الخاصة عن المسعودي (٣٤٥+) وابن وصيف شاه (٣٠٠٠+ تقريرا) وعن ابن عبد الحكم، والبكري والادريسي . وتظهر آثار النقل في ورود اشارات الى أخبار سابقة بكثير على عهد المؤلف .

نشكر الناشر لرجوعه الى مخطوطات جديدة غير مخطوطة فون كريمر التي لا يعرف اليوم مصرها . وقد ذل الناشر العقبات التي لقيها ، برغم أنه لم يجد بين يديه غير مخطوطات متأخرة مملوءة بأخطاء النساخ . وقد استطيع أن أقترح عليه بعض القراءات الخاصة وان تنبه على بعض هنات في كشف الأسماء . ولكن ما يوجد من ذلك تافه لا يذكر بالنسبة لما بذل من مجهود جليل .

محمد عبد الهادي شمسة

ذكرى الامام السنوسي الكبير

٩ صفر ١٣٧٦ = ١٥ سبتمبر ١٩٥٦

يوم يكتب المؤرخون تاريخ ليبيا الثقافي فانهم سيسجلون حتما أن الجامعة الليبية امتداد في شكل جديد لحلقات الجيوب التي أنشأها الامام وأنشأ بها جامعة ذات مستوى عال ، ودرس فيها (وهو من أئمة عصره) فكان أول أستاذ جامعي مفتة ليبيا الحديثة .

وقد مرت مائة عام على وفاته ، فكان على ليبيا أن تحيي هذه الذكرى المشرفة ، لتعزيز المائلة الى اليوم ، والى ما بعد اليوم في قلوب المسلمين ، في أرجاء العالم الاسلامي . وقد عود الله تعالى عباده أن يبعث اليهم على رأس كل جيل من يحيي فبهم السنن القويمة . ففعل الجامعة هي ذلك النور الذي ابثت باذن الله ليهدى أهل هذا الجيل ، ومن حسن الاتفاقات أن يكون خفيد الامام وهو الملك الحالي باعث هذا النور ، فالجامعة احدي مفاخره .

ولهذه الاعتبارات حرصت الجامعة الليبية عند اصدارها لمجلة كلية الآداب والتربية أن تسجل احتفال البلاد بالذكرى المثوية للامام في ٩ صفر ١٣٧٦ وقد ألفت لذلك لجنة عليا وجهت الدعوة لكل البلاد الاسلامية لحضور احتفالات الذكرى وقد رحبت الدول بهذه الدعوة وجاءت الوفود حتى من البلاد البعيدة : مثل اندونيسيا والصين . وبدأت الاحتفالات في طرابلس ثم في بنغازي والبيضاء التي هي أول زاوية سنوسية أسست بالبلاد ، ثم انتهت هذه الاحتفالات بزيارة اعضاء الوفود لضريح الامام ، بالجغبوب . واشتركت الهيئات الليبية كلها في هذه الاحتفالات بطبيعة الحال .

وقد أصدرت اللجنة العليا كراسة صغيرة من ٢٧ صفحة جعلتها ترجمة موجزة للامام وذكرت في الترجمة جميع الروايات السنوسية المعروفة وعددها ١١٠ ، وأصدر كذلك المرحوم الطيب الأشهب كتابه عن « السنوسي الكبير » بهذه المناسبة . وقد أعددت في هذه المناسبة بحثا في نقد المصادر التاريخية الخاصة بالامام .

محمد عبد الهادي شعيرة

استاذ التاريخ الاسلامي بالجامعة الليبية

مواسم المحاضرات العامة

بالجامعة الليبية

ذكرى الامام السنوسي الكبير

٩ صفر ١٣٧٦ = ١٥ سبتمبر ١٩٥٦

يوم يكتب المؤرخون تاريخ ليبيا الثقافي فانهم سيسجلون حتما أن الجامعة الليبية امتداد في شكل جديد لحلقات الجيوب التي أنشأها الامام وأنشأ بها جامعة ذات مستوى عال ، ودرس فيها (وهو من أئمة عصره) فكان أول أستاذ جامعي في ليبيا الحديثة .

وقد مرت مائة عام على وفاته ، فكان على ليبيا أن تحيي هذه الذكرى المشرفة العزيزة الماثلة الى اليوم ، والى ما بعد اليوم في قلوب المسلمين ، في أرجاء العالم الاسلامي . وقد عود الله تعالى عباده أن يبعث اليهم على رأس كل جيل من يحيي فهم السنن القويمة . فلعل الجامعة هي ذلك النور الذي ابثت باذن الله ليهدي أهل هذا الجيل ، ومن حسن الاتفاقات أن يكون حفيد الامام وهو الملك الحالي باعث هذا النور ، فالجامعة احدي مفاخره .

ولهذه الاعتبارات حرصت الجامعة الليبية عند اصدارها لمجلة كلية الآداب والتربية أن تسجل احتفال البلاد بالذكرى المئوية للامام في ٩ صفر ١٣٧٦ وقد ألقت لذلك لجنة عليا وجهت الدعوة لكل البلاد الاسلامية لحضور احتفالات الذكرى وقد رحبت الدول بهذه الدعوة وجاءت الوفود حتى من البلاد البعيدة : مثل اندونيسيا والصين . وبدأت الاحتفالات في طرابلس ثم في بنغازي والبيضاء التي هي أول زاوية سنومية أسست بالبلاد ، ثم انتهت هذه الاحتفالات بزيارة اعضاء الوفود لضريح الامام ، بالجيوب . واشتركت الهيئات الليبية كلها في هذه الاحتفالات طبيعة الحال .

وقد أصدرت اللجنة العليا كراسة صغيرة من ٢٧ صفحة جعلتها ترجمة موجزة للامام وذكرت في الترجمة جميع الزوايا السنوسية المعروفة وعددها ١١٠ ، وأصدر كذلك المرحوم الطيب الأشهب كتابه عن « السنوسي الكبير » بهذه المناسبة . وقد أعددت في هذه المناسبة بحثا في نقد المصادر التاريخية الخاصة بالامام .

محمد عبد الهادي شعيرة

استاذ التاريخ الاسلامي بالجامعة الليبية

مواسم المحاضرات العامة

بالجامعة الليبية

الموسم الاول للعام الجامعى ١٩٥٥ - ١٩٥٦

- ١ - الخميس ١٥ مارس ١٩٥٦
الساعة ٧ مساء
« مذاهب الشعر العربى الحديث »
للأستاذ الدكتور محمد طه الحاجرى
استاذ الأدب العربى
- ٢ - الخميس ٢٣ مارس ١٩٥٦
الساعة ٧ مساء
« موارد المياه فى صحراوات العالم العربى »
(الحلقة الأولى)
للأستاذ الدكتور عبد العزيز طريح شرف
استاذ الجغرافيا
- ٣ - الخميس ٢٩ مارس ١٩٥٦
الساعة ٧ مساء
« موارد المياه فى صحراوات العالم العربى »
(الحلقة الثانية)
للأستاذ الدكتور عبد العزيز طريح شرف
- ٤ - الخميس ٥ أبريل ١٩٥٦
الساعة ٧ مساء
« نظام الثغور فى العالم الاسلامى القديم »
للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة
استاذ التاريخ
- ٥ - الخميس ١٢ أبريل ١٩٥٦
الساعة ٧ مساء
« ليبيا بين المشرق والمغرب فى العالم الاسلامى »
للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة
- ٦ - الخميس ١٩ أبريل ١٩٥٦
الساعة ٩ مساء
« الفلسفة بين مهمة كشف الحقيقة ومهمة
توجيه الحياة »
للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده
استاذ الفلسفة والاجتماع
- ٧ - الخميس ٢٦ أبريل ١٩٥٦
الساعة ٩ مساء
« أهمية الدراسات الاجتماعية من الناحيتين
النظرية والعملية »
للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده

٨ — الخميس ٢٤ مايو ١٩٥٦
الساعة ٧ مساءً
«شكسبير وشمال افريقية» (بالانجليزية)
للأستاذ الدكتور د.ج. وليامز
أستاذ الادب الانجليزي

Prof. Dr. D.G. Williams "Shakespeare and North Africa"

٩ — الخميس ٣١ مايو ١٩٥٦
الساعة ٧ مساءً
«العلاقات الأدبية بين مصر وشمال افريقية»
للأستاذ الدكتور محمد طه الحاجري

١٠ — الخميس ٧ يونيو ١٩٥٦
الساعة ٧ مساءً
«تجربة اصلاح قرية في مصر» (بالانجليزية)
للأستاذ العميد الدكتور و.و. كليلاند

Prof. Dr. W.W. Cleland "An Experiment in Village Reconstruction in Egypt"

الموسم الثاني للعام الجامعي ١٩٥٦ - ١٩٥٧

١ — الاربعاء ٢٧ فبراير ١٩٥٧
الساعة ٧ مساءً
«مذهب النقد في الأدب العربي الحديث»
للأستاذ الدكتور محمد طه الحاجري
استاذ الأدب العربي

٢ — الأربعاء ٦ مارس ١٩٥٧
الساعة ٧ مساءً
«الهالية في الغرب»
للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شعيره
استاذ التاريخ

٣ — الأربعاء ١٣ مارس ١٩٥٧
الساعة ٧ مساءً
«علم الأصوات اللغوية»
للأستاذ الدكتور محمود السعران
أستاذ الأدب العربي

٤ — الأربعاء ٢٠ مارس ١٩٥٧
الساعة ٧ مساءً
«ليبيا في الكتابة الانجليزية» (بالانجليزية)
للأستاذ د.ج. وليامس
أستاذ الأدب الانجليزي

٥ — الأربعاء ٢٧ مارس ١٩٥٧
الساعة ٧ مساءً
«المذاهب الاجتماعية والتطور الاجتماعي»
للأستاذ الدكتور أحمد الخشاب
أستاذ علم الاجتماع

٦ — الأربعاء ٣ أبريل ١٩٥٧
الساعة ٩ مساءً
«مستقبل البترول في العالم»
للأستاذ الدكتور عبد العزيز طريح شرف
أستاذ الجغرافيا

٧ — الأربعاء ١٠ ابريل ١٩٥٧
الساعة ٩ مساءً
«العصر الذهبي للمغرب العربي»
للأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد
أستاذ التاريخ

٨ — الأربعاء ١٧ أبريل ١٩٥٧
الساعة ٩ مساءً
«الإنسان ومركزه في الكون»
للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي أبوريده
أستاذ الفلسفة

٩ — الأربعاء ٢٤ أبريل ١٩٥٧
الساعة ٩ مساءً
«الانتاج الزراعي في الدول العربية»
للأستاذ فهمي الهلالي
أستاذ الجغرافيا

١٠ — الأربعاء ٨ مايو ١٩٥٧
الساعة ٧ مساءً
«ولع الأنجليز بالقصة الشرقية» بالانجليزية
للأستاذ كيرنر
أستاذ الأدب الانجليزي

١١ — الأربعاء ١٥ مايو ١٩٥٧
الساعة ٧ مساءً
«نشأة النظم الدستورية في الشرق الأوسط»
للأستاذ الدكتور مجيد خدوري
عميد الكلية

الموسم الثالث للعام الجامعي ١٩٥٧ - ١٩٥٨

١ — الاحد ١٢ يناير ١٩٥٨
«اتجاهات جديدة في علم الاجتماع»
للأستاذ الدكتور علي أحمد عيسى
استاذ الاجتماع

٢ — الثلاثاء ٢١ يناير ١٩٥٨
ندوة موضوعها
«رؤوس الاموال في البلاد النامية اقتصاديا»
برئاسة الدكتور على نور الدين العيزي
محافظ البنك الوطني الليبي
واشتراك الاساتذة :

- (١) دكتور دلاور على
استاذ الاقتصاد
- (٢) استاذ عيسى عبده
استاذ المحاسبة وادارة الاعمال
- (٣) استاذ نظيم شرابي
مدير البنك العربي — فرع بنغازي
- (٤) استاذ احمد فؤاد ابو النجا
مدير بنك مصر — فرع بنغازي

٣ — الثلاثاء ٣٥ مارس ١٩٥٨
للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريده
استاذ الفلسفة

٤ — الخميس ١٠ ابريل ١٩٥٨
« التخطيط الاقتصادي في البلاد الناشئة »
للأستاذ الدكتور دلاور على
استاذ الاقتصاد

٥ — الخميس ١٧ ابريل ١٩٥٨
« نشأة العالمين الاسلامي والعربي »
للدكتور محمد عبد الهادي شعيره

٦ — الثلاثاء ٢٩ ابريل ١٩٥٨

“The Celtic Background of Western European Culture
By Professor D.G. Williams

٧ — الخميس ١ مايو ١٩٥٨
« أسرار غزو الفضاء »
للأستاذ الدكتور عبد العزيز طريح

٨ — الثلاثاء ٦ مايو ١٩٥٨

« من تاريخ برقة القديم »
للأستاذ الدكتور محمد عواد حسين
استاذ التاريخ القديم

٩ — الخميس ٨ مايو ١٩٥٨
« الاتجاهات الحديثة في التعليم التجاري »
للأستاذ عيسى عبده
استاذ المحاسبة وادارة الاعمال

١٠ — الثلاثاء ١٣ مايو ١٩٥٨
The Cyrenaica Philosophers
By Professor J.G. Warry

١١ — الخميس ١٥ مايو ١٩٥٨
«الحركات الدينية في المغرب العربي الى القرن
الثالث عشر الميلادي »
للدكتور سعد زغلول
مدرس التاريخ الاسلامي

١٢ — الثلاثاء ٢٠ مايو ١٩٥٨
« اصلاح الكتابة العربية »
للدكتور محمود السعران
مدرس الادب العربي

١٣ — الخميس ٢٢ مايو ١٩٥٨
« الليبيون القدماء »
للأستاذ الدكتور ابراهيم احمد رزقانه
استاذ الجغرافيا البشرية

١٤ — السبت ٢٤ مايو ١٩٥٨
«اثر ابن رشد في الفلسفة الغربية في العصور
الوسطى»
للأستاذ الدكتور محمود قاسم
استاذ الفلسفة

١٥ — الثلاثاء ٢٧ مايو ١٩٥٨
Eastern Themes in English Poetry
of the Early 19th Century
By Professor Koerner

Once more he blames his eyes for their false vision.

O me, what eyes hath Love put in my head,

Which have no correspondence with true sight... (Sonnet 148)

He begins to wonder whether the opinion of everyone around him is right after all and whether he is wrong in loving a woman of such unconventional colour.

If that be fair on which my false eyes dote,

What means the world to say it is not so. (Sonnet 148)

Sonnet 152, the last in the sequence written to the dark woman, ends with these bitter words :-

For I have sworn thee fair; more perjured I,

To swear against the truth so foul a lie.

So fairness and foulness are once more presented in ambivalent opposition. Shakespeare has revealed to us the source of this telling contrast of fair and foul, a contrast which he was to remove from the personal experience of love to make one of the basic thought patterns of his writing, nowhere, of course, more impressively than in *Macbeth*.

There may not be sufficient grounds for relating Shakespeare's experience with the dark woman of the Sonnets to his continued interest in North Africans and their skin colour, though the "dun breasts" and "black wires" of Sonnet 130 are significant pointers. Certainly the bitter disillusionment with which that love ended did nothing to impair Shakespeare's sympathy with tawny-skinned characters. From the very beginning to the very end of his career, the interest and the sympathy are there. Shakespeare is unique in English literature in the number of love affairs and marriages between North Africans and Europeans which he puts into his plays.

Gwyn Williams

Note : The Shakespeare Head Press edition of the *Works of William Shakespeare*, 1934, has been used for quotation in this paper.

Once more he blames his eyes for their false vision.

O me, what eyes hath Love put in my head,

Which have no correspondence with true sight... (Sonnet 148)

He begins to wonder whether the opinion of everyone around him is right after all and whether he is wrong in loving a woman of such unconventional colour.

If that be fair on which my false eyes dote,

What means the world to say it is not so. (Sonnet 148)

Sonnet 152, the last in the sequence written to the dark woman, ends with these bitter words :-

For I have sworn thee fair; more perjured I,

To swear against the truth so foul a lie.

So fairness and foulness are once more presented in ambivalent opposition. Shakespeare has revealed to us the source of this telling contrast of fair and foul, a contrast which he was to remove from the personal experience of love to make one of the basic thought patterns of his writing, nowhere, of course, more impressively than in *Macbeth*.

There may not be sufficient grounds for relating Shakespeare's experience with the dark woman of the Sonnets to his continued interest in North Africans and their skin colour, though the "dun breasts" and "black wires" of Sonnet 130 are significant pointers. Certainly the bitter disillusionment with which that love ended did nothing to impair Shakespeare's sympathy with tawny-skinned characters. From the very beginning to the very end of his career, the interest and the sympathy are there. Shakespeare is unique in English literature in the number of love affairs and marriages between North Africans and Europeans which he puts into his plays.

Gwyn Williams

Note : The Shakespeare Head Press edition of the *Works of William Shakespeare*, 1934, has been used for quotation in this paper.

the finest study we have of passionate womanhood.

So the peak has been reached in Shakespeare's interest in North Africans and in the colour of their skin in two great tragedies dealing with North African manhood and womanhood in their finest, most characteristic moods. Shakespeare is nearing the end of his career, but there is yet one more marriage between a North African and a fair European girl to come. The action of *The Tempest* begins with the wreck of the ship which carries the King of Naples and his courtiers back from Tunis, where they have been celebrating the wedding of the King's daughter, Claribel, to the King of Tunis. Once more there are some who disapprove of this kind of match, and Sebastian bluntly blames the King for the disaster which has befallen them.

Sir, you may thank yourself for this great loss,

That would not bless our Europe with your daughter,

But rather lose her to an African... (II i 122-4)

But apart from the distance which separates Tunis and Naples, the King has until now seen nothing wrong in the marriage, and Gonzalo, as though defending the marriage by referring to a similar love story associated with Tunis, harks back to the famous affair of Aeneas and Dido, Queen of Carthage.

So frequent have the signs been of Shakespeare's interest in tawny skin, and so consistently have they recurred, that we may reasonably look for similar signs in his non-dramatic poems, particularly in the Sonnets, the dates of which are unknown but which must have been written over a number of years, during which he was writing for the theatre. There is much reference in the Sonnets to the black beauty of a woman, who is usually contrasted with Shakespeare's fair male friend, her foulness, in more than one sense, opposing his fairness. Once more the warning must be made that her "blackness" may be no more than a tawny, accompanied by black eyes and hair.

The Sonnets, too, show Shakespeare's detestation of cosmetics. We remember Hamlet's contemptuous remark to Ophelia, "God has given you one face, and you make yourselves another." (III i 145-6)¹ In the Sonnets it is the fair friend who requires no painting, and painting is here used metaphorically for flattery.

I never saw you did painting need,

1. I have shown elsewhere how the meretricious nature of the cosmetic art provides one of the central and most significant images in *Hamlet*. *Modern Language Review*, April 1950, pp. 216-8.

And therefore to your fair no painting set. (Sonnet 83)

Shakespeare speaks of "false painting" (Sonnet 67) and calls artificial aids to beauty the "bastard signs of fair" (Sonnet 68). Again using it as a metaphor for flattery, he says,

And their gross painting might be better used

Where checks need blood... (Sonnet 82)

It is later in the generally accepted numbering of the Sonnets that references to blackness or tawnyness appear, for even as late as Sonnet 115 it is time, not the sun, which tans sacred beauty. The change comes in Sonnet 127, the first written to the dark woman, whoever she may have been.

In the old age black was not counted fair,

Or if it were, it bore not beauty's name;

But now is black beauty's successive heir...

In Sonnet 130 there is a realistic astonishment in the way Shakespeare speaks of the woman with whom he is in love.

If snow be white, why then her breasts are dun;

If hairs be wires, black wires grow on her head.

She is certainly no fair-skinned, pink and white beauty, for he goes on to say,

I have seen roses damask'd, red and white,

But no such roses see I in her cheeks.

In the next sonnet, no. 131, he tells her,

Thy black is fairest in my judgment's place.

And Sonnet 132 ends thus,

Then will I swear Beauty herself is black,

And all they foul that thy complexion lack.

But a terrible disillusionment follows a betrayal, the nature of which is not difficult to imagine from what the Sonnets tell us. Shakespeare regrets the lack of judgment which has led him

To put fair truth upon so foul a face. (Sonnet 137)

He makes the situation as clear as is possible in Sonnet 144, which begins,

Two loves I have of comfort and despair...

In his eyes she has now become "a woman colour'd ill" and he speaks of her "foul pride". In Sonnet 147 he is "past cure" and "frantic-mad".

My thoughts and my discourse as madmen's are,

At random from the truth vainly exprest;

For I have sworn thee fair, and thought thee bright,

Who art as black as hell, as dark as night.

Would ever have, t'incur a general mock,
Run from her guardage to the sooty bosom
Of such a thing as thou.....(I ii 71-6)

But Othello's account of his wooing convinces everyone that he used no African witchcraft, and the Duke's comment is :-

I think this tale would win my daughter too. (I iii 171)

But when Iago manages to sow the dreadful seeds of suspicion in Othello's mind that Desdemona is unfaithful to him, Othello is ready to put the blame on his colour, his lack of courtly graces and his age, but first of all his colour.

Happily, for I am black,
And have not those soft parts of conversation
That chamberers have; or, for I am declined
Into the vale of years...(III iii 263-6)

The tragedy moves to its terrible conclusion, Iago's intrigue succeeds, Othello kills Desdemona and then learns the truth. Iago goes to his punishment with the bitter stoicism of Aaron the Moor, but Othello, before killing himself, weeps unaccustomed tears and pathetically associates his folly and his loss once more with difference in colour, for he asks Lodovico, in his report on the affair, to speak of him as he is,

of one whose hand,

Like the base Indian, threw a pearl away
Richer than all tribe...(V ii 347-9)

The final comment on the Moor is that of Cassio :-

For he was great of heart. (V ii 362)

So we have seen greatness of heart, passionate love leading to murderous jealousy, associated with a North African, a Moor, and we can now see what might perhaps have happened if the Prince of Morocco had picked the right casket. These are the elements which Shakespeare was to use again very soon in another Mediterranean and North African tragedy, and if Othello was dark, a black Moor, Cleopatra, for Shakespeare, was a white Moor, a tawny. The Ptolemies, of course, were Greeks, but Shakespeare shows no interest in or even awareness of this fact. For him Cleopatra was a North African queen, passionate, tawny, a gipsy. Ordinary men cannot understand Antony's love for her any more than they could Desdemona's love of Othello. The very first words of the play make that clear and indicate what kind of Cleopatra we are to expect, certainly not the "whitely wanton" who too often appears on the modern stage.

Nay, but this dotage of our general's
O'erflows the measure : those his goodly eyes,

That o'er the files and musters of the war
Have glow'd like plated Mars, now bend, now turn
The office and devotion of their view
Upon a tawny front: his captain's heart
Which in the scuffles of great fights hath burst
The buckles on his breast, reneges all temper,
And is become the bellows and the fan
To cool a gipsy's lust.

Yet this is the love which Shakespeare, in *Antony and Cleopatra*, glorifies with some of his finest poetry.

When Antony is away and Cleopatra thinks he does not love her any more, she is ready, as Othello had been, to put the blame on her colour and her age. (She could never accuse herself of lack of the courtly arts.) She wonders whether he will :-

.....think on me,

That am with Phoebus' amorous pinches black
And wrinkled deep in time? (I v 31-3)

If for the Prince of Morocco the sun was a neighbour and a cousin, for Cleopatra it is a lover, and her swarthy colour is the result of the bruises left by its playful and loving pinches. "With Phoebus' amorous pinches black" is the feminine counterpart of "The shadow'd livery of the burnisht sun", the associations of physical love replacing those of war. But even though in her momentary self-despising mood Cleopatra calls herself black, we must think of her as tawny, of the colour of old bruises, black in the broad Elizabethan sense.

Enobarbus tells us that he once saw Cleopatra "hop forty paces through the public street" (II ii 237). Gypsies were known to the Elizabethans as dancers in the public streets and in a Journal written in 1605, not long before Shakespeare wrote *Antony and Cleopatra*, the Earl of Nottingham speaks of "Gypsies...men and women, dauncing and tumbling much after the Morisco fashion" (O.E.D. *morisco*). Morisco dancing, morris dancing, Morocco, gypsy, Egyptian, the associations are all implied in Enobarbus' account. Nor can Shakespeare handle this subject without recourse to the old fair-foul opposition and its ambiguities. This is what gives point to Anthony's bitter cry :-

This foul Egyptian hath betrayed me. (IV xii 10)

In his anger it seems to him that she has behaved "like a right gipsy", but all is well between them when, a little later, he dies in her arms. If Othello was for Shakespeare the type of North African man, then Cleopatra was North African woman, and Shakespeare's Cleopatra is perhaps

dark-skinned boy, not African this time but Indian, who must have figured prominently in the train of Titania, the Fairy Queen, though since he is given no words to speak, he does not appear in the list of characters. This boy is the cause of the quarrel between Titania and Oberon, which results in all the amusing and dangerous confusions of the plot, and Titania talks about him and his Indian mother with much warmth and poetry.

The fairy land buys not the child of me.
His mother was a vot'ress of my order:
And, in the spiced Indian air, by night,
Full often hath she gossipt by my side;
And sat with me on Neptune's yellow sands,
Marking th'embarked traders on the flood;
When we have laught to see the sails conceive
And grow big-bellied with the wanton wind;
Which she, with pretty and with swimming gait
Following, her womb then rich with my young squire,
Would imitate, and sail upon the land,
To fetch me trifles and return again
As from a voyage, rich with merchandise.
But she, being mortal, of that boy did die;
And for her sake do I rear up her boy;
And for her sake I will not part with him. (II i 123-138)

Yet another case, therefore, of reluctance to give up a dark-skinned child, and evidence of Shakespeare's continuing and sympathetic interest in dark skin colour.

The first really likeable North African in Shakespeare's work is the Prince of Morocco in *The Merchant of Venice*. A stage direction in the First Quarto refers to him as a Tawny Moor and when a flourish of cornets has announced him into Portia's presence his first act of courtship is a poetic and dignified defence of his colour.

Mislike me not for my complexion,
The shadow'd livery of the burnisht sun,
To whom I am a neighbour and near bred.
Bring me the fairest creature northward born,
Where Phoebus' fire scarce thaws the icicles,
And let us make incision for your love
To prove whose blood is reddest, his or mine.
I tell thee, lady, this aspect of mine
Hath fear'd the valiant: by my love, I swear

The best-regarded virgins of our clime
Hath loved it too: I would not change this hue,
Except to steal your thoughts, my gentle queen. (II i 1-12)

He is servant and neighbour and cousin to the sun, is proud of his association with it and despises those whose skin and blood is not warmed by it. Portia is impressed and quietly tells him that by her father's will she is prevented from making her own choice of a husband. Were this not so, she says :-

Yourself, renowned prince, then stood as fair
As any comer I have lookt on yet
For my affection.

Shakespeare rarely misses an opportunity of playing upon the meanings of the word *fair* and its implied antithesis, and Morocco is surely pleased that Portia should make him the compliment of this word.

When it comes to the choice of caskets we are not surprised to find this neighbour of the sun veering towards the sunny metal, gold. His defence of his choice is noble and worthy of Portia, but he chooses the wrong casket, takes his luck like a gentleman and departs with a heavy heart. Her gentle comment is, "A gentle riddance." Of course, she is not sorry, for now the chances are that her husband will be a man of her own colour, and Bassanio is already in her mind. So, before leaving the stage, she remarks :-

Let all of his complexion choose me so.

It is noticeable, however, that her next suitor, the white Prince of Aragon, is dismissed with much more contempt when he in turn has failed.

Thus hath the candle singed the moth.
O these deliberate fools! (II viii 79-80)

So we come to the central study, for which the others were sketches, *Othello*, a tragedy with a North African, for the first time, as hero, a study in Mediterranean psychology, in the contrast between Machiavellian coldness and hot blood, in passion and quickness to jealousy. One remembers what the Prince of Morocco said about his own hot blood. It is clear that Othello is very dark, not just tawny in our present day sense of the word. Roderigo calls him "thick lips" and Iago refers to him as "an old black ram". Brabantio, Desdemona's father, calls him a "foul thief" (note the opposition to fair) and asks :-

Whether a maid so tender, fair, and happy,
So opposite to marriage that she shunn'd
The wealthy curled darlings of our nation,

Aaron scornfully replies :

Why, there's the privilege your beauty bears :
Fie, treacherous hue, that will betray with blushing
The close enacts and counsels of the heart!
Here's a young lad framed of another leer :
Look, how the black slave smiles upon the father,
As who should say, "Old lad, I am thine own".

Aaron kills the Nurse to guarantee her silence and conceives the plan of substituting the fair, new-born child of Muliteus, a Moor married to a European woman, as the Emperor's heir, whilst he secretly brings up his own dark child. As he carries off his little son, he says :

Come on, you thick-lipt slave, I'll bear you hence;
For it is you that puts us to our shifts :
I'll make you feed on berries and on roots,
And feed on curds and whey, and suck the goat,
And cabin in a cave; and bring you up
To be a warrior and command a camp. (IV ii 175-180)

Thinking forward into Shakespeare's later work, it is difficult not to see here a sketch of the infancy of Othello.

The crying of the child betrays Aaron as he conceals it in a ruined building and tries to still it. "Peace, tawny slave." Is he here attempting to lighten the darkness of his offspring, or is this another case of the loose equivalence of black and tawny? Aaron is brought before the triumphing Lucius and manages to save his son's life, partly by confessing his own misdeeds. A Goth, listening to the recital, exclaims,

What, canst thou say all this and never blush? (V i 121)
And Aaron goes, proud and unrepentant, to a terrible death.

In *Love's Labour's Lost*, an early comedy, Shakespeare returns to the commendation of dark skin and to the fact that it does not require artificial colouring. There seems to be no dramatic necessity for this, since Rosaline, the girl in question, is not a negress, nor even a black or a white Moor. Berowne commends a letter "to her white hand" and, in his disgust at having fallen in love, he describes her as :-

A whitely wanton with a velvet brow,
With two pitch-balls stuck in her face for eyes. (III i 193-4)

The word pitch sticks in his mind and a little later we overhear him complaining again about being in love. "I am toiling in a pitch, pitch that

defiles : defile! a foul word." (IV iii 2-3) The King makes matters worse by comparing Rosaline to another black substance :-

By heaven, thy love is black as ebony.
Berowne now jumps to the defence of her colour and the argument appears to pass beyond hair colour to the whole complexion.

Is ebony like her? O wood divine!

A wife of such wood were felicity.

O who can give an oath? where is a book?

That I may swear beauty doth beauty lack,

If that she learn not of her eye to look :

No face is fair that is not full so black. (IV iii 244-250)¹

The King replies with a set of traditional mediaeval associations.

O paradox! Black is the badge of hell,

The hue of dungeons and the stole of night.

Berowne counters with an attack on the whole of the fashion for fairness in woman, a fashion sealed in Shakespeare's day by an unmarried, fair-haired, fair-skinned queen.

O, if in black my lady's brows be deckt,

It mourns that painting and usurping hair

Should ravish doters with a false aspect ;

And therefore is she born to make black fair.

Her favour turns the fashion of the days,

For native blood is counted painting now ;

And therefore red, that would avoid dispraise,

Paints itself black, to imitate her brow.

A chorus of mockery from the king and his courtiers greets this pronouncement.

Dumaine : To look like her are chimney-sweepers black.

Longaville : And since her time are colliers counted bright.

King : And Ethiopes of their sweet complexion crack.

Dumaine : Dark needs no candles now, for dark is light.

But far from being beaten, Berowne still has a telling shot in his locker, the permanence of dark colour in contrast to the ephemeral nature of the cosmetics applied to fair skin.

Your mistresses dare never come in rain

For fear their colours should be washt away.

In another comedy, *A Midsummer Night's Dream*, there occurs a

1. Cf Weever In Byrrham, quoted by G.B. Harris on, Shakespeare at work p. 310.

sonne breent. *Judic. Urines* II ii II b.

Ben Johnson's friend, William Drummond, refers to the "sun-burnt nations of the south" (*Irene* 176) and Middleton in *More Dissemblers Besides Women*, 1623 (V ii), says of an ill-favoured woman, "She's the sun's masterpiece for tawniness."

The adjectives black, swart, swarthy, tawny, and sunburnt could all therefore be used interchangeably to refer to North African skin colour at the time when Shakespeare wrote and could all equally well be used for British skin colour. George Owen, writing of certain swarthy Welshmen in 1603, says that from the age of ten to twenty-four they spent their lives out of doors watching cattle, which gave their skin a North African darkness. "They seeme more like tawney Moores, then people of this lande." (*Description of Pembrokeshire* V 42.)

People dressed and disguised as Moors often gave colour and contrast to courtly entertainments during the second half of the 16th century. At a court masque in 1559 there were six Moors dressed in black velvet, at the entertainments given for Queen Elizabeth at Kenilworth in 1575, which may not inconceivably have been seen by Shakespeare, there was a blackamoor orchestra, and at Lord Unton's wedding in 1580 the torch-bearers were five pairs of cupids, naked children, five black and five white. But it was Shakespeare who first brought North Africans seriously and sympathetically into English drama, as persons that is, not as the black devils of medieval religious drama.

We meet Shakespeare's first North African in *Titus Andronicus*, one of his first experiments in tragedy. Aaron the Moor is the follower and lover of Tamora, Queen of the Goths. (Later, in *Othello*, Shakespeare gives us another study in almost absolute evil in the character of Iago, loosely repeating the Titus Andronicus-Aaron pattern in the Othello-Iago, but with the skin colour reversed, the Moor now noble and the Italian vicious.) In his first speeches Aaron makes clear to us his proud, lustful, scheming nature. Nor is his colour left in any doubt. He refers to his own "fleece of woolly hair", Bassianus calls him a "swarthy Cimmerian," Lavinia talks of Tamora's "raven-coloured love" (all in II iii 24-84), and when Aaron brings good news, Titus Andronicus exclaims,

Did ever raven sing so like a lark? (III i 159)

In the tradition of the old religious plays, Aaron's colour accords with his character and, in his contempt for the truthfulness of Titus Andronicus, he himself sums the matter up :

Let fools do good and fair men call for grace,
Aaron will have his soul black like his face. (III i 205-6)
Later there is talk of...

.....a black ill-favoured fly
Like to the empress' Moor... (III ii 70-71)
and...

.....a fly
That comes in likeness of a coal-black Moor. (III ii 82-3).
There is no doubt, therefore, in our minds that Aaron is a "black", not a "white", Moor.

It is the more surprising, since this is so, that Shakespeare allows Aaron to defend his colour in such a convincing and admirable way. When Tamora has a child by Aaron and it turns out to be black, the Nurse, following the old tradition, calls it a devil, exclaiming,

A joyless, dismal, black and sorrowful issue :
Here is the babe, as loathsome as a toad
Amongst the fairest breeders of our clime :
The empress sends it thee, thy stamp, thy seal,
And bids thee christen it with thy dagger's point. (IV ii 70-3)

It is at this point that we begin to feel sympathy for the otherwise repellent Aaron. He cries out, "Is black so base a hue?" and we must admire the pride and spirit with which he prepares to defend his son.

At this point in the play occur two very interesting ideas connected with dark skin, first that it is superior to white skin in not betraying the secrets of the heart with blushes, and second that it requires no artificial colouring to beautify it, ideas to which Shakespeare was to return in other works, thus showing that they were of special interest to him. Aaron turns with anger and contempt on Tamora's two grown-up white sons, who threaten to kill the newborn child.

Ye white-limed walls! ye alehouse painted signs!
Coal-black is better than another hue
In that it scorns to bear another hue;
For all the water in the ocean
Can never turn the swan's black legs to white,
Although she lave them hourly in the flood. (IV ii 99-104)

And a little later, when Chiron says :
I blush to think upon this ignomy

wise as white as her husband, though of course very few so-called white people are really white.

During the 16th century the words black and Moor were so often used together that by 1581 we find them fused into the word blackamoor, which passes into common use by late Elizabethan writers. Andrew Boorde, the traveller, in his *Boke of the Introduction of Knowledge*, xxxvi 212, 1547, reports a man as saying, "I am a blake More borne in Barbary." And he explains, "Ther be whyte Mores and black Moors", meaning that the skin colour of North Africans varies from fair to dark¹.

Purchas' *Pilgrimage*, 1613 (p. 687), distinguishes between the inhabitants of the North African or Barbary coast and those of the African hinterland, in referring to "The Sea coast Moores, called by a general name Baduini." This distinction accords with Boorde's white and black Moors, but it was rarely observed once the term blackamoor was indiscriminately used for all the inhabitants of North Africa and the word black became interchangeable with tawny, swarthy, tanned or dark-complexioned.

When Gloster in Shakespeare's *Richard III* (I. ii. 158) calls Clifford black-faced, he does not mean that he is a negro, nor is that the suggestion in the following dialogue in *Two Gentlemen of Verona* (V. ii. 8-12). Thurio is a rather silly young Italian gentleman and there is no question of his not being "white".

Thurio : What says she to my face?

Proteus : She says it is a fair one.

Thurio : Nay, then, the wanton lies; my face is black.

Proteus : But pearls are fair; and the old saying is,

Black men are pearls in beauteous ladies' eyes.

In other words, if gentlemen prefer blondes, ladies are apt to prefer dark-skinned and dark-haired men. Then again in *Othello* (II. i. 130-132), the phrase "black and witty" is the used to describe a woman in contrast to "fair and wise", black clearly meaning dark-haired or dark-skinned, though of course this playful exchange between Des-

1. Libyans were specifically included under the term Moor in W. Watreman's *Fardle Facions*, 1555 (I. iv. 48). "The reste of the people of Libya westward...are called Maures, or Moores." This work on the peoples of Asia and Africa was a partial translation of Joannes Boemus' *Repertorium Librorum Trium De Omnibus Gentium Mores, Leges & Ritus*, Augsburg, 1520.

demona and Iago carries undertones of awareness of Othello's blackness and of the intermarriage of colour about which the play turns. Shakespeare thinks metaphorically of night as a dark-haired woman, so that we have "black browed night" (*MND* III. ii. 387) and "the black brow of night" (*KJ* V. vi. 17), but not as a negress. *Sonnet XXVIII* has "swart-complexiond night" and when death is conceived as a dark woman the image carries passionate overtones.

.....If I must die,

I will encounter darkness as a bride

And hug it in my arms. (*M for M* III. i. 82-4)

Just as it is clear that from the 17th century on the word black came gradually to be limited as a colour adjective to its present day meaning, so also there are signs in the 16th century that the word swart, which had previously meant black (cf. German *schwarz*) was being used in the looser sense of brown, sunburnt or tawny, interchangeably with black. In Hylton's *Scala perfeccionis*, 1395 (II xii), we already find the word swart associated with sunburn. "Beholde me not that I am swart for the sonne hath defaded me!" But in the 1533 edition of this work *swart* was replaced by *blacke*. We have already noted Shakespeare's "swart-complexiond night". When Dromio of Syracuse (*Com. of Err.* III ii 100-101) is asked about the complexion of the kitchen-maid who pursues him, he answers "Swart, like my shoe." He means not black, but the colour of tanned leather, and it is the process of tanning leather with oak chips that has given us the words tan, tanned and tawny as colour words for skin. In 1613, William Browne similarly refers to the "swart ploughman" (*Britannia's Pastorals* I iv). Yet Shakespeare uses swarth, a variant of swart, to describe the very dark Aaron in *Titus Andronicus* (II iii 72), "your swarth Cimmerian", and the word swarthy for an Ethiop in *Two Gentlemen of Verona* (II vi 26). Ben Jonson calls Egypt swarthy in *The Poetaster*.

The association of swarthinness of skin with the burning effect of the sunⁱⁱ was a commonplace in the 16th century. The Oxford English Dictionary gives the following quotation : c. 1530 Men of Ehyoppe, that are

i. Cf. The Prince of Morocco's first words in *M of V*, II i 1-2
Mislike me not for my complexion,
The shadow'd livery of the burnisht sun.

ii. The Old English *blæc* or *blac* was perhaps connected with the old verb *blackan* - to burn or scorch, cognate with the Greek *phlebo* - burn. This is very close to O.E. *blæcan* and *blæc* - pale, which has given us *bleach*. Is this another cause for colour confusion, and the reason why Hylton, see above, said *defaded*, not *burnt*, by the sun?

SHAKESPEARE'S INTEREST IN SKIN COLOUR

I have attempted elsewhere¹ to suggest an emotional background to Shakespeare's interest in dark skin, an experience of love and lust out of which came the complex antithesis of fair and foul which gave him one of the central patterns of his thinking and changed the old alliterative and simple opposition into the telling paradox that fair can be foul and foul fair. In this paper I intend to analyse in more detail Shakespeare's use of adjectives of skin colour, particularly when applied to North Africans, his animadversions on the use of cosmetic art on white, as opposed to dark, skins, and the warmth of his reference to sunburnt skin which, though dramatised and made to fit a character like everything else in his plays, would appear to reveal a sympathy on the dramatist's part with North African skin colour.

Colour adjectives are tricky things to deal with, perhaps because no two persons see exactly the same colour, perhaps simply because words change their meaning over the centuries, and whereas a change of direction in the meaning of such words as charity or revolution might not be perceptible to the ordinary speaker of the language, a change in such common concepts as whiteness and blackness would puzzle anyone, so that to find the word black used to describe red wine or a pretty Englishwoman might come as something of a shock. It is important therefore for us at the start to realise what Shakespeare and his contemporaries could mean by the word black, the connotation of which has become narrowed by today.

As early as the 11th century this word was used to describe a person with dark hair or a dark complexion. Later, it was loosely used for non-European races who might be far from black in colour. Thus the late 14th century poem *Sir Ferumbas* describes the Saracens as black (l. 2785). In Pepy's *Diary* (30 April 1661) we find the lively author speaking of a Mr. Hater and his wife and saying, "I found her to be a very pretty, modest, black woman." There is no suggestion that the pretty Mrs. Hater was a negress. She was simply black-haired, but other-

¹ Shakespeare and Black Beauty. Personal Landscape, Poetry London 1945.

UNIVERSITY OF LIBYA

**BULLETIN OF
FACULTY OF ARTS & EDUCATION
BENGHAZI**

VOLUME I

1958

NATIONAL PRESS BENGHAZI